دراسة

في

علم العقيدة الإسلامية

في ضوء الكتاب والسنّة

تأليف

أحمد علي الملّا

خطيب جامع الفتح بدمشق

مجاز في الحقوق من جامعة دمشق

الطبعة الأولى
١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

يطلب من دار اليمامة : دمشق - برامكة - جانب الهجرة والجوازات
هاتف : ٢٤٣٢٤٥ - ص. ب. : ٣٧٧
ومن المؤلــف : دمشق - ص. ب. : ٥١٣١
هاتف : ٧٧٣٧١٩


دراسة
في
علم العقيدة الإسلامية
في ضوء الكتاب والسنة

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ
لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾
۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ
أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ
﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ
بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ
عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ

﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ
أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ
وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ
بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ
مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ
قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

الإهـــداء

إلى من خاطبه الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم:

- ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[1].
- ﴿ وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين ﴾[2].
- ﴿ يا أيها النبيّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾[3].
- ﴿ وإذا سألك عبادي عنّي فإني قريب، أجيب دعوة الداع إذا دعان، فليستجيبوا لـي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾[4].
- ﴿ قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد ﴾[5].
- ﴿ ولله المشرق والمغرب، فأينما تـولّوا فثمّ وجـه الله، إن الله واسع عليم ﴾[6].
- ﴿ . . . ليس كمثله شيء وهو السّميع البصير. له مقـاليد السمـوات والأرض، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إنه بكل شيء عليم ﴾[7].

---

(١) سورة القلم: /آية (٤).
(٢) الأنبياء: /١٠٧.
(٣) الأحزاب: /٤٥.
(٤) البقرة: /١٨٥.
(٥) سورة الإخلاص.
(٦) البقرة: /١١٥.
(٧) الشورى: /١١ - ١٢.

● ﴿ فاعلم أنه لا إلّه إلا الله... ﴾[1].
● ﴿ هو الحيّ لا إلّه إلا هو، فادعوه مخلصين له الدين؛ الحمد لله ربّ العالمين. قل إنّي نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله، لمّا جاءني من البيّنات من ربّي، وأمرت أن أسلم لربّ العالمين ﴾[2].

أهدي هذا الكتاب، راجياً من الله سبحانه وتعالى القبول، وأن يجمع قلوب المسلمين على الهدى والتّقوى، على توحيده الصحيح، وإخلاص العبوديّة له سبحانه، وعلى الأسوة الحسنة برسوله الصادق الأمين محمد صلى الله عليه وسلم، وأن يأخذ بأيدينا جميعاً إلى الاستقامة على طاعته، واتباع رضوانه، إنه سميع مجيب.

---

(١) محمد: /١٨.
(٢) غافر: /٦٤ ـ ٦٥.

لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك
ان الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك



قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم

● ﴿هو الحيُّ، لا إله إلاَّ هو فادعوه مخلصين له الدين، الحمدلله ربِّ العالمين﴾.

● ﴿قل إنَّني هداني ربي إلى صراط مستقيم. ديناً قيماً، ملَّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين﴾.

● ﴿من كان يريد العزَّة، فللَّه العزَّة جميعاً، إليه يصعد الكلم الطيِّب، والعمل الصالح يرفعه...﴾.

● ﴿وإذا سألك عبادي عنِّي فإني قريب، أجيب دعوة الداع إذا دعان، فليستجيبوا لي، وليؤمنوا بي لعلَّهم يرشدون﴾.

● ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتَّقوا، لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾.

● ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله، وما نزل من الحق...﴾.

● ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين﴾.

● ﴿الرحمن. علَّم القرآن، خلق الإنسان، علَّمه البيان﴾.

● ﴿يس. والقرآن الحكيم. إنك لمن المرسلين. على صراط مستقيم. تنزيل العزيز الرحيم﴾.

● ﴿ولقد كتبنا في الزّبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون. إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين. وما أرسلناك إلاَّ رحمة للعالمين. قل إنَّما يوحى إليَّ أنَّما إلٓهكم إلٓه واحد فهل أنتم مسلمون﴾.

التوحيد والإيمان والإسلام
في حديث رسول الله ﷺ

● عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفَّيه على فخذيه، وقال: يا محمد! أخبرني عن الإسلام. قال: «الإسلام أن تشهد أن لا إلّه إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال: صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدِّقه! قال: فأخبرني عن الإيمان: قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه» قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: «أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك». قال: فأخبرني عن الساعة. قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: «أن تلد الأمة ربَّتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشّاء يتطاولون في البنيان».

قال: ثم انطلق، فلبث مليّاً ثم قال لي: يا عمر! أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنَّه جبريل أتاكم يعلِّمكم دينكم». رواه الإمام مسلم.

● «عن معاذ قال: قلت يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني من النار. قال: لقد سألت عن أمر عظيم، وإنه ليسير على من يسّره الله تعالى عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحجّ البيت، ثم قال: ألا أدلّك على أبواب الخير؟ الصوم جُنّة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم تلا: ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع . . . ﴾ حتّى بلغ ﴿ . . . يعملون ﴾ ثم قال: ألا أدلّك برأس الأمر وعموده، وذروة سنامه؟ قلت بلى يارسول الله. قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد. ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه فقال: كفّ عليك هذا، فقلت يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلّم به؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكبّ الناس في

النار على وجوههم (أو على مناخرهم) إلاَّ حصائد ألسنتهم». رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه.

أجل ـ الإسلام طاعة كاملة، وانقياد (طوعي) لحكم الله. والإيمان هو هذا الانسجام بين قناعة الفكر واطمئنان النفس، واستعداد الإرادة، واستقامة السلوك على طاعة الله الواحد الأحد (فكراً وعاطفة، وإرادة، وسلوكاً) أما الإحسان (كما وصفه لنا رسول الله ﷺ) فإنَّه هذا الشعور السامي من الوعي الوجداني الذي يعبِّر عن صفاء النفس وطهارة القلب والروح، بما يؤهل المؤمن لعبادة الله الكاملة، ليعبد الله على صعيد إخلاص العبودية له سبحانه، وكأنَّه يراه، اللهم وفقنا لما تحب وترضى، آمين.

(تصدير)

علم العقيدة الإسلامية، حقائق ثابتة، تعدُّ من أعلى المعارف الإنسانية، إن لم تكن أعلاها على الإطلاق ومفهوم الإيمان والعقيدة ينتظم ستة أمور:

أولاً ـ المعرفة بالله، والمعرفة بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، والمعرفة بدلائل وجوده، ومظاهر عظمته في الكون والطبيعة.

ثانياً ـ المعرفة بكتب الله التي أنزلها لتحديد معالم الحق والباطل والخير والشر والحلال والحرام والحسن والقبيح.

ثالثاً ـ المعرفة بأنبياء الله ورسله، الذين اختارهم ليكونوا أعلام الهدى، وقادة الخلق إلى الحق.

رابعاً ـ المعرفة بما وراء الطبيعة، أو العالم غير المنظور، من ملائكة وجنّ وما إلى ذلك.

خامساً ـ المعرفة باليوم الآخر، وما فيه من بعث وجزاء، وثواب وعقاب، وجنَّة ونار.

سادساً ـ المعرفة بالمخطط العامّ للقضاء والقدر، والذي يسير عليه نظام الكون في الخلق والتدبير.

يهدف (علم العقيدة الإسلامية)، إلى تهذيب السلوك، وتزكية النفوس، وتوجيهها نحو المثل الأعلى، نحو التخلُّق بأخلاق الله سبحانه وتعالى، وبأخلاق أنبيائه ورسله الأطهار.

وقد حدَّثنا الإمام أبو حنيفة النعمان رضي الله عنه، عن هذا العلم، بأنَّه (الفقه الأكبر) وهو أساس الفقه في دين الله عزَّ وجل.

علم العقيدة الإسلامية هو المقدمة الطبيعيـة لإحراز هذه المعارف المشار إليها أعلاه، ولإعداد الطالب المسترشد لاجتياز (العملية التـربويـة ـ في نظام الإسلام)، أعني تربية العقل والوجدان، على اتباع رضوان الله، وباجتياز هذه العملية التربوية بنجاح، ينال الطالب (الصادق ـ المخلص) مؤهل الإيمان (علمياً ـ وتربوياً) فقهاً لكتاب الله ـ واتباعاً لسنة رسول الله ﷺ وكما قال الله سبحانه:

● ﴿وقد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ المؤمنون: /١ ـ ٢.

● ﴿قد أفلح من تزكّى. وذكر اسم ربِّه فصلَّى﴾ الأعلى: /١٤ ـ ١٥.

● ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيَّدهم بروح منه..﴾ المجادلة: /٢٢.

في هذا (التصدير)، سنتحدَّث معاً عن الفقرة السادسة (أعلاه) في مفهوم العقيدة والإيمان، عن بعض الملامح الأساسية للنظام العام في الخلق والتدبير، والتي لا بدَّ للباحث أن يقف عندها، لتكون فكرة النظام العام واضحة في ذهنه تماماً.

لقد تحدثنا عن النظام العام الإلّهي في الخلق والتدبير (بشيء من التفصيل) في خاتمة الكتاب وإنما نشير في هذا التصدير الموجز إلى الخطوط العريضة فقط، تأكيداً لبعض الملامح الأساسية، التي رأينا ضرورة عرضها بإيجاز، توضيحاً للفكرة الأساسية لهذا النظام العام.

والملامح الأساسية (للنظام العام الإلّهي في الخلق والتدبير)، والتي نريد أن نتحدث عنها بإيجاز هي التالية:

● توحيد الله تعالى (كمحور للنظام العام).
● إرادة الله المطلقة (بالنسبة لطبيعة النظام العام).
● ماذا يعني (سبق الكتاب ـ بالنسبة للنظام العام).

● إرادة الله التنظيمية، تحمل قابلية التعديل.
● الإيمان - بين قوة الوعي الإنساني - وقوة الأمر الإلّهي.
● ماذا يعني العلم الإلّهي في نظامه العام للخلق والتدبير، وسنتحدث عن كل فقرة فيما يلي:

أ - توحيد الله تعالى (كمحور للنظام العام):

يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

● ﴿شهد الله أنه لا إلّه إلاَّ هو، والملائكة، وأولوا العلم، قائماً بالقسط، لا إلّه إلاَّ هو العزيز الحكيم﴾ آل عمران: /١٨.

● ﴿إنَّما إلّهكم الله الذي لا إلّه إلاَّ هو، وسع كل شيء علماً﴾ طه: /٩٨.

فالآية الأولى - جمعت بين توحيد الله - وبين حكمته وعدالته.

والآية الثانية - جمعت بين توحيد الله - وبين علمه الكامل الشامل. فالتوحيد إذن (محور النظام العام).

ب - إرادة الله المطلقة (بالنسبة لطبيعة النظام العام):

النظام العام الإلّهي في الخلق والتدبير، يعبِّر (في الأصل) عن إرادة الله التنظيمية، في ربط الأسباب بالمسبّبات (والمقدمات بالنتائج)، وهذا ما جرى عليه الاصطلاح بقانون السببيَّة.

إلاَّ أن إرادة الله المطلقة (إرادة المنظّم)، تظهر لنا في صورة (الاستثناء - من القاعدة) كما يلي:

● ﴿إنَّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ يّس: /٨٢.

● ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ الأنبياء: /٦٩.

● ﴿... من ذا الذي يشفع عنده إلاَّ بإذنه..﴾ البقرة /٢٥٤.

ذلك لنعلم، ونعتقد اعتقاداً جازماً، أن الفاعليَّة والتأثير، في نهاية المطاف، ليست عائدة إلى طبيعة النظام العام، وإنما هي (أي الفاعلية والتأثير) مرتبطة (بإرادة المنظم المطلقة).

جـ ـ ماذا يعني (سبق الكتاب) بالنسبة للنظام العام:

(سبق الكتاب) بالنسبة للنظام العام، يعني إرادة الله التنظيمية، في ربط الأسباب بالمسبّبات، والمقدمات بالنتائج (في سابق علم الله سبحانه)، وقد أفضنا في شرح هذا المعنى في بحث القضاء والقدر.

د ـ إرادة الله التنظيمية ـ تحمل قابلية التعديل:

إنَّ قابلية التعديل هي المشار إليها في قوله تعالى:

● ﴿لكل أجل كتاب. يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ الرعد: /٣٨ ـ ٣٩.

● ﴿إنَّ الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم. . .﴾ الرعد: /١١.

في هاتين الآيتين ـ يحدثنا الله سبحانه، أن ما يجريه الله من تغيير على عباده (من مكافأة ـ إلى مؤاخذة) أو بالعكس. مسبوق بما يحدثونه هم في أنفسهم من تغيير (من استقامة إلى انحراف ـ أو بالعكس) ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

● ﴿فلولا أنه كان من المسبِّحين. للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ الصافات: /١٤٣ ـ ١٤٤.

وقد أتينا على شرح هذا المعنى (قابلية التعديل) بشيء من التفصيل (في بحث القضاء والقدر).

الإيمان ـ بين قوة الوعي الإنساني ـ وقوة الأمر الإلّهي (بإرادته المطلقة سبحانه):

قال الله تعالى في كتابه الكريم:

● ﴿قل فللّه الحجّة البالغة، فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ الأنعام: /١٤٩.

● ﴿ولو شاء ربُّك لآمن من في الأرض كلّهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ يونس: /٩٩.

في هاتين الآيتين الكريمتين ـ تظهر لنا إرادة الله التنظيمية، في منح الإنسان (هدايته ـ للإيمان) وأن هذه المنحة من الله سبحانه، ما كانت، ولا تكون (بقوة الأمر المطلق ـ منه سبحانه وتعالى)، وإنما اقتضت حكمته وإرادته التنظيمية أن

تكون هذه المنحة ـ وهذه الهداية ـ بقوة الوعي العلمي التربوي من الإنسان (الصادق ـ المخلص).

وهذا المعنى، حجَّة الله على ابن آدم، حيث منحه الإرادة والاختيار الحرّ، في صياغة سلوكه وتقرير مصيره. ولو شاء الله سبحانه، لتصرَّف ـ في هذه المنحة ـ (بإرادته المطلقة ـ وقوة الأمر) وحينئذٍ تكون منحة الهداية للعموم، ومن وراء ذلك سلب الإرادة والاختيار من الإنسان، ولا حاجة عند ذلك (للأمر والنهي)، أو لإرسال الأنبياء، بل لا حاجة للثواب أو العقاب.

ولكنه سبحانه ـ وكما ذكرنا ـ جعل إرادته التنظيمية (في منح هدايته للإيمان)، بناء على اختيار الإنسان الحرّ، ورغبته في حيازة هذه المنحة (بالوعي العلمي التربوي ـ بجهاد النفس والهوى) كما قال سبحانه:

● ﴿والذين جاهدوا فينا، لنهدينَّهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين﴾ العنكبوت: /٦٩.

ماذا يعني علم الله سبحانه وتعالى ـ في نظامه العام للخلق والتدبير:

يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

● ﴿ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض، ما يكون من نجوى ثلاثة إلاَّ هو رابعهم، ولا خمسة إلاَّ هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلاَّ هو معهم أينما كانوا، ثم ينبِّئهم بما عملوا يوم القيامة، إنَّ الله بكل شيء عليم﴾ المجادلة: /٧.

● ﴿يا بنيّ إنَّها إن تك مثقال حبة من خردل، فتكن في صخرة، أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله، إنَّ الله لطيف خبير﴾ لقمان: /١٦.

فعلم الله سبحانه (كاشف ـ واصف) للأحداث. في الماضي والحاضر والمستقبل، ويسري هذا العلم وهذا الاطلاع، على دقائق الأمور على الإطلاق.

وهذا العلم ـ الكاشف الواصف ـ لأبعاد الزمان والمكان ـ لا ينال من حريّة الإرادة والاختيار عند الإنسان بل يتبع ـ بإذن الله ـ الإرادة التنظيمية ـ (بالكشف ـ والوصف)، والمقارنة للنتائج بمقدماتها، والأسباب بمسبباتها (أي في سابق علم

الله سبحانه وتعالى)، وهو ما عبَّرنا عنه آنفاً بـ (سبق الكتاب)، في الفقرة (جـ) من هذا التصدير.

هكذا يمنح النظام العام الإلّهي في الخلق والتدبير الإنسان حريّة الإرادة والاختيار، ليصوغ سلوكه بنفسه، ويقرِّر مصيره باختيارة الحرّ، وليكون دائماً حريصاً على تعديل اتجاهه، بما ينسجم مع حكمة الله ورحمته وعدالته، وصراطه المستقيم، واتباع رضوانه سبحانه وتعالى.

وبعد أن أتينا على ذكر هذه الملامح الأساسية للنظام العام الإلّهي للخلق والتدبير - والتي لا بد للباحث أن يقف عندها في معرض اطلاعه على علم العقيدة الإسلامية، نستطيع أن نقول أن الجبر (من الله سبحانه وتعالى - على الهداية أو الضلال) منفيّ مطلقاً في مخطَّط القضاء والقدر. وهذا من عظمة الله سبحانه وتعالى (في علمه وقدرته وإرادته وسائر صفات كماله) في منح هذا المخلوق (الإنسان) القوة الواعية والإرادة الحرة، ليكون مكلفاً ومسؤولاً، ومؤهَّلاً لتكريم الله له إن وفّق لطاعته وفاز بهدايته للإيمان الحقّ.

وفي ختام هذا التصدير، يطيب لنا أن نتوجَّه إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء والرجاء، **أن يشرح صدورنا للإسلام** متمثلين قول الله عز وجل:

● ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربِّه..﴾.

وأن يوفِّقنا أن نتمثَّل آيات الكتاب الكريم، ونهج السنّة النبوية القويم (فكراً، وعاطفة، وإرادة، وسلوكاً) وأن يجعل حظّنا من الكتاب والسنة، حسن المعرفة بالله، وحسن الاستقامة على طاعة الله، وحسن الصبر على أمر الله، وحسن الاتباع لرضوان الله. ما أجمل الإيمان يجدِّد في المؤمنين فهم معاني القرآن...

هذه آية كريمة... من كتاب الله الكريم:

● ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق...﴾.

أقلّ ما تستدعي منّا هذه الآية الكريمة وأمثالها من مشاعر اليقظة الإيمانية، أنها عتاب الأحباب من الله عز وجل إلى أهل الإيمان الحق، لتكون قلوبهم على مستوى الخشوع لذكر الله، ولتكون عقولهم على مستوى التقوى والتعظيم لأمر الله

وحسن الفهم لآيات القرآن وما نزل من الحق، حين يتوجَّه كل واحد منهم بقلبه وعقله إلى الله بالدعاء والرجاء. . . **اللهم أسألك قلباً يحبّك ويخشاك، وسلوكاً يتّبع رضوانك وكمال طاعتك.**

أمّا هذه الآية الكريمة:

● ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربَّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه. . .﴾.

فإنَّها تستثير من نفوسنا الإرادة الحازمة، والعزيمة الصادقة، لنلتزم الجماعة المؤمنة التي رفعت شعار الإخلاص لله، لنكون دائماً ـ بتوفيق الله ـ على مستوى عناية الله وتوفيقه، وإعلاء كلمته، وخدمة دعوته.

هكذا توجِّهنا آيات الكتاب ونهج السُّنة النبوية، إلى تربية الإنسان الفاضل، وبناء الأسرة المتآلفة السعيدة، إلى إقامة الدولة الراشدة، لحراسة العقيدة، وتنمية الوعي الاجتماعي، وتحقيق الأخوّة الإنسانية.

إنَّها رسالة الإسلام، هدية السماء إلى الأرض، رسالة الرحمة والسعادة، للإنسان والإنسانية. ما أجمل آيات القرآن، وما أعذب نداء الرحمن، يوقظ أهل الإيمان بمشاعر الوعي العلمي التربوي الصحيح إعدادا واستعدادا للمستقبل. . .

● ﴿واتَّقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله، ثم توفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾.

أجل ـ يطيب لنا في ختام هذا التصدير أن نتوجَّه إلى الرحمن (الذي علَّم القرآن) بالدعاء والرجاء «اللهمَّ حبّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من عبادك الراشدين. اللهم أقبل بقلوبنا على طاعتك، وحُطْ من ورائنا برحمتك، يا حيّ يا قيّوم برحمتك نستغيث. اللهم رحمتك نرجو (يا أرحم الراحمين) فلا تكلنا إلى أنفسنا (واتباع أهوائنا) طرفة عين ولا أقل من ذلك وأصلح لنا شأننا كلّه، لا إله إلاَّ أنت نستغفرك ونتوب إليك.

اللهم (يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه، إنَّ الله لا يخلف الميعاد) اجمع قلوبنا على محبّتك، وألهمنا دوام ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وخذ بأيدينا إلى الاستقامة على طاعتك، واتباع رضوانك، إلى متابعة رسولك محمد ﷺ في الأقوال والأفعال والأحوال، إنَّك سميع مجيب، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيِّدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد - الإسلام رسالة (علمية - تربوية)، رسالة الرحمة والسعادة للإنسان والإنسانية، إنَّها شريعة الله - ومنهاجه في الحياة، ارتضاه الله لعباده المؤمنين ليكونوا خلفاءه في أرضه، يمثلون بسلوكهم حكمة الله ورحمته وعدالته (كلمته العليا)، حين يفقهون عن الله مراده، ويعملون بطاعته.

الإسلام تعريف بالخالق العظيم، وتوجيه تربوي نحو صراطه المستقيم، نحو قانونه في الحياة وسنّته في الوجود. لقد أراد الله الحياة لنا حرَّة كريمة (تكليفاً - ومسؤولية)، إخاء وتعاوناً، وتنافساً شريفاً في سبيل الحياة الأفضل، وجعل الثقة والإيمان به والاعتصام بهديه سبحانه نوراً هادياً إلى السعادة، لمن اتبع رضوان الله. قال الله تعالى:

● ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ المائدة: /١٥ - ١٦.

غاية الإسلام - تربية الإنسان على الإيمان الصادق، والعبادة الصحيحة، على حب الله ونفع الآخرين وتنظيم العلاقات الاجتماعية على هدي الحكمة والرحمة والعدالة، كما جاء بحديث رسول الله ﷺ:

● «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به».

يمثل المعتقد الديني في الإسلام القوة (المحركة - الدافعة) إلى العمل

الصالح، انطلاقاً من النيّة الصالحة، بينما يمثّل العلم (المرتكز الفكري) عنصر الإرادة والتخطيط للغاية والهدف.

ولقد أعلن الإسلام غاية الإنسان في الحياة؛ عبادة الله والاستقامة على طاعته، وعمارة الأرض بالعمل الصالح، بحسن المعرفة بالله، وحسن الطاعة لله، وحسن الصبر على أمر الله، وحسن الاتباع لرضوان الله، اهتداء بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

فغاية الإسلام عبادة الله وطاعته بسلوكيـة القرآن الكـريم والسنة النبـوية الشريفة، فهي العلم النافع الذي يؤدي إلى العمل الصالح والخلق الكريم.

فالعلم ـ (معرفة الحق بدليله) معرفة الأشياء بحقائقها.. بأسبابها ونتائجها، هذه المعرفة إذا رافقها الإيمان تؤدي إلى كشف النظام العام الإلّهي في الخلق والتدبير، تمهيداً للانسجام مع مقتضاه، وهذا منطلق العبادة الصحيحة.

والعمل الصالح ـ هو ما حاز من الله الرضى والقبول، يؤدي إلى التنافس الشريف في سبيل بناء الحياة الأفضل.

والخلق الكريم ـ هو ثمرة لتربية الفرد على العبادة الصحيحة، هو الصفة الحسنة الراسخة في النفس، التي ينبثق عنها المسلك الطيِّب في الحياة. وقد عرَّفها الإمام الغزالي (حجة الإسلام) رضي الله عنه بأنّها: «هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال (وحسن السلوك) بسهولة ويسر (بلا تكلُّف)».

والأخلاق بمفهومها الإسلامي هي عبارة عن التقيد بأحكام الشريعة أمراً ونهياً، في جميع التكاليف التي تربط الإنسان بخالقه (في العقائد والعبادات)، أو تربطه بالمجتمع الإسلامي، وغيره من المجتمعات، ولهذا أجابت السيدة عائشة رضي الله عنها، عندما سئلت عن أخلاق رسول الله ﷺ قائلة:

«كان خلقه القرآن» يغضب بغضبه ويرضى برضاه.

ويرى الإمام الغزالي ـ أن صورة الإنسان الكامل[1] لا تتحقق لنا إلاَّ إذا حلَّلنا النفس الإنسانية أولاً إلى قواها (ونوازعها).

---

(١) إنَّ العلة الموجبة لاختلاف الأخلاق هي قوى النفس.

ـ ففيها (شهوة) تطلب اللَّذة، و (غضباً) يطلب الغَلبة، و (عقلاً) يسوس السير ويضبط الخطى. ويؤكد الغزالي في كتابيه (معيار العلم) و (ميزان العمل)، على ضرورة انطباق العلم على العمل، حتى تنتظم أمور الحياة، وحتى تظهر في الإنسان قوة الإرادة وجمال العلم.

علم العقيدة الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة:

جاء القرآن الكريم بمنهج علمي تربوي قوامه الإيمان بالله والتحقّق بمعرفته، معرفة يقينيّة، لا يشوبها شك، ولا يخالطها ريب، معرفة تسمو بالإنسان إلى ذروة الكمال، وتجعله فرداً صالحاً في المجتمع الإنساني، وتنقذه من الأزمات النفسية والاجتماعية التي تجتاحه اليوم، من جرَّاء جهله بربِّه، الذي وهبه الحياة وما تزدهر به الحياة.

ثم دعا القرآن الإنسان أن يجاهد نفسه وهواه، ويروِّضها على العبادة والاستقامة على طاعة الله وأن يصفّي قلبه وروحه من أدران الشهوة واتباع الهوى، ليرتفع بها إلى معارج الفضائل والكمالات، حيث تجتمع القلوب (المؤمنة بالله ـ على الحقيقة) على المحبة والإخاء والتعاون البنَّاء.

ومنذ أن قامت دولة التوحيد على يد خاتم النبيّين محمد ﷺ، بقي علم العقيدة الإسلامية يستمدّ قدسيته من وحي الله وتعاليم السماء، ويعتمد على كتاب الله العزيز.

وكان منهج القرآن في غرس هذه العقيدة في القلوب، هو أن يعرضها على الناس عرضاً كلّه السهولة والبساطة والمنطق السليم، فيلفت أنظارهم إلى ملكوت السموات والأرض، ويوقظ عقولهم إلى التفكير في آيات الله، وينبِّه فِطَرهم إلى ما

= ففيها (الشهوة) إلى إشباع حاجات البدن، وفضيلة هذه القوة (العفَّة) عن المطامع والمحارم. وفيها (الغضب) الذي يستثار دفاعاً عن النفس، وفضيلة هذه القوة الشجاعة. وفيها (حكمة العقل)، التي من شأنها أن (تلجم الغضب) و (تحدّ من الشهوة) و (تضبط الخطى في السير).

ويشبّه بعض الحكماء (العقل) بقائد في مركبة يجرها جوادان، فهو يسوس الجوادين بالزمام في يده، ليضمن للعربة اعتدال السير. ومن توافر فضائل (العفَّة والشجاعة والحكمة) تنشأ فضيلة العدالة، التي تعني (ملكة) التوازن بين الحقوق والواجبات، وهي ذروة الوعي الأخلاقي.

غرس فيها من شعور بالتديّن، وإحساس بعالم وراء هذا العالم المادّي، وعلى هذا السنن مضى رسول الله ﷺ يغرس عقيدة التوحيد في نفوس أمته، لافتاً للأنظار، موجّهاً للأفكار، وموقظاً للعقول، ومنبّهاً للفطر، ومتعهِّداً هذه الغراس بالتربية والتنمية، حتى بلغ الغاية من النجاح، واستطاع أن ينقل الأمة من الوثنيَّة والشِّرك إلى عقيدة التوحيد، ويملأ قلوبها بالإيمان واليقين، كما استطاع أن يجعل من أصحابه قادة للإصلاح، وأئمة للهدى والخير، وأن ينشىء جيلاً يعتزّ بالإيمان ويعتصم بالحق، فكان هذا الجيل كالشمس للدنيا، والعافية للناس، كما وصفهم الله تعالى بقوله:

● ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ آل عمران: /١١٠.

ثم كانت الخلافات السياسية، والاتصال بالمذاهب الفكرية الأخرى، وإقحام العقل في غير مجال اختصاصه (إقحام العقل في مجال الوحي)، سبباً في العدول عن منهج القرآن الكريم (منهج العقل المتكامل ـ والفطرة السليمة)، كما كان سبباً في تحوّل (مفهوم الإيمان) من بساطته وإيجابيّته وسموّه، إلى قضايا فلسفيّة، وأقيسة غير منطقية[1].

---

(١) من الشروط والمقوّمات التي يجب أن تتوفر في المعرفة (حسب المفهوم الإسلامي) هي الشروط والمقومات التالية:

ـ لما كانت المعرفة البشرية تختلف في طبيعتها (من حسيّة، إلى عقلية، إلى غيبيَّة)، فإنَّه من الواجب أن تتنوع مصادرها ومنابعها ووسائل تحصيلها، كما أنه يجب أن يكون هناك صلة بين طبيعة المعرفة وطبيعة المصدر الذي تستمدّ منه.

فأنسب المصادر للحصول على المعرفة الحسيَّة هو الحسّ، وأنسب المصادر للحصول على المعارف العقلية وفي نطاق العالم الطبيعي، هو العقل، وأنسب المصادر لمعارفنا عن الأمور الغيبيَّة أو المتعلقة بما وراء الطبيعة (من عقائد دينية، وأحكام شرعية، وموازين خلقية) هو الوحي الإلّهي والخبر الصادق المنزل على أنبيائه ورسله. فكما أن حواسّ الإنسان لا تستطيع أن تدرك جميع الموجودات فكذلك عقله (محدود) بحدود الطاقة البشرية، مقيد بقيود الزمان والمكان والبيئة.

فحسّ الإنسان وعقله كلاهما (محدود ـ وقاصر)، ولا يستطيع العقل أن يتجاوز إدراكه المجال الطبيعي المحدَّد له، حتى إذا تطاول (الحسّ ـ أو العقل) على غير مجاله، قلّت دقّته، وربما ضلّ كليّاً عن سواء السبيل. ولهذا كان من الأخطاء التي يعدونها على منهج (علم الكلام) وعلى الأخصّ المعتزلة منهم:

ولم يعد الإيمان هو الإيمان (النوراني) الذي يمتلىء به القلب، وتزكو به النفس، ويصلح به العمل أو ينهض به الفرد، أو تحيا به الأمة. وكان من أثر العدول عن نهج الفطرة (وسلوكية القرآن) والتأثّر بالمذاهب الفكرية الطارئـة، وإقحام العقل في مجال الوحي، أن انقسمت الأمة إلى مذاهب مختلفة مزّقت وحدتها شيعاً وأحزاباً.

ولقد كان هذا الانقسام والاختلاف والتنازع (ولقصور في الوعي العلمي التربوي الصحيح) سبباً في الضعف العام للعقيدة والإيمان، في الفرد والأسرة والمجتمع، حتى أصبحت الأمة عاجزة عن النهوض بمسؤولياتها الإسلامية كما ينبغي.

ثم شاء الله أن تعود هذه الأمة (في عصرنا الحاضر ـ وبتوفيق الله) إلى المنهج الأقوم، في أخذ عقيدة التوحيد من الكتاب المجيد، فنهض منها أفراد من العلماء الأمناء ورثة الأنبياء، يدعون إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وإلى العودة بـ (علم العقيدة الإسلامية) إلى الأصالة والصفاء وكما كان عليه السلف الصالح، وبذلك تنبهت العقول من غفلتها، واستيقظت من سباتها، فوجدت القرآن الكريم خير مصدر للمعرفة بعلم العقيدة، ينفي عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، انطلاقاً من استثارة نوازع الفطرة السليمة، وتحكيم موازين العقل الراشد والمنطق السليم.

= ١ ـ خروجهم على الواقع المحسوس وتجاوزهم إلى غير المحسوس، فقد بحثوا فيما وراء الطبيعة (في ذات الله وصفاته) فيما لا يصل إليه الحسّ، وأفرطوا في قياس الغائب على الشاهد (أعني قياس الله ـ على الإنسان)، فأوجبوا على الله العدل كما يتصوّره الإنسان.
٢ ـ إعطاؤهم للعقل حريّة البحث في كل شيء (فيما يحسّ ـ وما لا يحسّ)، ثم جعله أساس البحث في الإيمان كلّه فترتّب على ذلك كله أن جعلوا العقل أساساً للقرآن، ولم يجعلوا القرآن أساساً للعقل.
٣ ـ هكذا شوّه (المعتزلة) النشاط العقلي، حين أقحموا العقل في غير مجال اختصاصه، وابتعدوا به عن الوحي الإلٓهي، حتى فقد نور جماله. فالعقل قبس من نور الله (وميزان الله في أرضه) وقربه من الوحي الإلٓهي، هو الذي يصل به إلى كماله المنشود وجماله المعهود.
والمنطق السليم يهيب بنا دائماً للعودة إلى الأصل (إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ) وتصفية علم العقيدة الإسلامية (من شوائب التطرّف الذي انزلق به العقل ـ عندما انحرف عن مجال اختصاصه) ذلك التطرف والانحراف الذي تمجّه الفطرة، ويرفضه العقل السليم، وذلك بالعودة إلى الأصل، إلى الفقه الصحيح لكتاب الله والاتباع الصادق للسنة النبوية الشريفة.

لقد أشرت آنفاً ـ في معرض النقد الإيجابي لعلم الكلام[1] ـ من حيث تطرّف بعض مذاهبه (المعتزلة) وبعدهم عن المنطق السليم في إقحام العقل في غير مجال اختصاصه (أعني إقحام العقل في مجال الوحي).

وتأكيداً من الأخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي (أستاذ العقيدة الإسلامية في جامعة دمشق)، لما ذهب إليه الإمام الغزالي، وتجاوباً مع اجتهاده، يطالعنا بكتابه: (العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر) بما يلي:

---

(١) قبل إيراد (نقد حجة الإسلام ـ الإمام الغزالي ـ لعلم الكلام) أتقدم بالإيضاح التالي:
الوحي الديني، حقائق موضوعية، ألقيت في روع واحد من البشر، امتاز على غيره (بموهبة خاصة ـ واصطفاء إلّهي) والله أعلم حيث يجعل رسالته، وكما قال تعالى (مخاطباً رسوله الأمين محمداً عليه الصلاة والسلام):

● ﴿نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربيّ مبين﴾ الشعراء: /١٩٣ ـ ١٩٥.

امتاز الرسول ﷺ بسموّ مداركه ورقّة إحساسه وباستعداد خاص، يجعل قلبه وجوهر كيانه الذاتي متصلاً بالملأ الأعلى، لتلقّي وحي ربّه المنزل، لإرشاد الخلق ـ بإذن الله ـ إلى حكمة الله ورحمته وعدالته عن طريق الحس والعقل المؤيدين بالوحي.
وقد أيّد الله الوحي والرسالة بالمعجزات الخارقة لقانون الحياة العادي، حتى يدعن الفكر، ويستسلم العقل البشري لوحي الله بلا مناقشة. وكما قال تعالى:

● ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم...﴾ الأحزاب: /٣٦.

لهذا وجب أن ينمو النشاط العقلي والبحث العلمي في ظلال الوحي الإلّهي. والقاعدة الفقهية تقول: «لا مجال للاجتهاد في مورد النص» (أي النص الثابت ـ القطعي الدلالة).
ومن هذا المنطلق، يطالعنا حجة الإسلام ـ الإمام الغزالي رحمه الله ـ باجتهاده ورأيه في علم الكلام، بعد انحراف هذا العلم، وتطرّفه وبعده عن الأصالة و (سلوكية القرآن).
لقد أدلى الإمام الغزالي بما يراه القول الفصل في حق هذا العلم، فقال كلاماً طويلاً ننقله ملخصاً بألفاظه (عن كتاب ـ إحياء علوم الدين ـ ١٠/٩٩).
«إن فيه (علمَ الكلام) منفعة ومضرَّة، فهو باعتبار منفعته في وقت الانتفاع حلال، أو مندوب إليه، أو واجب (حسب ما تقتضيه الحكمة والواقع)، كما يقتضيه الحال، وهو باعتبار مضرَّته في وقت الاستضرار ومحله حرام. وإذا وقعت الإحاطة بضرره ومنفعته فينبغي أن يكون الممارس له (عند الضرورة القصوى) كالطبيب الحاذق، في استعمال الدواء الخطر، إذ لا يضعه إلاّ في موضعه، وذلك في وقت الحاجة، وعلى قدر الحاجة (تأكيداً للالتزام بالأصل ـ وعدم إقحام العقل في مجال الوحي) ثم قال الإمام الغزالي ـ وإن الشافعي وكافة السلف إنما منعوا من الخوض فيه والتجرُّد له، لما فيه من الضَّرر ـ الذي نبهنا إليه».

يقول الدكتور البوطي (في كتابه المشار إليه أعلاه - ص ٢٣) كما يلي:

أ - إن استثارة نوازع الفطرة، حيث تجثم أمامنا (الشّبه العقلية والفلسفية - كشبهات الفلسفة المادية الإلحادية)، تجثم في العقل وتثقله عن التحرك سعياً وراء الفطرة، فاستثارة نوازع الفطرة في هذا المقام (عبث لا يأتي بطائل).

ب - كما أن اصطناع المعارك العقلية (للردّ على شبه عقلية - لا وجود لها) في المجلس، أو بين الجماعة التي يثار الحديث عنها فيما بينهم (تنطّع ممجوج - وتضييع للوقت) لا يقرّه منطق الإسلام الصحيح.

● ويزيدنا الدكتور البوطي إيضاحاً لهذا المعنى (في نفس كتابه المشار إليه أعلاه - ص ٢٥)، كما يلي:

أقول: وإن علم الكلام اليوم في حدود الحاجة الماسة إلى التَّصدي لأسباب الزيغ وموجباته الحديثة من أشرف ما يجب على المسلمين الاشتغال به. وهو ضمن حدود الحاجة إليه داخل في صميم المنهج القرآني للتبصير بحقائق الإسلام وعقائده[١].

هذا - واستكمالاً لما ذهب إليه الإمام الغزالي - وأكَّده الدكتور البوطي في كتابه (العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر)، نأتي على ما ذهب إليه الأخ الأستاذ (الصديق يعقوب - الأستاذ في الجامعة الليبية - طرابلس) في مقاله الهام المنشور في مجلة (كلية الدعوة الإسلامية في طرابلس - ليبيا - ص ٦٨ وما بعدها)، وقد اقتطفنا من المقال المشار إليه الفقرة التالية (رقم - ١٤ -) وعنوان المقال: «نحو منهج أفضل، لفهم قضايا العقيدة ودراستها».

جاء في الفقرة (١٤) من المقال المشار إليه أعلاه ما يلي:

---

(١) ويتابع الدكتور البوطي (في كتابه - العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر) كلامه في ص ٢٥ كما يلي:

«على أن هذا العلم (ويعني علم الكلام) لا تزيد فائدته على كنس الوساوس الفكرية وطرد الشّبه العقلية التي يخيّل إلى (من وقع في شراكها أنها حقائق ثابتة)، أما تنمية اليقين بالله في القلب، فعلاجه اتباع شيء آخر وراء هذا العلم، هو الاستمرار في السعي إلى تزكية النفس من أوضارها عن طريق الإكثار من ذكر الله في الغدوّ والآصال، والإكثار من تلاوة القرآن، والعبادات، وتطهير اللقمة، والابتعاد جهد المستطاع عن المعاصي والآثام».

«لعلَّ في هذا الذي نقدم ما يكفي لدعوة الباحثين في شؤون العقيدة وقضاياها، والمتطلعين إلى لون جديد من البحث في هذا الموضوع القديم، قدم التاريخ الإنساني كله، لعلَّ في ذلك ما يكفي لدعوة هؤلاء وأولئك دعوة ملحَّة صادقة إلى وقفة طويلة متأنّية، نعيد من خلالها النظر في هذا التراث من الفكر الديني الذي اختلط فيه الدين بالفكر، والحق بالباطل، والاعتراضات بالشبهات، والنتائج بالمقدمات وخاض في قضاياه المحق والمبطل والمتّبع والمبتدع، حتى أنه لم يعد في قدرة المؤمن أو الباحث عن الحقيقة في هذا الجيل أن يميِّز الخبيث من الطيب.

وإنَّها لمهمَّة صعبة ومجهدة، ولكنها فريضة لا بدَّ منها، لمن ينتمي للدين الحق، وهو حريص في ذات الوقت على أن يعود هذا الدين إلى مركز القيادة والريادة في هذا العصر، الذي تنازعت فيه المشارب، فزخر بالمذاهب، وأصبح النزوع إلى العقيدة أمراً تفرضه ظروف العصر وتياراته وانقساماته وتكتلاته، قبل أن يدعو إليه صوت الدين، بوحي من فطرة الإنسان.

إن ما ندعو إليه الآن هو إعادة النظر في (مباحث علم الكلام)، إعادة النظر فيها من حيث القضايا والموضوعات، وإعادة النظر فيها من حيث المناهج وطرق البحث، وإعادة النظر من حيث صلتها بالقرآن ومنهج الرسول ﷺ، قرباً وبعداً.

المطلوب هو توجيه هذا اللون من الدراسة وجهة صحيحة، بعيداً عن الاتجاهات المتعارضة، والتيارات المتصارعة والفرق المختلفة، بل بعيداً عن (علم الكلام ذاته ـ من حيث الشكل) والتسمية، ليكون ذلك العمل المرتقب في دائرة وتحت عنوان (علم العقيدة الإسلامية).

إنَّ تسمية هذا اللون من البحث بـ (علم الكلام)، توحي بانتكاسة هذا العلم (من حيث الشكل) وانحرافه من البداية (والمنطلق) إلى جوانب وأغراض من (الجدل العقيم ـ والتمويه المريب)، بل إلى استعمال العنف أحياناً والاقتتال بالسيف، بدل الحوار بالكلمة، والدفاع عن وجهة النظر بالرأي والحجَّة، واحترام الرأي المقابل.

هذا اللون من البحث في مثل هذه القضايا جدير بأن نطلق عليه (علم العقيدة

الإسلامية)[1]. إنَّ قضية (التوحيد ـ والوحدانية) هي مرتكز الإسلام، ولذلك كانت لبَّ جميع الرسالات السماوية على الإطلاق، وإنَّ الوثنية بكل صورها، وفي شتَّى مظاهرها، هي التي تمثل جبهة الصراع المقابلة لقضية الوحدانية.

إن هذه التسمية هي المنطلق (الذي يضع الأمور في نصابها)، وهي التي تحدِّد مسار البحث، وترسم خطوطه وتعيِّن آفاقه من البداية، كما أنها هي التي تعصم الباحث من الوقوع في الخطأ في المقدمات أم في النتائج وهي التي تربط جميع الرسالات السماوية برباط عقدي واضح، فيكون من المحال التأرجح بينها وبين نقيضها (هذا من حيث الشكل)، أما من حيث الموضوع، فإنَّ القضايا التي تبحث في محيط (علم العقيدة الإسلامية) تختلف منهجاً وموضوعاً عن التي يبحثها علم الكلام.

هذا ـ وإن حصر مهمة هذا العلم ـ أي علم الكلام ـ في الدفاع فقط عن العقائد الإيمانية، أمر ليس له ما يبرِّره، والأفضل توسيع دائرة الاختصاص (لعلم العقيدة الإسلامية) حتى تشمل نشر مبادىء العقيدة والمحافظة عليها نقية خالصة من الشوائب، وأخذها بالاعتبار ضمن المنهج العام للدعوة الإسلامية ووضعها دائماً في دائرة القرآن، كل هذه الأمور والمهام من المفترض أن تدخل في إطار (علم العقيدة الإسلامية) كجزء هام ينطوي ضمن (منهج الدعوة الإسلامية العام).

أجل ـ إن هناك قضايا من اللازم أن تطوى طيّاً فتبعد من دائرة البحث.

إن كل (كليّة ـ أو جزئية) تتصل من قريب أو بعيد بذات الله المقدسة، يجب أن تبقى بعيدة عن دائرة البحث العقلي، وهذا هو المنهج السديد والرشيد في هذه القضايا وما شابهها، لأنه هو المنهج الذي توحي به نصوص القرآن. المتصلة بهذه العقيدة، كما أنَّه هو المنهج الذي دعا إليه رسول الله ﷺ. وحسبنا في هذا المقام، كتاب الله وسنَّة رسوله.

هذا ـ واستكمالاً لما سبق بيانه. نأتي على استعراض رأي ـ الدكتور يوسف القرضاوي ـ في كتابه «الإيمان والحياة» ص ١٠٦ كما يلي:

---

(١) ينظر مقال الأخ الأستاذ الصديق يعقوب في مجلة كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس ص ٦٨ وما بعدها. (طرابلس ـ ليبيا).

«والذين يعتمدون على سلطان العقل وحده[1]، في الوصول إلى عقيدة سليمة راسخة، وفكرة كليّة واضحة، تفسِّر هذا الوجود، وتحلّ ألغازه؛ قد جاوزوا بالعقل حدود اختصاصه، وأهملوا جانباً هاماً من الفطرة الإنسانية (التي تعني دائماً، هذا الانسجام والتوازن بين الفكر والعاطفة والإرادة) هو جانب الشعور والوجدان، جانب القلب والروح، كما أغلقوا على أنفسهم باباً واسعاً، ما كان أحوجهم إليه، وما أضلَّ سعيهم بغيره، هو باب الوحي الإلّهي.

إنَّ العقل مهما أوتي من الذكاء، والقدرة على التجربة والاستنتاج والقياس، محدود بحدود الطاقة البشريَّة، مقيّد بقيود الزمان والمكان، والوراثة والبيئة، فلا غنى له أبداً عن سند ومعين، يسدِّده إذا أخطأ، ويهديه إذا ضلَّ، ويردّه إلى الصَّواب إذا شرد، وهذا السند هو الوحي الإلّهي، وهو أساس الدين يصل بالعقل إلى كماله المنشود. انتهى رأي الدكتور القرضاوي».

في مباحث هذا الكتاب وأبوابه محاولة جادَّة، للعودة بـ (علم العقيدة الإسلامية) إلى الصفاء والأصالة، في ضوء الكتاب والسنة، وقد تفضّل الزميل الكريم الأستاذ محمد بشير الرز حفظه الله (وهو المجاز في الشريعة الإسلامية والحقوق - من جامعة دمشق)، تفضل بمراجعة وتدقيق أبحاث الكتاب، جزاه الله خيراً.

وأسأل الله من فضله وكرمه، أن يجعل هذا الجهد في موضع القبول عنده، وأن يكون مفاجأة سارَّة، لمن كان سبباً في بناء شخصية المؤلف، علمياً وتربوياً، ولكل باحث منصف يهوى الثقافة الإسلامية الصحيحة، ليرى الإسلام، ديناً كاملاً (علماً، وعملاً، وأخلاقاً) ينشر في ربوع الدنيا الرحمة والسعادة والعزّة والكرامة، للإنسان والإنسانية، يقود مسيرة الحياة (بسلوكيَّة الكتاب - والسنّة) نحو التطور

---

(١) يقول حجة الإسلام - الإمام أبو حامد الغزالي - رحمه الله:
«إنَّ العقل لن يهتدي إلى كماله المنشود إلّا بالوحي الإلّهي (الموصوف بالعصمة - والبريء من ازدواجية القيادة)، ذلك، لأن العقول متعدِّدة، بلا حدود، والأمزجة مختلفة كذلك، والعقل متدرِّج في مقاييس الذكاء، فعلى أيّ عقل نعتمد؟... وهل عصم أي عقل من نوازع الأهواء؟».
ينظر كتاب «معارج القدس، في مدارج معرفة النفس» للإمام الغزالي.

والازدهار والتكامل[1]. كما أرجو الله من فضله وكرمه، أن ينفع بهذا الجهد كل إنسان، يريد الخير لنفسه، ولأمَّته، وللإنسانية، إنَّه سميع مجيب، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

دمشق: ٤ / ربيع الأول سنة ١٤٠٦ هـ.
١٦ / تشرين ثاني سنة ١٩٨٥ م.

---

(١) إن من توفيق الله وتكامل الفهم (لعلم العقيدة الإسلامية) الثمرات التالية:
- اكتشاف النظام العام الإلّهي في الخلق والتدبير بما يحمل من علم إلّهي كامل (شامل للماضي والحاضر والمستقبل) مقروناً ذلك بحكمة الله ورحمته وعدالته وكلمته العليا.
- إن من ثمرات العقيدة والإيمان الصحيح أن تتناسق مشاعرنا، وتنتظم أهدافنا حول محور التوحيد وإخلاص العبودية لله عز وجل.
- وأن تتناسق أفكارنا، كما ينسجم سلوكنا مع عدالة الله وتوجيهه الحكيم.
- وأن نعلم (العلم اليقين) أنه على أساس الحكمة والرحمة والعدالة الإلّهية (وكلمته العليا) قام نظام الله العام في الخلق والتدبير.

أجل - بثمرات العقيدة والإيمان (بالتوحيد وإخلاص العبودية لله - والانسجام مع مقتضى حكمته ورحمته وعدالته) تأخذ الحياة الفردية والاجتماعية سيرها الطبيعي (الواعي) نحو التطور والازدهار والتكامل، ويتحقق للإنسان (والإنسانية)، ما ننشده من السعادة والكرامة في ظلال الأمن والمحبة والسلام، وتحقيق الأخوّة الإنسانية.

الباب التمهيدي

- منطلق الأبحاث : الأسباب الموجبة للباب التمهيدي.
- المبحث الأول : التعريف بالقرآن الكريم معجزة الإسلام الكبرى.
- المبحث الثاني : التعريف بالسنة النبوية الشريفة (ومكانتها في التشريع).
- المبحث الثالث : ظاهرة التأمّل في حياة الرسول ﷺ.
- المبحث الرابع : المرأة (نصف المجتمع) في مرآة الإسلام.
- المبحث الخامس : العقل في مرآة الإسلام.
- المبحث السادس : الذكر والذاكرون لله تعالى.
- المبحث السابع : محبة الله تعالى.
- المبحث الثامن : التنبيه على أسباب الاختلاف بين فقهاء المسلمين.
- المبحث التاسع : نظرة الإسلام الموضوعية للأديان الأخرى.
- المبحث العاشر : التربية الوجدانية في الإسلام.
- المبحث الحادي عشر : نحو منهج أفضل لفهم قضايا العقيدة الإسلامية ودراستها.

الأسباب الموجبة للباب التمهيدي

كتابنا (دراسة في علم العقيدة الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة)، يكاد يكون جديداً في عنوانه وأبحاثه، لا يستغني عن مطالعته أي مثقَّف، وخاصة الباحث الذي يهوى الثقافة الإسلامية الصحيحة.

وقد قصدتُ من هذا الباب (التمهيدي) أن أزوِّد الباحث بالموضوعات الرئيسة الهامة التي لا غنى له عن مطالعتها، ولتكون دراسته الجديدة لـ (علم العقيدة الإسلامية) دراسة واعية، واضحة في الذهن، مشرقة في القلب والضمير.

● فالتعريف الموجز بالقرآن الكريم، وبالسنة النبوية الشريفة مما لا بد منه بالنسبة لعنوان الكتاب.

● وظاهرة التأمُّل في حياة الرسول ﷺ منطلق طبيعي لفهم التربية الوجدانية في الإسلام.

● والمرأة (نصف المجتمع)، ولا بد للباحث بالتزوُّد بما هو ضروري من الثقافة الإسلامية العامة. بالنسبة للمرأة المسلمة.

● والعقل (في مرآة الإسلام) ثقافة ضرورية بالنسبة لدراسة العقيدة الإسلامية.

● ونظرة الإسلام الموضوعية إلى الأديان الأخرى أمر لا بد منه لإيضاح عالمية العقيدة الإسلامية.

● والتنبيه على أسباب الاختلاف بين فقهاء المسلمين جزء هام في علم العقيدة الإسلامية.

● والذكر والذاكرون لله تعالى، ومحبة الله تعالى من أسس التربية الوجدانية في الإسلام.

● والتربية الوجدانية في الإسلام من أهم مباحث العقيدة الإسلامية في مجال التوجيه والتطبيق.

● أما البحث الأخير ـ نحو منهج أفضل لفهم قضايا العقيدة الإسلامية فيكاد يكون محور الأبحاث في دراسة العقيدة الإسلامية، فهو بمثابة العنوان للأسباب الموجبة لإعداد هذا الكتاب وأهم ما ورد في هذا البحث:

أ ـ يفضّل استبدال تسمية (علم الكلام) بـ (علم العقيدة الإسلامية).

ب ـ توسيع مجال هذا العلم (موضوعياً) من مفهوم الدفاع عن العقيدة، إلى مفهوم أوسع مجالاً، بحيث يجعله متضمناً لنشر مبادىء العقيدة في ضوء الكتاب والسنة والمحافظة عليها نقيَّة من الشوائب، واستبعاد كل نشاط عقلي يباعدها عن منهج الكتاب والسنة (من قريب أو بعيد)، وضم هذا العلم إلى إطار (منهج الدعوة الإسلامية). وبالله التوفيق، والله المستعان، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول

القرآن الكريم معجزة الإسلام الكبرى

● ﴿وإنَّه لتنزيل ربِّ العالمين. نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربيٍّ مبين﴾. الشعراء: /١٩٢ - ١٩٥.

● نزل القرآن على خمسة أوجه: حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال، فاعملوا بالحلال، واجتنبوا الحرام، واتَّبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال».

رواه البيهقي في شعب الإيمان، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ.

إنَّ القرآن الكريم، قد سما في علوّه (علمياً - وتربوياً)، إلى شأوٍ بعيد بحيث تعجز القدرة البشرية عن الإتيان بمثله، سواء كان هذا العلوّ، في بلاغته، أو تشريعه، أو مغيَّباته، أو روعة أسلوبه لا سيما حين يخاطب فطرة الإنسان (ككلّ) (فكراً، وعاطفة، وإرادة، وسلوكاً)، بما يتناغم وينسجم مع هذه الفطرة. وكما قال تعالى:

● ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن، على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ الإسراء: /٨٨.

القرآن الكريم
معجزة الإسلام الكبرى

تمهيد. . القرآن هو كتابنا الخالد الذي أنزله الله على رسوله ليكون مشعل النور والضياء لكل مسلم في أرجاء الأرض يستمد منه عقيدته التي يؤمن بها، وتشريعه الذي ينظم حياته، ويرسم له ملامح الطريق الذي يجب أن يسير عليه. . . وهو الكتاب العربي الأول، والمعجزة البيانية الخالدة، الذي سحر العقول ببديع نظمه وروعة بيانه، ودقّة تصويره، وجمال ألفاظه وتعابيره.

وقد استطاع القرآن الكريم بما اشتمل عليه من تعاليم وأحكام أن يوقظ النفوس البشرية من رقادها، وأن يجعل منها طاقة هائلة متماسكة متحدة تنشر رسالة الإسلام خفاقة في ربوع الشام والعراق وفارس ومصر والمغرب. والقرآن - اليوم - هو الكتاب الذي تلتقي عليه شعوبنا في مختلف أقطارها فيقرب من لغاتهم ولهجاتهم. . . ويقوّم ما انحرف من سلوكهم وعاداتهم، ويوحِّد ما تمزق من شملهم وتشتّت من اتجاهاتهم، ويوقظ فيهم شعلة الحياة الكريمة، كلما خفت بريقها، فيعيدها قوية فتية ترهب الأعداء وتردّ كيدهم في نحورهم.

إن من يبتغي الحق، ويريد الوصول إلى التعاليم الإلّهية الصحيحة، لا يجد أمامه غير القرآن الكريم، فهو الكتاب الذي حفظت أصوله، وسلمت تعاليمه، وتلقته الأمة عن محمد ﷺ عن جبريل، عن الله، الأمر الذي لم يتوفر لكتاب مثله. وإنه الجامع لأسمى المبادىء وأقوم المناهج وخير النظم، والحافل بكل ما يحتاج إليه البشر من حيث العقائد والعبادات، والآداب والمعاملات والنظم، وإنه الكفيل بتربية الإنسان الفاضل والأسرة المتآلفة والمجتمع المتكافل

وإقامة الدولة الراشدة، والكيان القوي الذي يقيم الحق والعدل، ويرفع الظلم والعدوان، ويحقق سعادة الإنسان والإنسانية. وكما قال تعالى:

● ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾. المائدة: /١٥ - ١٦.

ظاهرة الوحي: ظاهرة الوحي ليست خاصة بالرسول العربي الكريم محمد ﷺ، وإنما هي عامة في جميع الأنبياء الذين كان يأتيهم الوحي من عند الله بطريقة متقاربة، وعن طريق الوحي يقوم الملك المكلف بنقل الرسالة من الله إلى الأنبياء بتبليغ ما أمر بتبليغه، قال تعالى:

● ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً. ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك، وكلّم الله موسى تكليماً﴾ النساء: /١٦٣ - ١٦٤.

تعريف الوحي: كلمة الوحي في اللغة مأخوذة من الإعلام الخفيّ السريع، وقد استعملت في اللغة لمعان متعددة كما استعملت في القرآن الكريم لعدة معان أيضاً، وتفيد هذه الكلمة في اللغة: الإلهام والإشارة، والإيحاء والكتابة...

وقد استعمل القرآن الكريم كلمة الوحي في معانيها اللغوية المتعددة، فجاءت بمعنى الإلهام في قوله تعالى:

● ﴿وأوحى ربّك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون﴾ النحل: /٦٨.

وجاءت بمعنى الإشارة والإيماء، في قوله تعالى (حكاية عن سيدنا زكريا عليه السلام):

● ﴿فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبّحوا بكرة وعشيّاً﴾ مريم: /١١.

أما المعنى الشرعي المراد من كلمة الوحي، فأحياناً يراد بالوحي (الموحى به) وهو القرآن، كما في قوله تعالى:

● ﴿إن هو إلاَّ وحي يوحى﴾ النجم: /٤.

وأحياناً يراد به الإيحاء إلى النبي الكريم، وإعلامه بمراد الله، كما في قوله تعالى:

● ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً، لتنذر أم القرى ومن حولها...﴾ الشورى: /٧.

أنواع الوحي: الوحي ظاهرة عامة في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وليس له طريقة محدَّدة وكيفيَّة معينة، وإنما له صور متعددة، يتم عن طريقها الاتصال بين الخالق وأنبيائه الذين اصطفاهم، وغالباً ما يسبق نزول الوحي على الأنبياء «الرؤيا الصادقة» في المنام، وقد وقعت هذه الرؤيا للرسول الكريم قبل مجيء الرسالة إليه، لتكون مقدمة للرسالة، ولتهيّء الرسول الكريم لقبول الوحي الإلّهي الذي سيلقى إليه.

روى البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

أول ما بُدأ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلاَّ جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء... حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاء الملك فقال: اقرأ...
أما أنواع الوحي فقد ذكرها القرآن في قوله تعالى:

● ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلاَّ وحياً، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنَّه عليّ حكيم..﴾ الشورى: /٥١.

ومن هنا نستطيع أن نحدِّد هذه الصورة بما يلي:

١ ـ **الإلهام**: ويتم ذلك عن طريق ما يلقيه الله في قلب نبيِّه، ولعلَّ هذا هو الوارد في حديث رسول الله ﷺ:

● «إن روح القدس نفث في روعي، أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب».

٢ ـ **التكلّم المباشر**: من الله إلى رسوله، بحيث يسمع النبي الكلام، ويفهم المراد منه، وفي ذلك يقول الله تعالى:

● ﴿ولما جاء موسى ليمقاتنا، وكلّمه ربه، قال: ربّ أرني أنظر إليك، قال: لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني...﴾ الأعراف: /١٤٣.

٣ ـ **الوحي عن طريق جبريل**: وكانت هذه الصورة هي الصورة التي نزل القرآن بها على الرسول الكريم، فكان جبريل ينزل بالوحي على رسولنا الكريم، قال تعالى (مبيِّناً نزول القرآن):

● ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربيّ مبين﴾ الشعراء: /١٩٢ ـ ١٩٥.

ولعلنا نتساءل الآن عن كيفية نزول الوحي على الرسول الكريم... والجواب على ذلك ليس بالأمر اليسير، الذي يمكننا الاجتهاد فيه... ولذا نقتصر على ذكر الكيفيَّة والوصف الذي جاء على لسان الرسول الكريم، وهذه الكيفية تبين لنا أن الرسول الكريم يرقى بطبيعته البشرية إلى الحالة الروحانية (عروج ومعراج روحي) التي يحصل من خلالها التلاؤم بين طبيعة الملقي والملقى إليه (لقاء روحي لا يكيّف ـ أشبه بالمصافحة الروحية) ولذلك كان يبدو التعب الجسدي والإرهاق على جسم الرسول الكريم ﷺ، حيث يتفصّد جبينه عرقاً[1].

وقد روت السيدة عائشة رضي الله عنها، أن الحارث بن هشام سأل الرسول الكريم عن الكيفية التي يأتيه الوحي بها، فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو

---

(١) ينظر كتاب مبادىء الثقافة الإسلامية، للأخ الدكتور محمد فاروق النبهان ص ١٦٢ وما بعدها.

أشدّه عليّ، فينفصم عنّي، وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثّل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول، قالت عائشة، ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، وإن جبينه ليتفصّد عرقاً.

التعريف بالقرآن الكريم: كلمة «القرآن» مشتقّة من قرأ بمعنى «تلا» والقراءة تعني التلاوة، لقوله تعالى:

● ﴿إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه، فاتّبع قرآنه...﴾ القيامة: ١٧/ - ١٨.

ثم أصبحت كلمة القرآن عَلَماً على كتاب الله، المنزّل على الرسول الكريم، المكتوب في المصاحف، المتعبّد بتلاوته والمنقول إلينا بالتواتر عن طريق الكتابة والحفظ في الصدور.

وقد نزل القرآن (منجّماً) أي مفرّقاً، بحسب الحوادث المتجدِّدة، فأحياناً كانت تنزل بضع آيات، وأحياناً آية واحدة، أو بعض آية، وذلك ليكون في هذا التنزُّل المستمر تلبية لما يتجدَّد من الأحداث والمشاكل، وتقوية الرسول وصحابته، وتثبيتاً لفؤادهم، وتسهيلاً لحفظ آياته وفهم أحكامه.

ولو رجعنا إلى آيات القرآن الكريم، لوجدناها تقصّ على رسول الله ﷺ قصص الأنبياء السابقين، وما لاقوه من قومهم من مشقّة وعنت، وتدعوه إلى الصبر والاحتمال لئلا يتطرّق اليأس إلى قلبه، والحزن إلى نفسه، وهذا التدرّج يساعد على حفظ الآيات واستذكارها، وتلقينها لصحابته الذين يعكفون على حفظها، والعمل بمقتضاها، وبالإضافة إلى هذا، فإنَّ نزول القرآن بشكل متدرِّج، كان يهدف إلى التدرج في الأحكام لئلا تنزل دفعة واحدة فيكون فيها الحرج والمشقة على الناس، ولذلك وجدنا أن الأحكام التي كانت تنزل كانت تتناسب مع الأحداث الجارية، فتعرض لها مبينة حكمها، وموضحة ما غمض منها، ومرشدة للطريق السويّ.

وقد ابتدأ نزول القرآن ـ على أصحّ الروايات ـ ليلة السابع عشر من رمضان، للسنة الحادية والأربعين من ميلاد الرسول الكريم، في غار حراء، حيث كان يتعبَّد ربه، وأوَّل آية نزلت قوله تعالى:

● ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علَّم بالقلم. علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾ العلق/١ ـ ٥.

واستمر نزول الآيات فترة تزيد عن اثنتين وعشرين سنة، حيث نزلت الآية الأخيرة في يوم عرفة، من السنة العاشرة للهجرة، وهي قوله تعالى:

● ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ المائدة: /٣.

جمع القرآن وكتابته: يراد بجمع القرآن حفظه في الصدور، لقوله تعالى:

● ﴿إنَّ علينا جمعه وقرآنه﴾ القيامة: /١٧.

ومنها جمّاع القرآن أي حفّاظه، ويراد به أيضاً كتابته، وترتيب آياته وسوره.

فأما حفظه في الصدور، فقد تمَّ في عصر الرسول الكريم، حيث كان الرسول ﷺ يحفظه ويعلِّمه لأصحابه، الذين كانوا يجلسون في المسجد، يتدارسون القرآن ويحفظونه. وقد اشتهر عدد من الصحابة بحفظ القرآن أو إقرائه، منهم: أبيّ بن كعب، وعلي بن أبي طالب، وأبو موسى الأشعري، وزيد بن ثابت.

وأما كتابة القرآن، فقد كان الرسول الكريم يكلف كتَّاب الوحي أن يكتبوا له ما ينزل عليه، فكانوا يكتبون هذه الآيات في الرقاع واللّخاف، والعسب، والأكتاف، والأقتاب، وقطع الأديم.

وكانت هذه الأدوات[1] هي الوسائل الميسرة للكتابة في ذلك العصر، وقد اشتهر عدد من الصحابة بكتابة الوحي فكانوا يكتبون الوحي بين يدي رسول الله ﷺ الذي كان يرشدهم إلى مكان الآية النازلة، وبعدها تحفظ الآيات المكتوبة في بيت رسول الله ﷺ، في الوقت الذي يبتدىء الصحابة بقراءتها وتدارسها وحفظها.

---

(١) تمثل هذه الأصناف المختلفة أدوات الكتابة التي كانت معروفة وميسَّرة في عصر الرسول الكريم، وتشمل: الجلد، وصفائح الحجارة، وجريد النخل، وعظام البعير أو الشاة.

وبعد وفاة الرسول، وعقب موقعة اليمامة بين المسلمين والمرتدين التي استشهد فيها سبعون من حفظة القرآن اقترح الخليفة عمر بن الخطاب على الخليفة أبي بكر الصديق، أن يجمع القرآن.

وقد روى البخاري في صحيحه أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال:

«أرسل إليَّ أبو بكر، مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إنَّ عمر أتاني فقال: إن القتل قد استمرَّ (أي اشتد) يوم اليمامة بقرّاء القرآن، وإني أخشى أن يستمر القتل بالقرّاء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر:

كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هو والله خير.... فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر، قال زيد ـ قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتَّهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبّع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن، فقلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعلـه رسـول الله؟ قال: هو والله خير... فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر.

وكان زيد بن ثابت رضي الله عنه يتشدَّد في قبول الآيات، ويشترط لذلك أن تكون الآية محفوظة في الصدور، ومكتوبة في الصحف بين يدي رسول الله ﷺ، لئلا يتطرق الشك إلى آية من آيات القرآن وبعد اكتمال الجمع والكتابة الذي استغرق جهداً كبيراً، وضعت هذه الصحف عند أبي بكر، وبعد وفاته انتقلت إلى عمر بن الخطاب، وبعد وفاته حفظت لدى ابنته «حفصة» لأنها زوج الرسول الكريم وخاصة أنه لم يعين بنفسه خليفة له، يوصي بأن تنتقل الصحف إليه.

وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان، جاء إليه حذيفة بن اليمان ـ وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزعه اختلاف المسلمين في قراءة القرآن، فقال له: «يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتـاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن

أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردّها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، وعندها كلَّف جماعة ممن اختصّوا بالقرآن وعرفوا بحفظه أن ينسخوا هذه الصحف بالمصاحف، ثم ردَّ الصحف إلى السيدة حفصة، وأرسل بمصحف من المصاحف التي نسخت إلى كل مصر من الأمصار وأمر بأن تحرق جميع الصحف والمصاحف الأخرى، لئلا يكون في وجودها ما يدعو إلى اختلاف جديد، يؤدي إلى بلبلة الرأي، وضياع النص القرآني الصحيح.

ونلاحظ أن الخليفة عثمان بن عفان قد اعتمد في جمعه للقرآن على النسخة التي جمعت في عهد أبي بكر وقد اشترك جامع مصحف أبي بكر - وهو زيد بن ثابت - مع اللجنة الرباعية التي شكَّلها عثمان، وكانت هذه اللجنة مكوَّنة من كبار الصحابة الذين اشتهروا بحفظ القرآن وهم: عبدالله بن الزبير، سعيد بن العاص، عبد الرحمن بن الحارث، بالإضافة إلى زيد بن ثابت. وقد احتفظ عثمان بمصحف أبي بكر، حيث أعاده للسيدة حفصة، ولم يغيِّر عثمان في مصحف أبي بكر شيئاً، وإنما أراد مِنْ وراء جمعه للقرآن، أن يجمع الناس على القراءات الثابتة المنسوبة إلى النبي ﷺ، لئلا يؤدي عدم ذلك إلى قراءة القرآن بلغات العرب ولهجاتهم المتعددة، فيقود ذلك إلى الاختلاف في قراءة القرآن... ويؤكد هذا ما ذكره الخليفة عثمان لأعضاء اللجنة المكلَّفة بجمع القرآن، أن يكتبوه بلسان قريش، لأنه إنما أنزل بلسانهم.

الجوانب التي اشتمل عليها القرآن الكريم:

لقد أنزل الله القرآن الكريم على رسوله المصطفى، ليكون للناس دستوراً يسيرون عليه، وهادياً يهديهم إلى سواء السبيل ومرشداً يقودهم إلى الحق والصواب، يقودهم إلى بناء الثقة والإيمان بالله، بمقوماتها العلمية التربوية، كما يقودهم إلى الوعي الاجتماعي الصحيح، وتحقيق الأخوة الإنسانية.

قال الله تعالى:

- ﴿إنَّ هذا القرآن يهدي للَّتي هي أقوم...﴾ الإسراء: /٩.
- ﴿ونـزّلنا عليـك الكتاب تبيـاناً لكـل شيء وهدى ورحمـة وبشـرى للمسلمين..﴾ النحل: /٨٩.

وقد اشتمل هذا القرآن على جوانب كثيرة، منها ما يتعلق بالعقيدة، ومنها ما يتناول التشريع، ومنها ما يدعو إلى الأخلاق الفاضلة، ومنها ما يتكلم فيها عن قضايا الخلق والكون والوجود (النظام العام الإلّهي في الخلق والتدبير)، ومنها ما يعرض فيها للأمم السابقة، والأنبياء السابقين، ومنها ما يذكر فيها قضايا الغيب من البعث والحساب والجنة والنار.

القرآن الكريم معجزة الإسلام الكبرى: أجمع عامة الباحثين، من علماء العربية والتشريع والفلسفة أن القرآن معجز، فما معنى أنه معجز؟... هو أن القرآن قد سما في علوّه (علمياً - وتربوياً) إلى شأو بعيد بحيث تعجز القدرة البشرية عن الإتيان بمثله، سواء كان هذا العلوّ في بلاغته، أو تشريعه، أو مغيباته، أو روعة أسلوبه لاسيما حين يخاطب فطرة الإنسان (عقله - وقلبه) أفكاره وعواطفه معاً، بما يتناغم وينسجم مع هذه الفطرة، وكما قال تعالى:

● ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ الإسراء: /٨٨.

وكل المعجزات للأنبياء عليهم الصلاة والسلام: إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم، كانت من النوع الذي يحسّ بالرؤية وليس من النوع العقلي الذي لا يدرك إلَّا بالتأمُّل، وكانت هذه الآيات (المعجزات) حسيّة يوم كان العقل الإنساني في الطور الذي لم يبلغ فيه سنّ الرشد، ويوم أن كانت هذه العجائب تبلغ من نفسية الجماهير مبلغاً لا تملك معه إلَّا الإذعان والتسليم.

فلما بلغ النوع الإنساني يدخل (في المجال العقلي) سن الرشد، وبدأت الحياة العقلية تأخذ طريقها إلى الظهور والنَّماء والتكامل، لم تعد تلك العجائب هي الأدلة الوحيدة على صدق الرسالة، ولم يعد من السهل على العقل أن يذعن لشيء لمجرد رؤيته خارجاً عن عرف الحياة، إنَّه يريد شيئاً جديداً يتناسب مع الطور الذي وصل إليه، يريد الإيمان الذي لا تخالطه الشكوك (الذي يجمع قناعة الفكر إلى اطمئنان النفس - على مستوى الانسجام بينهما)، يريد اليقين الذي يبدِّد ظلام الشبهات.

وما كان الله سبحانه وتعالى ليمدّ النوع الإنساني في طفولته (العقلية) بما يحفظ عليه حياته الروحية، ثم يدعه بعد أن أخذ سبيله إلى التكامل العقلي، والاستقلال الفكري، دون أن يقيم له من الأدلة ما يتناسب مع الارتقاء الذي انتهى إليه، فكان أن بعث محمداً ﷺ، وأيَّده بالمعجزات العلمية والحجة العقلية، وهو القرآن الكريم.

روى البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:

● «ما من نبيّ إلَّا أعطي (أي من المعجزات والآيات)، ما مثله آمن عليه البشر (في تصديق الرسالة)، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

هذا هو القرآن الكريم، وتلك هي المعجزة الخالدة التيْ تحدَّى الله بها الأجيال كلها، فالقرآن معجز في صياغته وبلاغته، معجز في تشريعه (العالمي)، معجز في مغيَّباته، في روعة أسلوبه، في خطابه التوجيهي للإنسان (ككل ـ فكراً وعاطفة معاً) بما يتناغم وينسجم مع الفطرة السليمة والعقل الراشد الراجح، وعلى سبيل المثال نورد الآية الكريمة:

● ﴿وقل للمؤمنين يغضُّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم، إنَّ الله خبير بما يصنعون. وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن...﴾.

١ ـ وجَّه الموعظة (بصورة غير مباشرة ـ وعن طريق الرسول الكريم)، اعترافاً من القرآن (بجاذبية الجنس) الفطرية.

٢ ـ لفت النظر العقلي (فاعلية الفكر) إلى التبصُّر بعواقب الأمور، فإنَّ النظرة الخائنة مقدمة الفاحشة.

٣ ـ عقَّب على تنبيه فاعلية العقل والفكر (بإثارة العاطفة والوجدان)، فإن انحراف العين في رؤيتها، مؤداه أن يطبع في النفس الأثر السيء، ويعكِّر عليها صفاء فطرتها، وهو رأس مالها في إقبالها على الله عز وجل (ذلك أزكى لهم).

٤ ـ ختم الموعظة بخطاب جامع (للفكر والعاطفة معاً) بلفت نظر الإنسان (ككل) إلى علم الله الكامل الشامل للماضي والحاضر والمستقبل، والذي يتفرع

عنه (عن هذا العلم) رقابته سبحانه على الحياة والأحياء ﴿خبير بما يصنعون﴾ والخبرة إنما تعني العلم بدقائق الأمور، كما في الآية الكريمة ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾.

وتأتي الآية الكريمة (التالية) لتوجّه الموعظة نفسها (للجنس الآخر) ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾ لتؤكد من جديد (أن جاذبية الجنس - عنصر مشترك ومتبادل بين الجنسين) معنى الفطرة البشرية وما يعمل على تهذيبها والحفاظ على صفائها وأصالتها واستقامتها على طاعة الله.

روى الترمذي بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرَّم الله وجهه أنَّه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

● «ستكون فتن كقطع الليل المظلم، قلت يا رسول الله وما المخرج منها؟ قال كتاب الله تبارك وتعالى: فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبَّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلَّه الله، هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعَّب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء ولا يملُّه الأتقياء، ولا يخلق (أي لا يبلى) على كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: ﴿إنَّا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد﴾ من علم علمه سبق، ومن قال به صدق ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم». قال تعالى:

● ﴿الرحمن. علَّم القرآن. خلق الإنسان. علَّمه البيان﴾ الرحمن/ ١ - ٤.

أجل - لقد ربّى القرآن الإنسان الفاضل، وبنى الأسرة المتآلفة، وأقام الدولة الراشدة، لحراسة العقيدة، وتنمية الوعي الاجتماعي، وتحقيق الأخوة الإنسانية، وقاد مسيرة الحياة (الفردية - والاجتماعية) نحو التطوُّر والازدهار والتكامل. اللهمَّ آتنا من لدنك رحمة وهيّء لنا من أمرنا رشداً، هيّء للمسلمين وللعالم أجمع من يعود بهم إلى فهم القرآن والعمل بمقتضاه، حتى تتحقق

الأخوَّة الإنسانية، وترتفع في الدنيا رايات الأمن والمحبة والسلام.

آمين - اللهمَّ آمين - وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

في ختام بحثنا عن التعريف بالقرآن الكريم (معجزة الإسلام الكبرى) نقدم للباحث الكريم هدية متواضعة؛ باقة من الأبيات الشعرية من الأخ الفاضل والأديب الشاعر الأستاذ مصطفى عكرمة (من دمشق).

(إيماني بقرآني)

لا شيء يعدل إيماني بقرآني ... فالله أحيا به الدنيا وأحياني

آياته كلما في مسمعي انسكبت ... فيقشعرّ لها قلبي ووجداني

والدمع يهمي، ويهمي كلما تليت ... كأنما ترفد العينين عينان

والروح أحسبها طافت بعالمها ... والفكر حلَّق بي في العالم الثاني

آياته جلّ رب العرش مبدعها ... قد أعجزت كل جنيٍّ وإنسان

لله كم أبدلت يأسي فصار بها ... بأساً سموت به عن كل أحزاني

تنساب فيَّ فتحيي كل جارحة ... ويستفيق بها شوقي وتحناني

فأحسب الكون كل الكون باركني ... والكلّ هنَّاني حباً وحيَّاني

والناس منّي وإني منهم أبداً ... صفٌّ يُرَصّ فيعطي خير بنيان

والنور يغمر ما حولي ويغمرني ... لما أرى الله ناداني بإيماني

عبدٌ أنا.. وهو ربّ لا شريك له ... هو الغنيّ وإني المُجْهَدُ الواني

أحتاج كل ثواني العمر رحمته ... لولاه ما كنت لولاه أنا الفاني

فكيف لا أتباهى حين أسمعه ... بما أحب من الألقاب ناداني

أليس حسبي أن الله خاطبني ... والله أرشدني والله وصَّاني

(يا كتاب الله)

يا كتاباً أنزل الله به ... محكم الآيات تَتْرى عجباً

بك شاء الله للدنيا الهدى ... وبك الله أعزّ العربا

قبلك العرب تناهى ضعفهم ... وتحدّوا بهداك النّوبا

بك طاروا أم تُرى طرت بهم ... في ليال يسبقون الحقبا

حيثمـا كنت لـهـم أو بيـنـهـم هـزمـوا الشِّـرك ونـالـوا الغلبـا
نـظرة مـنـك إذا خـطب دجـا تـلهب البـأس وتمـحـو التعـبـا
كـلّمـا جـدّ زمـان أو أتـى عـجبٌ منـه تـريـه الأعـجـبـا
جـدّةٌ لا لـيس تـبـلى أبـداً وبـيـان سـال لـحـنـاً أعـذبـا
كـل أمـر فيـك أمسى معجـزاً وهـو عبر الـدهـر يبقى الأصـوبـا
كـل لـفظ فيـك أمسى مـعجـزاً بـالـذي يـوحـي ومـمّـا رُكِّـبـا
قـد تـحـدّيت بـنـي الإنس ولـو جـمعـوا الـجنّ وعـاشـوا حقبـا
مـا استـطاعـوا أن يحـاكـوا لفـظه أو يـروا يـومـاً لهـا معنى نـبـا
يـا كتـاب الله يـا مجلى الهـدى كـل خـيـر كنـت فيـه الـسَّببـا
وبـك الـكـون ومـا قـبـل ومـا بعـد يبـدو في وضـوحٍ قَـدْ سبى
كـنـت لـلدنـيـا وتـبـقى مـنـقـذاً تكشف الغـيب وتـمحـو الـرِّيـبـا
ربِّ بـالـقـرآن وحِّـد أمـتـي مـثلمـا وحَّـدت فـيـه الـكـتـبـا

* * *

المبحث الثاني

السنّة النبوية ومكانتها في التشريع

● ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا، واتقوا الله. . . ﴾ الحشر: / ٧.

● «أحبّوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبوني لحب الله إيّاي».

رواه الترمذي في حديث ابن عباس عن رسول الله ﷺ.

الغاية من دراسة السيرة النبوية العطرة، الوقوف الواعي على مواطن الحكمة والرحمة والعدالة في أقواله وأفعاله وأحواله وسلوكه ﷺ في بناء الإسلام. والاسترشاد بقيادته التربوية المثلى، في بناء الإنسان الفاضل، وتربية الأسرة المتآلفة، وإقامة الدولة الراشدة، لحراسة العقيدة وتنمية الوعي الاجتماعي، وتحقيق الأخوّة الإنسانية.

إن هذه الدراسة الواعية للسيرة النبوية الشريفة، تهيب بنا، أن نعيش مع صاحب الرسالة (علماً، وعملاً، وأخلاقاً، وسلوكاً)، في ظروف الزمان والمكان والأشخاص، مع تربيته المثلى، مع حزمه في مواطن الحزم، وتسامحه في موطن التسامح، وحلمه في مقتضى الحلم، وتألفه للقلوب في المـواطن التي تستدعي مثل هذا التصرّف، نعيش مع صاحب الرسالة، (مع سلوكه الحكيم - وقلبه الكبير) نتعلّم بناء الإسلام من البنّاء الأول (الرسول العربي المربّي) والإنسان الفاضل على مرّ الدهور.

السنّة النبويّة
ومكانتها في التشريع

معنى السنّة: كثيراً ما نستعمل في لغة الكلام «الكتاب والسنة» ويراد بالكتاب القرآن، ويراد بالسنة حديث رسول الله ﷺ أو ما ورد عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير. . .

والسنة في الأساس تطلق على الطريقة، ومنها قوله ﷺ:

● «من سنّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده» رواه الإمام مسلم في صحيحه.

ثم أطلقت على الطريقة التي سار عليها الرسول الكريم، ومنها قوله ﷺ: «عليكم بسنتي».

مكانة السنة في التشريع: إذا كان القرآن يمثل المصدر الأول للتشريع الإسلامي، فإن السنة تمثل المصدر الثاني من مصادر التشريع، وتأتي مرتبة السنة في الدرجة الثانية بعد القرآن، لأن القرآن كلام الله المتعبّد بتلاوته، المنقول إلينا بالتواتر، بخلاف السنة فإنها من كلام الرسول الكريم، ولم تنقل جميعها عن طريق التواتر، ولذلك لا يمكن القطع (من حيث الصحة) بما لم يثبت تواتره[1]، كما لا يتعبّد بالسنة، كما يتعبّد بالقرآن.

---

(١) الخبر المتواتر: هو ما يرويه جمع عن جمع عن جمع وهكذا إلى أصل الخبر بحيث يستحيل تواطؤهم على الكذب ويكون مستندهم في كل طبقة الحسّ (من سماع أو مشاهدة)، وهذا النوع من الأخبار موجب للعلم اليقيني.

وتأتي السنة مبيّنة وموضحة ومؤكدة لما ورد في القرآن لقوله تعالى:

● ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزّل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ النحل: / ٤٤.

ولهذا فيجب العمل بالسنة نظراً لارتباطها الوثيق بالقرآن، وقد جاء القرآن مبيناً وجوب طاعة الرسول الكريم، قال تعالى:

● ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولوا الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر... ﴾ النساء: / ٥٩.

تاريخ السنة: تأتي مرتبة السنة بعد مرتبة القرآن مباشرة، ولهذا حظيت السنة بعناية الصحابة والتابعين، ومن جاء بعدهم من العلماء الذين تخصصوا في علم الحديث. ولو تابعنا الجهود العظيمة التي بذلها العلماء في طلب الحديث، ولو درسنا المنهج العلمي الدقيق الذي وضعوه لضبط صحة الحديث، لأدركنا مقدار العناية الفائقة التي بذلت لخدمة حديث رسول الله ﷺ.

التدوين الرسمي للحديث الشريف: في عهد الخليفة الأموي «عمر بن عبد العزيز»، أمر هذا الخليفة عماله على الأمصار أن يقوموا بجمع الحديث وتدوينه. ومهما يكن من أمر، فإن بداية التدوين الرسمي، قد فتحت مرحلة جديدة في تاريخ السنة، حيث بدأ العلماء في كل مصر من الأمصار يبحثون عن الحديث في كل مكان، ويطوفون في الأمصار النائية والقريبة، باحثين عن حفظة الحديث ورواته، ينقلون عنهم، ويدونون في صحفهم ما يسمعون.

وقد اعتمد علماء الحديث على منهج معين، يتيح لهم دراسة أحوال الرواة، ومدى الثقة برواياتهم، ويقوم هذا المنهج على المبادىء التالية[1]:

أولاً ـ النزاهة في الحكم: ويعبر هذا المبدأ عن منهج الإنصاف الذي التزم به علماء الحديث، من حيث الفطرة الموضوعية للراوي، من غير أن

---

(١) ينظر كتاب أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربيّة للمؤلّف ص ٤٢ وما بعدها.

يسمحوا لعواطف الحب والكره أن تؤثر في حكمهم، وكثيراً ما كان الواحد منهم يرفض رواية صديق له أو قريب لعدم توفر الشروط المطلوبة في الراوي.

ثانياً ـ الدقة في البحث: وهذا المبدأ يرتبط بالمبدأ الأول، إذ لا يجوز للمحدث أن يحكم على راوٍ معين بالتعديل أو التجريح، بقبول روايته أو رفضها، قبل أن تتوفر له سائر القرائن والأدلة، التي تؤكد له صدق حكمه، ودقّة نظره، ولهذا نجد كثيراً من المحدثين عندما يطعنون في ثقة أحد الرواة، فإنما يبينون سبب الطعن، لئلا يكون حكمهم مبنيّاً على وهم، فيؤدي ذلك إلى ظلم الراوي وضياع الحديث.

ثالثاً ـ التزام الأدب في الحكم: وهذا المبدأ يرتبط بالأدب الإسلامي الذي يجب على كل مسلم أن يتقيد به، ويحرص عليه وإذا كان النظر في حياة الرواة وسلوكهم ضرورة لصيانة الحديث، فإن من واجب المتحدث أن يلتزم الأدب في بيان رأيه في الراوي، دون أن يذكر ما يسيء إليه، أو يقدح في أخلاقه، ولهذا كثيراً ما يكتفي المحدث عندما يرى في سلوك الراوي أو في ضبطه ما يمنعه إلى الأخذ بروايته بالقول «فلان ليس بثقة»، ما لم يجد راوياً عرف بوضع الحديث والكذب فيه، فحينئذ يحرص على وصفه بالوضع أو الكذب، ليتورع الآخرون عن قبول رواياته. وقبل أن يحكم المتحدث على الراوي بالجرح أو التعديل، فيأخذ بروايته في حال التعديل، ويرفضها في حال التجريح كان يجري دراسة شاملة عنه، فيسأل عن أقرانه ومن عرف بينهم، ويشترط في المعدل والجارح أن يكون عدلاً، ومن الطبيعي أن يرفض المتحدث رواية أهل البدع، ومن اشتهر بالفسق، لأن هؤلاء غير مؤتمنين على ما ينقلونه من رواية خشية التهاون في النقل بالنسبة للفاسق، أو انتصار لبدعة معينة بالنسبة لأصحاب البدع والأهواء[1].

---

(١) هناك كتب عديدة وكثيرة في كل جانب من جوانب علوم الحديث، فهناك كتب خاصة بالرواة منها: كتب الطبقات كطبقات ابن سعد ـ المتوفى عام ٢٣٠ هـ. ومنها كتب تراجم الرواة «رواة الحديث» وأهمها: تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني المتوفى عام ٨٥٢ هـ، ومنها كتب خاصة بالجرح والتعديل وأهمها:
«ميزان الاعتدال» للإمام الذهبي المتوفى عام ٧٤٨ هـ، وكتاب «لسان الميزان» للحافظ ابن حجر العسقلاني.

وهكذا يتبين لنا بكل جلاء، الجهد الجبار والعمل الدؤوب، الذي بذله المحدِّثـون، وهو جهد قدمه هؤلاء العلماء، في سبيل أنبل وأعظم هدف وهو تنقية حديث رسول الله ﷺ ليعود صافياً نقيـاً، لا تخالـطه شوائب الروايات المكذوبة.

الرواية والدراية[١]: يقصد بالرواية نقـل الحديث، والإحـاطة بـطرق أسانيده، وضبط ألفاظـه في السند والمتن. وتحقيق الأسماء وكل ما يتصل بالنقل الصحيح المضبوط في شقيه: السند والمتن، دون البحث في أحوال كل منهما.

ليس يطلب من عالم الرواية الحكم على مرتبة الحديث بالصحة والضعف وغير ذلك، لأن أمر هذا من اختصاص عالم الدراية. عالم الرواية ينقل أحاديث النبي ﷺ نقلاً محرراً بدقة وأمانة كما سمعها، إنه كآلة التسجيل التي تعيد ما سجلت، دون أن يكون لديها القدرة المستقلة على زيادة عبارة، أو حذف أخرى.

أما الدراية فهي تمحيص وتمييز ونقد وبحث في عوامل الحكم على السند بالصحـة أو الضعف، وفي فهم المتن فهماً علمياً.

وعلم الدراية يقوم على فحص الرواية وشروطها وأنواعها وأحكامها وحال الرواة، وقيمة الحديث، ودرجته من حيث الصحة أو الحسن أو الضعف، كما يقوم على البحث في فقه النص، وما يستدل به، وما يقدم من نتائج. وإذا أردنا تشبيهاً يقرّب الرواية والدراية، مثلنا ذلك بالرسالة المسجلة، فساعي البريد يحملها ويحافظ عليها ويوصلها سالمة صحيحة، وهذا ما يشبه حال الراوي، أما الذي يتسلم الرسالة، فهو ينظر أولاً في غلافها، وتاريخ صدورها وورودها، ثم يفضّها ويقرأ محتواها، ويبحث مضمونها، وهو الذي يقدر على الإفادة مما فيها والحكم عليها، وهذا ما يشبه (الداري) رجل الدراية.

مصطلح الحديث: لقد تمخضت الرواية والدراية عن علم جديد، دعاه

---

(١) ينظر كتاب أدب الحديث النبوي للدكتور بكري الشيخ أمين.

المسلمون «مصطلح الحديث» أو علم أصول الأحاديث وهو أنفس ما أوجدته الثقافة الإسلامية من علوم ومبتكرات.

إن مصطلح الحديث أدقّ ميزان علمي، عقلي، لتمحيص الأخبار والروايات، وتمييز زائفها من صحيحها، فقد أحكمت فيه قواعد هذا التمحيص والنقد، كما قسمت فيه أنواع الروايات ومزاياها وعللها تقسيماً بديعاً مستوعباً، ووضعت لها أسماء اصطلاحية تدل على كل نوع من الروايات والأحاديث، بما فيه من هذه المزايا أو العلل.

إن من يطلع على مصطلح الحديث، والمقاييس التي اصطنعها علماء الحديث، والموازين التي نصبوها لوزن الرواة وتقويمهم وقياس عدالتهم، يعجب أشد العجب من الشدة التي أخذوا بها، والحيطة التي احتاطوا بها من أجل صون حديث رسول الله ﷺ وتنقيته من الشوائب، وكان يحدوهم قول ابن سيرين رضي الله عنه:

- إن هذا الحديث دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم.

وفي ختام بحث السنة ومكانتها في التشريع، نأتي على استعراض «شخصية الرسول النبوية».

شخصية الرسول النبوية: لا يكاد الباحث يلقي نظرات في كتاب الله، حتى تتجلّى له شخصية الرسول الكريم واضحة السمات بيّنة المعالم، شخصية أرسلها الله إلى الإنسانية كافة، في أضخم مهمة وأثقل أمانة.

لقد أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق، دين الفطرة الإنسانية، دين الحكمة والرحمة والعدالة، من طبيعة هذا الوجود، ليصل هذا الحق إلى كل أذن، ويلامس كل قلب، وكما قال تعالى:

● ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ﴾ البقرة: / ١١٩.

● ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً. وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ الأحزاب: /٤٥ - ٤٦.

وهذا الحق الخالص المبين، تنزل على الرسول قرآناً عربياً، أوحى به الله إلى رسوله، ليحمل عبء الإنذار والتبليغ:

● ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً، لتنذر أم القرى ومن حولها، وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ﴾ الشورى: / ٧.

ولم يكن إرسال محمد بن عبدالله ﷺ إلا امتداداً لإرسال الرسل إلى الناس:

● ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ آل عمران: / ١٤٤.

● ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ النساء: /١٦٣.

وكما أن إرسال محمد بن عبدالله ﷺ كان امتداداً لإرسال الرسل من قبله، كانت الرسالة التي جاء بها امتداداً لرسالة الله الواحدة إلى الإنسانية، فدين الإسلام الذي يقوم على التوحيد، هو الصورة الكاملة الواضحة لدين الله الواحد الذي بعث به الرسل على فترات من الزمن، وهو الصورة النهائية الشاملة لرسالة الله الواحدة القديمة منذ أن أرسل الله أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وكما قال تعالى:

● ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين ﴾ النحل: / ١٢٣.

ومن هنا كانت رسالة الإسلام مصدقة لما سبقها من الرسالات السماوية التي تنبع جميعاً من ينبوع الحق الواحد[1].

● ﴿ بل جاء بالحق وصدّق المرسلين ﴾ الصافات: / ٣٧.

ووقف رسول الله ﷺ عند مهمته، لم يتجاوز الدائرة التي رسمت له، وإنما التزم الموضع الذي وضعه الله فيه:

● ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول لكم

---

(١) ينظر كتاب شخصية الرسول في القرآن الكريم للدكتور محمد علي الهاشمي.

إني ملك، إن أتبع إلا ما يوحى إليّ ﴾ الأنعام: / ٥٠.

● ﴿ وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى ﴾ النجم: /٣ ـ ٤.

وما كان الرسول الكريم، وهو بشر، ليعلم قبل الوحي شيئاً عن الوحي، وعن الرسالة:

● ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ الشورى: /٥٢.

بل ما كان الرسول يتوقع أن يكرمه الله، فينزل عليه هذا الكتاب، ويختاره لحمل الأمانة:

● ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك، فلا تكونن ظهيراً للكافرين ﴾ القصص: /٨٦.

وتتوالى آيات القرآن الكريم لتقرر الحقيقة الخالدة:

إن رسول الله ﷺ بشر، أوحى الله إليه، وعلمه ما لم يكن يعلم، وقصّ عليه قصص الأمم الغابرة، وأطلعه على كثير من أنباء الغيب:

● ﴿ نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن، وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ يوسف: / ٣.

● ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا، ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾ القصص: /٤٦.

أجل ـ ما كان لمحمد بن عبدالله أن يعلم شيئا من هذا كله، لولا أن السماء همست في أذنه، فقصّت عليه أحسن القصص، ولقنته الخبر اليقين.

لقد كان نزول الوحي على الرسول الكريم بدء عهد الرشد الإنساني الذي أكمل الله فيه للإنسان شريعته وأتم عليه نعمته ووضع له منهاج حياة، خالداً دائماً، ثابتاً في أصوله لا يتغير ولا يتبدل متطوراً متجدداً في فروعه، يوائم الإنسان، ويلبّي حاجاته الطارئة المتغيرة على اختلاف الأزمان والأمصار، وصدق الله العظيم:

● ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ المائدة: / ٣.

الرسول المبلغ رسالة ربّه: لقد شاءت إرادة الله الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعداد للهدى واستعداد للضلال، وأن يدع مشيئتهم حرة في اختيار أي الطريقين، وزوّدهم بالعقل يرجحون به أحد الاتجاهين، بعد ما بثّ في الكون من آيات الهدى ما يراه الإنسان بعينه ويستشعره بقلبه وعقله، حيثما اتجه آناء الليل وأطراف النهار، ثم شاءت رحمة الله بعباده بعد هذا كله ألا يدعهم لهذا العقل وحده، فوضع لهم ميزاناً ثابتاً في شرائعه التي جاءت بها رسله، يثوب إليه العقل كلما غمّ عليه الأمر، ليتأكد من صواب تقديره أو خطئه، عن طريق الميزان الثابت (الوحي) الذي لا تعصف به الأهواء.

وأنزل الله شرائعه متدرجة، إلى أن أخذت شكلها الأخير في رسالة الإسلام التي حملها محمد ﷺ، فبين للناس جميعاً الطريق السويّ، وأمرهم بالسير فيه، كما بين لهم الطريق المنحرف ونهاهم عن التورط فيه.

● «وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله..» الأنعام: / ١٥٣.

أجل ـ إن الإيمان ـ ثقة متبادلة بين الإنسان وخالقه ـ اتصال وتفاعل ونماء، وتجاوب وحياة، وإن الكفر انفصال وسلبية وجحود، وتعطيل الطاقة الكامنة في الإنسان، هو الذي يحجب القلوب عن الإيمان.

إن للهدى والضلال سنناً وضعها الله، وترك الناس (أحراراً) لهذه السنن، يسيرون وفقها ويتعرضون لعواقبها.

ومن هذه السنن أن الإنسان مهيّأ (مستعد) للهدى والضلال، وفق ما يحاوله لنفسه من السير، في طريق الهدى أو طريق الضلال، كما قال تعالى:

● ﴿ونفس وما سوّاها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دسّاها﴾ الشمس/ ٧ ـ ١٠.

فالذي يستحق هداية الله بمحاولته وإقباله على الله (بتعظيم أمر الله،

بطاعة الله وذكره وشكر نعمته)، بجهاد نفسه وهواه، يهديه الله، وهذا هو المهتدي حقاً، لأنه اتبع الهدى، كما قال تعالى:

● ﴿. . ويهدي إليه من أناب. الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله. . ﴾ الرعد: /٢٧ ـ ٢٨.

● ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ المائدة: /١٥ ـ ١٦.

والذين يستحقون الضلال بالإعراض عن دلائل الهدى وآياته، لا يهتدون، وكما قال تعالى:

● ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ سورة صّ: / ٢٦.

● ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ البقرة: / ٢٥٨.

● ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ المائدة: / ١٠٨.

● ﴿إن الله لا يهدي من هو كاذب كفّار﴾ الزمر: / ٣.

● ﴿أفرأيت من اتخذ إلّهه هواه وأضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله، أفلا تذكرون﴾ الجاثية: / ٢٣.

فالقرآن كتاب هداية ونور للمتقين (الذين يعظمون أمر الله ـ بطاعته وذكره وشكر نعمته)، يهدي به الله من اتبع رضوانه، إلى طريق السعادة، والحياة الحرة الكريمة.

فهداية الله فوز في معركة الحياة (لمن اتبع رضوان الله) وثمرة لجهاد النفس والهوى، كما في قوله تعالى في سورة العنكبوت (الآية ٦٩):

● ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين﴾.

أما الرسول، فما عليه إلا أن يلقي حكمته، ويبلغ رسالته ويؤدي أمانته (داعياً إلى سبيل الله):

● ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم...﴾ الأنفال: / ٢٤.

لقد أرسل الله هذا الرسول الكريم، ليحقق برسالة الإسلام الأهداف العليا للحياة الإنسانية، رسالة (علمية ـ تربوية) ربّت الإنسان الفاضل وبنت الأسرة المتآلفة، وأقامت الدولة الراشدة، لحراسة العقيدة، وتنمية الوعي الاجتماعي، وإنعاش القوة المحركة للحضارة الإنسانية.

الرسول والمؤمنون: كان رسول الله ﷺ كل شيء في حياة المسلمين، كان معلمهم ومربيهم، وقائدهم وقدوتهم، ويرى أنه بما حمّله الله من أمانة إعدادهم ورعاية شؤونهم والسّهر على مصالحهم ـ أولى بهم من أنفسهم، وهذا ما أكّده القرآن الكريم بقوله عزّ وجلّ:

● ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجه أمهاتهم...﴾ الأحزاب: / ٦.

ومن ثم توالت الآيات الكريمة تعلّم المؤمنين آداب السلوك معه، وتبين لهم أن شخصية الرسول المنقذ ليست شخصية عادية، وإنما هي شخصية مفضلة مكرمة، اختارها الله لحمل رسالة، فينبغي أن تعطى ما تستحق من الإجلال والتكريم.

● ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً...﴾ النور: /٦٣.

● ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ الحجرات: / ٢.

وتبين الآيات أيضاً أنه يجدر بكل مؤمن بالله ورسوله، أن يكون كيِّساً فطناً،

دمث الخلق حسن المعشر، دقيق الملاحظة، وخاصة مع قائد الأمة ورسولها، لا يدخل بيته إلا بإذن، ولا يغادر مجلسه إلا بإذن.

● ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه، ولكن إذا دعيتم فادخلوا، فإذا طعمتم فانتشروا، ولا مستأنسين لحديث، إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق... ﴾ الأحزاب: / ٥٣.

● ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم، فأذن لمن شئت منهم ﴾ النور: / ٦٢.

وهكذا كان يعلمهم الرسول الآداب الاجتماعية، ويطبعهم على حب النظام والطاعة، ويلفتهم إلى التوجيه الإلّهي الكريم ليصنع منهم صوراً حية من الإيمان المشرق، كأنها قرآن حي يدب على الأرض، كما قال قائلهم:

تروح وتغدو بي على الأرض طينتي ... ويصعد بي نحو السماء فؤاديا
وأصغي إلى وحي السماء يهزّني ... وينساب في الأحشاء كالنبع صافيا
فأغسل قلبي من مناهل طهره ... وأروي به من كان ظمآن صاديا
تحاول أعماقي تشرّب روحه ... لأصبح قرآناً على الأرض ماشيا
أهيم بإسلامي وأبذل دونه ... حياتي وأسخو في علاه بماليا
كذلك يبغيني الإلّه ولم أزل ... على كل حال أحمل الحق داعياً

كان كل فرد منهم النموذج المجسم للإسلام، يراه الناس فيرون الإسلام بحقيقته الموضوعية (علمياً - وتربوياً).

● ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ الجمعة: /٢.

أجل - لقد كان الرسول الكريم ﷺ كل شيء في حياة المسلمين، كان القائد والحاكم، والقاضي والمشرع، والمرشد والمربي والمصلح.

وكان يدعو المسلمين إلى الجهاد ويحضهم عليه، ويربّي فيهم روح

التضحية والاستبسال والاستشهاد، كما كان يتلقى عهد الإيمان من المؤمنين والمؤمنات على السواء:

● ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ﴾ الفتح: / ١٠.

● ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعـونك تحت الشجـرة... ﴾ الفتح: / ١٨.

● ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف، فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم ﴾ الممتحنة: / ١٢.

وكان يأخذ من المسلمين الزكاة، يوزعها على المحتاجين والمستحقين، وفقاً لمبدأ التكافل الاجتماعي في الإسلام يأخذها طيبة بها نفوسهم، راضية بها قلوبهم، لأنها طهرة لقلوبهم وتزكية لنفوسهم، وأداء لحق الفقير (الذي فرضه الله في أموالهم).

● ﴿والـذين في أموالهم حق معلوم. للسـائل والمحـروم﴾ المعارج: / ٢٤ ـ ٢٥.

وكان الفقير ينظر إلى الغني على أنه أخ له، أوتي سعة من المال، لا يملك أن يطغى ويبطر به، وإنما ينفق منه في حدود ما أباح الله له، فالمال كله لله، والإنسان مؤتمن عليه.

● ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه... ﴾ الحديد: / ٧.

● ﴿ وآتوهم من مال الله الذي آتاكم... ﴾ النور: / ٣٣.

ومن هنا كان كلاهما يعيش حياة كريمة ملؤها الرضى والحب والتآخي والتعاطف، وهذه قمة في تكامل التشريع لم يصل إليها نظام في غير هذا الدين.

ولقد كانت صلة الرسول ﷺ بالمؤمنين ـ وهو يشرّع لهم ويعلمهم أمور دينهم ودنياهم ـ صلة القائد المحب الودود الحريص على سعادة أمته في الدنيا والآخرة. ولقد كان طبيعياً أن يكون الرسول ﷺ وهذه منزلته في حياة المسلمين الآمر الناهي والسيد المطاع، الذي لا يرد له أمر، ولا يخالف له رأي.

● ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾. الحشر: /٧.

ولذلك جاءت الآيات البينات تصور أدق تصوير، مكانته العالية، وتبين أن اتباع أمره واجتناب نهيه أمر عظيم الخطورة في حياة المؤمنين، وأنه البرهان العملي على محبتهم لله ومحبة الله لهم.

● ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم. قل أطيعوا الله والرسول. . ﴾ آل اعمران: / ٣١ ـ ٣٢.

وهو ﷺ السيد المطاع، الذي تجب طاعته وتلتزم، لأنها طاعة الله وامتثال لأوامره العليا.

● ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ﴾ آل عمران: /١٣٢.

● ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا ﴾ النساء: /٨٠.

وطاعة الرسول المطلوبة ليست بالطاعة الشخصية المجردة عن معانيها، بل هي الطاعة الموضوعية المنبعثة عن أعماق الضمير، والمرتبطة بطاعة الله، وعلى أنه سفير العناية الإلّهية، ومحبته وطاعته معراج إلى كمال الثقة والإيمان بالله، طاعة ممتزجة بالحب والاحترام والتقدير، لا يشوبها ظل من حرج، ولا يكدرها أثر من اعتراض.

● ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ النساء: / ٦٥.

وهي سمة المؤمنين الصادقين، وسبيلهم الدائم إلى الفلاح والتقوى.

● ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن

يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾ النور: /٥١.

فشخصية الرسول - إذن - هي الحكم الفصل بين المؤمنين إذا بدا شبح النزاع بينهم، وحكمه قطعي لا رادّ له ولا خيرة في قبوله، لأنه حكم الله أوحاه إلى رسوله، فاتباعه أولى، والرضى به أجدر.

● ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر.. ﴾ النساء: / ٥٩.

● ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً ﴾ الأحزاب: /٣٦.

لقد اتضحت لنا من خلال الصفحات السابقة معالم شخصية الرسول الكريم بجلاء ووضوح، فهي الشخصية المتكاملة التي أعدّها الله إعداداً خاصاً لتلقّي وحيه، وتبليغ هديه، وتحكيم شريعته، وهي الشخصية الأولى في حياة المسلمين، وهي الشخصية التي جمعت الفضائل الخلقية العالية، والمكارم الإنسانية الرفيعة، فاتّسمت بالرقة والحنان والتواضع.. بالصبر والسماحة والشجاعة والقوة، بالحكمة والرحمة والعدالة. وقد جلّى عظمة هذا الرسول الكريم كتاب الله الخالد، أوثق كتاب في تاريخ الأمم والشعوب. قال تعالى:

● ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً. وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾ الأحزاب: /٤٥ - ٤٦.

● ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ القلم: / ٤. ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ الأنبياء: / ١٠٧.

في ختام بحثنا عن السنة المطهرة، وعن شخصية الرسول النبوية، نأتي على استعراض صور حيّة عن السنة في مجال التطبيق، لنرى من خلالها الصورة المثلى لمنهاج الدعوة والدعاة، عملاً بقوله تعالى:

● ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ الأحزاب: / ٢١.

لقد بين القرآن المنهج الحكيم الذي ينبغي أن يسير عليه الداعية إلى الحق... وحدّد الإطار الذي يحيط بأساليب الدعوة إذ قال سبحانه:

● ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن... ﴾ النحل: / ١٢٥.

والحكمة هي وضع الشيء في موضعه، أو هي الوسيلة الصحيحة التي تؤدي إلى الهدف الصحيح.

وقد سلك الرسول ﷺ في دعوته لقومه كل المسالك التي تثمر الاستجابة والقبول، حين يزول حجاب الهوى وتنقشع ظلمة الجهل.

وإذا كان العالم في حاجة ماسّة إلى رسالة محمد ﷺ لتقويم اعوجاجه وإصلاح فساده، فإن أمة محمد ﷺ اليوم أصبحت في أمسّ الحاجة للعودة إليها، من باب أولى، فيها شرفهم ومجدهم وعزهم ونصرهم وسعادتهم دنيا وآخرة.

لقد بعث صلوات الله عليه وسلامه برسالة عالمية إلى الناس كافة، وهذه الرسالة بلّغها ﷺ وقد تحمل في سبيلها الكثير، فما وهن لما أصابه في سبيل الله، وما ضعف وما استكان، وإنما جاهد وصبر وصابر، حتى انتصرت دعوته وانتشرت رسالته، فبلغت ما بلغ الليل والنهار.

ولم يكن ﷺ عَجِلاً بنصر الله، وإنما كان على يقين من نصر الله له، وعونه إياه على تحمّل الصعاب واحتمال مشاقّ الطريق. وظل صلوات الله وسلامه عليه في مكة على هذه الحال يتلقّى إهانات الأعداء، ويتعرض لسفاهة السفهاء، ويصبر على أذى الجهلاء، ويدعو أصحابه كذلك إلى الصبر على المصائب والمصاعب التي يتعرض لها من تعذيب واضطهاد وحصار ومقاطعة حتى كان الوقت الموعود والنصر المنشود.

الدعوة ومنهجها في مكة: في مكة عرف أعداء الدعوة أن محمداً ﷺ صادق أمين، وأن رسالته ستنساح في الأرض وتنتشر في العالمين، وسينتفع بها الأطهار العقلاء من المؤمنين. وشاء الله أن يقوى هذا الدين وتظهر هذه الرسالة،

وتنتشر هذه الدعوة، وتخرج من حصارها وضعفها في مكة إلى قوتها ونصرها وعزها في المدينة ففي السنة الحادية عشر من البعثة، عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل شأنه في كل عام. فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم الخير فسألهم: من أنتم؟ قالوا نفر من الخزرج. قال: أمن موالي اليهود؟ قالوا: نعم ـ قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى.. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، ثم انصرفوا ووعدوه بالمقابلة في العام المقبل.

ومن هنا نرى أن الرسول ﷺ حينما تكلم مع هؤلاء النفر من الخزرج طلب منهم أولاً: الاستماع إليه، فلما وجد منهم الاستجابة دعاهم إلى الله عزّ وجلّ، فلما رأى منهم الرغبة عرض عليهم الإسلام، فلما علم منهم الحرص تلا عليهم القرآن كتاب الدعوة ومنهج الرسالة ودستور البشرية.

وهذا هو خط الدعوة الواضح الفريد، ومنهج الداعي القويم الرشيد رسول الله ﷺ.

بدأت الدعوة بالتعارف (مقدمة الإلفة والمحبة)، ثم الإشارة العابرة إلى أساس الدعوة (الإيمان بالله عزّ وجلّ)، ثم إرساء قواعد العبادة، وبعدها تلاوة كتاب الدعوة ومنهج الرسالة.

بناء الدولة وجهاد الأمة: والسيرة النبوية المطهرة تتكفل بإيضاح المنهج العظيم والطريق القويم للرسالة الخالدة، التي أنقذت البشرية من ضلالها وخلّصتها من جاهليتها وطهرتها من فسادها، فنرى فيها دستور الدولة وبناء الأمة وخلاص العالم ونجاة البشرية من الضلالات والأوهام.

١ ـ فعنصر الشورى المهم يتجلى في أبهى صورة وأسمى معنى في غزوة بدر الكبرى حينما قال ﷺ: «أشيروا عليَّ أيها الناس» فتكلم أبو بكر وعمر والمقداد بن الأسود رضي الله عنهم، فقالوا خيراً وأحسنوا الكلام. ولكن الرسول ﷺ ظلَّ يقول: «أشيروا عليَّ أيها الناس» حتى قال سعد بن معاذ رضي

الله عنه: كأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال سعد: لقد آمنَّا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك. فسرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد وقال: سيروا وأبشروا فإنَّ الله وعدني إحدى الطائفتين (الجيش - أو القافلة)، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم..

هكذا: أشيروا عليَّ أيها الناس. ولم يكتف الرسول ﷺ بالمهاجرين، وإنَّما أصرَّ أن يعرف رأي الأنصار، حتى تكلم سعد بن معاذ رضي الله عنه.

٢ - وفي السيرة تحذير من الافتتان والنسيان. الافتتان بالدنيا وزينتها وزخارفها، والنسيان لأوامر الله وأوامر الرسول ﷺ حتى لا تقع الأمة في التنازع فيحدث العصيان والفشل.

ففي غزوة أحد ترك الرماة مواقعهم وكان ﷺ قد أمرهم ألَّا يتركوا أماكنهم حتى ولو تخطفتهم الطير، فلما رأى الرماة في أول الغزوة هزيمة الأعداء وانكباب المسلمين على جمع الغنائم وانشغالهم بهذا الأمر تركوا أماكنهم ونسوا أمر الرسول ﷺ، فدارت الدائرة عليهم وكانت الجروح والقروح، ونزل القرآن الكريم:

● ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم، ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾ آل عمران/ ١٥٢.

أمة جادَّة ورسول عظيم: وفي غزوة الأحزاب تعرض المسلمون لكثرة الأعداء من الخارج، ونقض يهود بني قريظة العهد من الداخل، وبرزت أفكار المنافقين التي تثبِّط الهمم وتضعف العزائم، وراحوا يُرجفون في المدينة، حتى إن أحدهم ليقول: لقد كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه.

ومع كل هذا كان الروح المعنوي للصحابة مرتفعاً، وكان إيمانهم بالله قوياً، وحينما اشتدَّ البلاء بالمسلمين، وكثر إرجاف المنافقين، لم يتزعزع إيمانهم، ولم يضعف يقينهم، بل ما زادهم ذلك إلاَّ إيماناً وتسليماً. قال تعالى:

● ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلاَّ إيماناً وتسليماً﴾ الأحزاب: /٢٢.

المحافظة على ثروات الأمة: وحينما عرض رسول الله ﷺ على سعد بن معاذ وسعد بن عبادة أن يصالح قبيلة غطفان ـ التي أتت مع الأحزاب ـ على ثلث تمر المدينة كي ينصرفوا عن قتال المسلمين، قالا له: يا رسول الله! أهو أمر تحبه فنصنعه؟ أم شيء أمرك الله به؟ أم شيء تصنعه لنا؟. قال: **بل شيء أصنعه لكم كي أكسر عنكم من شوكتهم**. حينئذٍ قال له سعد بن معاذ: ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلاَّ السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فتهلَّل وجه الرسول ﷺ وقال له: أنت وذاك.

وبرزت في هذه الغزوة تلك المعاني العظيمة التي تـدلُّ على أخوة العقيدة، وقوة الآصرة في الله، عندما كان المهـاجرون والأنصـار يحفرون الخندق، وأحب كل منهم أن يضم سلمان الفارسي إلى صفه قال ﷺ: «سلمان منا أهل البيت».

موقف عظيم ورسول كريم: «والذي نفس محمد بيده لا يسألوني خطه يعظمون فيها حرمات الله إلاَّ أعطيتهم إياها» قال هذا رسول الله ﷺ يوم صلح الحديبية الذي كانت بنوده شاقة على نفوس المسلمين، وفي مقدمتهم الفاروق عمر رضي الله عنه.

وفي خطبة الوداع معان عظيمة وإرشادات عالية. فقد تحدث رسول الله ﷺ فيها عن صيانة المجتمع من الدمار فقـال: «إنَّ دماءكم وأمـوالكم وأعراضكم عليكم حرام».

وأبطل ربا الجاهلية، ودماء الجاهلية، ولو كانت تمتّ إليه بصلة. فقال:

«. . . وإن أول ربا أضعه تحت قدمي هاتين ربا عمي العباس بن عبد

المطلب، وإن كل دم في الجاهلية موضوع، وإن أول دم أضعه دم ابن ربيعة بن الحارث، وحذر ﷺ من الشيطان وكيده.

وتحدَّث عن حقوق النساء ومكانة الزوجة ورعاية الأسرة:

«اتقوا الله في النساء، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

ونبّه إلى المنهج الذي يعصم الأمة من الضلال، ويخلصها من الفساد:

«ولقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله وسنّتي»[1].

هذه الخطبة يجب أن يستحضر المسلمون في شتى أنحاء الأرض كل بنودها، وأن يذكروا كل مقرراتها، حتى يستعيدوا مجدهم وعزهم ومكانتهم العالية.

إن غيبة الإسلام عن الساحة في هذه الأيام (غيبته على الحقيقة عن القلوب والعقول ـ وفي ميدان السلوك)، أطمعت فينا اللئام، وجعلتهم يكيدون لنا ليل نهار، ويوم يعود الإسلام إلى الدنيا ويسود العالم، سينتشر في ربوع الدنيا الأمن والمحبة والسلام.

● ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق...﴾ الحديد: /١٦.

وعودة الإسلام إلى الساحة تحتاج من أتباعه أن يعرفوا أولاً أن دينهم هو الحق، وأن رسالتهم هي الباقية وأن منهجهم هو المنهج السليم، وأن حياتهم بدون الدين والرسالة والمنهج ضياع وضلال.

وعليهم أن يدركوا ثانياً أن أمراً عظيماً هو الذي يرفع قدرهم ويعلي شأنهم ويعزّ جانبهم هذا الأمر هو النبوة بكل أبعادها العلمية ـ التربوية، كما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

(١) ينظر مقال للأخ الأستاذ عبد الرحيم مراد في مجلة (رسالة الجهاد) ص ٣٩ وما بعدها، (العدد ـ ٢٨).

أدرك هذا الأمر عباس بن عبد المطلب رضي الله عنه وأرضاه: فردَّ على أبي سفيان يوم الفتح حينما انبهر من جيش المسلمين الذي مرَّ أمامه عندما حبسه العباس عند مضيق الوادي، فقال أبو سفيان عندما رأى جنود الله تمرّ أمامه:

- لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً.

فردّ عليه العباس رضي الله عنه قائلاً:

- إنَّها النبوة يا أبا سفيان. قال: فنعم إذاً. نعم إنها النبوة بثقة وصدق ويقين، وبدونها لن نكون أقوياء وبغيرها لن نصير أعزَّاء.

فليت المسلمين يدركون أن النبوة بظلالها وروحها هي التي تبعث فينا الأمل، وتوقظ فينا الوعي، وتنبّه منا الإحساس والشعور.

النبوة هي التي تقوي الأواصر وتؤلف القلوب وتوحِّد الصفوف، وتصلح ذات البين، ومن بعد النبوة يأتي دور المربين الأكفاء، العلماء الأمناء ورثة الأنبياء، وصدق الله العظيم إذ يقول:

● ﴿واذكروا نعمة الله عليكم، إذ كنتم أعداء فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ آل عمران: / ١٠٣.

● ﴿وألَّف بين قلوبهم، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألَّف بينهم إنه عزيز حكيم﴾ الأنفال: /٦٣.

إنَّ النبوة هي التي جعلت محمداً - صلوات الله وسلامه عليه - سابق العرب، وبلالاً سابق الحبش، وصهيباً سابق الروم، وسلمان سابق الفرس، وجعلت من أصحاب رسول الله ﷺ ركّعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، بل حققت في العرب المسلمين معنى الآية الكريمة:

● ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ آل عمران: /١١٠؛ صدق الله العظيم.

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

وفي ختام بحثنا عن السنة النبوية الشريفة نقدم للباحث الكريم صورة شعرية

جذَّابة ـ تمثل الإطار العام للسيرة النبوية الشريفة ـ من شعر الأخ الفاضل الأستاذ عمر أبو قوس (من المدينة المنورة) بعنوان (بين مكة والمدينة):

بين مكة والمدينة

باقٍ على مرّ الزمن مخلّد ... يوم به ولد النبي محمد
الواهب الدنيا ضياء باهراً ... يحيا البصير به ويشقى الأرمد
ومعلم الإنسان أن حياته ... في الله كنز سعادة لا ينفد
عاش السنين الأربعين بمكة ... والجهل فيها مطبق متلبِّد
والعرب قد عكفوا على أصنامهم ... والظلم فيها شائع ومؤيد
فرثى لشقوتهم ورام نجاتهم ... وأراد عون الله فيما يقصد
متحنّثاً في الغار يدعو ربّه ... مستنصراً ومفكراً لا يرقد
فأتاه جبريل بآيات الهدى ... وَحْياً إليه كلؤلؤ يتسرّد
فيها السعادة للبريّة كلها ... ولقومه فيها العلى والسؤدد
فمضى رسول الله يبلغ قومه ... ما جاءه عن ربِّه ويعدّد
فعصت قريش أمره وعدت على ... أصحابه فمعذّب ومشرّد
رام الحياة لها ورامت قتله ... شتّان مصلح أمره والمفسد
حتى إذا أمعنت في ظلمه ... وبغى عليه قريبه والأبعد
شدَّ الرحال إلى مدينة يثرب ... مستخفياً وبكل أرض مرصد
حتى أتاها سالماً فتزينت ... وقريش غاضبة تقوم وتقعد
وسعى إليه المسلمون وكلهم ... بادي المسرَّة والنساء تزغرد
وعلى السرسول سكينة من ربِّه ... ومهابة يعنو لها المتمرّد
والوجه أزهر ناطق عن رحمة ... في قلبه وعزيمة تتوقد
فأقام مَيْلهم وآخى بينهم ... كأنامل في الكف تجمعها يد
تلك الأخوَّة لا أخوة مثلها ... يبنى بها صرح العلى ويشيّد
ودعاهم الهادي لأول مسجد ... يبنى فشادوه فنعم المسجد
وأقيمت الصلوات فيه يؤمّهم ... فيها ويخطب واعظاً ويردِّد
إني بعثت إلى الأنام متمّماً ... لمكارم فيكم تحبّ وتحمد

واختـاركم ربّ البـريّـة أمـة ... وسطاً تجاهـد في رضاه وتجهـد

فتزوّدوا بالصالحـات فإنهـا ... خيـر وأبقى للّذي يتزوّد

وتجنبـوا الفحشاء والظلم الذي ... عقبـاه في الدارين عيش أنكـد

وإذا دعيتم للسـلام فسالموا ... ومن اعتدى بغياً عليكم فاعتدوا

ولئن عفوتم قادرين فإنـه ... أدنى إلى تقوى القلوب وأرشد

وزكـاتكم والبـرّ لحمة أمركم ... وبهـا يؤلّف شملكم ويوحّـد

وتزول أحقاد الفقير عليكم ... ويحـلّ حبّ بينكم وتـودّد

والنـاس خيرهم الرحيم وشرّهم ... من قلبه جمّ القساوة جلمد

والحج جامعة لكم لتعارفوا ... وتبادلوا الآراء فيه فتهتدوا

وأتمّ خطبته الرسول ومكـة ... ترغي من الحقد الدفين وتزبد

فتجهّزت لقتاله ومشت على ... حَرَدٍ وجند المسلمين مجنّد

وتلاحم الجيشان في بَدْرٍ فذا ... رأس يطير وتلك روح تصعد

حتى تهاوى المشركون على الثّرى ... صرعى وأفلت بعضهم فتبدّدوا

ورأت قريش أن تعود لحربه ... فأتته والأحزاب سعياً تحفد

وبنو قريظة سارعوا في غدرهم ... من بعدما قطعوا العهود وأكّدوا

فأصابهم والمشركون جميعهم ... خزي وخابوا في الحصار فعرّدوا

ومضى رسول الله يجمع جيشه ... لزيارة البيت الحرام ويحشد

ورأت قريش بأسه فاستسلمت ... للفاتح الشّهم الذي لا يحقد

فعفا وطاف محطّماً أصنامها ... ورأى الهدى كفّارها فتشهّدوا

فمضى عزيزاً للمدينة ظافراً ... والدين يُتْهِم في البلاد ويُنْجِد

حتى إذا ما الله أكمل دينه ... وأتمّ نعمته التي لا تجحد

وغدت قلوب العرب قلباً واحداً ... وطريقها للصالحات معبّد

حُمّ النبيّ وحان وقت وفاته ... في موعد ولكل حيّ موعد

فقضى وقد غمر الجزيرة نوره ... وجرى فتوحاً بعده تتسرّد

وحضارة في المشرقين عظيمة ... ما زال ذكر نعيمها يتردّد

ومضت قرون بعد ذاك كثيرة ... ومحمد في العالمين محمّد

* * *

ملاحظة هامة:

الغاية من دراسة السيرة النبوية العطرة: الوقوف (الواعي) على مواطن حكمته ورحمته وعدالته وسلوكه ﷺ في بناء الإسلام والاسترشاد بقيادته التربوية في تربية الإنسان الفاضل وبناء الأسرة المتآلفة وإقامة الدولة الراشدة لحراسة العقيدة وتنمية الوعي الاجتماعي وتحقيق الأخوة والإنسانية.

إنَّ دراسة السيرة العطرة تهيب بنا أن نعيش مع صاحب الرسالة (علماً وعملاً وأخلاقاً) في كل موطن، وفي كل ظرف، مع تربيته المثلى، مع حزمه في مواطن الحزم، وتسامحه في موطن التسامح، وحلمه في مقتضى الحلم، مع سلوكه الحكيم وقلبه الكبير، نتعلَّم بناء الإسلام من البنّاء الأول، والإنسان الفاضل على مرّ الدهور.

المبحث الثالث

ظاهرة التأمُّل في حياة الرسول ﷺ

● ﴿واذكر اسم ربّك وتبتّل إليه تبتيلاً. رب المشرق والمغرب لا إلّه إلّا هو فاتخذه وكيلاً﴾ المزّمل: /٨ ـ ٩.

● «. . . قال فأخبرني عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك. . .». في حديث عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ، وفي نهاية الحديث الشريف: يا عمر. . . أتدري مَن السائل؟ قلت الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

إن ظاهرة التأمّل في حياة رسول الله ﷺ، وتبتّله (انقطاعه) إلى الله، هو الحجر الأساس في بناء التربية الوجدانية في الإسلام (تربية الروح والقلب والضمير)، على حب الله ورسوله.

هذه التربية الإسلامية التي وجَّهت الاهتمام إلى (طهارة الروح ـ والسموّ الأخلاقي) لتكون النفس على مستوى الصفاء والشوق إلى اتباع رضوان الله، بمزيد من ذكر الله وبسلوكية الكتاب والسنة بتوفيق الله.

هذه التربية الإسلامية التي تأخذ بيد المتربّي المسترشد إلى الكمال الأخلاقي، حين تخلّصه (بحكمة) من رعونات النفس واتباع الهوى إلى اتباع رضوان الله، وتقيم في النفس معاني الاستقامة على طاعة الله، وإخلاص العبودية لله، والتواضع لعظمة الله، حتى يكون الفائز (بمؤهل التربية الوجدانية في الإسلام) على مستوى قول الله تعالى:

● ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عَدْن تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها أبداً، رضي الله عنهم ورضوا عنه، ذلك لمن خشي ربه﴾ البيِّنـة: /٧ ـ ٨.

ظاهرة التأمُّل في حياة الرسول ﷺ

تمهيد: التأمُّل في حياة الإنسان يفتح الطريق أمامه إلى إدراك الحقائق، ويدخل به إلى سرِّها، ويبدِّد الظلمات في سبيله إليها، والصخب إنما هو حجب كثيفة تحول دون اكتناه الأسرار، والضوضاء التي تثور في حياة الناس تسدل على العقول والبصائر أغلفة تمنع من الغوصَ في مجالات العلم والبحث عن الحقيقة، بما يجلو غوامض الكائنات وما شفّ فيها، أو بكشف جانب منها. وما لم تتح للمرء فرص التأمُّل والخلوة والبحث والتقصّي، فلن يبلغ الباحث من سرّ الحياة ونورها شيئاً. بل إنَّ العلماء والأدباء والشعراء لم يصلوا إلى علمهم وخواطرهم إلاَّ في هدأة الليل، وسبحة الفكر، وسرحة الخيال بعيداً بغير حدود.

ولقد حرص القرآن الكريم على التذكير بوجوب التأمُّل، وضرورة التَّفكر والتدبُّر، لأن النظر السطحي في خلق الله العظيم، لا يمنح المرء من المحيط العظيم إلاَّ قطرات لا تهدي من الإيمان إلاَّ لسطحه، ولا تخلق عند صاحب النظرة السطحية الساذجة إلاَّ إيمان القشرة. قال الله تبارك وتعالى:

● ﴿إنَّ لك في النهار سبحاً طويلاً. واذكر اسم ربك وتبتّل إليه تبتيلاً﴾ المزمل: /٧ ـ ٨.

● ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيَّناها وما لها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾ ق: /٦ ـ ٨.

● ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت. وإلى السماء كيف رفعت، وإلى

الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت. فذكِّر إنما أنت مذكِّر﴾ الغاشية: /١٦ - ٢١.

- ﴿وفي أنفسكم، أفلا تبصرون﴾ الذاريات: /٢١.
- ﴿أفلا يتدبّرون القرآن، أم على قلوب أقفالها﴾ محمد: /٢٤.
- ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبِّروا آياته، وليتذكر أولوا الألباب﴾ صٓ: /٢٩.
- ﴿إنَّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ قٓ: /٣٧.

والنظر إنما هو نظر الإمعان والبحث والتقصِّي، وما يكون ذلك إلَّا عن تأمُّل، وعن استغراق وعزلة عن كل شاغل.

فالقرآن يدعو بأساليب عدَّة إلى التفكُّر في الكون، واستلهام آياته، وإدامة النظر في عجائبه، لتبدو للناس قدرة الله وحكمته ورحمته وعدالته، وتطمئن قلوبهم لواجب الوجود المنظم المدبّر، الواحد الأحد الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. وبقدر صفاء النفوس وسلامة النظر، وذكاء الوجدان، وطهارة النفس ونقاء الفؤاد، يكون حظ المرء من العلم، ومبلغه من الهدى، وظفره بالإيمان واليقين، والاطمئنان والرضا.

ظاهرة التأمُّل في حياة الرسول ﷺ: ورسالة النبي ﷺ هي دعوة إلى التوحيد، ولا بد أن يكون الداعي إلى التوحيد أشد الناس يقيناً، وأعظمهم إيماناً، وأرسخهم عقيدة، وأحفلهم بالهدى والرضا، وأن يكون صدره متفتحاً على حقائق الإيمان، معيناً من نور الله، يمنح الناس إشعاعات الإيمان وأنوار اليقين.

فالفترة التي سبقت الرسالة المحمدية، كانت بمثابة التدريب لمحمد ﷺ، ليكون داعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، ولا بد أن يكون الشباب في شخصية الرسول الكريم، صقلاً لقلبه وعقله ووجدانه، ليصبح المثل الأعلى في العقيدة والمثل الأعلى للرسالة، التي بعث من أجل تبليغها للعالمين.

في رحلة النبي الأولى إلى الشام أتيحت له الفرصة ليرى الدنيا خارج الجزيرة، وتبصر عيناه صحراء فسيحة الأرجاء، بعيدة المدى، ويرسل بصره في نجوم تلمع، وسماء تشرق، وآفاق تقرب رؤيتها ويبعد مداها.

ويمرّ بمدين ووادي القرى وديار ثمود؛ كما أتيحت له الفرصة ليصغي بأذنه وبقلبه إلى العرب، حين يتحدَّثون عن أمم خلت، وما بقي إلاَّ آثارها.

ولقد أبصر من الشام حدائق فيحا، ومنازه زُهرا، ربما نسي بها حدائق الطائف وما يروى عنها، وكان محمد ﷺ في الثانية عشرة من عمره، لكنه كان لامع العقل، ومرهف الحسّ، ذكي القلب، راجح الفكر دقيق الملاحظة[1]، موهوباً من الله، بـ[illegible]و من صفات متميزة فريدة، تؤهله لأعظم مهمة وأجلّ رسالة وأشر[illegible] غاية.

ولقد كان في جولته تلك، يسأل عن الحق الذي ينشده، غير مطمئن قط إلى ما سُمع أو رُوي من حديث ضلال الجاهلية.

وتتاح للنبي ﷺ فرصة أخرى للتأمل في الدنيا، واستيحاء الكائنات سرّها، وإمعان النظر فيما وراءها وتلك هي رعيه للغنم، هذه المهنة التي تفسح آفاق الصبر، وترخي سدول الرضا، وتعين على التطلع إلى القوة العظيمة المبدعة[2]، التي ضلَّ معاصروه طريقها، فقد رعى الغنم في صباه، وفي منطق المستريح الراضي الشاكر كان يقول: «ما بعث الله نبيًّا إلاَّ رعى الغنم»، ويقول: «بعث موسى وهو راعي غنم، وبعث داود وهو راعي غنم، وبعثت أنا أرعى غنم أهل أجياد».

وراعي الغنم على العموم، ذكيّ القلب والفؤاد يجد في فسحة الجو

---

(١) تحدث عن النبي ﷺ أحد زعماء اليمن - والنبي في سن الفتوة - حين شاهده في أحد المجالس:

«إنَّ هذا الفتى (الموهوب) ينظر إليكم بنظرتين، الأولى كأنَّها نظرة العذراء، فلو كانت ريحاً لأنشرت أمواتكم. والنظرة الثانية، كأنَّها نظرة لبوة، لو كانت سهماً لانتظمت أفئدتكم..

(٢) ينظر مقال الأخ - الدكتور محمد كامل الفقي - في هذا المعنى - مجلة الفيصل العدد (٥٩) العام ١٩٨٢ ص ٢٠ وما بعدها.

الطليق أثناء النهار، وفي تلألؤ النجوم إذا جنّ الليل، موضعاً لتفكيره وتأمُّله، يسبح منه في هذه العوالم حتى يرى فيما وراءها، ويلتمس في مختلف مظاهر الطبيعة تفسيراً لهذا الكون غير منفصل عنه، أليس هو يتنفَّس هواءه، ولو لم يتنفَّسه قضى؟... أليس تحييه أشعة الشمس ويغمره ضياء القمر، ويتصل وجوده بالأفلاك والعوالم جميعاً؟.. هذه الأفلاك والعوالم التي يراها في فسحة الكون أمامه متصلاً بعضها ببعض في نظام محكم، وكما قال تعالى:

● ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون﴾ يّس: / ٤٠.

إنَّ محمداً ﷺ كان يبذل قصارى جهده في حفظ الغنم وصيانتها من أن يندّ بعضها، ومن أن يأكل الذئب القاصي منها، ولعله من خلال جهده العظيم لحماية هذا القطيع وصيانته، فكَّر في القوة الخارقة التي ترعى الكائنات جميعاً. ولعله غاص ببصيرته في هذا المدبّر العليّ العظيم الذي خلق الأرض والسماء ومن فيهما.

إن رعيه الغنم لأهله ولأهل مكة، ولخديجة بنت خويلد، كان سبباً وصله بالحق، ومدارج صعد عليها إلى القدر العظيم من قوة النفس وثبات الإيمان، وهذا هو المدخل الطبيعي للرسالة.

وقد قال من تصدَّى لوصف النبي ﷺ: إن التفكير كان من ملامحه، والتأمل كان يبدو عليه ويلازمه. وقد وجد النبي ﷺ في التأمُّل والتفكير الهادىء في الكون أقوم طريق يصله بالمعرفة، ويمكِّنه من اطمئنان نفسه، واستيحاء ما وراء الكون، فأنست نفسه غار حراء، ووجد راحة صدره في الخلوة به، فكان في غار حراء بعيداً عن صخب الدنيا وضجَّة الناس، كان يلتمس الحقيقة في بديع الكون وغريب نظامه، ودقيق منهجه، وعجيب صنعه.

في هذه الوحدة (وفي هذه العزلة والخلوة)، وفي اجتلاء مظاهر الكون، التمس الحقيقة العليا فأدرك ضلال الناس وغيِّهم، وزيف عبادتهم، فلما أتمّ

سنين عدداً في غاره، زاد بالحق صلة وإليه قرباً، فصار يرى الرؤيا صادقة كفلق الصبح، تلك هي التي كانت تمهيداً لنزول الوحي والتكليف بالرسالة العظمى.

لم يكن محمد ﷺ يخشى الظلام أو رهبة الجبل ووحشة الصحراء، بل إن إقباله على هذه الحياة الروحية إنما ينبع من حب عميق، ووجد عظيم، وإلاّ فَمَن الذي أكرهه على الخلوة بعيداً عن الناس ليتدبَّر في خلق السموات والأرض.

وفي ختام البحث ـ يطيب لنا أن نستمع إلى الأخ الفاضل والأديب الشاعر الأستاذ علي عبد العظيم، الأستاذ بكلية الآداب في الجامعة الليبية، يقدم لنا باقة شعرية من قصيدته (الميميّة) الرائعة، لنقف من خلالها نستنشق عبير ظاهرة التأمل في حياة الرسول ﷺ:

تذكرت في البيت العتيق محمداً	ومن حوله الشّرك العتيّ مخيّم
يقلب عيناً في الوجود بصيرة	تشقّ حجاب الغيب والغيب معتم
يناجي ويستهدي ويرجو ويتّقي	وينشد كشف السرّ والسر مبهم
إلى أن تجلّى الله بالوحي فانجلى	لفطنته السر العميق المكتّم
وعانقه الروح الأمين محيّياً	وأهدى إليه فوق ما يتوهّم
وقال له اقرأ قال ما أنا قارىء	قال بفضل الله تتلو وتفهم
ستحمل باسم الله أسمى رسالة	وحسبك أن الله نعم المعلم
فأشرقت الدنيا بأنوار ربها	وحفّت بها من رحمة الله أنعم

لقد أدركنا بوضوح ظاهرة التأمُّل في حياة الرسول الكريم ﷺ. ولقد كانت مدرسة حراء (ولا تزال) تمثل التربية الروحية في الإسلام، وقل إن شئت «إسلام القلب» أساس التربية الإسلامية الصحيحة، والإيمان الصادق.

التربية الروحية في الإسلام موضوع طريف جذّاب، يجذب قلب الإنسان المؤمن إلى معرفة الله ومحبته وحسن عبادته والترنّم بذكره، يثير اهتمام الإنسان بطاعة الله وتقواه (وتعظيم أمره)، ويخاطب فكره ووجدانه (فطرته) لتحقيق تقوى الله (بإرادة صادقة ـ ورياضة مخلصة) تحت إشراف العلماء الأمناء ورثة

الأنبياء، يجد فيه الطالب الصادق والمسترشد المخلص. التوجيه الواعي إلى صفاء الفطرة (فقهاً لكتاب الله ـ واتباعاً لسنة رسول الله ﷺ) وتزكية النفس (بمزيد من ذكر الله) من رعونات الجهل واتباع الهوى، ويرسم له طريقاً (علمياً ـ تربوياً) واضح المعالم إلى ما يرضي الله.

التربية الروحية في الإسلام، ناحية هامة في الفكر الإسلامي، والمشرفون على هذه العملية التربوية أمثلة حيَّة للحياة الدينية الروحية في أرقى صورها اهتداء واقتداءً بالمربي الأول محمد ﷺ.

وقد أسيء فهم هذه التربية أحياناً ـ وهذا راجع إلى سببين:

الأول ـ جهل بعض الناس بحقيقتها ـ والناس أعداء ما جهلوا.

الثاني ـ ما يصدر عن بعض الأدعياء من تصرفات تسيء إليها والتربية الحقيقية منها براء.

وإذا أردنا أن نعرّف هذه «التربية الروحية» في عبارات علمية موجزة قلنا: إنها علم من العلوم الشرعية التي نشأت في الإسلام، من أجل العناية بجانب الأخلاق، والتذوُّق الروحي للأحكام الشرعية.

فأحكام الشريعة ـ في الحقيقة ـ تنقسم قسمة اعتبارية إلى:

● أحكام تتعلق بالعقائد: كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى وهذه الأحكام هي موضوع (علم العقيدة الإسلامية).

● وأحكام تتعلق بالعبادات والمعاملات: وهذه هي موضوع (علم الفقه).

● وأحكام تتعلق بالأخلاق الإسلامية: وهذه هي موضوع (التربية الروحية في الإسلام) وقد حث عليها القرآن الكريم، وتمثلت في شخصية الرسول ﷺ كالصبر والرضى واليقين والمحبة والتوكل وما إليها، هذه الأحكام الأخيرة كانت موضع عناية خاصة من المربّين الأكفاء، فقهاء مدرسة حراء، فهم أرادوا الارتقاء

بالمسلم إلى مرتبة (التذوّق الروحي للدين ـ أسوة برسول الله ﷺ)، وعملوا جهدهم لبيان طرائق مجاهدة النفس والهوى، من أجل إلزامها بالكمال الخلقي الذي دعا إليه الإسلام، انطلاقاً من مدرسة حراء، من التبتّل إلى الله وتحقيقاً لمقام الإحسان، الذي قال عنه الرسول الكريم ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، فمن هنا نشأت هذه التربية الروحية، وهدفها الأسمى: تربية المسلم على حب الله ورسوله، على الصدق والإخلاص والتواضع لله، على التحقق بالأسوة الحسنة برسول الله ﷺ وبأصحابه الكرام، بإشراف المربين الأكفاء العلماء الأمناء ورثة الأنبياء.

والتربية الروحية في الإسلام ـ كما رأيت ـ موضوع طريف جذّاب بالنسبة للباحث، يثير اهتمامه، ويحوز إعجابه، لأنه يخاطب وجدانه، ويدفعه برفق وحكمة، إلى عالم كله صفاء وجمال وروحانية، ويرسم له طريقاً واضح المعالم إلى معرفة الله ومحبته، والاستقامة على طاعته، فينعم بالاستقرار النفسي إيماناً ويقيناً بالله سبحانه.

المبحث الرابع

المرأة في مرآة الإسلام

● ﴿ ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف. . . ﴾ البقرة: / ٢٢٨.

● عـن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«المرأة إذا صلّت خمسها، وصامت شهرها، وأحصنت فرجها، وأطاعت بعلها، فلتدخل من أي أبواب الجنة شاءت». رواه أبو نعيم، وابن حبان عن أبي هريرة.

الإسلام دين متكامل البناء، عاشت في كنفه المرأة، كما تفيّأ في ظله الرجل، فقد حمّلها الإسلام مسؤولية البناء الأول في كيان الأسرة، وكان لها دور ملحوظ في بناء الدعوة الإسلامية.

فالمرأة المسلمة تلقت أوامر الله، وترجمتها إلى واقـع عملي، حين ساهمت في تربية الأبناء، فكانت مضرب المثل في التضحية والوفاء، والعفّة والفداء.

حمّلها الإسلام مسؤولية الرعاية في بيت زوجها (مالاً، وتربية، وحفظاً، وأمانة) ولا تكون الأمانة قولاً بل سلوك وعمل وتحقيق.

فالمرأة المسلمة زوجة طاهرة، إن غاب عنها زوجها حفظته في ماله وعرضه، وإن نظر إليها أسرّته، وإن أمرها أطاعته، وهي المسؤولة الأولى عن تربية أولاده تربية صالحة، تبعث جيلاً صادقاً مؤمناً طيّباً، متسامياً بنفوس زكية طاهرة، تغرس فيه التضحية والفداء، ليكون بركاناً يتفجّر في وجه أعداء الله، لإعلاء كلمته، ونشر دينه وتعاليمه المقدسة، وبناء مجتمع إسلامي صحيح.

المرأة في مرآة الإسلام

ما كان الله سبحانه ليدع الرجل تحت أثقال الحياة، حتى يخلق له من نظام نفسه، من يذود عنه هموم نفسه ويحتمل دونه الكثير من شؤونه، ويضيء له ما بين يديه من شعاب العيش. تلك هي المرأة قسيمة حياته وعتاد بيته، ومهبط نجواه، وتلك هي آية الله ومنّته ورحمته لقوم يتفكرون. قال الله تعالى:

● ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ الروم: / ٢١.

ينهض الرجل إلى الحياة بعزم وقوة يستمدّان عقله ورأيه، وتستقبل المرأة الوجود بعواطف فيّاضة، يتجلّى فيها قلبها الخفّاق، فإذا ظهر الرجل بمضائه وذكائه، فإن للمرأة غايتها من صفاء القلب، ونقاء السريرة، ما ينبعث عنهما من وفاء وولاء، وحنان وإحسان.

من أجل ذلك كان قول المرأة الصالحة أنفذ في قلب الرجل وأملك لنفسه من كل قول.

ولقد ريع النبي ﷺ لرؤية الروح الأمين أول عهده به، وملكه الفزع منه فلم يجد - وهو صفيّ الله وصفوته من خلقه - من يسرّي روعه ويشدّ قلبه إلا زوجه خديجة إذ تقول:

- كلّا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك تحمل الكلّ، وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الدهر.

ذلك قول المرأة التي آزرت نبيّ الله، وواسته بمالها وقلبها، واحتملت دونه خطوباً جمّة. وتنتقل المرأة إلى طور آخر تبلغه، فتبلغ به غاية ما أعدّت له من شرف العاطفة، ذلك طور الأمومة.

هنالك نرى معاني الحياة من نبعها الفياض، حيث تنزل المرأة عن حقها في الوجـود لمن فصل عن لحمها ودمها، تسهر لينام، وتظمأ ليروى، وتحتمل الألم الشديد راضية مغتبطة، تلك هي التضحية بالنفس بلغت بها الأمومـة غايتها.

المرأة في العصور القديمة: لم تكن المرأة في عصر من عصور التاريخ السحيقة في المكانة التي تليق بها، وكانت الأمم تتفاوت في درجة تجاهلها لها، وإهدار حقوقها، وآخرها أمة العرب (قبل الإسلام)، حيث كانوا يئدون البنات خشية العار، وذلك أمر شديد القسوة، أن يعمد الأب إلى دفن ابنته حيّة، حيث تقضي نحبها تحت أنقاض الرمال المتداعية بفعل أقرب الناس إليها.

قال الله تعالى:

● ﴿ وإذا بشّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودّاً وهو كظيم. يتوارى من القوم من سوء ما بشّر به، أيمسكه على هون أم يدسّه في التراب، ألا ساء ما يحكمون ﴾ النحل: / ٥٨ ـ ٥٩.

وفي اليونان ـ مهد الفلسفة ـ كان اليونانيون القدماء يبيعون النساء في الأسواق، كما يباع المتاع.

فضل الإسلام في تقدم المرأة[1]: وبعث الله سيدنا محمداً بدعوته العظيمة

---

(١) المرأة المسلمة بين الماضي والحاضر:
الإسلام دين متكامل البناء، عاشت في كنفه المرأة كما تفيّاً في ظله الرجل، فقد حمّلها الإسلام مسؤولية البناء الأول في كيان الأسرة. وكان لها دور كبير في بداية الدعوة الإسلامية. فهذه خديجة رضي الله عنها التي حملت مشعل الأمانة، وهدّأت من روع النبي الكريم ﷺ، وتحملت معه مسؤولية الحياة. فكانت ركنه الأول، وأنسه ـ حين خذله قومه ـ وثروته، يوم حمّل الأمانة قالت له: لا يخزيك الله... الله يرعاك يا أبا القاسم، أبشر يا ابن العم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة، وإنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث =

= وتحمل الكلّ، وتقري الضّيف وتعين على نوائب الدهر.

قدّمت له مالها وقلبها الكبير، وآزرته في دعوته، وآمنت بنبوّته. وكذلك جاءت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وسارت في مسيرة الخير.

هكذا عاشت المرأة المسلمة في ظلّ الرعيل الأول... وقد تزايد عدد المسلمات اللاّئي آمنّ وجاهدن مع الرسول الكريم، وأعددن الأبناء لحمل راية الجهاد. من مثيلات خويلة بنت الأزور والخنساء ـ أم الشهداء ـ وغيرها كثيرات... من النساء.

فالمرأة المسلمة تلقت أوامر الله، وترجمتها إلى واقع عملي، وربّت الأبناء، وعلّمتهم بسلوكها وأخلاقها ودأبها... فكانت تضرب المثل في التضحية والوفاء، والعفّة والفداء.

صبرت مع الرجال وضمّدت الجراح، وساهمت في الكيان الأول للمجتمع الإسلامي الكبير، فحمّلها النبيّ العظيم مسؤولية في هذا المجال فقال: «والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيّتها».

حمّلها مسؤولية الرعاية في بيت زوجها: مالاً، وتربية، وحفظاً، وأمانة، وترتيباً وتنسيقاً. والمسؤولية أمانة كبيرة في عنقها، ولا تكون الأمانة قولاً، بل هي سلوك وعمل وتحقيق.

الأمانة تربية ومتابعة وقدرة واستمرار، دأب وصبر، تضحية ومشاركة... وفاء وإخلاص، أخلاق ووئام.

فالمرأة المسلمة زوجة طاهرة، إن غاب زوجها حفظته في ماله وعرضه، وإن نظر إليها سرّته، وإن أمرها أطاعته، وهي المسؤولة الأولى عن تربية أولاده تربية صالحة تبعث جيلاً صادقاً مؤمناً طيّباً، متسامياً بنفوس زكية طاهرة، تغرس فيه التضحية والفداء، ليكون بركاناً يتفجّر في وجه أعداء الله لإعلاء كلمته ونشر دينه وتعاليمه المقدسة... وبناء مجتمع إسلامي. فهذه المؤمنة ـ أم ربيعة الرأي ـ التي تركها زوجها (فرّوخ) وهي حامل، وذهب مجاهداً في سبيل الله، وترك معها خمسة آلاف دينار، غاب عنها زوجها ثمان وعشرين سنة، ثم عاد إليها بعد هذا الغياب الطويل، فسألها عمّا تركه من المال فقالت له: بعد صلاة العصر نتحدّث عما فعلت به. فذهب إلى مسجد الرسول الكريم ﷺ في المدينة، فشاهد عالماً جليلاً من فقهاء المدينة، فحضر درسه وأعجب بعلمه وفقهه، ولما انتهى الحديث عاد إلى زوجته مندهشاً من علمه... وما هي إلا لحظات حتى دخل ذلك العالم إلى البيت فقال له: ومن أذن لك بدخول بيتي؟ (وهكذا فإن الأب والابن لم يعرفا بعضهما)، حيث جاءت الأم وقالت لزوجها: هو ابنك يا رجل... والتفتت إلى ابنها وقالت: هذا أبوك يا ولدي.

ولما تعارفا ـ سلّما على بعضهما سلام عطف وحنان، وجلسا مع الأم يتحدثان، فعند ذلك قالت لزوجها: إن مالك الذي تركته قد أنفقته على ابنك حتى صار عالماً وفقيهاً، كما شاهدت وسمعت.

فسرّ الزوج لما صنعته... فهذه زوجة مثالية وقدوة لغيرها، ونبراس للأمة الإسلامية. فالمرأة المسلمة في ماضيها قرآن ناطق وإسلام متحرك، وأخلاق تسير على وجه الأرض، ولكن ويا للأسف الشديد لم تستمر هذه المسيرة الإسلامية، فتوالت الأحداث وضعف المجتمع =

الإصلاحية، فأوقف سلسلة المظالم التي تواجهها المرأة، وحدّد لها مكانها الطبيعي (في مسيرة الحياة)، وأعلن أنها والرجل في دين الله سواء، وأنزل الله

= الإسلامي، وتلاشت المسؤولية وانحرفت المرأة وانحرف بانحرافها المجتمع، وضعف الإيمان في نفوس أكثر النساء في عصرنا هذا، فصارت المرأة المسلمة صورة لا حقيقة، واسم لا مسمّى، كما قال النبي الكريم في معنى حديثه: «يأتي على الناس زمان لا يبقى من القرآن إلا رسمه ولا من الإسلام إلا اسمه».

فالمرأة المعاصرة تركت دينها واهتمت بمظهرها وشكلها، وزينتها وجمالها، تخلّت عن أوامر ربّها ونبيّها، والتفتت إلى إغراء الآخرين بها، من تبرّج وعطر وإظهار فتنة، فقد فقدت حشمتها وأدبها، وتخلّت عن أخلاقها وقيمها وطهرها وعفافها، وأصبحت سلعة في متناول أيدي الرجال كيفما شاءوا وأرادوا.

لقد سرت إليها صفات المرأة الغربية، وتنكّرت لصفات المرأة المؤمنة المسلمة الطاهرة العفيفة، بحجّة التحرّر من القيود، فتعاليم الإسلام حفظٌ للمرأة وحماية لها، ورفع لكيانها وشأنها وأمان لها من أيدي الغادرين الظالمين الفاسدين، فهي الآن في صراع داخلي بين الإيمان والفساد، فهذا يشدّها وذاك يشدّها، وهي تتخبط تائهة، لا تجد لنفسها قراراً ولا استقراراً ترتاح إليه، ربّت أولادها على الضياع وعدم تحمّل المسؤولية الملقاة على عاتق الجيل الصاعد.

ولا يصبح المجتمع إسلامياً بكل معنى الكلمة، وبكل جوانب ونواحي تعاليم الإسلام، حتى يبدأ الإصلاح من اللّبنة الأولى في المجتمع وهي الأسرة وعلى رأسها الأم التي تعدّ نفسها أولاً ثم تعدّ أولادها ثانياً إعداداً صحيحاً سليماً على الإيمان والتقوى، لأنها المعلم الأول للطفل قبل المدرسة والمجتمع، وهذا مصداق ما قاله الشاعر:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيّب الأعراق

فالأم كيان الأمة ونصف المجتمع وبذرة الرجل وكتاب الطفل في بيته، فهي حاجتنا في شدتنا وأملنا في مستقبلنا.

نداء إليك يا أختي المسلمة، من أم وأخت ومربية ومعلمة ومسؤولة فالعودة العودة إلى كتاب الله، إلى الإسلام بحقيقته وأعماله وفضائله وأخلاقه وعلمه لنحظى بسعادة الدارين: الدنيا والآخرة. ولنعيد فجر الإسلام كما كان عليه، ونحيي سيرة النبي العظيم ﷺ وننشىء جيلاً واعياً مؤمناً مكافحاً ثائراً يحمل راية النضال والجهاد. فلنسلك معاً جادة الصواب والحق لننير الطريق للأجيال الناشئة، لأن الإسلام يضيع منا يوماً بعد يوم، فلنحرص عليه كحرصنا على أنفسنا بل أشدّ، فهو مصيرنا في الحياة والممات.

ينظر مقال الأخت ـ كوكب رمضان ـ في مجلة (رسالة الجهاد ـ العدد العاشر) شوال تموز سنة ١٩٨٣ تصدرها جمعية الدعوة الإسلامية (طرابلس ـ ليبيا).

عليه كتابه العظيم الذي يعلن في وضوح، وفي أكثر من موضع، هذه الحقيقة المشرقة. وكما قال سبحانه وتعالى:

● ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ النساء: / ١.

● ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند االله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ الحجرات: / ١٣.

كذلك قرر القرآن استقلال المرأة عن الرجل، وأنها مسؤولة عن نفسها مسؤولية مستقلة، قال الله تعالى:

● ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ النحل: /٩٧.

● ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض. . . ﴾ آل عمران: / ١٩٥.

وجعله حقاً أصلياً كما في قوله تعالى:

● ﴿ للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن. . . ﴾ النساء: / ٣٢.

وقرر لها حق التصرف بنفسها، وألغى ما كانت عليه الجاهلية من ميراث النساء. كانوا إذا مات الرجل، جاء أحد أقربائه، وسبق إلى امرأة الميت، وألقى عليها الخمار، فكان أولى بها من نفسها. قال الله تعالى:

● ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحلّ لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهنّ لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، وعاشروهن بالمعروف، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ النساء: / ١٩.

ثم سنّ الإسلام للمرأة تشريعاً مفصلاً (في الإرث والزواج والطلاق)، مبيّناً

ما لها وما عليها، ضمن هذا الأساس الحقوقي العادل، المشار إليه في قوله تعالى:

● ﴿... ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف...﴾ البقرة: / ٢٢٨.

ولولا أن الكلمة لا تتسع لشرح أكثر، لأتينا على جميع ما فرض لهن من حقوق، حتى صرْنَ في المجتمع الإسلامي بمكانة حقوقية تحسدها عليها متمدنة القرن العشرين، ونحيل القارىء والباحث على مصدر واحد (هو القرآن الكريم) فليمعن في تدبّر هذه الآيات الكثيرة ـ الخاصة بالنساء ـ توصية بهن، وتشريعاً لهن.

ليقرأ ـ إن أحب ـ في سورة البقرة الآيات: (٢٣٤ ـ ٢٤١).
وفي سورة النساء الآيات: (١١ ـ ٢٥) (٣٢ ـ ٣٤) (١٢٧ ـ ١٢٩ ـ ١٧٦).
وفي سورة النور الآيات: (٢ ـ ١١ ـ ٢٣ ـ ٣١ ـ ٣٣ ـ ٦٠).
وفي سورة الطلاق الآيات: (١ ـ ٦).

ففيها جميعاً تفاصيل وافية عن حقوق النساء (في الزواج، والطلاق، والميراث)، وفيها تشريع كامل لجميع علائقهن وأحكامهن في الحدود والعبادات والمعاملات.

ويكاد الوحي لا يذكر الرجال في مكرمة أو تشريع، أو ترغيب أو ثناء، إلا ذكر النساء معهم، وما أكثر ما تجد في التنزيل العزيز أمثال قوله تعالى:

● ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾ الأحزاب: / ٣٥.

لقد رفع القرآن منزلة المرأة الأدبية، فبقيت في سماء المجتمع الإسلامي شيئاً مقدساً تتطاول إليه الأنظار بالحرمة والرعاية. وقد ذكروا أن عمر بن الخطاب

رضي الله عنه خرج يوماً ومعه الناس، فمر بعجوز فاستوقفته فوقف فجعل يحدثها وتحدثه، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين: حبست الناس على هذه العجوز؟! فقال: ويحك... أتدري من هي؟... هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، هذه خولة بنت مالك بن ثعلبة، التي أنزل الله فيها:

● ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ المجادلة: / ١.

في هذا الجو من الاحترام والتقديس تمتّعت المرأة بنعمة الإسلام.

مجمل حقوق المرأة في الإسلام:

● على والديها القيام بحسن تربيتها حتى تلحق بالنساء، فإذا مات أحدهما كان لها من تركته حصة مقررة تستولي عليها، وعلى أبيها أو أخيها النفقة عليها حتى تتزوج، فإذا أدركت، كان لها مطلق الحرية في اختيار زوجها، وليس لأي مخلوق (والداً كان ـ أو حاكماً)، أن يحدّ من هذه الحرية التي وهبها الله لها كاملة غير منقوصة. قال ﷺ:

● «لا تنكح الأيّم حتى تستأمر، ولا البكر حتى تستأذن، والبكر إذنها صمتها». رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة.

فإن أصبحت زوجاً للرجل كان لكل منهما على الآخر حقوق، وله مثلها، وعلى الرجل النفقة عليها من ماله، فإذا صارت أمّاً فقد تمّ لها أسمى ما تطمح إليه من الاحترام والتبجيل، وعلى الولد أن يبذل كل وسعٍ في برّ الوالدين والإحسان إليهما وطاعتهما.

وفي جميع هذه الأدوار تبقى مستقلة فيما تملك، ولا يشاركها (حق التصرف فيه) مشارك: لا زوج، ولا أخ، ولا والد. ولها نصيب مفروض ـ على حسب الورثة ودرجة قراباتهم ـ من ميراث الأب والأخ والزوج والولد، كما أن مهرها حق خالص لها، تتصرّف فيه تصرفها بميراثها وملكها.

جهاد الرسول الكريم ﷺ في سبيل المرأة: ولم يأل الرسول الكريم ﷺ

جهداً في بثّ حكمه الغالية في قلوب أصحابه، وصيّة بالنساء، كلما آنس داعياً إلى القول، واستفاضت هذه الأحاديث استفاضة شافية، توصي بالمرأة أمّاً، وتوصي بها زوجاً، وتوصي بها بنتاً، وتوصي بها جنساً.

وأما التعليم فقد فرض النبي ﷺ عليها أن تطلب العلم، كما في الحديث المشهور:

● «طلب العلم فريضة على كل مسلم» أخرجه ابن ماجة، وقال السيوطي يبلغ رتبة الحسن.

وإن حكم الحديث الشريف هذا عام يشمل الجنسين، وعليه إجماع العلماء[1].

وهذا التعليم الذي فرض على النساء، يتناول أركان الإيمان، وأداء الفرائض الدينية، ويتناول أيضاً معرفة ما تحتاج إليه للقيام بواجباتها، بالنسبة لمصالح الحياة التي تخصّ المرأة.

وقد أحسّت المرأة (نتيجة لهذا الحث النبوي) بحاجتها إلى العلم، فذهبت تسعى إلى النبي ﷺ تطلب منه مجلساً خاصاً بالنساء. ففي حديث البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال:

● «جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه تعلمنا مما علّمك الله، قال: اجتمعن في يوم كذا وكذا في مكان كذا، فاجتمعن فأتاهن فعلّمهن مما علّمه الله».

ويجب أن تكون التربية على مستوى تنمية مواهب المرأة الفطرية، كي تكون بحق صانعة الأمة ومربية الجيل ومحور المجتمع الذي يرفع رأسه معتزّاً بتربية الإسلام (علماً وعملاً وأخلاقاً).

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيّب الأعراق

---

(١) ينظر كتاب ـ ماذا عن المرأة ـ للأخ الدكتور: نور الدين عتر، ص ٣٠ وما بعدها.

ربّـوا البنـات على الفضيلة إنهـا   في المـوقفيـن لهـن خيـر وثـاق
وعـليكـم أن تستـبيـن بنـاتـكـم   نـور الهـدى وعلى الحيـاء البـاقي

المساواة (الموضوعية) كما يراها الإسلام:

لا تزال هناك أمور يحسن بحثها عن المرأة، وطالما خدع بعض الناس بتمويه وجه الحقيقة فيها، منها المطالبة بالمساواة بين الرجل والمرأة، وهو مطلب عادل إن كانت المساواة المطالب بها هي المساواة (الموضوعية) في دين الله ذلك المبدأ الأزلي العظيم، الذي يقضي بتوزيع الحقوق والواجبات على سبيل التكافؤ، وعلى صعيد الاختصاص الفطري في مثل قوله تعالى:

● ﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف... ﴾ البقرة: / ٢٢٨.

● ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض... ﴾ آل عمران: / ١٩٥.

أما حين تتخذ المطالبة (بالمساواة المزعومة)، مظهر التّجاهل التام للفروق الواضحة بين الجنسين، في الخلق والتكوين والموهبة والاستعداد الفطري، فهذا هو الخداع الواضح، والقول المردود.

فالله تعالى أعلم وأحكم بخلقه من خلقه، ساوى بينهم في عقيدتهم إذا أخلصوها، وساوى بينهم في أعمالهم الصالحة إذا تساووا في حجم الطاعة والإيمان بالله، لكنه سبحانه وتعالى اختص كل جنس بمواهب خاصة وقدرات معينة لا يقدر عليها غيره. جعل الإرادة راجحة عند الرجل، كما جعل العاطفة أوفر عند المرأة، لتتم عمارة الكون كما أراد الله في توزيع الاختصاص، والتكافؤ في المواهب الفطرية، لتتجه مسيرة الحياة نحو غايتها، في التطور والأزدهار والتكامل.

روي أن أم سلمة ـ زوج النبي ﷺ ـ ومعها نسوة قالت: «ليت الله كتب علينا الجهاد كما كتبه على الرجال، ليكون لنا من الأجر مثل ما لهم»، فنزل قوله تعالى:

● ﴿ ولا تتمنّوا ما فضل الله به بعضكم على بعض، للرجال نصيب مما

اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن، واسألوا الله من فضله، إن الله كان بكل شيء عليماً ﴾ النساء: / ٣٢.

وقد قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله، تعقيباً على هذه الآية الكريمة:

﴿ ولا تتمنّوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾، أي لا ينبغي للمرأة المسلمة أن تستثقل فضل الله، لزوجها عليها وقوامته الشرعية، وتعدّ ذلك خافضاً لقدرها، فإنه لاعار على الشخص إذا كان رأسه أفضل من يده، وقلبه أشرف من معدته مثلاً، فإن تفضيل بعض أعضاء البدن على البعض (يجعل بعضها رئيساً وبعضها مرؤوساً) إنما هو لمصلحة البدن كله. فقوامة الرجل على المرأة لا تعني تفضيل معدن الرجل على معدن المرأة، فهما شقيقان في الإنسانية، ينحدران من نفس واحدة، وهو تفضيل لا يغضّ من إنسانية المرأة، فإن فضل الله ـ على الحقيقة ـ معقود بالتقوى والإيمان وتعظيم أمر الله، بتزكية النفوس وحسن تربيتها، لتكون أهلاً للقيام بجلائل الأعمال، التي تبنى بها الحياة السعيدة الكريمة (. . . إن أكرمكم عند الله أتقاكم)، وإنما هو تفضيل اقتضته حكمة الله في النظام الغام الكوني للحياة، يشير إلى توزيع الاختصاص وتوحيد المسؤولية (مسؤولية الإشراف) في مسيرة الحياة المشتركة، لتسير حياة الأسرة سيرها الطبيعي (على صعيد التعاون البنّاء) نحو التطور والازدهار والتكامل.

هل هناك أعظم من دور المرأة في تربية أطفالها، وإعدادهم إعداداً متكاملاً (بالتعاون مع زوجها) لخوض معركة الحياة، كما أرادها الله حرة كريمة؟ . . .

هذه هي المرأة في مرآة الإسلام، وقد كانت زوجات النبي ﷺ في حياته مرجعاً في مسائل الدين والفقه، وكان بيت كل واحدة منهن مدرسة يجتمع فيها طلاب العلم والحديث، فيأخذون عنهن أحكام الشريعة وغيرها من العلوم والحكمة، فلما انتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربّه، بقيت هذه البيوت مثابة للناس، يقصدونها متعلمين، مستفتين، فكانت تهدي الحائر، وتعلم الجاهل، وكان من رحمة الله بهذه الأمة أَنْ طال عمرهن بعده ﷺ، فنقلن لأمته كثيراً من سنّة النبي ﷺ، وخاصة فيما لا يطلع عليه إلا النساء، فعن طريقهن عرف

المسلمون أحواله المنزلية، وعنهن رووا كثيراً من وقائع سنّته الشريفة التي لولاهن لضاعت، وكانت بيوتهن بمنزلة مدارس مفتحة الأبواب يتعلم فيها النساء والرجال (دينهم) على السواء.

وفي ختام البحث عن المرأة في مرآة الإسلام، يطيب لنا أن نقدم باقة من الأبيات الشعرية للأخ الفاضل الأستاذ أحمد محمد صديق، من (الدوحة ـ قطر) نشرتها مجلة رابطة العالم الإسلامي بعددها رقم (١١) تاريخ (محرم ١٤٠٥ هـ ـ تشرين الأول ١٩٨٤) وهي بعنوان (حرّة أنت).

حرّة أنت يا ابنة الإسلام   في إطار من الشريعة سامي
حرّة تطلبين علماً ونوراً   تسلكين الطريق نحو الأمام
وتربّين للأجيال جيلاً   هو ذخر الحمى ودرح السلام
علّمي النشىء كيف تؤتى المعالي   علّميهم نهج الهداة الكرام
وأعدّي من الفضائل زاداً   لصلاح الأبناء منذ الفطام
واحملي مشعل الهداية للنا   س وسيري في عفّة واحتشام
ليس في الدين غير ما يسعد الإنـ   ـسان فاستمسكي بهذا الزّمام
لا تقولي إن الشريعة قيد   تلك دعوى المكابر الهدّام
ما أرادوا لك السعادة لما   جعلوا الغرب مصدر الإلهام
ليتهم يدركون ماذا جنينا   من حصاد التغريب من آلام
يحسبون الرقيّ في شهوة الإفـ   ـلات يا للذهول والأوهام
إن حرية بغير قيود   هي فوضى تقود نحو الصّدام
هل ترين السماء والفلك الدوّ   ار يمشي في دقّة ونظام
ليس شيء في الكون لا يحكم القا   نون مسراه رغم هذا الزّحام
إنها فطرة الوجود فمن خا   لف عنها ضلت خطاه المرامي
إن طاعة الإلّه ضماناً   لسداد المسعى وحسن الختام
الهدايات منهج الله للإنـ   ـسان عدل السماء في الأحكام
فهي للناس شرعة وهي في الكو   ن نواميس حكمة وانتظام
مثلما تخضع السموات والأر   ض يعنو لله وجه الأنام
والسعيد السعيد من ألزم النّف   ـس هداها حرّاً وفي الذّمام

المبحث الخامس

العقل في مرآة الإسلام

● ﴿إنَّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكَّرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانك فقنا عذاب النار﴾. آل عمران: / ١٩٠ ـ ١٩١.

● «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به». عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ أخرجه الطبراني، وقال الإمام النووي، حديث حسن صحيح.

يقول حجة الإسلام ـ الإمام أبو حامد الغزالي ـ رحمه الله، في كتابه القيِّم (معارج القدس في مدارج معرفة النفس):

«إن العقل لن يهتدي إلى كماله المنشود، إلاَّ بتوجيه الوحي الإلٰهي (الموصوف بالعصمة ـ والبريء من ازدواجية القيادة)، ذلك، لأن العقول متعدِّدة بلا حدود، والأمزجة مختلفة كذلك والعقل متدرِّج في مقاييس الذكاء، فعلى أي عقل نعتمد؟ . . وهل عصم أي عقل من نوازع الأهواء؟ قال تعالى:

● ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾. المائدة: / ١٥ ـ ١٦.

العقل في مرآة الإسلام

للعقل مكان رفيع في الإسلام، فالقرآن يخاطب العقل ويبني الإيمان على نظر العقل وأدلته، وقد دعا القرآن الكريم إلى تقدير العقل والرجوع إليه فيما اختص به من تفكير.

ويحرص القرآن على تأكيد هذا المعنى بشكل يلفت النظر ويثير الاهتمام. وقد وردت مادة «عقل» بصيغة المضارع: يعقلون، تعقلون، يعقل، نعقل، في أكثر من خمسين آية.

والعقل في اللغة ضد الحمق، وسمّي العقل لأنه يعقل صاحبه عمّا لا يحسن، وهو القوة المهيّئة لقبول العلم والمعرفة. ويشير القرآن الكريم إلى العقل بمعانيه المختلفة، مستخدماً لذلك كل الألفاظ التي تدل عليه أو تشير إليه من قريب أو بعيد، من التَّفكر والنظر والتدبُّر والحكمة، والتذكُّر، والعلم، والفقه، والرُّشد إلى غير ذلك من الألفاظ التي تدور حول الوظائف العقلية على اختلاف معانيها وخصائصها.

والقرآن الكريم لا يذكر العقل إلاّ في مكان التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه.

العقل وخصائصه: والعقل في مدلول لفظه العام ملكة يناط بها الوازع الأخلاقي، أو المنع من المحظور والمنكر. ومن خصائص العقل أنه ملكة الإدراك التي يناط بها الفهم والتصوُّر وقبول العلم، وهي على كونها لازمة لإدراك الوازع

الأخلاقي، وإدراك أسبابه وعواقبه، تستقل أحياناً بإدراك الأمور، فيما ليس له بالأوامر والنواهي.

ومن خصائص العقل أنه (يتأمَّل) فيما يدركه، ويقلّبه على وجوهه، ويستخرج منه بواطنه وأسراره، ويبني عليها نتائجه وأحكامه. وهذه الخصائص في جملتها تجمعها (ملكة الحكم)، وتتصل بها (ملكة الحكمة)[1] وتتصل كذلك (بالعقل الوازع)، إذا انتهت حكمة الحكيم به إلى العلم بما يحسن وما يقبح، وما ينبغي له أن يطلبه، وما ينبغي له أن يأباه. ومن أعلى خصائص العقل الإنساني (الرشد)، وهو مقابل لتمام التكون في (العقل الرشيد).

وفريضة التفكير في القرآن الكريم تشمل العقل الإنساني بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ومدلولاتها فهو يخاطب العقل الوازع، والعقل المدرك والعقل الحكيم والعقل الرشيد.

وخلاصة القول (في العقل وخصائصه): إنّ العقل الوازع يعقل صاحبه عما يأباه له التكليف، والعقل المدرك فهم وفكر يتقلب في وجوه الأشياء وبواطن الأمور ليدركها على حقيقتها، ومثل ذلك العقل الحكيم الذي تصقله التجارب، فيصيب الأهداف ويحقق الغايات، والعقل الرشيد هو الذي تكامل فيه الاستعداد والتكوين، وأصبح على مستوى المهارة في قيادة الذات نحو الكمال[2].

---

(١) الحكمة (في الأصل) معرفة الأشياء بحقائقها بأسبابها ونتائجها، والحكمة (في الواقع) إصابة الهدف في القول والعمل، وحكمة القانون أسبابه الموجبة، ومن الحكمة العملية وضع الشخص الملائم في المكان المناسب، وفعل ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي على الشكل الذي ينبغي (أي التصرف على ضوء الملاءمة للظروف زماناً ومكاناً وأشخاصاً).

(٢) العقل (على العموم) رشد (وعي متكامل) يميز بين الهداية والضلال والسعادة والشقاء، هو منبع العلم ومطلعه وأساسه، وهو أيضاً (ميزان التعادل ـ والتوازن في الإنسان) وسرّ الله فيه، وعلاقته القائمة بينه وبينه، به تعرفه (أي تدرك حكمته ورحمته وعدالته)، وتعرف نفسك، حيث خلقك فسوَّاك فعدلك، وتعرف مبدأك ومنتهاك وتعرف مكانك في الوجود الذي أنت فيه.
وعقل الشيء معرفته بدلائله، وفهمه بأسبابه ونتائجه. العقل ـ على الحقيقة ـ قبس من نور الله ـ وميزان الله في أرضه، هو مناط التكريم والتكليف والمسؤولية في الإنسان، أودع الله فيه خصائصه المميزة، وقوانينه المنظمة (كمركز قيادة في الذات الإنسانية)، يمكّن الإنسان من =

والعقل الذي يخاطبه الاسلام، هو الذي يدرك الحقائق، وقد اتخذ له الاسلام منهجاً في تحريره من قيود الأهواء وأسر الشهوات الرخيصة، والحفاظ على أصالته، ليعمل بنشاط (في مجال اختصاصه) في ميادين الخير، وما يفيد المجتمع الاسلامي والانساني (علماً، وحضارة، وازدهاراً).

وأولْ دعائم المنهج الاسلامي في تحرير العقل والفكر، تحرير الانسان من أصفاد الجهل وظلمته، لأن الجهل هو الذي يطمس الحقائق، ويجعل النفوس مستعدة لقبول الزّيف والبدع والأهواء المضلّلة وكما قال الله تعالى:

● ﴿أفَحُكْم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يؤمنون﴾ الآية/ ٥٠ ـ من سورة المائدة.

والدّعامة الاسلامية في المنهج الاسلامي لتحرير العقل والفكر ـ بعد فريضة العلم على كل مسلم ـ تحرير الانسان من طاعة الأهواء، والانقياد الأعمى لمغرياتها، لأن طاعة الاهواء (بهذا المعنى) من أقوى عوامل الانحراف عن الصراط السّويّ في ميدان السلوك. وهؤلاء الذين يطيعون الأهواء (هم الغافلون عن طاعة الله وذكره وشكر نعمته ـ الشّاردون عن وصيّته والاستقامة على منهاجه) لا يستقيم لهم رأي، ولا تعتدل لهم موازين، ولا يخضعون لحقّ ليس في جانبهم، ولهذا عني الاسلام بتحذير الناس من اتباع الهوى، وأهاب بهم للاستجابة الى نداء الله، الذي يعني الانقياد الى القاعدة العامة ـ العلمية التربوية ـ في السلوك، والذي يجب أن يخضع لمقتضاها الجميع.

ونعى على المتّبعين لأهوائهم ضلالهم وانحرافهم، وحرمانهم من هداية الله وتوفيقه وعنايته، كقوله تعالى:

● ﴿فان لم يستجيبوا لك، فاعلم أنما يتبعون أهوائهم، ومن أضلّ ممّن اتبع هواه، بغير هدى من الله، إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ الآية/ ٥٠ من سورة القصص.

تابع (أخي الباحث) الحاشية الواردة في ص ٩٧ :

= يمكّن الانسان من التلاؤم مع واقعه، وتنمية مواهبه ومكاسبه، وتنسيق علاقاته بالآخرين، تحقيقاً لغاية وجوده.

● ﴿ولا تتبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ صٓ: /٢٦.

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال:

● «لا يـؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

هكذا نرى أن الإسلام كما حرَّر الإنسان المؤمن من أصفاد الجهل (حين ألزمه بطلب العلم والمعرفة)، عمل على تطهير النفوس من الأهواء المضللة، بحسن تربيتها وتوجيهها إلى طاعة الله وذكره وشكر نعمته وتعظيم أمره، لأن ذلك من أكبر العوامل في تنمية القوى الواعية، وفي اعتدال النظر والتفكير واستقامة السلوك على ما يرضي الله سبحانه وبالتالي الارتقاء بالعقل إلى كماله المنشود.

العقل عند الإمام أبو حامد الغزالي: والعقل فيما يرى (حجة الإسلام - الإمام الغزالي) نوعان أو مستويان: العقل المطبوع، والعقل المسموع.

المستوى الأول - العقل المطبوع: وهو العقل الغريزي الفطري الذي وهبـه الله استعداداً طبيعياً للمعرفة والتعلُّم وبهذا الاستعداد يميز الصبي عدداً من المبادىء العقلية الأولية أو البديهية، وهي التي تسمِّيها الفلاسفة (المبادىء الضرورية للمعرفة)، مثل الاثنين أكثر من الواحد، وأن الشخص الواحد أو الشيء الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد وأن هذا العقل الفطري يستطيع أن يميز بين (الجائزات) وبين (المستحيلات).

المستوى الثاني - العقل المسموع: وهو الذي تحصل به المعلومات الكسبية، أي التي تكتسب من خلال التجربة، مستعيناً بذلك بملكة العقل الفطري، من مبادىء عقلية أولية ضرورية وفطرية (كعقل الطبيب) و(عقل المهندس) وما إلى ذلك، فالنفس الإنسانية مؤهلة بما وهبها الله من فطرة سليمة وعقل غريزي أن تصل إلى طريق الرشاد (العقل المتكامل) (فطرة - واكتساباً). إن هي أحسنت استخدام قواها الواعية واستجابت إلى فطرتها السليمة.

وأما إذا أساءت استخدام (المواهب - والمكاسب)، وتنكرت لفطرتها السليمة، بسبب اتباع الهوى - المجرَّد عن الوعي العلمي التربوي الصحيح -

فإنها تحيد عن الطريق السويّ، وتقع عليها التبعة (المسؤولية) ويحق عليها الحساب، وكما قال تعالى:

● ﴿لا يكلف الله نفساً إلاَّ وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ البقرة: /٢٨٦.

● ﴿ونفس وما سوَّاها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكَّاها. وقد خاب من دسَّاها﴾ الشمس: /٧ ـ ١٠.

والمعنى ـ فألهمها: (أي وهبها ملكة التمييز).

ـ قد أفلح من زكاها: (طهَّرها من رعونات الجهل واتباع الهوى، ونزعات الانحراف فيها ـ بأن سلك بها الطريق التربوي الصحيح).

ـ وقد خاب من دسَّاها: (أهمل تربيتها ـ وأخفى مزاياها ـ بالجهل والفسوق والعصيان واتباع الهوى).

ويتابع الإمام الغزالي، حديثه عن العقل (ميزان الله في أرضه) فيقول:

إن الوحي وإن كان تعليماً من الله، فهو إنما يأتي للبشر بلغاتهم، وبحسب مفهومات عقولهم، لما في عالمهم وما في أنفسهم، غير أن حقائقه ومقاصده (تحتاج في كثير من الأحيان ـ وفي أمور معينة) إلى فهم يتجاوز ظواهر الألفاظ، ويعلو على ظواهر الأشياء، ويحتاج إلى تأويل يرفع الفكر إلى الحقائق التي يشتمل عليها التعليم الإلّهي. **وهكذا تظهر مشكلة فهم الوحي، ودراسة العلاقة بين ما جاء فيه، وبين ما يعرفه الإنسان أو يتصوَّره، بما لديه من وسائل المعرفة.**

والإمام الغزالي يقف في تاريخ الفكر الإسلامي عالماً بالدين، وناقداً للفلسفة، وصاحب رأي طريف في العلاقة بين الوحي والعقل (بعد أن يشرح فاعلية العقل كأداة للمعرفة والبرهان الصحيح).

وعند (الإمام الغزالي)، في كتبه المنطقية، أن العقل أداة المعرفة، لكن الحواس تشوّش عليه (إدراك الحقيقة ـ على ما هي عليه في الواقع ـ)، وهذا

يوجب نقد المعرفة الحسيّة، وعلى سبيل المثال: (هل الشمس على حقيقتها ـ كما يراها الحسّ ـ ؟).

والخيال أيضاً (أو الوهم ـ كما يسميه الغزالي)، يشوش وظيفة العقل، فعلى الإنسان العاقل (المتدبِّر ـ الراشد) أن يحارب سلطان الوهم، لكي يستطيع تصوُّر الأمور المجرَّدة، والحقائق غير المحسوسة[1].

ويهتم (الغزالي) أيضاً في كتبه تلك، بأن يبين مصادر حكمنا على الأشياء، ويتناولها جميعاً بالفحص فيميِّز ما هو منها يقيني، يمكن أن تبنى عليه أحكام صحيحة، وفي ثنايا ذلك يبين أسباب الخطأ، وكيفية تفاديها ويعالج مفهوم اليقين وشروطه، وشروط البرهان الصحيح، وهذا نجده في فصول رائعة من تلك المصنَّفات المنطقية مثل (محكّ النظر) و (معيار العلم).

ويضرب الغزالي أمثالاً للعلاقة بين الوحي والعقل، وهي أمثالاً تتكرر في كتبه، ولنذكر منها ما نجده في كتابه «معارج القدس في مدارج معرفة النفس».

العقل لن يهتدي (لكماله المنشود) إلَّا بالشرع (الوحي)، لأن العقول متعددة بلا حدود، والأمزجة مختلفة كذلك، والعقل متدرِّج في مقاييس الذكاء! فعلى أي عقل نعتمد؟ وهل عصم أي عقل من نوازع الأهواء؟..

فالشرع (الوحي الإلّهي)، رائد العقل ـ المتجرِّد عن الهوى ـ إلى كماله المنشود، والوحي (في أكثر الأحيان ـ كما أشرنا ـ يحتاج إلى العقل المرتفع إلى مستوى الفهم والتأويل.

والعقل ـ بهذا الاعتبار ـ كالأسّ، والوحي كالبناء، ولن يغني أسّ ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أسّ.

وأيضاً فالعقل كالسراج، والوحي كالزيت الذي يمدّه، فما لم يكن زيت لم يحصل السراج، وما لم يكن سراج لم يضيء الزيت.

---

(١) يريد الغزالي من محاربة الوهم، أن يعمل العقل (ملتزماً) ميدان اختصاصه، وحدود طاقته البشرية، فالعقل مقيد بقيود الزمان والمكان والوراثة والبيئة، وليس من الحكمة إقحام العقل في غير مجال اختصاصه.

فالوحي تدبير إلّهي (عقل من خارج)، والعقل (شرع من داخل ـ ميزان الله في أرضه)، وهما متعاضدان بل متّحدان في الغاية والهدف.

والتربية الإسلامية الصحيحة للعقل (كما أشرنا آنفاً) تزيّن العقل الفطري بالمكتسبات النافعة، في الوقت الذي تجرِّده من رواسب اتباع الأهواء المضللة، ليبقى نظيفاً نشيطاً يعمل في ميدان اختصاصه في خدمة الإنسان والإنسانية في مجالات الخير العام، يرقى بتربية الوحي إلى كماله المنشود.

لم يفرط الغزالي في تقديره للعقل (كما أفرط الفلاسفة العقليون ـ والمعتزلة)، ولم يقدّمه على الشرع أي (الوحي) فيما يجب أخذه من طريق الشرع (الوحي) من العقائد الدينية، والأحكام الشرعية، ولم يعوِّل عليه ويثق به في المسائل الغيبية، بل كان يؤكد على عدم قدرة العقل على الإحاطة بهذه المسائل، وأن للعقل حدوداً ينبغي عليه الوقوف عندها، وأنه لا يمكن إقامة العقيدة والأحكام الشرعية على العقل وحده، والذي يقتصر في هذا المجال على العقل وحده (محض العقل)، ولا يستضيء بنور الشرع، فلن يهتدي إلى الصواب[1].

والذين يعتمدون على سلطان العقل وحده، في الوصول إلى عقيدة سليمة راسخة، وفكرة كليّة واضحة، تفسّر هذا الوجود وتحلُّ ألغازه، قد جاوزوا بالعقل حدود اختصاصه (حين أقحموا العقل في مجال الوحي)، بل أهملوا جانباً هاماً من الفطرة الإنسانية، هو جانب الشعور والوجدان، كما أغلقوا على أنفسهم باباً واسعاً ما كان أحوجهم إليه وما أضلَّ سعيهم بغيره، هو باب الوحي الإلّهي.

---

(١) ولهذا كان من الأخطاء التي يعدُّونها على منهج علماء الكلام، وعلى الأخصّ (المعتزلة) منهم: (فقد جاوزوا بالعقل حدود اختصاصه).

أ ـ خروجهم على الواقع المحسوس، وتجاوزهم إلى غير المحسوس، فقد بحثوا فيما وراء الطبيعة (في ذات الله وصفاته)، فيما لا يصل إليه الحس، وأفرطوا في قياس الغائب على الشاهد، أعني في قياس الله على الإنسان، فأوجبوا على الله العدل كما يتصوَّره الإنسان.

ب ـ إعطاؤهم للعقل حرية البحث في كل شيء (فيما يحسّ ـ وفيما لا يحسّ)، ثم جعل العقل أساس في الإيمان كله، فترتب على ذلك أن جعلوا العقل أساساً للقرآن، ولم يجعلوا القرآن أساساً للعقل.

إن العقل مهما أوتي من الذكاء والقدرة على التجربة والقياس والاستنتاج؛ محدود بحدود الطاقة البشرية مقيد بقيود الزمان والمكان والوراثة والبيئة، فلا غنى له أبداً عن سند ومعين، يسدِّده إذا أخطأ، ويهديه إذا ضلَّ، ويردّه إلى الصواب إذا شرد، وهذا السند هو الوحي الإلٓهي وهو أساس الدين، يصل بالعقل إلى كماله المنشود.

وفي ختام بحثنا عن العقل في مرآة الإسلام، نشير إلى موقف الإسلام من الفكر والنظر (العقلي).

موقف الإسلام من الفكر والنظر: إن الإسلام هو الدين الذي أعلى من شأن العقل، وعدَّه أداة صالحة لتعرّف الحقائق وفي رأسها الإيمان بالله ووحدانيته وقدرته... وهو الدين الذي طلب من الإنسان أن ينطلق إلى الإيمان من الدليل والبرهان، ولذلك دعا إلى إعمال العقل والتفكير، وذمّ الذين يهملون عقولهم ويعطلون نعمة الله فيهم، ويلوذون بتبعية أو تقليد، من غير تفكير ولا نظر، وإنك لتجد ذلك واضحاً في الأمور التالية:

أ ـ لقد طلب القرآن الكريم من الإنسان أن يفكر فيما يدعى إليه، إما منفرداً بنفسه، وإما مجتمعاً مع أناس آخرين في مثل قوله تعالى:

● ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى، ثم تتفكروا، ما بصاحبكم من جنة، إن هو إلَّا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾ سبأ: /٤٦.

ب ـ لقد امتدح القرآن الكريم المفكرين، ووصفهم بأنهم هم أرباب العقول، كما في قوله تعالى:

● ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانك فقنا عذاب النار﴾. آل عمران: /١٩٠ ـ ١٩١.

جـ ـ لقد عدَّ القرآن الكريم الذين لا يفكرون فيما يلقى إليهم، ولا يعملون فيه عقولهم؛ عدَّهم كالبهائم. قال تعالى:

● ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلاَّ دعاء ونداء، صمّ بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ البقرة: /١٧١.

● ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ الأعراف: /١٧٩.

د ـ لقد ذمّ القرآن الكريم التقليد الأعمى ـ وهو أن تتبع غيرك، من غير وعي ولا تفكير، فقال تعالى:

● ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا: بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ البقرة: / ١٧٠.

وفي الحديث الشريف: «لا تكونوا إمّعة، تقولون إن أحسن الناس أحسنّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا».

هـ ـ لقد نهى القرآن الكريم الإنسان أن يتّبع شيئاً ويؤمن به من غير أن يكون له على صحته دليل ساطع وبرهان مقنع، يصل إلى درجة العلم واليقين، قال الله تعالى:

● ﴿ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ الإسراء: /٣٦.

أجل ـ في ظلال تربية الوحي، يصل العقل إلى كماله المنشود، عقلاً حكيماً راشداً يقود صاحبه إلى الكمال (علماً، وعملاً، وأخلاقاً)، بحسن المعرفة بالله، وحسن الطاعة لله، وحسن الصبر على أمر الله، إيماناً بحكمة الله ورحمته وعدالته، واتّباعاً لرضوانه. قال تعالى:

● ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ المائدة: / ١٥ ـ ١٦ «صدق الله العظيم».

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

لقد أشرنا في ختام بحثنا عن (العقل في مرآة الإسلام)، أن تربية الإسلام للعقل، تصل به إلى كماله المنشود، وتأكيداً لهذا المعنى، نهدي إلى الباحث المؤمن، هذه الأبيات الشعرية[1]:

يا ربّ ذكرك للعقول مكمّل ... أنت الكمال بل الكمال الأكبر
أنت السعادة للقلوب إذا صفت ... ممّا يدنّسها وراحت تطهر
فامنح فؤادي في هواك سعادة ... وأتح له بالحبّ ما يتعذّر
وافتح له بالحب آفاق الهدى ... فالحبّ مصباح القلوب ينوّر
قد ضلّ قلب لم يكن لك حبُّه ... وشقي بدنياه التي كم تغدر
يا من يشاهد في الوجود جماله ... ويرى الفؤاد جماله فيكبّر
أبدعت هذا الكون أنت بحكمة ... فيها الدليل على وجودك يظهر
فمن الذي رفع السموات العلىٰ ... من غير أعمدة تحسّ وتنظر
ومن الذي قد زانها بكواكب ... هنّ الجمال بل الجمال الأسحر
والأرض من قد مدّها وأمدّها ... بالماء ما هزّ النبات الأخضر
الأرض واحدة تنوّع نبتها ... فمن المنوّع للنبات ومظهر
والطير قد شقّت وأجنحة لها ... هذا الفضاء بقوة لا تقهر
فمن الذي وهب الطيور جناحها ... ومن الذي خلق العقول تفكّر
يا ربّ أنت لكل شيء خالق ... ولكل شيء في الوجود تدبّر
في كل شيء في الوجود دلائل ... تهدي إليك وعبرة تتكرّر

(١) ينظر كتاب «العقيدة الإسلامية ـ دراسة وتطبيق» للمؤلف. ص ١٨٨ (الحاشية).



المبحث السادس

الذكر والذاكرون لله تعالىٰ

﴿ أَلَمْ يَأْنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل، فطال عليهم الأمد، فَقَست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾ الحديد: /١٦.

● عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ:

«ألا أنبّئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم (مالككم ومربيكم ـ وهو الله سبحانه وتعالى) وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من أن تلقوا عدوّكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى، قال: ذكر الله تعالى». رواه أحمد والترمذي.

ومن دعائه ﷺ:

● «اللهم افتح أقفال قلوبنا بذكرك، وأتمم علينا نعمتك من فضلك، واجعلنا من عبادك الصالحين» إن إقفال القلب يعني حجابه عن ذكر الله، كما أن تفتّحه (بالمزيد من ذكر الله) إنما يعني انشراح الصدر للإسلام (لطاعة الله) وقد قال الله سبحانه وتعالى:

● ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله، أوَلئك في ضلال مبين ﴾ الزمر: /٢٢.

● ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه، وكان أمره فرطاً.. ﴾ الكهف: /٢٨.

هكذا يصل المؤمن بتوفيق الله إلى نبع الخير والسعادة حين يشرح الله صدره للإسلام (فهو على نور من ربّه)، عندما يحمل القلب الذاكر الخاشع والعقل الواعي الحكيم (المصغي إلى توجيه الله سبحانه)[1].

---

(١) دعاء الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه:

«اللهم ارزقني التوفيق (لما تحب وترضى) حتى تصوم عيني عن المحرّمات وتصوم نفسي عن الشهوات، ويصوم قلبي عن الخطرات التي تحجبني عنك، واجعل شمس العقيدة (والإيمان) مشرقة دائماً في عقلي وقلبي ونفسي أستهدي بها فتهديني، وأسترشدها فتمنحني الرّشد.

اللهم لا تجعل قدمي تزِلّ في الطريق إليك، ولا قلبي يضلّ في التطلّع إليك، أنت العون الذي أبتغيه، والخير الذي أتمنّاه في الدنيا والآخرة (يا أرحم الراحمين)».

الذكر والذاكرون لله تعالى

تمهيد:

كان التوجيه الإلّهي (ولا يزال) يوصي بتنمية القوى الواعية للإنسان، حتى يضمن له (سيراً معتدلاً) في سبيل الله وصراطه المستقيم (صراط الحكمة والرحمة والعدالة) وإن ذكر الله ـ على الحقيقة ـ هو المفتاح الطبيعي لتحقيق هذا المعنى، وهو شعار الحياة التربوية في الإسلام، بل هو سلاح المعركة، في ميدان الجهاد الأكبر، جهاد النفس والهوى.

ذكر الله تعالى هو أول واجبات المؤمن الصادق ـ وهو غاية العبادة وثمرتها ـ يعبّد له طريق الانقياد لحكم الله، وهو الباعث على اليقظة (العلمية ـ التربوية)، والشعور بالمسؤولية، وتدعيم لمبدأ محاسبة النفس والنقد الذاتي، وضمان للسير الواعي وفقاً للقاعدة العلمية التربوية في السلوك، فهل نذكر الله على الحقيقة، كما أمر الله، حتى ندعّم ثقتنا وإيماننا بالله، ونسير في صراط الله المستقيم متبعين لرضوانه؟...

إن واقع الإنسان الخام (الذي لم تصقل مداركه الجهود التربوية المخلصة) ينطوي غالباً على ما يلي:

- على الجهل ـ وعدم معرفة الأمور بحقائقها.
- على الأنانية ـ التي تعني سيطرة الرغبات والمصالح الشخصية على المعاني التربوية.
- على الضلال ـ الذي يعني شرود النفس عن سبيل ربها وغاية وجودها.

● على الغرور ـ الذي يعني القصور أو الضعف الإدراكي للمثل الأعلى في الحياة، وقصور الإنسان الخام عن بلوغ الكمال الأخلاقي، في مجال التطبيق وميدان السلوك، بسبب البعد عن البيئة التربوية الصحيحة.

ولا يخرج الإنسان من هذا الواقع المظلم، إلى ساحة النور والهدى، إلا التزامه للبيئة التربوية (بإشراف المربين الأكفاء ـ العلماء الأمناء ورثة الأنبياء)، ليحظى بالإرادة الحازمة، والتوبة الصادقة المخلصة، التي ترقى بواقعه الفكري والوجداني إلى حقائق الإيمان، حيث تجتاز (بالمسترشد الصادق) العملية التربوية، متخلّصة (بحكمتها) من رعونات النفس واتباع الهوى، لتمنحه (النفس المزكّاة ـ والقلب السليم) والعقل الحكيم، ليكون مؤهلاً لعناية الله وفضله وتوفيقه (فقهاً لكتاب الله ـ واهتداء بسنة رسول الله ﷺ) واتباعاً لرضوان الله سبحانه.

التربية الإسلامية ـ ومن خلال هذه الجهود التربوية ـ ترسم للمسترشد (المتربي) فلك السعادة والاعتصام بحبل الله، وتركز في قلبه عَلَمُ الحب والإيمان، من خلال الالتزام بالبيئة التربوية، وصحبة المرشد (صحبة الوعي والفهم المقرونة بالاحترام والحب والتقدير ـ صحبة التقييم الواعي ـ الذي يشعّ بالأدب والتواضع، حيث يقطف المتربّي الصادق من شجرة هذه المعاني (النفس المزكاة ـ والعقل الحكيم)، والخلق المستقيم، ويحظى بالنفس المطمئنة بذكر الله، الراضية المرضية بتوفيق الله.

(البحث): ماذا عن ذكر الله في تربية الإسلام: ذكر الله تعالى من أهم العوامل لطمأنينة القلب وهدوء النفس (وتزكيتها ـ وطهارتها)، وكما قال تعالى:

● ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ الرعد: /٢٨.

وقد وردت كلمة (الذكر) في القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، بعدة معان:

فتارة قُصد بها (القرآن الكريم)، كما في قوله تعالى:

● ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ الحجر: /٩.

وتارة أريد بها (العلم)، كما في قوله جلّ وعلا:

● ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ الأنبياء: /٧.

وفي معظم النصوص أريد بها (بكلمة الذكر)، التسبيح والتهليل والتكبير والاستغفار، وغيرها من الصيغ والألفاظ، التي ورد الترغيب بها، وطلب الإكثار منها كقوله تعالى:

● ﴿ واذكر اسم ربك وتبتّل إليه تبتيلاً ﴾ المزّمل: /٨.

● ﴿ واذكر ربك في نفسك، تضرعاً وخيفة، ودون الجهر من القول بالغدوّ والآصال، ولا تكن من الغافلين ﴾ الأعراف: /٢٠٥.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن الله عزّ وجلّ يقول:

● «أنا مع عبدي إذا هو ذكرني، وتحركت بي شفتاه» رواه الإمام أحمد في مسنده وابن ماجه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

● «إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة فضلاء يبتغون مجالس الذكر... (إلى أن) قال: فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء، قال: يسألهم الله عزّ وجلّ - وهو أعلم - من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عبادك في الأرض، يسبّحونك ويكبرونك، ويهلّلونك ويحمدونك ويسألونك... (إلى أن قال) فيقول: قد غفرت لهم وأعطيتهم ما سألوا، وأجرتهم مما استجاروا» رواه البخاري ومسلم.

ففي هذا الحديث الصحيح إشارة واضحة على أن مجالس الذكر هي مجالس التسبيح والتكبير والتهليل والدعاء.

مكانة الذكر في القرآن الكريم: الذكر باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته[١]، وقد بيّن الله عزّ وجلّ مكانة الذكر بآيات

(١) ورد في الأثر عن رسول الله ﷺ دعاءه بعد الأذان:
● «اللهم افتح أقفال قلوبنا بذكرك وأتمم علينا نعمتك من فضلك، واجعلنا من عبادك =

كثيرة على صور مختلفة، من الأمر به أو الترغيب فيه، أو بيان فضله وفضل أهله، أو التحذير من تركه، على ثمانية أوجه:

الأول: (الأمر به): كقوله تعالى:

● ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً. وسبّحوه بكرة وأصيلاً ﴾ الأحزاب: /٤١ ـ ٤٢.

الثاني: (النهي عن ضده): من الغفلة والنسيان: كقوله تعالى:

● ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ الأعراف: /٢٠٥.

● ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ الحشر: /١٩.

الثالث: (تعليق النجاح والفلاح باستدامته وكثرته): كقوله تعالى:

● ﴿ واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ الجمعة: /١٠.

الرابع: (الثناء على أهله): كقوله تعالى:

● ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات... والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ الأحزاب: /٣٥.

الخامس: الإخبار (عن خسران اللاهي عن الذكر بغيره): كقوله تعالى:

● ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ المنافقون: /٩.

السادس: الجزاء من جنس العمل (فالله سبحانه جعل ذكره للذاكرين، جزاء لذكرهم له) كقوله تعالى:

= الصالحين» والغاية من الذكر الكثير، انطباع أخلاق الله في النفس، فلدى الإنسان استعداد فطري للتخلّق بأخلاق الله، ولا يظهر هذا الاستعداد إلا بإدمان مجالسته، وكثرة ذكره، وهو طريق الفلاح وغذاء الإيمان.

● ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ البقرة: /١٥٢.

السابع: (الإخبار) بأنه أعظم وأكبر ما يتقرب العبد إلى ربه: كقوله تعالى:

● ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾ العنكبوت: / ٤٥.

وفيه عدة أقوال: (في شرح قوله تعالى ـ ولذكر الله أكبر ـ):

أ ـ ذكر الله أفضل الطاعات(١)، لأن المقصود بالطاعات إقامة ذكر الله، فهو سرّ الطاعات وروحها.

ب ـ أن المعنى المقصود بقوله تعالى: ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾، أي أكبر من أن يبقى مع فاحشة، بل إذا تمّ الذكر ـ على الحقيقة ـ محق كل خطيئة ومعصية، أي أن الذكر لله سبحانه وتعالى ـ أكبر فاعلية ـ في النهي عن الفحشاء والمنكر.

الثامن: (هدف العبادة): إن الله تعالى جعل الذكر هدفاً للعبادة، وقريناً للأعمال الصالحة، فمتى عدمته (العبادة) كانت الجسد بلا روح، كما قال تعالى:

● ﴿ فاعبدني وأقم الصلاة لذكري... ﴾ طه: /١٤.

وكما قال ﷺ:

● «إنما جعل الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي

---

(١) روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:
● «ألا أنبئكم بأفضل أعمالكم، وأرفعها في درجاتكم، وأزكاها عند مليككم، خير لكم من إنفاق الذهب والفضة وخير لكم من أن تلقوا العدو فتضربون أعناقهم ويضربون أعناقكم؟.. قالوا بلى يا رسول الله، قال ذكر الله».
ذلك لأن الذكر على الحقيقة، منطلق النقطة التربوية، وهو أساس التوجيه الإلّهي، ومحور العبادات وجوهرها، بل هو سلاح المعركة في ميدان الجهاد الأكبر، جهاد النفس والهوى، ويكفي تنويه القرآن بشأنه في قوله تعالى: ﴿ إن الصلاة تنتهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾.

الجمار، لإقامة ذكر الله تعالى» رواه الترمذي في سننه عن عائشة رضي الله عنها.

مكانة الذكر في السنّة المطهرة: لقد وردت أحاديث عديدة تبين فضل الذكر وفضل أهله، وسأختار بعضاً منها على سبيل البيان لا الحصر.

أولاً: إن الذكر هو خير الأعمال[1] وأزكاها، وأرفعها في درجات المؤمن.

ثانياً: الذاكرون هم أهل السبق (إلى ما يرضي الله):

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة، فمرّ على جبل يقال له «جمدان» فقال:

● «سيروا هذا جمدان، سبق المفرّدون، قالوا وما المفرّدون يا رسول الله، قال الذاكرون الله كثيراً والذاكرات» رواه الإمام مسلم في صحيحه.

ثالثاً: مجالس الذكر هي رياض الجنة:

فعن جابر رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال:

● «أيها الناس: ارتعوا في رياض الجنة، قلنا يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال مجالس الذكر» رواه الإمام أحمد في مسنده والترمذي.

رابعاً: ويكفي في شرف الذكر أن الله يباهي ملائكته بأهله:

عن معاوية رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ:

● «خرج على حلقة من أصحابه فقال: ما أجلسكم؟ قالوا جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومنّ به علينا، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذلك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكن أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة» رواه الإمام مسلم في صحيحه والترمذي.

التحذير من ترك الذكر: وردت آيات كثيرة وأحاديث عديدة في التحذير من ترك الذكر، كقوله تعالى:

---

(١) الحاشية السابقة نفسها.

● ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو لـه قرين ﴾ الزخرف: /٣٦.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

● «من قعد مقعداً لا يذكر الله فيه، كان عليه من الله حسرة، ومن اضطجع مضطجعاً لا يذكر الله فيه، كان عليه من الله ترة (تبعة وندامة)، وما مشى أحد ممشى لا يذكر الله فيه، إلا كان عليه من الله ترة».

الذكر عامل قوة لجوانب الخير في قلب المؤمن، وطارد لوساوس الشيطان:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

● «في القلب لمّتان، لمّة من الملك (إيعاد بالخير ـ وتصديق بالحق)، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، وليحمد الله، ولمّة من العدوّ (إيعاد بالشر ـ وتكذيب بالحق) ونهي عن الخير، فمن وجد ذلك، فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليهم ﴾». أخرجه الترمذي والنسائي.

فالذاكر الذي نوّر الله قلبه بذكره، تنكشف له بهذا النور خواطر الشيطان ووساوسه التي أصبحت ضعيفة، لا تقوى على إضلاله.

الذكر يزيد من إيمان المؤمن، زيادة فاعليّة، وقـرب من حكمة الله ورحمته وعدالته:

الذاكر ربّه، مُجالسٌ له، مقبل على ما يرضيه، يناجيه فيصفو قلبه، وتتكشّف له عيوبه، فيتخلّص منها ويشعر بحاجته إلى الله في كل لحظة ونفس، فيزداد تعظيماً لجلال الله، وثقة بوعده، وخوفاً من وعيده، فتنمو عنده ملكة المراقبة لعدالة الله، حتى يعبد الله وكأنه يراه[1]، لذلك كان بعض الصحابة الكرام يتنادون لذكر الله (لمجالس الإيمان).

---

(١) نستمع فيما يلي لباقة عطرة من الأبيات الشعرية، يصف فيها أحد الذاكرين خشوعه بين يدي جلال الله سبحانه:
=

ختام البحث: ذكر الله تعالى، هو الباعث على يقظة القلب والضمير الإنساني[1]، وهو انتباه الفكر المؤمن إلى هذا الإشراف الأعلى للخالق العظيم، على الحياة والأحياء، (بحكمته، ورحمته، وعدالته) بنظامه العام، هذا الذكر وهذه اليقظة (العلمية التربوية ـ للفكر والقلب)، تغذّي مشاعر المؤمن، بواجب الخضوع لكلمة الله العليا (لسيادة قانونه ـ لمنهاجه في شريعته)؛ هذا الذكر لله،

= في رحاب الخشوع يذوي كياني ذائباً في الخضوع والإيمان
في رحاب الخشوع يرجف قلبي وَجِلاً راجياً سما الغفران
في رحاب الخشوع يرجف جلدي مقشعرّاً من آية الفرقان
في رحاب الخشوع تخضع ذرّا ت كياني لربّها الديّان
في رحاب الخشوع تقفز روحي في انسلاخ من طينة الجثمان
في رحاب الخشوع تصعد روحي في فرار إلى الحمى الربّاني
في رحاب الخشوع تسبح روحي في فيوض السّنا الصمداني
في رحاب الخشوع تسجد روحي وجناني في حضرة الرحمن

* * *

وصِلْ حبلي بِحَبْل رضاك وانْظر إليّ وتُبْ عليّ عسى أتوب
وألهمني لذكرك طول عمري فإن بذكرك الدنيا تطيب

(١) الضمير الحيّ ـ مركز الوعي الأخلاقي في الذات الإنسانية، يشعّ بالأدب الرفيع، ويوحي بالتكامل النفسي، هو الذي يجعل أدب النفس (الحياء، الحلم، ضبط النفس، العفّة عن المطامع والمحارم) عقيدة لا فكراً، ويجعل وازع كلّ امرىء في داخله، فيكون هو الحاكم والمحكوم، إذ يرى المؤمن الموفّق (بالضمير والوعي الوجداني)، عين الله ورقابته، لا تنفكّ ناظرة إليه، شاهدة عليه، فهو تحت سمع الله وبصره. هذا الوازع الداخلي (الضمير)، يدفع صاحبه دائماً إلى ممارسة النقد الذاتي (محاسبة النفس)، تمهيداً للخضوع الطوعي لكلمة الله العليا (لحكمته ورحمته وعدالته ـ وما يوحي به اتباع رضوانه).

وحين نسمع حديث الرسول الكريم ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى وهو يقول: «الكيِّس، من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني» الكيِّس (العاقل) ـ دان نفسه (حاسبها ـ ونهاها عن اتباع الهوى).

في ذلك الحين ندرك بوضوح كيف يتلاقى الضمير الحي، مع العقل المتكامل، على صعيد تربية الإسلام المثلى تربية الإنسان الفاضل، وإعداد المواطنين الصالحين.

ينظر كتاب (عالمية الإسلام وإعداد المواطن الصالح) للمؤلف ـ ص ٣٩٢.

وهذا الشعور الوجداني بواجب الانقياد لحكمه واتباع رضوانه، هو الذي يفتح للمؤمن أبواب الرحمة والسعادة، ويحقق في المجتمع الطمأنينة الفردية والانسجام العام.

يقول الله تبارك وتعالى:

● ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ الرعد: /٢٨.

فطوبى للذاكرين لله - على الحقيقة - سعادتهم بطمأنينتهم ونموّ إيمانهم.

وهنيئاً للذاكرين[1] بسبقهم لعناية الله في الدار الآخرة، يردون القيامة خفافاً، وضع الذكر عنهم أثقالهم وأوزارهم، وأسكنهم فسيح جنانه، بفضله وكرمه.

فيما يلي بعض المنتخبات الشعرية، تهيب بالباحث المؤمن أن يلتزم ذكر الله تعالى، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً:

احفظ فؤادك عن سواه وشرِّف — لا يلهينّك موقف عن موقف
واصبر فإن الصبر عنوان الوفا — لا يدرك التقوى سوى القلب الوفي
من كانت الدنيا المراد لقلبه — لم يرق دار الأكرمين ولم يف
يا أيها السّاري لخلّاق السّما — وُفِّقت، جاهد في فؤادك واختف
وإذا اهتديت فبالكتاب لك الهدى — حافظ على آياته بتلهّف

---

(١) يقول الله تعالى في الحديث القدسي: «أهل ذكري أهل مجالستي (أنا جليس عبدي حين يذكرني - وأنا معه إذا دعاني)، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أقنّطهم من رحمتي، فإن تابوا فأنا حبيبهم أحبّ التوّابين وأحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا، فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهّرهم من المعايب».

ما أعذب الرحمة تناسب من معدنها وينبوعها الصافي، إلى المسامع والقلوب، من لدن أرحمَ الراحمين. اللهم رحمتك نرجو، فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين وأصلح لنا شأننا كله لا إلَـه إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك.

وانهض بـروحك نهضـة قـدسيّـة ولسنّـة المختـار في السيـر اقتف
إن المحبّ إذا صفت أخـلاقـه مـع ربّـه لمنـامـه لم يـألـف
يا قلب كن مع ربّـك الباري على ثقـةٍ وإيمـانٍ وحسن تـصـرّف[1]

يطيب للباحث المؤمن، أن يستزيد من ذكر الله، وما يعينه على طاعة الله، وهذه باقة من الأبيات الشعرية، تحمل الشذى العاطر لمعاني ذكر الله عزّ وجلّ . . .

بـذكرك يـا مـولى الـورى نتنعّم وقد خاب قوم عن سبيلك قَدْ عَموا
شهـدنـا يقينـاً أن علمـك واسـع وأنت تـرى مـا في القلوب وتعلم
إلّهي تحمّلنـا ذنـوبـاً عـظيمـة أسـأنـا وأخـطأنـا وجـودك أعـظم[2]

---

(١) إن من حسن التصرف أن يوفق المؤمن إلى ترسّم حكمة الله ورحمته وعدالته في صياغة سلوكه والعدل (في الإسلام) ذروة الوعي الأخلاقي.
والمراد بالعدل (على العموم) إعطاء كل ذي حق حقه (بغير تفرقة بين المستحقّين)، ومن صور العدل مؤاخذة المسيء أو المقصّر، على قدر إساءته وتقصيره (بدون إعنات أو محاباة)، وبالمقابل مكافأة المحسن على قدر إحسانه.
وقد عرّف العدل (ابن مسكويه ـ الفيلسوف الأخلاقي الشهير)، بأنه فضيلة النفس تحدث من اجتماع الفضائل الثلاث (الحكمة، والعفّة، والشجاعة)، وذلك عند مسالمة (انسجام) هذه القوى النفسية بعضها لبعض، واستسلامها للقوة المميزة، حتى لا تتغالب (ولا تتصارع)، ولا تتحرك نحو مطالبها حركة الغرائز (غير المهذبة)، ويحدث للإنسان بها (أي بالعدل ـ بملكة التوازن بين الحقوق والواجبات)، سمة، يختار بها أبداً الإنصاف من نفسه، نفسه أولاً، ثم الإنصاف والانتصاف من غيره، وله.
ولقد أنزل الله سبحانه وتعالى الكتب والشرائع، وبعث بالأنبياء والرسل لإقامة ميزان العدل وقسطاس الحق، ولقمع الظلم والجور، ولمنع العباد من أن ينحرفوا ويتظالموا، قال تعالى:
● ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ الحديد: / ٢٥ . وقد أمر الدين بالعدل، حتى مع الأعداء، كما نهى عن الظلم وحذّر من سوء عاقبته، قال تعالى: ﴿ ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين. إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ النحل: /٨٩ ـ ٩٠.

(٢) كان بعض الصالحين يناجي الله سبحانه وتعالى (في تواضع مخلص ـ ودعاء خاشع):
«اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي ورحمتك أرجا عندي من عملي، اللهم اجمع قلبي على محبتك وألهمني دوام ذكرك، وخذ بيدي إلى كمال رضائك يا أرحم الراحمين».

سترنا معاصينا عن الخلق غفلة ... وأنت ترانا ثم تعفو وترحم
وحقّك ما منّا مسيء يسرّه ... صدودك عنه بل يذلّ ويندم
إذا كان ذلّ العبد بالحال ناطقاً ... فهل يستطيع الصبر عنه ويكتم
إلٓهي فَجُدْ واصفح وأصلح قلوبنا ... فأنت الذي تُولي الجَميل وتُكْرم
أَلَسْت الذي قرّبت قوماً فوافقوا ... ووفّقتهم حتّى أنابوا وأسلموا
فقلت استقيموا منّة وتكرّماً ... وأنت الذي قوّمتهم فتقوّموا[1]
لهم في الدّجى أُنسٌ بذكرك دائماً ... فَهُمْ في اللّيالي ساجدون وقُوَّم
نظرت إليهم نظرة بتعطّفٍ ... فعاشوا بها والخلق سكرى ونُوّم
لك الحمد عاملنا بما أنت أهله ... وسامح وسلّمنا فأنت المُسَلِّم

* * *

دعوتك في الركوع وفي السّجود ... وجئتك تائباً ربّ الوجود
إلٓهي كنت أرتع في حياة ... بعيداً في الظلام وفي الرّكود
وكنت أعيش في سفح عميقٍ ... فهل أحظى بعونك في الصّعود
وهل عذري إليك وهل متابي ... سينهض حجّتي يوم الورود
إلٓهي هذه نفس ومن لي ... على نفسي سواك يشدّ عودي
إلٓهي أعطني عزماً جديداً ... وهب روحي الإرادة والصمّود
أضِيءْ بالنّور قلبي يا حبيبي ... لأَمْضي في الطريق بلا شرود

(١) هذا وجهٌ من توفيق الله، وتواضع بين يدي عظمة الله في تمثّل الآية الكريمة: ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته، ما زكى منكم من أحد أبداً ﴾.



المبحث السابع

محبة الله تعالى

● ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله، ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيم. قل أطيعوا الله والرسول، فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾ آل عمران: /٣١ - ٣٢.

● «أحبّوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبّوني لحب الله إياي». رواه الترمذي في حديث ابن عباس، عن رسول الله ﷺ.

إن الله تعالى (عند من عرفه حق المعرفة ـ من الأنبياء الأطهار والمؤمنين الأبرار) هو المستحقّ وحده للمحبة، فهو سبحانه وتعالى صاحب الأصالة (واهب الحياة وما تزدهر به الحياة)، ومبدع الأشياء وحافظها ومجمِّلها بالحسن والجمال بكل صورة.

إن أصل المحبة لله موجود في كل قلب، لكن المحبة تتفاوت من حيث النتيجة، بمقدار قوة المعرفة (وانصراف القلب عن محبة غيره كما ينبغي)، إلاَّ من جهة نسبة الحب إليه تعالى، وكما قال ﷺ: «وأحبوني لحب الله إياي...» فالمؤمن الموفَّق يقوده في هذا المقام إخلاص العبودية لله، أي أنه يحب غير الله (من أجل الله ـ وابتغاء مرضاته) في ذات الله، واتباعاً لرضوان الله سبحانه وتعالى.

هذا الحب المتبادل بين الإنسان وخالقه (في الأصل)، وبين المؤمن وإخوانه (في الواقع) هو الإيمان في حقيقته الموضوعية، وهو نور إلّهي يكتبه الله

في قلوب الصادقين المخلصين كما يقول سبحانه في الحديث القدسي:

● «إنمـا أصطفي لخلّتي: من لا يَفْتر عن ذكري، وليس له همّ غيري، ولا يؤثر عليّ أحداً من خلقي».

اللهم اجمع قلوبنا على محبتك، وألهمنا دوام ذكرك، وخذ بأيدينا إلى اتباع رضوانك ـ آمين.

محبة الله تعالى

تمهيد:

يقف الإمام أبو حامد الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) بطلاً من أبطال الفكر الإسلامي، تدل معرفته للنفس الإنسانية (فكراً ـ وعاطفة)، على علم بفاعليَّة العقل كأداة للمعرفة اليقينية والبرهان الصحيح، وعلى تـذوُّق لحياة القلب والروح، من طراز فريد.

ويتجلَّى شأن العاطفة عند أبي حامد في ميادين شتَّى، من أهمها: (محبة الله تعالى).

محبة الله تعالى: في المجلد الرابع من كتاب «إحياء علوم الدين» يتكلم الغزالي في محبة العارفين لله تعالى وشوقهم إليه وأنسهم به، وهو يشرح كل هذه المشاعر شرحاً وافياً، فيه تحليل رائع وعمق وغزارة في المادة، وذوق روحي سليم[١].

يبتـدىء أبو حامد كلامه، بوصف حال المحبين لله، وبيان علوّ مقام المحبة لله، وأنها الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات (في طريق جهاد النفس والهوى ـ في سلوك العملية التربوية ـ في ميدان التربيـة الوجدانية في الإسلام)، فما بعد إدراك المحبة مقام إلاَّ وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها.

---

(١) ينظر (العاطفة عند الغزالي) للدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة.

ومن الطبيعي أن يحب الإنسان خالقه (واهب الحياة ـ وما تزدهر به الحياة)، حبّاً يليق به تعالى، وبكمال صفاته سبحانه، (يليق بحكمته ورحمته وعدالته ـ وكلمته العليا).

وقد أكّد القرآن الكريم المحبة بين الله والإنسان في الآيات الكريمة كما يلي:

● ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيم﴾ آل عمران: /٣١.

● ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه. . .﴾ المائدة: /٥٤.

● ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم. . . أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله. . .﴾ التوبة: /٢٤.

كما أكّدت ذلك السنّة النبوية المطهرة، في مثل قوله ﷺ:

● «أحبّوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبوني لحب الله إيّاي» رواه الترمذي في حديث ابن عباس عن رسول الله ﷺ.

أمّا (الإمام الغزالي) فهو يجعل المحبة موضوع كتاب برأسه (من كتب إحياء علوم الدين)، ويفصّل الكلام في حقيقة المحبة وأسبابها، على أصول وأسس يرتّبها:

أولاً ـ فيبتدىء بتعريف الحب ـ بأنه عبارة عن: «ميل الطبع إلى الشيء الملذّ، فإذا زاد ذلك الميل وقوي سمّي (عشقاً)»، ويعرِّف البغض ـ بأنه عبارة عن: «نفرة الطبع من الشيء المؤلم المتعب، فإذا قوي، سمّي (مقتاً)».

والمحبة لا يمكن تصوُّرها إلّا على أساس من المعرفة والإدراك، وهما لا تكونان إلّا من كائن حيّ يتصوّر، ويشعر، فلا يتصوَّر أن يصدر الحب عن جماد.

ثانياً ـ إذا كان الحب ناشئاً من الإدراك والمعرفة، فهو ينقسم بحسب

القوى المدركة وموضوعات إدراكها، وللإنسان حواسّ خمس، لكلٍّ منها موضوع تدركه، ولذَّة ببعض ما تدرك فتحبّه، وتميل إليه بطبعها، فلذة العين في الإبصار ورؤية الصور الجميلة، ولذة الأذن في النغمات الطّيبة الموزونة...

وإلى هنا يكون حجة الإسلام قد قرَّر وجود جمال محسوس، يلتذّ به عضو الحسّ، وهذا أحد الآراء في التجربة الجمالية. لكن للإنسان حسّاً سادساً، لا يدركه إلَّا من كان له قلب (متفتّح على الإيمان الصحيح) وقد يسمّى: بـ «البصيرة الباطنة» وهو يدرك أموراً معنوية، لا تدركها الحواس، منها الأمور الإلّهية.

ويقول الغزالي: إن «البصيرة الباطنة» أقوى من البصر الظاهر، والقلب أشدّ إدراكاً من العين، ويريد أبو حامد من ذلك أن يبيِّن أن حب الله أمر ممكن، يدركه القلب، وإن لذة القلب بما يدركه من الأمور الإلّهية الشريفة، التي تجلّ عن إدراك الحواس (أعظم وأقوى من لذّات الحواس)، وهنا يكون حجة الإسلام قد قرر وجود جمال روحاني (تدركه الروح - وتلتذّ بإدراكه).

ثالثاً - الإنسان يحب نفسه، ومن الطبيعي أن يحب غيره لأجل نفسه، لكن... هـل يمكن أن يحب غيـره (لأجـل - ذات الغيـر)، لا لأجـل نفسه؟...!!.

ويثير أبو حامد هذا السؤال، لأن من الناس من لا يتصوَّر حبّاً لشيء إلَّا لحظّ يعود عليه... ولكي يثبت أبو حامد عكس ذلك، فإنه يشرح أسباب المحبة ويحصرها في خمسة أسباب:

١ - أول محبوب عند الإنسان - وعند كل حيّ - ذاته ونفسه، بمعنى أنه يحب وجوده واستمرار وجوده حبّاً طبيعياً (فطرياً)، لأن الوجود محبوب لذاته، ولذلك يحب الإنسان أبناءه اعتقاداً منه أن في بقاء نسله نوع بقاء له، ويحب أيضاً كمال وجوده بالصحة والعلم مثلاً، ويحب المال والأهل والأصدقاء لأنها كلها تساعد على دوام الوجود وكماله.

٢ - والسبب الثاني (للمحبة) الإحسان، فالإنسان يحب كل من يحسن إليه، ويبغض من يسيء إليه (بطبيعته وفطرته)، وهذا عند التحقيق يرجع إلى السبب الأول، لأنّ المحسن يساعد على دوام الوجود وكماله.

٣ ـ الحب لمن هو محسن في نفسه (وإنْ لم يصل إحسانه إلى المحب).

٤ ـ الجمال والحسن، فإن كل جمال محبوب عند من يدركه، سواء كان الجمال صورة ظاهرة محسوسة، أو صورة معنوية يدركها القلب. والحب الحقيقي للجمال حب له لذاته، لا لحظ يعود على المحب (وهو غير الاشتهاء) (وإن كانت أذواق المؤمن ومشاعره المهذبة مرتبطة في هذا المعنى بالإخلاص لله واتباع رضوانه).

٥ ـ الحب على أساس مناسبة ومشاكلة بين المحب والمحبوب، لأن شبه الشيء منجذب إليه وهذا أمر تشهد به التجربة.

والمناسبة (المشاكلة) قد تكون في أمر ظاهر، مثل مناسبة الصبيّ للصبيّ، وقد تكون في أمر خفيّ من المعاني الباطنة، وهي من عجائب أساليب المحبة التي يصعب شرحها بالكلام، ومن ذلك ما يشير إليه قول الرسول الكريم ﷺ:

● «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

رابعاً ـ ثم يشرح الغزالي في فصل ممتع حقاً «معنى الحسن والجمال» وأنه ليس مقصوراً على الملامح المادية الظاهرة، فصفة الحسن تطلق على الخط الجميل، وعلى الأصوات، والحيوانات، فيقال: هذا خط حسن، وهذا صوت حسن، وهذا فرس جميل ونحو ذلك... فأيّ معنى لحسن هذه الأشياء، إذا لم يكنْ الحسن (الجمال) إلاَّ في صورة تدركها العين؟...

يقول أبو حامد: إن العين تستلذ النظر إلى الخط الجميل، والأذن تستلذ استماع النغمات الطيبة الموزونة، وما من شيء من المدركات إلاَّ وهو منقسم إلى حسن وقبيح... فما معنى الحسن الذي تشترك فيه هذه الأشياء؟...

والغزالي مهتم بإثبات الجمال المعنوي الذي لا تدركه الحواس، وإنما يدركه العقل والشعور، أو «البصيرة الباطنة» ومنه جمال المعنويات بوجه عام، والجمال الإلٓهي بوجه خاص، ولذلك فإن أبا حامد يجيب على اعتراض من ينكرون وجود جمال لا تدركه الحواس فيقول:

أعلم أن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات إذ يقال: هذا خلق

حسن، وهذا علم حسن، وهذه سيرة حسنة، وهذه أخلاق جميلة، وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفَّة والشجاعة والتقوى والكرم والمروءة، وسائر خلال الخير، وشيء من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الخمس، بل يدرك بنور البصيرة الباطنة، وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة، والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته.

ويستدل أبو حامد على ذلك بحب الناس للأنبياء وأفاضل الصحابة، وحب العلماء الأمناء ورثة الأنبياء، الذين وصفوا بالعلم والتقوى وإفاضة الخير وإرشاد الناس.

ومن المعلوم أنهم لم يروا (غالباً) أولئك الصحابة أو العلماء، ولا عرفوا صورهم المحسوسة، وإنما عرفوا أخلاقهم وفضائلهم النفسية والدينية.

وهذا هو أساس تمييز أبي حامد بين الجانب المادي المحسوس في شخص الإنسان والجانب المعنوي، أو كما يختار هو في الاصطلاح - بين الصورة الظاهرة والصورة الباطنة، وهذه الأخيرة عبارة عن جملة خصال حميدة (عقلية - وخلقية)، تكوّن الشخصية الجميلة التي من عرفها لم يملك نفسه من أن يحبّها.

إن كل ما يقوله أبو حامد في الجمال المعنوي تمهيد للكلام عن الجمال الإلّهي الذي هو من أسباب المحبة لله، إلى جانب كماله وجلاله وإحسانه سبحانه وتعالى، بحيث يكون الله تعالى (عند من عرفه حق المعرفة) هو المستحق وحده للمحبة - على الحقيقة - فهو سبحانه وتعالى صاحب الأصالة (واهب الحياة - وما تزدهر به الحياة) ومبدع الأشياء وحافظها، ومجمّلها (بالحُسْن) والجمال بكل صورة.

وينتهي أبو حامد في الكلام عن المحبة بأن يقول: إن أصل المحبة لله موجود في كل قلب لكن المحبة تتفاوت (من حيث النتيجة)، بمقدار قوة المعرفة بالله، وانصراف القلب عن محبة غيره. . . (إلاّ من جهة نسبة الحب إليه تعالى - وكما قال ﷺ: وأحبّوني لحب الله إيّاي)، أي أن المؤمن الموفق يحب غيرَ الله من أجل الله، وابتغاء مرضاته، واتباعاً لرضوانه سبحانه وتعالى.

أما محبة الله للإنسان، فهي ليست بالمعنى الإنساني (الذي هو ميل النفس إلى موافق ملائم)، لأن هذا نقص، والله سبحانه وتعالى كامل في وجوده وصفاته، ومتعالٍ عن التشبّه بالمخلوقين، وهذا هو معنى (الكبرياء ـ الكبير المتعال) في صفاته عز وجل، فهو المنزّه عن التشبه بالمخلوقين، وله الكبرياء والكمال في ذاته الأحديَّة، وإنما المحبة الإلّهية للإنسان أن يكشف الله عن قلبه (وبصيرته الباطنة) الحجاب، حتى يعرف الله معرفة تتعالى عن الوصف، ويدرك من صفات كماله ما يجلّ عن التعبير المعهود، وكما قال قائلهم:

ولـمـا تجلّى من أحب تكـرّمـاً ... وأشهدني ذاك الجمال المعظّما
تـرفّـع لي حتى تيقّنت أنني ... أراه بعيني جهرة لا توهّما
وفي كل حال أجتليه ولم يزل ... على طور قلبي حيث كنت مكلّما
ومـا قـدر مثلي أن يحيط بمثله ... وأين الثّرى من رفعة البدر إنّما
أشاهده في صفو سرّي فأجتلي ... جمالاً تعالى عزّه أن يقسّما
كما أن بدر التّم يظهر وجهه ... بصفو غدير وهو في أفق السّما

تكلم حجة الإسلام في الجمال، وفي الجمال الإلّهي، ورفع مستوى الجمال إلى لذة روحية عليا، قائمة على معرفة بعناصر الجمال، والجمال الحقيقي الأعلى، لكن أبا حامد كان على عمق روحانيته، وأبعادها الكبيرة، مفكراً، يغلب عليه المنطق والتحليل الفكري، فتكلّم عن الحب، في بساطة الأسلوب العلمي، وبذلك أثرى الموضوع بالأفكار، ولطائف أحوال القلوب[(١)] في وقت واحد.

وتحدث أبو حامد عن لذة معرفة الله، ومطالعة جمال حضرة الربوبيّة وهو

---

(١) فيما يلي باقة من الأبيات الشعرية العطرة، تعطينا صورة واضحة لخلجات قلوب بعض المحبين:

إن القلوب إذا زادت محبّتها ... من ربّها واستنار القلب والبصر
صارت ملائك تصفو عن كدورتها ... حتى ترى كل شيء ما به كدر
والعاشقون لهم في الحب إن صبروا ... روض من العزّ لم يذبل له ثمر
مياهه الذكر والتقوى ينابعه ... والعلم والدين والآيات والعبر
خلّ المعارف للغشّاق تقطعها ... إن كنت منهم فَسِرْ واسهر كما سهروا

يقول: «إن العارف بالله لا يزال في مطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض».

والإنسان يعجب كيف يمكن أن تلتقي المعرفة العقلية بالأحوال والأذواق الروحية على هذا النحو لكن العقل لا يتجاوب مع القلب إلَّا عند الشخصيات الفذَّة (من أهل الكمال)، الشخصيات المتكاملة التكوين، كما كانت شخصية حجة الإسلام (على قدم الوراثة النبوية) رحمه الله.

في ختام بحثنا عن محبة الله تعالى. آثرنا أن نحدث الباحث الكريم، عن مفهوم (محبة الله) في مرآة الفكر الصيني، وسيرى فيها الباحث رافداً ممتعاً جديراً بالمطالعة.

تمهيد:

وأصول الفكر الصيني، شأن أصول أمة الصين ذاتها، المتوارية في غابر الزمان والمكان، ولكن لفكرها ملامح الاستقلال، وهو فكر متعدِّد الجوانب والاتجاهات، وله ملامح دينية، وفي ذلك الفكر منذ مراحله الأولى تصورات للكون، وكلام عن قوتين تتصارعان فيه هما: (يانج) و(يين) أو النور والظلمة، وفيه آراء حول الحاكم والفضائل التي يتحلَّى بها، ونصوص خاصة بالطقوس والشعائر.

وأهم من ذلك في حياة الصين (فلسفتها العملية - ذات الصبغة الأخلاقية)، وما اشتملت عليه من نظرة للإنسان والفضائل الإنسانية، ومن أصول لسياسة المجتمع وتنظيم العلاقات الاجتماعية.

وليس هناك ما يدل على أن أصول هذه الفلسفة العملية جاءت نتيجة تحليل عقلي للمشكلات أو نتيجة نظر علمي فلسفي، كما عند اليونان مثلاً. وإنما جاءت ثمرة حدس سليم، وأحاسيس إنسانية طبيعية، وتراث طويل من التجربة العلمية، والاجتهاد في الفضائل الإنسانية، في ظل قدوة حسنة كاملة كان الراعي أكبر من يمثِّلها أمام رعيته.

البحث:

وأكبر من يمثل الفكر الصيني المأثور هو (كونج فونسو) أو كما يسمّيه الغربيّون (كونفوشيوس)، الذي عاش بين ٥٥١ و ٤٧٩ قبل الميلاد. ونحن لا نجد عند هذا الحكيم الصيني بحثاً ميتافيزيقياً (ما وراء الطبيعة) حول الدين، ولا بحثاً عن حقائق الأشياء، وهو لم يشتغل بالكون وتفسيره، كما فعل فلاسفة اليونان مثلاً وإنما اهتم بالإنسان وفضائله وتنظيم أمور حياته (من غير تشاؤم - كما عند البوذيين)، ومن غير تكلف في البحث عن عام - بوجود كائن أعلى يسميه السماء - وهذه هي تسمية الإلّه عند أهل الصين - ويتصوّر أنه (مدبِّر - عادل - حكيم).

ويؤمن - حكيم الصين - بعدالة السماء، وبما في الإنسان من استعدادات طيبة، بحيث يستطيع إذا هو تعهدها أن يحسن صياغة سلوكه، وأن يحسن التصرف فيمن حوله.

وكان حكيم الصين يؤمن بأن الفضائل والخيرات أمور بيِّنة بنفسها، وبأن في قلب الإنسان بفطرته إحساسات نبيلة، واستعدادات للخير. كما كان مؤمناً بقيمة المعرفة، وبأن الإنسان يستطيع بفضل الثقافة أن يهذِّب نفسه، ويقهر نوازع الشهوات (التي لا تأتلف مع الفضيلة) فيصل بمجاهدة النفس والهوى إلى الفضيلة والسعادة، وبذلك ينال رضا السماء.

وقد اهتم كونفوشيوس بالأخلاق الفردية والاجتماعية، وبإرساء العلاقات الاجتماعية على أسس من المحبة والاحترام المتبادل، وهي عنده علاقات خمس:

- بين الحاكم والرعية.
- بين الآباء والأبناء.
- الأخ الأكبر والأخ الأصغر.
- الزوج والزوجة.
- الصَّديق وصديقه.

ويسود هذه العلاقات مبدأ عام هو (تسي شوبو دوشي يوي زين) أي (لا تعامل غيرك بما لا تحب لنفسك) أو (عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به).

ورمز الخلق الكريم عند فيلسوف الصين شعور إنساني يسمّيه (جين)، وهو أشبه بمفهوم لفضيلة كليّة تحاكي (المروءة ـ الإنسانية)، تشمل فيما تشمل من خصال (كبر القلب ـ والمحبة الصادقة لجميع الناس) محبة تفيض بسرور من صميم القلب، ولا يبتغي الإنسان من ورائها جزاءاً مادياً، والفضائل تنبت من تعهُّد هذا الشعور على نحو طبيعي (يحاكي ذكر الله في التوجيه الديني).

الإنسان الرفيـع:

وعند حكيم الصين مفهوم «الإنسان الرفيع» هو الإنسان الممتاز (الفاضل) الذي يعظِّم أوامر السماء، ويجلّ عظماء الرجال، ويعي كلمات الحكماء ويعمل بها، وهو ذو إرادة حازمة (قوية ـ رفيعة ـ سامية) يسيطر على شهواته وهواه، ويطمح إلى معالي الأمور، ويعتزّ بنفسه، ومع أنه متواضع فإنه لا يرضى أن يكون أداة لأحد. وهو يجتهد أن يتحلّى بفضائل الوفاء والشجاعة والحكمة، وإيثار الحق ومحبة العدل، ويعمل على استحقاق ثقة الناس، ويعاملهم كما يحب أن يعاملوه به. وهو يتعهد شعور (الجين[1]) الآنف الذكر، في نفسه، والذي يعني ـ كما أسلفنا ـ بـ (حيوية الضمير الإنساني)، ويضحي بنفسه في سبيل المحافظة على هذا الإحساس الكريم.

وكل إنسان يستطيع أن يصبح إنساناً رفيعاً (بالمران ـ بتربية النفس ـ بجهاد النفس والهوى) إذا هو اجتهد وحمل الإرادة الحازمة التي يهزم بها نزعات لانحراف في ذاته.

ومحبة الأبناء لآبائهم وطاعتهم لهم في إجلال، والاستماع إلى نصائحهم (مفهوم برّ الوالدين) كل ذلك بداية طبيعية لمظاهر ذلك الشعـور الإنساني (الجين) النبيل.

---

(١) وقد لوحظ هذا المعنى بأنه يحاكي (المروءة، الإنسانية، الضمير الحي، واليقظة الوجدانية). وقد أشرنا آنفاً إلى ما يقابل ذلك في التوجيه الديني من تعظيم لأمر الله وما يغذي هذا المعنىَ من حرص على ذكر الله واتباع رضوانه.

وإلى جانب العناية بأمهات الفضائل وهو (شعور الجين - الذي يحاكي التقوى والإيمان في التوجيه الديني)، عني (كونفوشيوس) بـآداب الاحتشام والذوق في الحياة اليومية، وفي ضروب المعاملات، وكل ذلك يندرج في المفهوم التربوي الصيني (لي)، ويعادل في المفهوم العام التربوي (الوعي الاجتماعي)، الذي أكسب أهل الصين أدباً ولطفاً ملحوظاً في معاملاتهم.

وكان حكيم الصين مؤمناً بقيمة المعرفة، ولا يريدها مقصورة على أبناء الأشراف والكبراء، ففتح لأبناء الشعب أبواب الثقافة ليشق أمامهم طريق الرقي الذاتي بفضل الاجتهاد، وليمكنهم من النهوض بخدمة المجتمع.

والحاكم (كما يراه حكيم الصين) هو المثل الخلقي الكامل في نفسه[1]، وفي الحكمة، وفي العناية برفاهية شعبه، وهو يسمى (ابن السماء)، يحذو في سياسته طريقة السماء، لذلك يجب أن يكون حاكماً فاضلاً عادلاً، تتحقق في شخصه وأفعاله صفات الحاكم الحق، فيكون قدوة لمن يلي أمراً من أمور الشعب بحسب وظيفته ومسؤوليته.

هكذا حلّ السلام: ويتحدث (كونفوشيوس) في كتابه «تاهسـويه» أي (التعليم الكبير) عن الملوك والقدماء، ويذكر أن عهدهم السعيد كان عصر - الطريقة العظيمة - أو الانسجام الرائع فيقول:

«إن المَلوك القدماء الذين كانوا أول من رتَّب أمور دنيانا، بدأوا بتنظيم أمور ممالكهم، وهم لما أرادوا تنظيم أمور ممالكهم بدأوا بتنظيم أمور أسرهم، ولما أرادوا تنظيم أمور أسرهم، سموا بحياتهم، وهم في سموهم بحياتهم نقوا أفكارهم، وفيْ تنقيتهم لأفكارهم ثقَّفوا عقولهم، وفي تثقيفهم لعقولهم وسعوا دائرة معارفهم إلى أقصى ما يمكن، وفي توسيعهم لمعارفهم أدركوا طبيعة الأشياء، وهم لما أدركوا - طبيعة الأشياء كملت معارفهم، ولما كملت معارفهم تثقَّفت عقولهم، فلما تثقفت عقولهم صفت أفكارهم وبفضل صفاء أفكارهم سمت حياتهم، فلما سمت حياتهم انتظمت أمور أسرهم، فلما انتظمت أمور أسرهم ساد النظام في دولهم، وهكذا حلَّ السلام على الأرض».

---

(١) ينظر كتاب «عالمية الإسلام» للمؤلف ص ٢٤٨ وما بعدها (الحاشية).

فالسلام (في مرآة الفكر الصيني) يستند إلى المعنى التربوي (تربية الفكر والوجدان ـ على الصفاء والشعور الإنساني النبيل) الذي يشعّ من القمة إلى القاعدة، ومن الراعي إلى الرعية، انطلاقاً من الإرادة الحازمة في جهاد النفس والهوى.

وقبل أن يشتغل حكيم الصين بإرشاد غيره، كان قد تولى تثقيف نفسه ورياضتها على مكارم الأخلاق وروي عنه قوله: «لست حكيماً بالفطرة، وإنما صرت حكيماً بجهد شاق، بجهاد النفس والهوى».

وهو يحدثنا عن تطور حياته بإخلاص قائلاً:

«لما كنت صغيراً كنا فقراء جداً... ولما بلغت الخامسة عشرة، أقبلت بقلبي على تحصيل المعرفة... وفي سن الثلاثين رسخت قدماي... حتى إذا بلغت الأربعين صرت أعرف أموري تماماً (صفاء الفكر) وعند سن الخمسين عرفت ما تريده السماء (صفاء القلب والفكر على مستوى التناغم والانسجام)، وفي الستين أصبحت مستعداً لأصغي إليها، وأمتثل للحق الثابت (إلهام حكيم ـ حصيلة صفاء وإصفاء مستقيم)، ولما بلغت السبعين استطعت أن أطيع رغبات قلبي (تجاوب الإرادة ـ مع وحي الإلهام) دون أن أتعدّى ما هو حق وعدل[1]».

في ختام البحث عن «محبة الله تعالى» يطيب لنا أن نقدم للباحث الكريم باقة من الأبيات الشعرية، تمثل معنى من معاني الحب الإلّهي في صورة مناجاة شعرية (نابضة بمعاني الإيمان والإخلاص لله عز وجل):

يا من له حنّت قلوب المخلصين	وضجّت الأصوات بالدَّعوات
لا تُخْلِ قلبي من محبَّتك التي	هي منتهى سعدي ونور حياتي
واسمح بوصلك لي ورقّ لذلَّتي	واغمر بأنوار المحبة ذاتي
لتكون سمعي واللسان وناظري	وتكون شغل القلب طول حياتي

(١) ينظر مقال «من حكمة الصين» للأخ الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة. مجلة العربي عدد (مايو) عام ١٩٨٠ ص ٥٦

وأكون طوعك في أموري كلها ... ما دقّ من سكني ومن حركاتي
يا ربّ أهّلني لحبّك والتّقى ... واجعل رضاءك منتهى رغباتي
واملأ فؤادي باليقين وكن معي ... دوماً وسلّمني من الآفات
وتولّني في الواجبات جميعها ... واصفح عن التقصير والزلّات
واصلح لي الأعمال واقبلها وَجُد ... بالعفو واختم بالرضى صفحاتي
يا ملهماً للنفس تقواها ... إن شاء زكّاها بمحض هبات
لا تقطع الإلهام عن قلبي إلى الـ ... ـتّقوى وزكّ النفس بالطاعات
وبما قضيت عليّ ربّي رضّني ... وأفض على رزقي من البركات
يا ربّ هب لي منك قلباً مخبتاً ... متضرِّعاً لك دائم الخَشيات
واجعل لساني مشغلاً بالذكر والـ ... ـتّسبيح والتمجيد والآيات
وأفض على قلبي المحبة منك يا ... ربّ وقدّرني على الطاعات

المبحث الثامن

التنبيه على أسباب الاختلاف بين فقهاء المسلمين

● ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتّبعوا السّبل، فتفرّق بكم عن سبيله، ذلكم وصّاكم به لعلكم تتّقون ﴾ الأنعام: /١٥٣.

● عـن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال:

«خرج رجلان في سفر، فحضرت الصلاة وليس معهما ماء، فتيمّما صعيداً طيّباً فصلّيا، ثم وجدا الماء في الوقت، فأعاد أحدهما الوضوء والصلاة، ولم يعد الآخر، ثم أتيا رسول الله ﷺ، فذكرا ذلك له، فقال للذي لم يعد، أصبت السنّة وأجزأتك صلاتك، وقال للذي توضّأ وأعاد (الصلاة) لك الأجر مرتين».

إن الخلاف في الفروع سعة وغنى في التشريع، فإن ضاق بالأمة مذهب فقهي، استعانت بآخر وإن صعب عليها حكم أو أوقعها في حرج لجأت إلى غيره. وقد قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «ما سرّني أن أصحاب محمد ﷺ لم يختلفوا، لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة».

لم يكن الاختلاف مبنياً على هوىً، أو انتصاراً لذات أو شخص، أو اندفاعاً وراء أغراض ومصالح، بل كان مبنياً على أُسس علمية موضوعية، فقد كان الوصول للحق هدفهم، ومرضات الله وإخلاص العمل له غايتهم. لم يقع اختلاف في النصوص القطعية الثبوت والدلالة، فالقرآن بجميع آياته قطعي الثبوت لأنه نقل متواتراً، وكذلك السنّة المتواترة قطعية الثبوت، وإنما ينحصر الخلاف في النصوص الظنيّة، كأخبار الآحاد، والدلالات الظنية.

التنبيه على أسباب
الاختلاف بين فقهاء المسـلمين

تمهـيد:

صوناً لمصالح الخلق من عبث الأنانية الفردية، وتخليصاً لنفوسهم من وطأة الجور في الحكم، وحفظاً لهم من شرّ الهوى والتسلّط، كان أساس التشريع في منهج الإسلام للّه وحده ﴿ إن الحكم إلاّ لله ﴾ الأنعام: ٥٧/.

أما الفقهاء وأُولوا الأمر في الأمة فلا يَلُونَ من أمر التشريع إلا إذا كانوا من المجتهدين[١] الذين توفّرت فيهم أهليّة الاجتهاد، ذلك لأنهم أفقه لكتاب الله

(١) إن المجتهد هو الفقيه الذي استفرغ جهده ووسعه لتحصيل حكم شرعي (من دليله)، واستنباطه من مواطن الاستنباط المعهودة، فالمجتهد كاشف عن حكم الشرع، ومستنبط له، ونظراً لهذه المكانة الكريمة للمجتهد لا بد من معرفة صفاته وشروطه التي تؤهله لهذا المنصب العظيم. وقد ذكروا من الشروط العامة لذلك (الإسلام والبلوغ والعقل) كما ذكروا الشروط التأهيلية (الأساسية والتكميلية).

فمن الشروط الأساسية ـ معرفة الكتاب والسنة ـ واللغة ومواضع الإجماع ـ ومن الشروط التكميلية: أن يكون عالماً بقواعد أصول الفقه التي تساعده على الاستنباط الصحيح للأحكام من مصادرها وأدلتها، ليكون استنباطه خاضعاً لمنهج علمي، لا لمجرد الرأي والهوى، وأن تتوافر لدى المجتهد الملكة الفقهية والذوق التشريعي الذي يساعده على فهم المقاصد والعلل، وقياس الأحكام بنظائرها. فالاجتهاد (على العموم) كما عرفه الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله «هو تأمّل وتفكير، في تعرّف ما هو أقرب إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، سواء أحصل التعرّف من نص معين أو من المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، فيشمل القياس والأخذ بالمصلحة». ومما لا شك فيه أنه لا مجال للاجتهاد في مورد النص (القطعي الدلالة)، أما إذا كانت الواقعة جديدة ليس فيها نص صحيح صريح، فعند ذلك ننتقل إلى الاجتهاد بالرأي (قياساً ـ أو مراعاة للمصلحة أو العرف)، وغير ذلك من الأدلة التابعة للكتاب والسنة، اجتهاداً في فهم النص، وتطبيقه على الواقعة (إذا كان النص ظنّي الدلالة). =

وسنّة رسوله ﷺ، وأعمق إدراكاً لقواعد الإسلام الكليّة، ومقاصده التشريعية في حفظ مصالح الأمة، وعلى هذا فما يأتون من حكم لا يعتبر تلقائياً ولا تشريعاً ابتداعياً مستمداً من هوى أو مصلحة ذاتية، وإنما هو تشريع مستنبط من نصوص الشريعة وروحها ومقاصدها.

فالتشريع الإسلامي سماوي الأصول، فطريّ النزعة، يتصل بالفطرة الإنسانية التي فطر اللّه الناس عليها وكما قال تعالى:

= ويرجع تاريخ الاجتهاد إلى عصر الرسول ﷺ إذ كان يجتهد في كثير من المسائل التي لم ينزل فيها الوحي ونستطيع أن نقسم الاجتهادات الصادرة عن الرسول الكريم إلى قسمين:

أولاً: اجتهادات بيانية: وتدخل هذه الاجتهادات ضمن مهمة الرسول الأولى، وهي بيان الأحكام الواردة في القرآن الكريم، عن طريق بيان المجمل، وتقييد المطلق، كقوله ﷺ:

- «لا يرث القاتل».
- «لا وصية لوارث».
- «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب».

ثانياً: اجتهادات مطلقة: وتدخل هذه الاجتهادات ضمن مفهوم الاجتهاد بمعناه الاصطلاحي، إذ يستعمل فيها الرسول ﷺ عقله، ويستشير فيها صحابته، ويختار بعد ذلك ما يحقق المصلحة.

ومن هذا النوع اجتهاده ﷺ في موضوع (أسرى بدر)، الذي عاتبه الله عليه، في قوله سبحانه:

- ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض... ﴾.

وقد أقرّ جمهور العلماء الاجتهاد من الرسول الكريم، لأن الاجتهاد إذا كان جائزاً من المجتهدين، مع عدم اتصافهم بالعصمة، فهو جائز من الرسول ﷺ من باب أولى، وقد أشار ﷺ إلى اجتهاده بقوله:

- «إني أقضي بينكم بالرأي فيما لم ينزل فيه وحي».

وقد ظهر الاجتهاد بشكل واسع، وظهرت الحاجة الماسة إليه بعد وفاة الرسول ﷺ، ففي عصره كان الصحابة يعتمدون عليه في كل مسألة من المسائل، ولكن بعد وفاته اضطروا للاجتهاد، وبخاصة في المشاكل المستجدّة، التي ظهرت بكثرة الفتوحات الإسلامية، قد فرضت اللجوء إلى الاجتهاد، والاعتماد عليه، ومن أهم اجتهادات الصحابة ما يلي:

- اجتهاد أبي بكر الصديق في قتال المرتدين الذين منعوا الزكاة.
- اجتهاد عمر في منع إعطاء المؤلفة قلوبهم من أموال الزكاة.

وقد أقرّ رسول الله ﷺ معاذاً على الاجتهاد حين بعثه إلى اليمن قاضياً، فقال له: كيف تصنع إذا عرض لك قضاء؟... قال: أقضي بما في كتاب الله، قال: فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله، قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله؟ قال: أجتهد رأيي، لا آلو، قال: فضرب رسول الله ﷺ صدري ثم قال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله، إلى ما يرضي الله.

● ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها... ﴾ الروم: /٣٠.

وهو ما أُنزل إلا ليُخرج الناس من دواعي أهوائهم، وشطط نزعاتهم الفردية ومصالحهم الخاصة، إلى رحاب مراد الله واتباع رضوانه، إلى القاعدة العامة ـ العلمية التربوية ـ في السلوك، التي تقود مسيرة الحياة دائماً، نحو التطور والازدهار والتكامل.

فالشريعة الإسلامية لم تكن في أصولها ومصادرها وليدة لأمور محلية طرأت، أو ظروف أحاطت بمجتمع ما، في زمن معين، حتى تكون صدىً لتلك الظروف، أو انعكاساً لتلك الأحداث، كما أنها لم تكن أثراً للإرادة الإنسانية، بما يحرك تلك الإرادة من دوافع النفس وانفعالاتها، حتى تكون خاضعة للأهواء والأغراض والمصالح الشخصية، ولم يتمخض هذا التشريع عن صراع بين مصلحة الفرد والمجتمع، حتى يتحدد على ضوء افتئات إحداهما على الأخرى.

وهكذا لم يخلق الله الناس عبثاً، ولم يتركهم وشأنهم، يستبدّ كلٌّ برأيه، بل شرع لهم لكل فعل من أفعالهم حكماً يختصّ به، وجعل لهذه الأحكام مصادر تؤخذ منها، وهذه المصادر رغم تعدّدها، فإنها ترجع إلى مصدر واحد وهو النصوص من الكتاب والسنّة.

وقبل بيان أسباب اختلاف الفقهاء، ينبغي أن نتذكر الأمور التالية:

١ ـ الاختلاف بين الفقهاء منحصر في الفروع الفقهية (مع الاتفاق الكامل على الأصول ـ سواء أكانت في العقيدة وأركان الإسلام والإيمان، أم في أصول التشريع ـ من الكتاب والسنّة، والإجماع والقياس).

وهذا الاتفاق على الأصول والقواعد العامة، هو من فضل الله على هذه الشريعة التي هي خاتمة الشرائع والرسالات، والتي تكفّل الله بحفظها، إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، وكما قال تعالى:

● ﴿ إنّا نحن نزّلنا الذكر، وإنّا له لحافظون ﴾ الحجر: /٩.

وأما الاختلاف في الفروع الفقهية والأحكام التفصيلية، فلا خطر منه ولا ضرر، بل هو عامل من عوامل خلود هذه الشريعة.

٢ ـ إن الاختلاف في الأمور الفرعية والتفصيلية أمر طبيعي، ولا يوجد تشريع سماوي أو وضعي يخلو من ذلك. بل لا يوجد علم من العلوم يخلو منه. فعلماء القانون مختلفون في شرحه وتفسيره، والمحاكم مختلفة في تطبيقه، وعلماء التاريخ مختلفون في رواياته وأحداثه، والأطباء والمهندسون والخبراء والفنيّون يختلفون في الموضوع الواحد والنظر إليه وتحليله، فالاختلافات في الأمور الفرعية والتفصيلية أمر طبيعي، تقتضيه الحياة العلمية والعملية.

٣ ـ إن الاختلاف بين المذاهب الفقهية، كان السبب في تزويد المكتبة الإسلامية بالموسوعات الفقهية الضخمة التي في كل تشريع منها أثر، وفي كل مكتبة من مكتبات العالم فيها خبر، والتي جعلت العرب والمسلمين يملكون ثروة تشريعية لا تملكها أمة من أمم الأرض، كما جعلت ذلك التشريع تشريعاً مرناً ـ (في قابلية التطبيق)، متجدداً ومستمراً، وصالحاً لكل زمان ومكان، صالحاً لأرقى حضارة نتطلّع إليها، وأعظم مدنيّة نهدفها، ملبّياً لجميع حاجات التقدم والتطور والعمران، خلال العصور الطويلة، جامعاً بين مصالح الجسد ومطالب الروح، منسّقاً بين أهداف الفرد والجماعة.

ذلك لأن الخلاف في الفروع سعة وغنى في التشريع، فإن ضاق بالأمة مذهب فقهي استعانت بآخر، وإن صعب عليها حكم أو أوقعها في حرج لجأت إلى غيره.

وقد قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه:

● «ما سرّني أن أصحاب محمد ﷺ لم يختلفوا لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة»[١].

---

(١) في معرض تفسير قوله تعالى: ﴿ آلم. غلبت الروم في أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ سورة الروم: ١/ ـ ٦.
لقد نزلت هذه الآيات الكريمة على قلب النبي العربي العظيم، بشارة من الله للمؤمنين بنصر =

٤ ـ لم يكن الاختلاف مبنياً على هوى، أو انتصاراً لذات أو شخص، أو

= أهل الكتاب (الروم) على أعدائهم المجوس (الفرس)، في بضع سنين (والبضع من ثلاث إلى تسع)، وفي نفس السنة التي تحققت فيها البشارة الإلّهية (بنصرة الروم)، انتصر أصحاب رسول الله ﷺ على كفار قريش في معركة (بدر الكبرى) وبهذه المناسبة (أعني نزول الآيات الكريمة بعد هزيمة الروم ـ ببشارة الله تعالى بأنهم من بعد غلبهم سيغلبون)، جرى (رهان) بين السيد الصديق أبي بكر رضي الله عنه، والوثني (أبيّ بن خلف) على مائة جمل، تصديقاً من السيد الصديق لوعد الله الكريم وبشارته بالنصر، وتكذيباً من أبيّ بن خلف الوثني المشرك بالنسبة لمضوع البشارة (بالنصر خلال بضع سنين)، وقد ربح السيد الصديق (الرهان ـ مائة جمل) بعد مرور سبعة أعوام على الحادث (نزول الآيات الكريمة ـ بنصرة الروم على أعدائهم الفرس المجوس).

وقد أقرّ رسول الله ﷺ السيد الصديق على أخذ الرهان المعهود من الوثني المشرك (أبيّ بن خلف)، وأوعز إلى السيد الصدّيق في نفس الوقت بالصّدقة بالرّهان كاملاً (أي بالمائة جمل) وقد أخذ الإمام جعفر الصادق بهذا الاجتهاد النبوي، كما أخذ به الإمام أبو حنيفة النعمان، وأجاز المذهب الحنفي (قياساً) على هذا الاتجاه، بجواز قبول الفائدة (من المحاربين أعداء الإسلام)، بشرط أن توجّه الفوائد كاملة إلى المصالح العامة المشروعة (كما تصدّق السيد الصديق بالرّهان كاملاً بإشارة رسول الله ﷺ).

وتعليقاً على هذا الاتجاه (في المذهب الحنفي ـ المؤسس على الإقرار النبوي للرّهان ـ والذي أخذ به ـ الإمام جعفر الصادق)، صرّح سماحة المفتي العام للجمهورية العربية السورية الشيخ أحمد كفتارو، في محاضرته العامة بتاريخ الجمعة/ ٢٧/ محرم/ ١٤٠٦ هـ ـ الموافق/ ١٠/ تشرين أول ١٩٨٥ في جامع أبي النور بدمشق؛ صرّح سماحته (تعليقاً على هذا الاجتهاد المنوه عنه أعلاه) بما يلي:

«إن أموال الكثير من العرب والمسلمين مودعة في المصارف الأمريكية (وتقدر فوائدها بمليارات الدولارات سنوياً/ يدعها ويتركها أصحابها ـ أعني فوائد رؤوس الأموال ـ لأعدائهم (جهلاً ـ بفقه الإسلام الصحيح).

وإن مرونة الإسلام المعهودة، وبالاستناد إلى هذا الاجتهاد الفقهي السليم، من (الإمام جعفر الصادق ـ وأبي حنيفة)، إن هذه المرونة الاجتهادية المشروعة، تسمح بأخذ فوائد رؤوس الأموال (من المحاربين أعداء الإسلام) بشرط أن توجّه هذه الفوائد كاملة إلى المصالح العامة (الجمعيات الخيرية مثلاً ـ وما إليها)، ينتفع بها المسلمون، خير من أن ندعها (جهلاً) لأعداء الإسلام يعطونها لإسرائيل، وللجمعيات التبشيرية لديهم، يحاربوننا بأموالنا، فنحن بحاجة إلى فهم مجدّد لفقه الإسلام على الحقيقة.

وقد أقرّ سماحته بهذه المناسبة، فكرة الاجتهاد الجماعي، الذي أخذ بها مجمع الفقه الإسلامي في مكة المكرمة في الوقت الحاضر، استعاضة عن فكرة الاجتهاد الفردي، وإزالة للتعصّب المذهبي الذي يحول دون اجتماع كلمة المسلمين.

اندفاعاً وراء أغراض ومصالح، بل كان مبنياً على أسس علمية موضوعية، فقد كان الوصول للحق هدفهم، ومرضاة الله وإخلاص العمل له غايتهم.

٥ ـ لم يقع اختلاف في النصوص القطعية الثبوت والدلالة، فالقرآن بجميع آياته قطعي الثبوت لأنه نقل متواتراً، وكذلك السنّة المتواترة قطعية الثبوت (وإنما ينحصر الخلاف ـ في النصوص الظنية، كأخبار الآحاد، وفي الدلالات الظنية).

٦ ـ كان رسول الله ﷺ المرجع الوحيد للتشريع، حيث كان يعتمد على الوحي ﴿وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى﴾ النجم: /٣ ـ ٤.

وكان الصحابة إذا اختلفوا في حكم لم يرد فيه نص، رجعوا إلى رسول الله ﷺ، ومع ذلك فإننا نلاحظ، تعدّد الأقوال في المسألة الواحدة في حياته ﷺ، كما كان يقرّ حكمين مختلفين، ليبين إباحة الأمرين وأذكر من ذلك الأمثلة التالية:

أ ـ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال:

● «نادى فينا رسول الله ﷺ يوم انصرف من الأحزاب، أن لا يصلينّ أحد الظهر إلا في بني قريظة، فتخوّف ناس من فوات الوقت فصلّوا دون بني قريظة، وقال آخرون، لا نصلّي إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت، قال: فما عنّف واحداً من الفريقين».

ب ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه:

● «خرج رجلان في سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء، فتيمّما صعيداً طيّباً فصلّيا، ثم وجدا الماء في الوقت، فأعاد أحدهما الوضوء والصلاة، ولم يعد الآخر، ثم أتيا رسول الله ﷺ فذكرا ذلك له، فقال للذي لم يعد أصبت السنّة وأجزأتك صلاتك، وقال للذي توضأ وأعاد لك الأجر مرتين».

هذا التعدّد في الأحكام لحادثة واحدة، وإقرار الرسول ﷺ لاختلاف الصحابة، يدل على سعة هذه الشريعة، ومرونتها والتيسير فيها، ورفع الحرج عن المكلفين في تطبيقها.

البحث: بعد هذا العرض الموجز أستطيع أن أشير إلى أسباب اختلاف الفقهاء[1]:

١ ـ الاختلاف في الاستعدادت الفطرية والمكتسبة لدى الناس جميعاً، ومنهم الفقهاء والعلماء[2]، فالناس طبائعهم متباينة وقدراتهم مختلفة، وفي ذلك يقول الشيخ علي الخفيف: إن عادات الناس مختلفة، وآراءهم متعارضة، وأعرافهم متعددة، وأعمالهم متنوعة، وأنظارهم متفاوتة، وإذا اختلفت المقدمات اختلفت النتائج، فالاختلاف بين الناس واضح في الملكات والقدرات والتفكير والفهم.

٢ ـ اختلاف البيئات والعصور دفع الأئمة إلى اختلاف الأحكام الفرعية، فكان الإمام الواحد، يغيّر من اجتهاده في المسألة الواحدة إذا تغيرت هذه الظروف، كما حصل للإمام الشافعي رضي الله عنه وكما حصل مع الصاحبين بعد وفاة الإمام أبي حنيفة.

كما نرى من الاختلاف في الأمور الاجتهادية الفرعية بين المتقدمين

---

(١) ينظر أسباب اختلاف الفقهاء للأخ الدكتور إبراهيم سلقيني (عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق).

(٢) إن الخلاف بين الناس في الآراء والمعتقدات أمر طبيعي، فما دام الناس يختلفون في ألوانهم وألسنتهم وطبائعهم وطرق معايشهم، وفي البيئة التي يحيون فيها، وفي الثقافة التي ينهلون منها، فإنهم ولا شك يختلفون في آرائهم وتفكيرهم، وذلك يرجع إلى اختلاف المدارك والعقول إذ من المدارك ما ينفذ إلى صميم الأشياء ويصل إلى حقيقتها، ومنها ما يظل طافياً على السطح لا يدرك من الأشياء إلا ظواهرها، ومنها ما يشغل عن الحقيقة بالخيال والأوهام، فيصدّه ذلك عن إدراك حقيقة الأشياء أو جزء منها.

هذا وقد يكون الاختلاف بسبب التقليد والتعصب لآراء الأقدمين، وجعلها بمثابة لا يجوز مخالفتها، ولا الحيد عنها، ولعل هذا من أكبر أسباب الخلاف، ولذلك نرى القرآن الكريم ينعي على المخالفين للحق تقليدهم للآباء، كما قال تعالى: ﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده، ونذر ما كان يعبد آباؤنا... ﴾ الأعراف: /٧٠.

ولم يقبض رسول الله ﷺ إلا بعد أن بين للمسلمين المحجّة الواضحة، وترك فيهم ما إن تمسكوا به لم يضلّوا أبداً، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وحين يصحّ الفهم للكتاب والسنة، ويصح العمل بهما، والتمسك الواعي لحسن توجيههما، فهناك العودة إلى الأصل الذي يتبدَّد معه كل خلاف.

والمتأخرين في المذهب الواحد، ولذلك وضعوا القاعدة الفقهية (لا ينكر تغير الأحكام لتغير الزمان)، لتأكيد صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان.

٣ ـ الاختلاف في فهم النصوص عندما تكون دلالتها غير قطعية، ويكون المعنى محتملاً أو خافياً مما يؤدي إلى اختلاف الأحكام بين الفقهاء.

٤ ـ الاختلاف في اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، حيث كانت لغة واسعة، منها المشترك والمترادف والحقيقة والمجاز، والعام والخاص، أدى إلى الاختلاف في فهم النصوص ودلالته، وإلى الاختلاف في استنباط الأحكام، مثل لفظة: القرء، والعين، وحروف الجر والعطف...

فيقال: رأيت عيناً، ويراد بها عين الماء، أو عين الإنسان، أو الجاسوس، وكذلك القرء يراد به الحيض، ويراد به الطهر، كما في الآية الكريمة:

● ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء... ﴾ البقرة: /٢٢٨.

٥ ـ الاختلاف في حجيّة بعض المصادر للتشريع، فقد اتفق الأئمة على حجية القرآن والسنة والإجماع والقياس، لكن اختلفوا في حجّية بعض المصادر، كالاستحسان والمصالح المرسلة وغيرها. فهناك من ينظر إلى فعل الصحابي مثلاً أو فتواه نظرته إلى النصوص الشرعية فيعتبرها حجّة، وهناك من يخالف في ذلك وهناك من يعتبر عمل أهل المدينة المنورة حجّة... وهكذا.

٦ ـ الاختلاف في ثبوت النص الشرعي وعدم ثبوته، لأن النص الشرعي هو المرجع الأول للمجتهدين جميعاً[١]، فإذا صحّ الحديث واتضحت دلالته، وسلم

---

(١) وفي ـ اليواقيت والجواهر ـ أنه روي عن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه كان يقول: «لا ينبغي لمن لا يعرف دليلي أن يفتي بكلامي». وكان رضي الله عنه يقول إذا أفتى: هذا رأي النعمان بن ثابت (ويعني نفسه)، وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب.

وكان الإمام مالك رضي الله عنه يقول: ما من أحد إلا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه إلا رسول الله ﷺ. وروى الحاكم والبيهقي عن الشافعي رضي الله عنه أنه كان يقول: (إذا صحّ الحديث فهو مذهبي)، وفي رواية: إذا رأيتم كلامي يخالف الحديث فاعملوا بالحديث، واضربوا بكلامي الحائط. =

من المعارض، كان عليه الاعتماد في الحكم، لايخالف في هذا أحد، وهذا هو معنى قول الأئمة المجتهدين رضي الله عنهم (إذا صحّ الحديث فهو مذهبي)، فلا يمكن لمسلم أن يعرض عن الحديث الشريف، ولكن هناك وصول (نص الحديث) إلى هذا الإمام، وعدم وصوله إلى غيره، وذلك لعدم الإحاطة الكاملة بالسنة.

وهناك ثبوته عند هذا وعدم ثبوته عند غيره، وذلك تبعاً للاختلاف في توثيق الرجال والرواة وتضعيفهم، أو تبعاً لشذوذ في متن الحديث أو سنده، بالنسبة إلى متن آخر أو سند آخر... إلى غير ذلك، فيقضي العالم حينئذ بظاهر آية، أو بحديث آخر، أو يجتهد رأيه.

فأبو بكر رضي الله عنه لم يعلم بحديث ميراث الجدّة، وعمر لم يبلغه حديث الاستئذان (ليستأذن أحدكم ـ ثلاثاً، فإن لم يؤذن له فليرجع)، وعثمان لم تبلغه السنّة في اعتداد المتوفى عنها زوجها في بيت الزوجية وهكذا.

٧ ـ الاعتقاد بضعف الحديث لمعرفة خاصة برجال السند، فيردّ حديثه، بينما يخفى هذا الأمر على آخر ـ فيقبل الحديث.

٨ ـ نسيان الحديث ـ لأن السنة لم تكن مدونة في صدر الإسلام، وكان الاعتماد فيها على الحفظ، والإنسان قد ينسى، فقد نسي عمر حديث التيمّم من الجنابة عند عدم الماء، فذكّره به ـ عمّار.

٩ ـ الاختلاف في طرق الجمع والترجيح بين النصوص المتعارضة في

= وكان الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه يقول: ليس لأحد مع الله ورسوله كلام.
فالأئمة أصحاب المذاهب رضي الله عنهم بريئون من التعصّب المذهبي، ومتمسكون بالوجهة الموضوعية للكتاب والسنة وإنما يأتي التعصّب المذهبي (المذموم)، من قصور في الفهم، أو من التقليد الأعمى، الذي يعبّر عن اتباع الهوى ويؤدي إلى الاختلاف غير المرغوب فيه.
ومن هذا القبيل ما روي عن الإمام أبو يوسف (صاحب أبي حنيفة) أنه صلى يوم الجمعة مغتسلاً من الحمّام، وصلّى بالناس وتفرّقوا، ثم أخبر بوجود فأرة ميّتة في بئر الحمام، فقال: إذن نأخذ بقول إخواننا من أهل المدينة: إذا بلغ الماء قلّتين لم يحمل خبثاً.
ينظر الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، للأخ: ولي الله الدهلوي ـ ص ١٠٤ وما بعدها.

ظاهرها، فعلى فرض الاتفاق بين العلماء على ثبوت النص وفهمه يعترض أمر آخر، وهو عدم سلامة هذا النص من معارض راجح من النصوص الأخرى وهنا يحصل الاختلاف في طرق الجمع بين النصوص، أو ترجيح بعضها على بعض، وباب الجمع والترجيح باب دقيق، يتجلّى فيه تفاوت الأفهام، وعمق الأنظار.

ومن أمثلة اختلاف العلماء في طرق الجمع اختلافهم في قراءة المأموم (المقتدي) الفاتحة خلف الإمام.

هذه بعض أسباب الاختلاف (بين الفقهاء)، وهو اختلاف في الفروع كما رأينا، فلا يضرّ الأمة، ولا يفرّق شملها، ولا يؤدي لانقسامها، وإنما الخطر الكبير الاختلاف في العقيدة، وهذا لم يقع بحمده تعالى[1].

---

(١) ودعا كثير من العلماء إلى إنشاء مجمع فقهي، على نسق المجامع الفقهية الأخرى تحقيقاً للهدف العام الذي يشعر المسلمون بالحاجة إليه في تجديد الفقه الإسلامي وتطوره وحتى يكون هذا المجمع وسيلة للاستنارة برأي الجماعة (يمثل فكرة الاجتهاد الجماعي) في الاستنباط، بما يغني عن الاجتهاد الفردي.

وفي مؤتمر رابطة العالم الإسلامي الذي عقد بمكة المكرمة سنة ١٣٨٤ هـ، قدّم الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا (أستاذ الشريعة الإسلامية ـ بكلية الحقوق بجامعة دمشق) اقتراحاً بذلك جاء فيه:

إذا أريد إعادة الحيوية لفقه الشريعة، بالاجتهاد الواجب استمراره شرعاً، والذي هو السبيل الوحيد لمواجهة المشكلات الزمنية الكثيرة، بحلول شرعية حكيمة، عميقة البحث متينة الدليل، بعيدة عن الشبهات والريب والمطاعن، وتهزم آراء العقول الجامدة والجاحدة على السواء، فالوسيلة الوحيدة هي: اللجوء لاجتهاد الجماعة، بديلاً عن الاجتهاد الفردي، وطريقة ذلك، تأسيس مجمع للفقه الإسلامي، يضم أشهر فقهاء العالم الإسلامي، ممن جمعوا بين العلم الشرعي والاستنارة الزمنية، وصلاح السيرة والتقوى.

ويضمّ إلى هؤلاء علماء موثّقين في دينهم من مختلف الاختصاصات الزمنية اللازمة في شؤون: الاقتصاد، والاجتماع، والقانون، والطب... ونحو ذلك، ليكونوا بمثابة خبراء يعتمد الفقهاء رأيهم في الاختصاصات الفنية.

ويتضح من هذه العبارة، أن مهام هذا المجمع المقترح ستتناول النظر في المسائل الجديدة التي حدثت في هذا العصر، ولم يكن لها نظير سابق، كالتعامل المصرفي بأنواعه، وأوراق اليانصيب، وأنظمة الشركات الحديثة، والتأمين بأقسامه... وهكذا.

ويطالعنا ـ بعد ذلك ـ الدكتور الشيخ مصطفى الزرقا، صاحب الاقتراح المشار إليه، بمقاله المنشور في ص ٣١ من مجلة العربي عدد ذو الحجة عام ١٤٠٠ هـ بعنوان: «حتى يخرج =

وإذا رأينا تعصّباً مذهباً مقيتاً، أو انقساماً مفرقاً في بعض الأحيان، فإن سببه: الجهل بالشريعة، أولاً. وبسيرة الأئمة وأقوالهم، ثانياً. وإلى الأيدي العاتية الأثيمة والدخيلة التي تريد تمزيق الأمة، ثالثاً.

= الفقه من عزلته عن الحياة» ما يلي: «وكنت وضعت له مشروع نظام إجمالي (ويعني مجمع الفقه الإسلامي) لخطوطه العريضة، وقدمته من نحو عشرين عاماً إلى (الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي) الشيخ محمد سرور الصبان رحمه الله بطلب منه، واليوم برزت نواته من سطح الأرض (برعمة) نابتة والحمد لله، في مكة المكرمة على يد رابطة العالم الإسلامي، والأمل معقود أن يستكمل بإذن الله أجهزته ووسائله، وسائر مقوماته الأساسية، تباعاً واستجماعاً، بمساعي المخلصين من أهل العلم والعمل، المقدرين لجلال المسؤولية الإسلامية العامة، وأعوانهم في كل مكان، بعيداً عن العصبيات الإقليمية والمذهبيَّة».

وقد استكمل المجمع الفقهي المنشود أبعاده وولادته القانونية (بحمد الله وتوفيقه)، ويمارس عمله الإسلامي المعهود تحت إشراف رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، منذ بداية القرن الخامس عشر الهجري وحتى تاريخه ونرجو أن يقيّض الله له الرجال الأكفاء، الذين يسيرون بفكرة الاجتهاد الجماعي المنشودة نحو التطور والازدهار والتكامل.



المبحث التاسع

نظرة الإسلام الموضوعية للأديان الأخرى

● ﴿ولقد وصّينا الـذين أوتوا الكتـاب من قبلكم، وإيَّاكم، أن اتقـوا الله. . .﴾ النساء: /١٣١.

● أخـرج البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً، فأحسنه وأجمله، إلاَّ موضع لبنة في زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون هلاَّ وضعت هذه اللّبنة؟ قال: فأنا اللّبنة، وأنا خاتم النبيين».

وهذا من أوضح الأدلـة، على تكامـل رسالات السمـاء، في روحها ومعناها، وإن اختلفت (شرائعها ومناهجها)، في صورها وأشكالها، حسب مقتضيات تطور الأمم، وحاجات البشر.

نظرة الإسلام الموضوعية للأديان الأخرى

علاقة الإسلام بالأديان الأخرى:

الإسلام «بحقيقته الموضوعية» قديم منذ فجر الخليقة، ومبدأ التاريخ والنبوّات، فهو الدعوة الخالصة إلى الإيمان الصحيح، والانقياد والإذعان لله وحده، ولأحكامه، على لسان جميع الأنبياء والمرسلين.

فهذا نوح عليه السلام - أبو البشر الثاني - وصاحب الرسالة العظيمة دعا إلى الإسلام بمنطوق القرآن، فقال لقومه:

● ﴿إن أجري إلاَّ على الله، وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ يونس: /٧٢.

ومثله إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام:

● ﴿إذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لربّ العالمين. ووصَّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بَنيّ إن الله اصطفى لكم الدين، فلا تموتن إلاَّ وأنتم مسلمون﴾ البقرة: /١٣١ - ١٣٢.

● ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ آل عمران: /٦٧.

وكذلك دعا موسى عليه السلام إلى الإسلام، كما في الآية الكريمة:

● ﴿وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكّلوا إن كنتم مسلمين﴾ يونس: /٨٤.

● ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيّون الذين أسلموا﴾ المائدة: /٤٤.

ومثله عيسى عليه السلام إذ أجابه الحواريون:

● ﴿فلما أحسَّ عيسى منهم الكفر قال مَنْ أنصاري إلى الله، قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون﴾ آل عمران: /٥٢.

فالإسلام، بحقيقته الموضوعية، كما أشرنا، دين الجميع من الأنبياء وأتباعهم، لذا كانت دعوة القرآن هي الإيمان بجميع الرسل عليهم السلام، والتصديق بالديانات التي أنزلت عليهم والإقرار بأصولها الأولى التي خوطب بها الناس، حتى جعل ذلك عنصراً من عناصر عقيدة المسلمين. كما في الآيات الكريمة:

● ﴿شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك، وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ الشورى: /١٣.

● ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، وإياكم، أن اتقوا الله...﴾ النساء: /١٣١.

● ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاَّ نوحي إليه أنه لا إلـه إلاَّ أنا فاعبدون﴾ الأنبياء: /٢٥.

● ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين. بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾ الزمر: /٦٥ - ٦٦.

وما شرعه الله من الدين ووصّانا به - كما وصّى رسله السابقين - هو أصول العقائد وقواعد الإيمان، لا تتبدَّل بتبدُّل الزمان والمكان، ولا تتغير بتغير الأفراد والأقوام. إنَّها عقيدة التوحيد، وإخلاص العبودية لله وحده، أما فروع الدين وشرائعه العملية، فإن لكل أمة من التشريعات العملية ما يتناسب مع ظروفها وأحوالها، ومستواها الفكري والروحي والحضاري كما قال تعالى:

● ﴿لكلّ جعلنا منكم شِرْعة ومنهاجاً...﴾ المائدة: /٤٨.

وإنما جعل الله هذه العقيدة (عقيدة التوحيد ـ وما يتبعها من إيمان بالملائكة والرسل والكتب السماوية) عامة للبشر، وخالدة على الدهر، لما لها من الأثر البيِّن، والنفع الظاهر في حياة الأفراد والجماعات.

وأما علاقة الإسلام الحالية (بالأديان القائمة فعلًا)، فيحدِّدها القرآن الكريم في مثل قوله تعالى:

● ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق، مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه...﴾ المائدة: /٤٨.

أي أن القرآن الكتاب الكامل، الذي أكمل الله به الدين، ينطق بتصديق كون الكتب الإلّهية السابقة (كالتوراة والإنجيل) من عند الله، وأن الرسل الذين جاؤوا بها لم يفتروها من عند أنفسهم، فتلك الكتب في صورتها الأولى، ووضعها الحقيقي الصحيح الذي جاء من عند الله، مؤيّدة، وموثّقة، ومعترف بها في القرآن.

ثم ينتقل القرآن خطوة أخرى، فيبيِّن أنه رقيب وشهيد على الكتب السابقة، بما بيّنه من حقيقة حالها، وشأن متّبعيها، وتحريف كثير منها أو تأويله، فهو يحكم عليها لأنه جاء بعدها، مبيناً انتهاء مهمتها بمجيئه، حتى ولو بقيت سليمة من التغيير والتبديل، كما قال تعالى:

● ﴿إن الدين عند الله الإسلام...﴾ آل عمران: /١٩.

أي لا دين مرضي عند الله سوى الإسلام، كما قال الصحابي الجليل قتادة:

«شهادة أن لا إلّه إلّا الله، والإقرار بما جاء من عند الله، وهو دين الله تعالى الذي شرع لنفسه، وبعث به رسله، ودلَّ عليه أولياءَهُ، لا يقبل غيره، ولا يجزي إلّا به.

وهذا يعني أن القرآن هو الصورة الأخيرة لدين الله، وهو المرجع الأخير في هذا الشأن والمصدر النهائي في منهج الحياة وشرائع الناس ونظام حياتهم، فلا تعديل بعد ذلك ولا تبديل، كما قال تعالى:

● ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ آل عمران: /٨٥.

والخلاصة ـ أن علاقة الإسلام بالديانات السماوية في صورتها الأولى، هي علاقة تصديق وتأييد كلّي، وأن علاقته بها في صورتها المنظورة الحالية، علاقة تصديق لما بقي من أجزائها الأصلية، وتصحيح لما طرأ عليها من البدع والإضافات الغريبة عنها.

تحديد دور الإسلام: وأما دور الإسلام بالنسبة لما سبقه من الأديان فهو دور إكمال الدين، وإنضاج له، بما يتناسب مع تطور الأمم، ودرجة الترقي والمدنية التي وصلت إليها، بحيث يتجلّى فيها مركز العقل والعلم، وهذه المعاني هي التي أشار إليها القرآن الكريم، محدِّداً موضع رسول الإسلام من الأنبياء السابقين في قوله سبحانه:

● ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾ الأحقاف: /٩.

أي ما أنا بأول رسول.

● ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم...﴾ البقرة: /١٢٩.

فكان النبي محمد ﷺ، دعوة أبيه إبراهيم، وبشارة أخيه عيسى عليه السلام، كما قال تعالى:

● ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم، مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشِّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ الصف: /٦.

ولقد كان السيد المسيح عليه السلام، يعبِّر عن المبشر به «محمد» ﷺ، بلفظ «فارقليط» وهو تفسير لفظ «بيركلنوس» اليونانية، ومعناها الذي له حمد كثير وعبارة إنجيل «برنابا» في هذا الشأن هي:

«وسيبقى هذا إلى أن يأتي محمد رسول الله الذي متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله».

وفي السنة المطهرة أحاديث نبوية ثابتة، تصوّر هذه المعاني أجمل تصوير، منها قوله ﷺ: حينما سئل عن نفسه، أو بدء أمره فأجاب:

● «دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام».

قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد، وروي له شواهد من وجوه أخر، فقال الإمام أحمد فيما يرويه بسنده عن العرباض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ:

● «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبي يرين».

وقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال:

● «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلّا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلّا وضعت هذه اللّبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».

وهذا من أوضح الأدلة على تكامل الرسالات السماوية، في روحها ومعناها، وإن اختلفت صورها وأشكالها، حسب مقتضيات تطور الأمم وحاجات البشر.

وإذا ختمت الرسالات السماوية بالإسلام، الذي هيمن على جميع الدعوات الدينية السابقة فإن جميع الناس يهوداً أو نصارى أو وثنيين، مطالبون بالاستجابة للدعوة الإلّهية الأخيرة التي حدَّد القرآن الكريم مهام رسولها، في قوله تعالى:

● ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم،

فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ الأعراف: /١٥٧.

● ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً. وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾ الأحزاب: /٤٥ ـ ٤٦.

فوظائفه الرئيسة ﷺ خمس:

شهادته لله بالوحدانية (لا إلّه إلاَّ الله)، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة، وتبشيره بالجنة لمن أطاع أوامر الله، وإنذاره بالنار لمن عصى، ودعوة الخلق إلى عبادة ربهم بأمر الله، والسراج المنير فيما جاء به من الحق، وظهور أمره كالشمس في إشراقها، وإضاءتها، لا يجحدها إلاَّ معاند.

وحدة الدين الإلّهي الحق والأصول المشتركة بين الأديان:

من المستحيل عقلاً وعادة أن تختلف أصول المبادىء والشرائع والأحكام الصادرة من مصدر واحد، فوحدة المصدر تقتضي وحدة المنهج، ووحدة الاتجاه ووحدة النظام ووحدة الهدف.

وهذا ما كان محقّقاً في دعوة جميع الأنبياء والرسل من عهد آدم ونوح إلى خاتم النبيين محمد ﷺ وما بينهما من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنَّهم دعوا إلى دين واحد، لا تختلف أصوله، ولا تتعدَّد أغراضه كشجرة واحدة، جذرها وروحها «توحيد الله سبحانه»، وجذعها «عبادته وحده دون سواه»، وأغصانها أنظمته وشرائعه المحقِّقة لسعادة البشرية، وثمارها وأزهارها، تتعدَّد أشكالها وألوانها حسب الأمزجة المختلفة، والأزمنة المتغيرة، والمصالح المتجدِّدة.

وهذا ما أرشد إليه القرآن المجيد، الذي حدَّد أصول الدين المشتركة بين جميع الرسل، وطالب محمداً بالدعوة إليه، وحدَّد نواحي الاختلاف في الشرائع، وبيَّن سبب تفرُّق أتباع الأديان، وتوارث الخلاف في العقائد.

والأصول التي أوصى الله بها جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فأمرهم بالائتلاف والاجتماع عليها ونهاهم عن الافتراق والاختلاف فيها؛ هي ما يأتي:

أ ـ في العقيدة:

إقامة الدين «دين الإسلام» الذي هو دين توحيد الله وطاعته، والإيمان برسله وكتبه ويوم الجزاء، ومتى قام الدين «بحقيقته الموضوعية»، علمياً وتربوياً، توحَّدت القلوب على الإيمان الصحيح، وتلاقت الآراء على صعيد الحكمة الإلّهية، ونما الوعي الاجتماعي في ظلال العدالة الربّانية.

ب ـ في العبادة:

إخلاص العبودية لله تعالى في أداء الواجبات الدينية، من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصوم والحج، والتقرُّب إلى الله بصالح الأعمال.

جـ ـ في الأخلاق والمعاملات:

إرشاد العقل إلى كماله المنشود، وتزكية النفس وطهارتها من رعوناتها واتباع الهوى، والتأليف بين الناس على أساس الصدق والأمانة وبرّ الوالدين وصلة الرحم، فهذا كله شرع ديناً واحداً وملَّة متحدة أجمع عليها جميع الأنبياء، وإن كثرت أعدادهم، وهو معنى الآية الكريمة:

● ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرَّقوا فيه...﴾ الشورى: /١٣.

أي اجعلوه قائماً (دائماً مستمراً ـ محفوظاً مستقراً)، من غير اختلاف فيه، ولا اضطراب عليه، فمن وفّى بذلك أصاب الفطرة (التي تعني الانسجام والتوازن بين الفكر والعاطفة والإرادة) السليمة، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، قال رسول الله ﷺ:

● «نحن معاشر الأنبياء أولاد علّات ديننا واحد».

أي أن القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له. وقد أمر النبي ﷺ بالدعوة إلى الاتفاق على الملَّة الحنيفيّة «شريعة التوحيد»، والثبات عليها، والدعوة إليها، وألا يتّبع الناس أهواءهم الباطلة، وذلك في مثل قوله تعالى:

● ﴿فلذلك فادع، واستقم كما أمرت، ولا تتبع أهواءهم...﴾ الشورى: /١٥.

وفي أخذ العهد والميثاق من الأنبياء، كما في قوله تعالى:

● ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم، ومنك ومن نـوح وإبراهيـم وموسى وعيسى ابن مريم، وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ الأحزاب: /٧.

فهذه الآية تخبر عن أولي العزم الخمسة من الرسل، وبقية الأنبياء، أنه أخذ عليهم العهد والميثاق، في إقامة دين الله تعالى، وتنفيذ مطالبه وإبلاغ رسالته، والتعاون والتناصر فيما بينهم من أجل نصرة قضيتهم، كما قال تعالى:

● ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدِّق لما معكم، لتؤمنن به، ولتنصرنّه، قال أأقررتم، وأخذتم على ذلكم إصري، قالوا أقررنا، قال فـاشهدوا، وأنـا معكم من الشاهـدين﴾. آل عمران: /٨١.

● ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيّون من ربهم، لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ البقرة: /١٣٦.

هذا أمر وإرشاد للمؤمنين، إلى الإيمان بما أنزل الله، عن طريق رسوله محمد ﷺ، الذي أُمر باتباع ملة إبراهيم (في الآية السابقة)، وواسطة الأنبياء المتقدمين، الذين أشار القرآن إلى رسالتهم على سبيل الإجمال، فهـم جميعاً مشتركون في الدعوة إلى دين موحّد، ذي أصول ثابتة لا تتبدَّل، لذا كان الإيمان بهم جميعاً، دون تفريق في أصول الدين، وكما قال تعالى:

● ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربِّه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرِّق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾. البقرة: /٢٨٥.

فشأن المؤمنين، الإيمان بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، ولا ربّ سواه، والتصديق بجميع الأنبياء والرسل، والكتب المنزلة من السماء، على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم في الرسالة والتشريع، سواء تقدمت البعثة أم تأخرت. وفي هذا مزيّة للمؤمنين من أمة الإسلام على

غيرهم من أهل الكتاب، ليكونوا لغيرهم أسوة حسنة «في النظرة الموضوعية للدين».

وأخيراً آية الحوار الوجداني مع اليهود والنصارى، كما في قوله تعالى:

● ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلَّا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ آل عمران: /٦٤.

تقرر هذه الآية طريقاً وسطاً «عدلاً» لا يرجح فيه طرف على آخر، بين المسلمين والنصارى الذين يعتقدون خطأً ألوهية المسيح، واليهود الذين كانوا موحّدين، وهم الآن مشبّهة أو موحّدة.

ووسطيَّة ما تدعو إليه الآية هذه هو «الإقرار بوحدانية الله» الذي اتفق عليه جميع الأنبياء، ومنهم رسول الله ﷺ، الذي دعا بدعوة الرسل السابقين، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى:

● ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلَّا نوحي إليه أنه لا إلّه إلَّا أنا فاعبدون﴾ الأنبياء: /٢٥.

● ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ الزخرف: /٤٥.

وإذا كان الدين الإلّهي واحداً «بحقيقته الموضوعية» فلا يسوغ الاختلاف فيه. وهكذا يتبين أن دين الله واحد الأصول متَّحد الجوهر والمصدر، فلا يتناقض دين مع آخر، إذا سلم من التغيير والتبديل.

واختلاف تشريعات الأديان وأنظمتها الفرعية دليل على مرونة دين الله، الذي يشرّع لعباده ما يحقِّق مصالحهم، ويتلاءم مع استعدادهم، ودرجة تحضُرهم، ونموّهم العقلي، وهذه هي مقوِّمات كون الإسلام دعوة إنسانية عالمية، تدعو جميع الناس إلى الإيمان بربّ واحد، والاعتقاد بوحدة رسالات الأنبياء، في مصدرها الأصلي، وجوهرها الإلّهي، والاعتماد على وحدة القيم الإنسانية والأخوة البشرية، والتعاون على البرّ والتقوى.

عناصر الدين الخالد:

إن خلود أي دين يتطلّب وجود خصائص ومقوّمات ذاتية تجعله مستحقاً للبقاء والخلود إلى آخر الدهر وذلك بأن يحقق معنى الدين الخالص، وواقع الإنسان بالنسبة لله تعالى، وكونه متناسقاً متجاوباً مع قدرة البشر، ليقوموا به باعتدال، وأنه لا يتنافى مع العقل الراجح، ولا ينعزل عن الحياة، ولا يتجافى مع الطبيعة والفطرة السليمة، التي تعني - كما أشرنا - «الانسجام والتوازن بين الفكر والعاطفة والإرادة»، ولا ينحصر في قوم معيّنين، وإنما هو للإنسانية جمعاء، ويتلاقى مع الأصول العامة لبقية الأديان ورسالات السماء.

هذا هو الإسلام بحقيقته الموضوعية، ارتضاه الله لعباده المؤمنين، ليكونوا خلفاءه في أرضه، يمثلون بسلوكهم «حكمة الله ورحمته وعدالته، وكلمته العليا» حين يفقهون عن الله مراده، في شريعته ومنهاجه، ويعملون بطاعته مخلصين له الدين.

الإسلام تعريف بالخالق العظيم ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ فهو الذي وهب الحياة وما تزدهر به الحياة؛ وتوجيه تربوي نحو صراطه المستقيم وسنّته في الوجود، يدفع المؤمن نحو غايته، في اكتساب العلم، توصّلاً للمعرفة الصحيحة، وممارسة العمل الصالح الذي يرضي الله سبحانه وتعالى، لبناء الحياة الكريمة السعيدة للإنسان والإنسانية.

الإسلام يتناغم «يتجاوب» بكل هدوء وصفاء، مع الفطرة البشرية على طبيعتها، فهو دين اليسر والسماحة والاعتدال، لا يكلف أحداً تكليفاً زائداً عن الطاقة، ويحارب الأباطيل والأوهام ويتجاوب مع مطالب النفس المادية والروحية. ويمتاز الإسلام ببساطة العقيدة ووضوحها، واعتمادها على قناعة الفكر واطمئنان القلب، كما قال تعالى:

● ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون...﴾ الطور: /٣٥.

هل يمكن أن تخلق الأشياء من غير سبب وعلّة؟ وهل يمكن أن تكون المخلوقات هي الخالقة؟...

هذان احتمالان مرفوضان عقلاً، بالإضافة إلى وجود النظام العام الكوني للحياة «بدقّته ـ وثباته» يدل على قصد في تكوينه، وحكمة في تسييره. وأعضاء الجسم في الكائن الحي تقوم بوظائفها المعقّدة، بشكل محكم ودقيق، تدل دلالة منطقية على وجود الخالق المدبِّر، خلق فسوَّى، قدَّر فهدى، حرَّك القلوب بنبضات الحياة، أودع الحنان في قلوب الأمهات، وهب السمع والبصر، نوَّر السموات والأرض بضياء الشمس ونور القمر، أجرى الأنهار وأنبت الثمار، أسعدنا بروائح الزهور وتغريد الطيور، وهب لنا الحياة وما تزدهر به الحياة.

قال الله تعالى:

● ﴿إن الله فالق الحبّ والنوى يخرج الحيّ من الميّت ومخرج الميّت من الحيّ ذلكم الله فأنّىٰ تؤفكون. فالق الإصباح، وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسباناً، ذلك تقدير العزيز العليم. وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون. وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع، قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون. وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء، فأخرجنا منه خَضِراً، نخرج منه حبّاً متراكباً، ومن النخل من طلعها قنوان دانية، وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون. وجعلوا لله شركاء الجنّ وخلقهم، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم، سبحانه وتعالى عما يصفون. بديع السموات والأرض، أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم. ذلكم الله ربكم لا إلٓه إلاَّ هو، خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل. لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ الأنعام: /٩٥ ـ ١٠٣.

الإسلام دين الإنسانية جمعاء، وهذا هو منطق الدين بحق، إذ أن الدين رحمة «وسعادة» للعالمين، ولإقرار كل معاني الإنسانية، التي هي حق شائع بين الناس، يستفيد منها كل إنسان ويطالب بها الجميع.

بهذه الخصائص التي امتاز بها الإسلام يتبيَّن لكل منصف، مستقل الرأي والفكر، ضرورة الالتزام بالخط العام للأديان، وهو عبادة الله وحده، بكل ما في

هذه الكلمة من معنى، وإخلاص العبودية له سبحانه وتعالى، والإيمان بوحدة العقيدة (لا آله إلاَّ الله) ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ ﴿إنَّما المؤمنون إخوة، فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾، وتأكيداً لقوله تعالى:

● ﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ المائدة: /٣.

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

وفي ختام بحثنا عن (نظرة الإسلام الموضوعية إلى الأَديان الأخرى)، يطيب لنا أن نتحف الباحث الكريم بهذه الباقة من الأبيات الشعرية:

الشرق مهبط الشرائع السماوية والوحي الإلهي

تذكَّرت روحانيةَ الشرق حينما ... أضاء به موسى وعيسى ومريم
تذكرت في البيت العتيق محمداً ... ومن حوله الشِّرك العتيّ مخيّم
يقلّب عيناً في الوجود بصيرة ... تشقّ حجاب الغيب والغيب معتم
يناجي ويستهدي ويرجو ويتّقي ... وينشد كشف السرّ والسر مبهم
إلى أن تجلّى الله بالوحي فانجلى ... لفطنته السرّ العميق المكتّم
وعانقه الروح الأمين محيّياً ... وأهدى إليه فوق ما يتوهَّم
وقال له اقرأ قال ما أنا قارىء ... فقال بفضل الله تتلو وتفهم
ستحمل باسم الله أسمى رسالة ... وحسبك أن الله نعم المعلّم
فأشرقت الدنيا بأنوار ربّها ... وحفّت بها من رحمة الله أنعم

الأديان مناهج تربوية لبناء الفرد وإصلاح المجتمع

وأقسم لو يدري الورى كنه دينهم ... لما فرَّقوا ما بين عيسى وأحمد
لعمرك ما الأديان إلا نوافذ ... ترى الله منها مقلة المتعبِّد
تعاليم إصلاح وعدل ورحمة ... لنحيا على صخر الإخاء موطّد

توحيد الله ومحبته محور التوجيه الإلّهي في الأديان قاطبة

الكتب والرسل والأديان قاطبة خزائن الحكمة الكبرى لِواعيها
محبة الله أصلٌ في مراشدها وخشية الله أسّ في مبانيها
توحيد ربّي أساس في عقيدتها وطاعة الله فوز في مراضيها
وكل خير يلقّى من أوامرها وكل شرّ يوقّي من نواهيها
سماحة النفس معنى من مروءتها بل المروءة في أسمى معانيها

إخلاص العبودية لله محور التوجيه الإلّهي وعنوان السعادة

رضاك خير من الدنيا وما فيها يا مُنْية القلب قاصيها ودانيها
وما ذكرتك إلاّ عشت في طرب كأن ذكرك ألحانٌ أغنّيها
ونظرة منك يا سؤلي ويا أملي أشهى إليّ من الدنيا وما فيها
وليس للنفس آمال تؤمّلها سوى رضاك فذا أقصى أمانيها

المبحث العاشر

التربية الوجدانية في الإسلام

● ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربَّهم بالغداة والعشيّ، يريدون وجهه، ولا تَعْدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا، واتبع هواه، وكان أمره فرطاً﴾ الكهف: /٢٨.

● «. . . الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». في حديث عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ حين أتاه جبريل. . . يسأله عن الإحسان، وهو في صورة رجل (شديد بياض الثياب ـ شديد سواد الشعر) وقد سأل جبريل رسول الله ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وفي نهاية الحديث قال ﷺ: «فإنَّه جبريل أتاكم يعلِّمكم دينكم».

التربية الوجدانية في الإسلام هي (عملية تربوية سلوكيَّة)، رسمها لنا القرآن الكريم، وحدَّدت معالمها السنة النبوية الشريفة، انطلاقاً من تبتّل رسول الله ﷺ في غار حراء، وانقطاعه إلى ذكر الله، وانتهاءً، بالتحقّق بمقام الإحسان (وهو الإيمان الحق ـ في مقام الذروة واليقين) والذي أشار إليه الحديث الشريف (أعلاه).

فالتربية الوجدانية (هي تربية الروح والقلب والوجدان ـ على حب الله ورسوله ـ وعلى الاستقامة على طاعة الله) فهي التربية الإسلامية في مقام الكمال (توجّه الاهتمام إلى تزكية النفس، لتكون على مستوى الصفاء والشّوقِ إلى الكمال الأخلاقي) بمزيد من ذكر الله عز وجل، وبسلوكيَّة الكتاب والسنَّة، بتوفيق الله.

التربية الوجدانية من ثمراتها، صدق الاتجاه في طاعة الله، وإخلاص العبودية لله، والتواضع لعظمة الله، وأعظم هذه الثمرات، تخليص النفس من رعونتها واتباع الهوى (إلى اتباع رضوان الله)، وخاصة التنزه عن الفواحش الباطنة (كالحقد والحسد، والرياء والكبرياء)، بما تزدان به النفس من أنوار الإيمان الحق. وكل هذه المعاني إشعاعات سلوكية، من منار مقام الإحسان (أن تعبد الله كأنك تراه) وإخلاص العبودية لله عز وجل.

التربية الوجدانية(١) في الإسلام

تمهيد:

إن الإسلام في جوهره ليس إلَّا تربية وتهذيباً للنفس (وقواها الواعية)، كي تتخلَّى عما تتّسم به (عادة) من الأنانية المفرطة (وإيثار المصلحة الشخصية)، والكبرياء، والتعلُّق بزخرف هذه الحياة الدنيا، لتتحلَّى بتقوى الله وتعظيم أمره،

---

(١) يقصد بالتربية الوجدانية في الإسلام، تربية الروح والضمير والقلب (جوهر الكيان الذاتي في النفس الإنسانية) ولحجة الإسلام (الإمام الغزالي رحمه الله) تقسيم للأرواح البشرية، فهو يرى أنها تقسم إلى خمس مراتب:

أ ـ المرتبة الأولى هي (مرتبة الروح الحسَّاس)، وهو الذي يتلقى ما تورده الحواس الخمس.

ب ـ المرتبة الثانية هي (مرتبة الروح الخيالي)، وهو الذي يستثبت ما أوردته الحواس، ويخزنه لديه ويحفظه عنده، ليعرض على الروح العقلي (الذي يوجد فوقه)، عند الحاجة إلى ذلك.

جـ ـ المرتبة الثالثة هي (مرتبة الروح العقلي)، الذي يدرك به الإنسان المعاني الخارجة عن الحسّ والخيال، وهو الجوهر البشري الخاص، ولا يوجد عند البهائم ولا عند الأطفال.

د ـ المرتبة الرابعة هي (مرتبة الروح الفكري) وهو الذي يحصّل العلوم والمعارف العقلية، فيوجد بينها تأليفات ويستنبط منها معارف، ويستنتج منها معقولات جديدة، ويسير في هذه المعاني حسب سنّة التطوُّر.

هـ ـ المرتبة الخامسة هي (مرتبة الروح القدسي النبوي)، وهو الروح الذي يختص به الأنبياء، وبعض المقربين من الله تعالى، وفيه تتجلَّى لوائح الغيب، بل جملة من المعارف الربّانية التي يقصر عنها الروح العقلي والروح الفكري، وإلى هذه المرتبة الروحية الإشارة بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً، نهدي به من نشاء من عبادنا. . . ﴾ الشورى: /٥٢. =

ولتدخل محراب العبودية لله بكل كيانها (عقلاً، وعاطفة، وإرادة، وسلوكاً) فعندئذٍ يصبح السلوك ثمرة من عبودية النفس طوعاً لله، ويكون واقع كل منهما (العبودية - والسلوك) تصديقاً للآخر، وتخضع النفس المؤمنة لقانون العبودية لله، (لكتاب الله وسنَّة رسوله) فيتمّ بذلك الانسجام المطلوب، بين حقيقة هذه النفس المسلمة، والسلوك الإسلامي الصحيح.

وعندما لا تأخذ النفس من تربية الإسلام بنصيب (وخاصة التربية الوجدانية التي نحن بصدد الحديث عنها) فإن ازدواجاً خطيراً يقوم في كيان المسلم، إذ تنشطر شخصيته، ما بين سلوك إسلامي ظاهر يتمثَّل في أقوال وأحوال معيّنة (غالباً ما تكون بعيدة عن معاني الإخلاص لله تعالى) ونفس مستغرقة في أمانيها الدنيوية، ومصالحها الشخصية، وغفلتها عن وصايا الله، وإيثارها لاتباع الهوى، على سلوك سبيل الهدى، قد حقَّ عليها قول الله تعالى:

● ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا. والآخرة خير وأبقى﴾ الأعلى: /١٦ - ١٧.

● ﴿ولا تتّبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله، إن الذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ صٓ: /٢٦.

والدنيا - في مرآة الإسلام - ليست كما يتوهَّم بعض الناس، في امتلاك الدرهم والدينار، والأرض والعقارات، وإنما ذمّ الله الدنيا، حين تكون شهوة

= وفاعلية الروح، وسرّ الحياة، سرّ رباني عجيب، تعجز العقول والأفهام عن درك حقيقته، كما قال تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربِّي، وما أوتيتم من العلم إلاَّ قليلاً...﴾ الإسراء: /٨٦.

﴿الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلاسلة من ماء مهين ثم سوَّاه ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلاً ما تشكرون﴾ السجدة: /٦ - ٩.

وقد إستأثر الله سبحانه بعلمه (وهو الحكيم الخبير)، بسرّ الحياة وحقيقة الروح. ليبقى الإنسان المؤمن ساجداً بين يدي عظمة الله، مسبّحاً بحمده، وفي شوق إلى مزيد من العلم والمعرفة، كما قال تعالى: ﴿وقل ربّ زدني علماً﴾.

امتلاكها، راجحة على معنى الإيمان، على حب الله ورسوله، وإنما تتمثل الدنيا المذمومة في سائر الشهوات التي يمكن أن تميل إليها النفس الخام التي لم تصقل مداركها الجهود التربوية[1] المخلصة، فيكون ميل هـذه النفس إلى شهواتها (راجحاً على محبة الله ورسوله)، على الثقـة والإيمان بـالله على الحقيقة، الذي يوقع صاحبه في عبادة غير الله. لأن المعبود بحق هو الراجحة محبته والثقة به على حب من سواه، وقد أكَّد هذا المعنى قوله تعالى:

● ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها، ومساكن ترضونها، أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فتربّصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ التوبة: /٢٣.

---

(١) التربية عملية نمو للشخصية الإنسانية كاملة (بوصفها جسداً وروحاً، عقلاً وعاطفة وإرادة، مواقف وتصرفات، نوايا ومشاعر) وبهذا المعنى الدقيق تكون العملية التربوية، هي الحياة بمعناها العام، الغنيّ والمتعدد الجوانب.

التربية ـ على الحقيقة ـ عملية تنمية للقوى الواعية للنفس الإنسانية، على المستويات الفردية والاجتماعية والإنسانية. إن الإسلام دين اجتماعي، يؤمن بالفرد والمجتمع، ولم ينعزل عن الحياة والناس، بل كان مرشداً وموجهاً للأفراد والجماعات، ووضع الحلول للمشاكل التي تقف في طريق أبنائه، كي يعيشوا حياة هانئة شعارها الودّ والمحبة والصفاء والوفاء.

والتربية الإسلامية هي خير زاد للشباب، وهي تقوم على أسس من الأخلاق الطيبة والصفات الحميدة التي يبثّها الإسلام في أبنائه. وربما يظن البعض أن التربية الإسلامية لا تهتم إلاَّ بالأخلاق فقط، ولكنها أيضاً تؤمن بالتربية الجسمية، ففي تربية الجسم قوة للمدارك، وبثّ للنشاط العام، وزيادة في الروح المعنوية.

والتربية الإسلامية تتلاقى (موضوعياً) مع أحدث النظريات التربوية الحديثة. فالإسلام نادى بالتربية الاستقلالية والاعتماد على النفس، وبالحرية، والشورى في الرأي، ومراعاة الفروق الفردية، وملاحظة الميول والاستعدادات، كما نادى بمخاطبة الناس على قدر عقولهم، كما نادى أولاً وآخراً بحسن الخلق لأنه الأساس الأول في عملية التربية الصحيحة.

إنَّها تربية الإسلام ـ تربية فريدة، تنقل النفس الإنسانية من ضيق الأنانية والأثرة (إيثار المصلحة الشخصية)، إلى رحاب الوعي الاجتماعي، الذي يسود فيه العدل والرحمة، كما تتحقق فيه الألفة والمحبة، والأخوّة الإنسانية.

ينظر كتاب «عالمية الإسلام» للمؤلف، ص ١٥٥ وما بعدها.

فهداية الله محجوبة عن أهل الانحراف عن مراد الله (عن المتّبعين لأهوائهم)، سواء أكان هذا الانحراف. . . (عاطفة ـ وحبّاً راجحاً على محبة الله) أو (سلوكاً ـ مجانباً للاستقامة على طاعة الله).

فالعبادة الصحيحة، تتمثّل بالاستقامة على طاعة الله واتباع رضوانه (فكراً، وعاطفة، وإرادة، وسلوكاً). وقد حذّرنا القرآن الكريم من التلبُّس بعبادة غير الله، إهمالاً لحقيقة العبادة، كما في قوله تعالى:

● ﴿قل أفغير الله تأمرونّي أعبد أيها الجاهلون. ولقد أوحي إليـك، وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك، ولتكوننّ من الخاسرين. بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾ الزمر: /٦٤ ـ ٦٦.

فعبادة غير الله ـ على الحقيقة ـ (سواء في مجال العاطفة ـ أو في ميدان الإرادة والسلوك). منطلقها الجهل وضعف العقيدة والإيمان، ومؤدَّاها الشرك (والخسارة ـ بفساد التوحيد)، وتختم الآية الكريمة توجيه الإنسان نحو العبادة المثلى والطريق الأفضل:

● ﴿بل الله فاعبد. . وكن من الشاكرين﴾ وهذا خطاب للإنسان الواعي:

حذار أيها الإنسان العاقل من الوقوع في براثن الجهل، والتلبُّس بعبادة غير الله، لا تكن عبداً لهواك، لبطنك وفرجك، لزينة الحياة الدنيا، تمتع بدنياك في حدود الاعتدال المشروع (لا تنسى نصيبك من الدنيا)، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ذاكراً وشاكراً لله. . . . (بل الله فاعبد وكن من الشاكرين)، حافظ على ثقتك وإيمانك بالله صحيحاً، وعلى حبّك لله راجحاً، واستعن بالله على ذلك بالتزام البيئة التربوية[1] المؤمنة، كما أمرك الله:

● ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه،

---

(١) الدين الإسلامي يعنى عناية خاصة بالتربية الوجدانية (تربية الروح والضمير) على حب الله ورسوله وقد تحدثنا آنفاً عن معنى القلب والروح (في منظار حجة الإسلام ـ الإمام الغزالي رحمه الله) وحديثنا الآن عن المعنى المرادف (عن الضمير الحي) وهو مركز الوعي الأخلاقي في الذات الإنسانية، يشعّ بالأدب الرفيع (ويوحي بتكامل الشخصية)، هو الذي يجعل أدب النفس (الحياء، والعفّة، وضبط النفس) عقيدة لا فكراً، ويجعل وازع كل امرىءٍ في داخله، فيكون هو الحاكم والمحكوم، إذ يرى المؤمن بالضمير الحي (والوعي الوجداني) عين الله =

ولا تَعْد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه، وكان أمره فرطاً﴾ الكهف: /٢٨.

أجل - هذا هو مفاد الحديث الشريف: «الجماعة رحمة والفرقة عذاب، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية».

هذه البيئة التربوية (وقد أصبحت من الندرة بمكان) هي التي تعين الطالب

= ورقابته لا تنفك ناظرة إليه، شاهدة عليه، فهو تحت سمع الله وبصره.

هذا الوازع الداخلي (الضمير الحي - الوجدان الطاهر) يدفع صاحبه دائماً إلى النقد الذاتي ومحاسبة النفس تمهيداً للخضوع الطوعي لكلمة الله العليا (لحكمته ورحمته وعدالته واتباع رضوانه سبحانه وتعالى).

والروح هي حقيقة الإنسان، وموضع الصلة بالله سبحانه وتعالى كما قال رسول الله ﷺ:

● «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم» أخرجه الإمام مسلم عن أبي هريرة.

● «. . . وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يكذبه، ولا يحقره، . . . التقوى ها هنا: ويشير الرسول الكريم إلى صدره ثلاث مرات» أخرجه الإمام مسلم عن أبي هريرة.

فالقلب والروح هي موضع نظر الله، فإذا نظر الله إلى قلب عبده (الصادق - المخلص)، نظر الرحمة فهذه النظرة منه سبحانه وتعالى مقدمة العناية، من نتائجها (تفتّح النفس - وانشراح الصدر) إلى تقوى الله إلى طاعته وذكره وشكر نعمته وتعظيم أمره، والاستقامة على طاعته واتباع رضوانه» كما قال تعالى:

● ﴿ولكن الله حبّب إليكم الإيمان، وزيّنه في قلوبكم، وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون. فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم﴾ الحجرات: /٧ - ٨.

● ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه. . .﴾ الزمر: /٢٢.

● ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ الأنعام: /١٢٤.

وطريقة الإسلام (في تهذيب الوجدان - وتربية الروح) والعناية التربوية بها، هي أن يعقد صلة دائمة بينها وبين الله، في كل وقت، وفي كل عمل، وفي كل شعور، كما وصف المؤمنين في الآية الكريمة:

● ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض. . .﴾ آل عمران: /١٩٠ - ١٩١.

وكما في الحديث الشريف (الذي يشير إلى ثمرة التربية الوجدانية في الإسلام) من حيث التحقّق بمقام الإحسان:

● «الإحسان أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك».

المسترشد على اجتياز العملية التربوية، فيتخلَّص السالك (بصدقه ـ وإخلاصه ـ وإرادته الحازمة) من رعونات النفس الأمارة بالسوء ومن اتباع الهوى، بما يلتزم به من سلوكيَّة (الكتاب والسنَّة) بإشراف المربين الأكفاء العلماء الأمناء ورثة الأنبياء، بذلك يكون الطالب المسترشد مؤهَّلاً للفوز بشهادة التربية الوجدانية والإيمان الصحيح.

هكذا تتضح أمامنا ملامح العملية التربوية (للتربية الوجدانية في الإسلام)، على أنها إرادة حازمة (صادقة ـ مخلصة)، من قبل المسترشد (جهاداً للنفس والهوى)، كما أنها حب متبادل (في الله ـ ولله)[1] بين المرشد والمسترشد، أدباً مع حديث رسول الله ﷺ:

---

(١) الحب في الله (ولله) من معاني الإيمان السامية، بل هو أوثق عرى الإيمان ـ كما أشرنا ـ وهو موضوع طريف جذَّاب، يجذب قلب الإنسان ألى التقوى وتعظيم أمر الله.. إلى الترنّم بذكره، ويثير اهتمامه بطاعة الله وشكر نعمته وحسن عبادته، ويخاطب قلبه ووجدانه بمشاعر القرب الإلّهي، ويدفعه (بإرادة صادقة ـ ورياضة مخلصة) إلى صفاء الفطرة الإنسانية وسلامة القلب، ويرسم له طريقاً واضح المعالم إلى ما يرضي الله تعالى (إلى حكمته ورحمته وعدالته).
أساسه تصفية النفس (بمزيد من ذكر الله، والإقبال على مرضاته سبحانه) وتأديبها على التخلُّق بأخلاق الله، فإذا النفس مطمئنة بذكر الله، وإذا العقل مزدان بحكمة الله، وإذا سلوك الإنسان المؤمن ينسجم مع عدالة الله واتباع رضوانه. قال الله تعالى:
● ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ المائدة: /١٦.
أجل ـ إن الحب في الله، ولله (النّامي بمزيد من ذكر الله) هو محور التربية الوجدانية في الإسلام يتمثل بمبادىء (الاعتكاف) ومدرسة حراء النبوية، وينمو بالتبتّل والانقطاع إلى ذكر الله ويأخذ أبعاده التربوية بتحقيق (مقام الإحسان)، المشار إليه أعلاه، وهو الإيمان في مقام الذروة واليقين. منطلق هذا الحب (توبة صادقة ـ إنابة بالقلب مخلصة ـ إرادة حازمة) والتزام (على صعيد الاستقامة) بصحبة المربّين والمرشدين، بسلوكية القرآن وأدب السُّنة النبوية المطهرة. هذا الحب الذي أشارت السنة النبوية إلى أبعاده الموضوعية كما يلي:

● «ثلاث من كنّ فيه، وجد بهنّ حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبه إلاَّ لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار». رواه البخاري ومسلم عن أنس عن النبي ﷺ.
وفي رواية للإمام أحمد، حين سئل النبي ﷺ عن أفضل الإيمان فقال:
● «أن تحبّ لله، وتبغض لله، وتعمل لسانك في ذكر الله، فقال: وماذا يا رسول الله؟ قال: وأن تحب للناس ما تحب لنفسك، وتكره لهم ما تكرهه لنفسك، وأن تقول خيراً أو تصمت».

● «أوثق عرى الإيمان، أن تحب في الله، وتبغض في الله».

رواه الإمام أحمد في مسنده، عن البراء بن عازب رضي الله عنه.

أجل برعاية البيئة التربوية الحكيمة (ومن خلال الالتزام بآدابها) تستكمل العملية التربوية أبعادها ومقوماتها، حتى تتّجه بالطالب إلى سلوك الطريق التربوي الصحيح، (طريق الحب في الله ـ المترافق بمزيد من ذكر الله). حتى تملّكه ـ بإذن الله ـ النفس المزكّاة، والوجدان الطاهر، والقلب السليم والضمير الحي (فقهاً لكتاب الله ـ واتباعاً لسنة رسول الله ﷺ)، وحفاظاً على ذكر الله، والاستقامة على طاعة الله واتباع رضوانه. وتمنحه (المؤهل العلمي التربوي) الذي يتمثل بحمل معاني التقوى والإيمان والفلاح ـ على الحقيقة ـ في ميدان الفكر والعاطفة والإرادة والسلوك.

هذه هي التربية الوجدانية في الإسلام في خطوطها العريضة وملامحها العامة، قدمناها بعرض وصفي موجز، وسنحاول فيما يلي، أن نمرّ معاً بهذه العملية التربوية، لنشرح أبعادها بشيء من التفصيل:

ماذا عن التربية الوجدانية في الإسلام؟

مما هو معلوم لنا جميعاً، أن الكيان الإنساني، أذا أسقطنا منه صورة اللحم والدم (وهي الجسد)، يتكون من (العقل ـ والوجدان)، فبهما تتحقق إنسانية الإنسان، وبسرّهما كان للإنسان تاريخه العجيب فوق هذه الأرض.

أما عقله ـ فهو أداة الإدراك والوعي، وله جنود من حوله يعينونه على إنجاز عمله العظيم كالذي يسمُّونه (المصورة والواهمة) و (الحافظة ـ الذاكرة)، على أن هذه القوى (ومحورها الإرادة) قد تكون على حقيقتها داخلة في بنية الملكة العقلية ذاتها، ولسنا الآن بصدد تحقيق هذا الأمر.

وأما وجدانه ـ فهو الذي يعبّرون عنه بـ (العاطفة)، وهي تنقسم (من حيث تنوّع الدوافع التي يتأثر بها) إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

● عواطف دافعة ـ وهي التي تتأثر بعامل الرغبة والحب.

● وعواطف رادعة ـ وهي التي تتأثر بالرهبة وأسباب الخوف.

● وعواطف ممجّدة ـ وهي التي تتأثر بصفات العظمة وموجبات الإعجاب.

ومن الثابت أن جميع ما يصدر عن الإنسان من تصرُّفات وسلوك، فإنما هو بدفعٍ وإيعاز من هاتين الملكتين أو الحقيقتين: (العقل ـ والوجدان).

على أن دور العقل لا يزيد عن كونه إضاءة للطريق، وتبصيراً بالحق، أما الوجدان، فمحرّك ومهيّج للسلوك، حسبما تمليه (الميول) وعوامل (الرغبة، والرهبة، والتمجيد)، مهما كان نوعها، وأيّاً كان مصدرها.

ومن أجل هذا يقرر علماء التربية (قديماً وحديثاً)، أن سبيل الوجدان كثيرا ما ينفصل عن العقل فيندفع الإنسان إلى مسالك لا يقرُّها الفكر السليم، لاسيما عندما تستبدُّ الشهوات والأهواء وروح العصبيَّة ونحوها.. بالوجدان، فإن دوافعه وروادعه، إنما تتكون من تلك الشهوات والأهواء ونحوها، ومن هنا فإنَّ المشكلة الكبرى التي يواجهها الإنسان في حياته إنَّما تتمثَّل في أن الدوافع السلوكية في حياته، إنما يأتي معظمها من الوجدان، أما نصيب العقل فيها فنزرٌ يسير. فما أكثر الذين يتمتعون بمدارك واعتقادات سليمة، ولكنهم لا يستطيعون أن يلزموا أنفسهم (على صعيد السلوك والتطبيق)، إلاَّ بجزء يسير مما تستوجبه قناعاتهم واعتقاداتهم العقلية. ومن هنا ظهرت الحاجة إلى ما يسمّونه (التربية) في سائر المجتمعات الإنسانية على اختلافها، فهي مهما تنوّعت وتطورت (أي التربية) ليست أكثر من (ترويض الوجدان) ابتغاء تطويعه لمقتضيات العقل وأحكامه (في الحكمة والرحمة والعدالة).

وقصارى ما يهدف إليه المربّون، أن تتلاقى كلتا القوتين (العقلية - والوجدانية) في كيان الإنسان في طريق واحد (في تعاون وانسجام).

فإذا علمنا أن الكيان الإنساني مكوّن من هاتين الحقيقتين، وإذا علمنا أن إليهما مردّ الحركة الإنسانية الدائبة فوق هذه الأرض، فمما لا شك فيه، أن **هذا الدين الذي أنزله الله**، تبصيراً للإنسان بحقيقة الكون والحياة، وإلزاماً له بالتعاون معهما على أساس تلك التبصرة، **يجب أن يكون مهيمناً على كل من العقل والوجدان معاً**، إذ لا يكون الإنسان مؤمناً، إلاَّ إذا خضع كيانه الإنساني كلّه

لحقائق الإيمان ومبادئه، وكيانه مؤلف كما أشرنا من العقل والوجدان، فإذا أيقن العقل ولم يتأثر الوجدان، أو تأثر الوجدان ولم يتوافر اليقين العقلي، فإن صاحب هذا الكيان، لا يسمى على الحقيقة مؤمناً[1]. كيف وقد علمت أن جلّ الدوافع السلوكية في حياة الإنسان، إنما تنبثق من عواطفه ووجدانه، فماذا عسى أن يكون للإسلام والإيمان من سلطان على الإنسان، إذ لم يزد عن كونه مجموعة مسائل اعتقادية، ركنت في زاوية من العقل، دون أن يتأثر الوجدان منها بموجبات رغبة أو رهبة أو تعظيم وتمجيد له، حتى انساحت العواطف من جرّاء ذلك طليقة في ساحة الشهوات والأهواء، والرغائب النفسية المتنوعة، بمعزل عن مشورة العقل وحكمه[2]؟.

وهكذا فإن الإيمان بالله عزّ وجلّ لا يستقر ولا يثبت لدى الإنسان إلا بقوة من دعامتي العقل والوجدان معاً، فلا بدّ أن يغرس وجوده في ساحة العقل وبراهينه أولاً، ثم لا بد أن تغذّى أصوله برعاية العواطف والوجدان ثانياً، شأنه شأن أية شجرة تغرسها في دارك، لا بد أن تغرسها صالحة أولاً، (وذلك مثال الطالب المسترشد ـ طالب الإيمان على الحقيقة ـ في التزامه بالبيئة التربوية الصحيحة)، ثم لا بد أن تتعهد بالرعاية والسقاية ثانياً، (وذلك مثال رعاية البيئة التربوية الحكيمة لهذا الطالب وحسن توجيهه لما ينبغي). وكما أن الشجرة تذبل ثم تيبس إذا غرستها في أرض صالحة ثم أعرضت عن سقياها ورعايتها، فكذلك الإيمان، إذا غرسته في كيانك العقلي (قناعة فكرية) ثم لم تغذّه وتنعشه بمشاعرك الوجدانية، وتركت هذه المشاعر تتجه وتصبو إلى الرغائب والشهوات النفسية، فإنه لا جرم يذبل ثم يختنق في أوار تلك الرغائب والشهوات الجانحة (المنحرفة عن مراد الله ـ واتباع رضوانه). من أجل هذا، ترى البيان الإلّهي

---

(١) قال رسول الله ﷺ:

● «لا يكون الرجل مؤمناً حتى يكون قلبه مع لسانه سواء، ويكون لسانه مع قلبه، ولا يخالف قوله عمله، وأن يأمن جاره بوائقه (غشّه ـ وظلمه)..» رواه ابن عساكر عن أنس رضي الله عنه.

(٢) ينظر كتاب الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية للأخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص ٢٠٣ وما بعدها.

لا يتحدث عن صفات المؤمنين إلا ويضع اليقظة الوجدانية في مقدمة هذه الصفات، كما في الآيات الكريمة:

● ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً... ﴾ الأنفال: /٢.

● ﴿قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ المؤمنون: /١ ـ ٢.

● ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات، ويدعوننا رغباً ورهباً، وكانوا لنا خاشعين﴾ الأنبياء: /٩٠.

وأنت تعلم أن وجل القلوب وخشوعها، والانسياق إلى الدعاء رغبة ورهبة، كل ذلك من مظاهر ارتباط (مكمن الوجدان ـ بالحقائق الإيمانية الجاثمة في العقل ـ ومن آثار تفاعله بها).

ويزيد رسول الله ﷺ هذا الأمر بياناً وتأكيداً، فيقول (فيما يرويه الشيخان ـ البخاري ومسلم):

● «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده». وفي رواية «ومن نفسه التي بين جنبيه...».

وروى الديلمي بسنده عن رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

ويتبيّن لدى التأمّل في تلك الآيات وأمثالها، وهذه الأحاديث المبيّنة والمؤكدة، أن الممارسات العملية لأركان الإسلام وتوابعها، لا تفيد صاحبها إلا إذا سرى إليها شعاع من جذوة الإيمان... (الذي استقر قناعة ويقيناً في داخل العقل) فعندئذ تحيا الممارسات الفعلية بروح الإيمان، كما قال تعالى:

● ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر، والله يعلم ما تصنعون﴾ العنكبوت: /٤٤.

وتتحول هذه الممارسات من حركات آلية باردة، إلى سلوك إيماني (نابض

بمشاعر الرقابة الإلّهية) فلا شك أنه إذا أقبل إلى أية عبادة من العبادات، أقبل عليها بمشاعر متيقّظة، تنبّهه في كل لحظة إلى أن الله يراه، (وتلك هي رتبة الإحسان في السلوك الإسلامي ـ التي تعبّر بوضوح عن اليقظة الوجدانية) والتي ندبنا إليها رسول الله ﷺ في حديثه الشريف: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ولكن كيف السبيل إلى إيصال أشعّة الجذوة الإيمانية في العقل إلى الممارسات الإسلامية على الأعضاء؟ وعن طريق أي سلك يمكن تحقيق هذا الربط؟ إنه سلك العاطفة والوجدان.. فهو وحده الذي يمكن أن يمتصّ القناعة الإيمانية، ثم يحيلها (في بوتقة العاطفة) إلى شعلة متوهّجة (من الحبّ والخوف والإجلال)، ثم يوجّهها إلى تلك الأعمال والوظائف الإسلامية (من صلاة وصيام وزكاة وحج وذكر لله، وتلاوة للقرآن ونحوها)، فإذا هي مشاعل سلوكيّة مضيئة، وإذا هي تنبض بيقظة الإجلال لله عزّ وجلّ.

ومن هذه المشاعر تتركّز في النفس معاني التقوى وتعظيم أمر الله، وفي هذا المستوى يدرك المسلم بإحساسه، وشعوره أبعاد قوله ﷺ:

● «وجعلت قرّة عيني في الصلاة» رواه النسائي وأحمد والبيهقي عن أنس رضي الله عنه.

وقوله ﷺ لبلال: «أرحنا بها يا بلال..» رواه أبو داود عن سالم بن أبي الجعد.

ولكن كيف السبيل إلى استخدام هذه العاطفة، في تحقيق هذه الصلة الهامة بين (مركز الإيمان في العقل) ومظهر الوظائف الإسلامية على الأعضاء؟... كيف السبيل وإن من شأن هذه العاطفة أن تكون أسيرة في يد النفس (الأمّارة بالسوء ـ الغافلة عن الله)، في يد النفس وشهواتها ورعوناتها ورواسب اتباع الهوى فيها)؟ فهي تكون بذلك (وأعني بها النفس الغافلة عن الله ـ التي لم تصقل مداركها الجهود التربوية) تكون أغلظ حجاب يحجز قناعة العقل والفكر عن الأعمال والسلوك، حتى تغدو تلك الأعمال في مظاهرها، وقد

فقدت شعلة العاطفة والإيمان الحيّ؛ من جرّاء ذلك تغدو حركات تقليدية آلية (لا حياة فيها ـ ولا ضياء).

تلك هي العقبة[1]: التي أمرنا الله باقتحامها في الآيات الكريمة:

● ﴿ . . . فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة. فكّ رقبة. . . وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ﴾ سورة البلد: /١١ ـ ١٧.

وتلك هي الفتنة: التي أمرنا الله بالاستعداد لها (تربويّاً) في الآية الأولى ـ من سورة العنكبوت:

● ﴿ الٓمٓ. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنّا الذين من قبلهم، فليعلمنّ الله الذين صدقوا، وليعلمنّ الكاذبين ﴾.

● ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة، أتصبرون، وكان ربّك بصيراً ﴾ الفرقان: /٢٠.

والفتنة الواردة في الآيات الكريمة معناها، الاختبار والفحص والامتحان، لإظهار الحقيقة. . . فالإيمان والثقة بالله حقيقة موضوعية (لها مقوّماتها ـ علماً وعملاً وأخلاقاً)، لا يحمّلها، ولا يأذن الله بحملها إلا لمن وفّق للصدق والإخلاص والتواضع لله، إلا لمن وفّق للوفاء بعهده مع الله. . . كما قال سبحانه:

● ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم. . ﴾ التوبة: /١١١.

من أجل تحقيق هذه المعاني السامية أمرنا الله بحسن المعرفة به (طلب

---

(١) في مستهلّ (سورة البلد)، أشار الله إلى سنّة من سنن الوجود وحياة الانسان، إلى أن الحياة عقيدة وجهاد، ﴿لقد خلقنا الانسان في كبد﴾، ثم ذكر سبحانه الآية الكريمة ﴿أيحسب أن لم يره أحد، ألم نجعل له عينين﴾، ليلفت نظر الانسان إلى صفات الله، مقرباً هذا المعنى إلى الأذهان كما يلي: أيها الانسان إن الذي وهبك البصر بصير وإن الذي وهبك الحياة حيّ، وإن الذي وهبك العقل والارادة، عليم خبير، فلتكن على مستوى الثقة والايمان بالله، واقتحم هذه العقبة (عقبة النفس الغافلة ـ بمزيد من ذكر الله)، جاهد نفسك وهواك حتى تفوز بهداية الله إلى الايمان الصحيح.

العلم)، وحسن الطاعة له (إصلاح العمـل) وحسن الصبر على أمره (إخلاص العبودية له)، والمزيد من ذكره للتخلّق بأخلاقه، جهاداً للنفس والهوى والتزاماً بالاستقامة على طاعة الله وذكره وشكر نعمته واتباع رضوانه.

قال الله تعالى:

● ﴿فأما من طغى. وآثر الحياة الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى. وأما من خـاف مقـام ربّـه، ونهى النفس عن الهـوى. فـإن الجنـة هي المـأوى﴾ النازعات: /٣٧ ـ ٤١.

● ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين﴾ العنكبوت: /٦٩.

أجل إن الإسلام يدعونا (في كتابه الكريم ـ وسنّة رسوله الأمين) إلى تربية العقل والوجدان، إلى اجتياز هذه العملية التربوية (بإرادة حازمة صادقة ـ ورياضة متواضعة مخلصة)، يدعونا إلى رعاية هذه المعاني بجهاد النفس والهوى، حتى يأذن الله لنا باليقظة الوجدانية والقلب السليم والنفس المزكّاة، والضمير الحيّ، المتفّتح على نور الله، كما قال تعالى:

● ﴿ أفمن شرح الله صدره لـلإسلام فهـو على نور من ربّـه. . . ﴾ الزمر: /٢٢.

● ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. . . ﴾ الأنعام: /١٢٥.

● ﴿ ويهدي إليه من أناب. الذين آمنـوا وتطمئن قلوبهم بـذكر الله﴾ الرعد: /٢٧ ـ ٢٨.

يدعونا الله دائماً، أن نتنادى إلى مجالس العلم والإيمان (كما تنادى أصحاب رسول الله ﷺ) حتى نذكر الله الذكر الكثير، فتطمئن قلوبنا بذكره، وتنشرح صدورنا لطاعته، وتستنير قلوبنا بنور معرفته والإقبال على مرضاته.

يدعونا إلى تأسيس المعاهد التي تؤمّن لنا ما نحتاجه من المربّين الأكفاء العلماء الأمناء ورثة الأنبياء، حتى نضمن لمجتمعنا تربية إسلامية صحيحة للعقل والوجدان، كما يحب الله ويرضى.

إن التربية الوجدانية في الإسلام هي محور الإيمان الصادق والوعي الاجتماعي الصحيح، بها تتحقق (حسن الصلة بالله ـ وحسن الصلة بالناس) ـ لأنهم يتحققون بحقائق الآية الكريمة (إنما المؤمنون إخوة).

أجل ـ إن تزكية النفس (وطهارة الوجدان ـ والقلب السليم ـ والضمير الحي) مترادفات لثمرة التربية الوجدانية في الإسلام، هي شهادة التقوى والإيمان ـ على الحقيقة ـ لمن وفق لدخول البيوت من أبوابها.

لقد تنزّهنا نزهة ممتعة في حديقة التربية الوجدانية في الإسلام، وفي ختام هذه النزهة يطيب لنا أن نقف قليلاً عند منطلقها، لتبقى معانيها واضحة في أذهاننا مشرقة في قلوبنا وضمائرنا.

نقف قليلاً عند منطلقها لنتعرف على أهدافها من غارسها ومربّيها الأول ﷺ كما قال تعالى:

● ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكّيهم، ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ الجمعة: ٢/.

من هذه الآية الكريمة وأمثالها، يتضح لنا أن تزكية النفس وتربية الوجدان من المهام الأساسية لرسول الله ﷺ المربّي الأول، ولمن يرثه في مقامه التربوي من المربّين الأكفاء العلماء الأمناء، ورثة الأنبياء. ومن أجل ذلك اتجهت همّة المسلمين الصادقين المخلصين إلى الخوض في سبيل هذا الجهاد، الذي سمّاه رسول الله ﷺ الجهاد الأكبر ـ جهاد النفس والهوى ـ، وهو سبيل تزكية النفس من أوضارها ورعوناتها واتباع الهوى[1]، وربط العاطفة والوجدان بحقائق هذا الدين وأحكامه، من جوانبها.

(ونعني بذلك جوانب العاطفة الثلاثة ـ الرغبة، والرهبة، والإجلال)، وذلك بدءاً من عصر صحابة رسول الله ﷺ فمن بعدهم. غير أن سبيل هذا الجهاد أمام أصحاب النبي ﷺ كان أقل وعورة بالنسبة لمن جاء بعدهم، وذلك

---

(١) عن أبي برزة عن النبي ﷺ قال: إنما أخشى عليكم شهوات الغيّ (أي الضّلال) في بطونكم وفروجكم ومضلّات الهوى..» رواه الإمام أحمد والطبراني.

لأسباب، من أهمها: رؤيتهم النبي ﷺ وجلوسهم إليه، وسماعهم لكلامه وعظاته، فقد كان لذلك أثر كبير في غرس محبته في قلوبهم، والتأثير على جوانب نفوسهم، وهو الأمر الذي يستوجب بطبيعة الحال محبة كل ما يدعوهم إليه رسول الله ﷺ، وإيثاره على ما يعارضه، من نوازع الشهوات والأهواء، فمن ثمّ تجلّت فيهم ظاهرة الطّفرة (القفزة الواعية ـ إلى حقائق الإيمان)، التي لم نجدها ظهرت فيمن بعدهم، ونعني بها سرعة تحوّلهم عن أوضاعهم الجاهلية التي كانت متحكّمة بهم، راسخة في حياتهم؛ تحوّلهم إلى ذلك الالتزام الكامل بعزائم الدين وأحكامه وآدابه.

ومن هذه الأسباب بساطة الحياة التي كانت تحيط بهم، فقد كانت مغرياتها محدودة، ومحرماتها معدودة ومن ثم فقد كان سبيل التسامي فوقها والتحرّر من غوائلها أقصر وأيسر.

ولما توفي النبي ﷺ، وأنجز الله وعده للمسلمين (الذين أنجزوا وعده له) ففتح لهم البلاد، ووسّع أمامهم الفتوحات، وأقبلت عليهم الدنيا بزينتها وزخرفها من كل صوب، كان لا بد أن يتضاعف أمامهم الجهد، في سبيل تزكية النفس، فقد أصبحت القيود (أثقل وأكثر) وتحرير النفس من قيود الهوى وأسر الشهوات يحتاج إلى مزيد من الجهاد الأكبر (جهاد النفس والهوى).

فكان أن انصرف كثير منهم إلى استنباط أصول ومناهج تربوية، يأخذ بها الإنسان نفسه، ليسمو بها شيئاً فشيئاً، ويحرّرها من رعوناتها وأمراضها الباطنة (لتغدو نظيفة طاهرة زكية)، بسلوك منهج (العملية التربوية الوجدانية ـ بسلوكيّة القرآن والسنة النبوية الشريفة).

وقد ذكرنا ـ آنفاً ـ أن منطلق هذه العملية التربوية (مدرسة غار حراء النبوية ـ والتبتل والانقطاع إلى ذكر الله) وثمرتها التحقّق بمقام الإحسان (الذي يعبر عن الإيمان الحق ـ في مقام الذروة واليقين) والموصوف بحديث رسول الله ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ولم يكن في مناهجهم وأصول التربية تلك، ما يتعارض مع الكتاب

والسنة، بل كان مأخوذاً منه مخرّجاً على مبادئه وأحكامه، وكانوا في صنيعهم الذي فعلوه لا يزيدون ولا ينقصون عن أولئك الذين استشعروا الحاجة، فاستنبطوا قواعد النحو من لسان العرب.

ولا نزال نذكر في مقدمة من أقدموا على هذا الصنيع (جلالة وسبقاً) الحارث المحاسبي، والجنيد البغدادي وأمثالهم من المربّين الأكفاء العلماء الأمناء ورثة الأنبياء.

وإنما درج هؤلاء فيما كتبوا ونظّموا، على منوال من سبقهم إلى ذلك سلوكاً وعملاً، من جلّة التابعين ومن بعدهم، كالحسن البصري، وسفيان الثوري، وما خرجوا في شيء من أصولهم التربوية على ميزان الكتاب والسنة قط.

إن هذا المنهج التربوي ـ الذي أشرنا إليه ـ إنما يقوم في أصله وطبيعته على التسليك (أي سلوك الطريق التربوي)، والذي لا يكون على الأغلب بدون مسلّك ومرشد.

ومن الشروط التربوية في الإرشاد والتسليك، أن يكون المرشد متحققاً بحقائق التسليك والتوجيه التربوي بمعناه المتكامل الصحيح، وعلى قدم الوراثة النبوية (علماً بشريعة الله ـ وعملاً بطاعته)؛ فقيهاً بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وذلك لكي يستطيع أن ينهض بالعملية التربوية نهوضاً حكيماً، ويأخذ بأيدي السالكين في طريقها، نحو الهدف المطلوب، وبالمقابل أن يولّيه (السالك ـ المسترشد) السمع والطاعة والأدب، والحب والتقدير والاحترام، ما دام السّالك قد اختار مربيه ومرشده عن قناعة تامة بجدارته للقيادة التربوية المعهودة. وما دام الطرفان (المربّي والمتربّي ـ المرشد والمسترشد) على قدم الأصول التربوية الصحيحة كما ينبغي؛ سارت العملية التربوية في طريق النجاح، ولكن (فَقْد) أحد الطرفين لشروط (السلوك ـ أو التّسليك)، يجعل وجود الثاني لغواً لا مسوّغ له.

أجل ـ إن سرّ عظمة الإسلام يكمن وراء تربيته المثلى (العقلية والوجدانية) التي تجسّدت في شخصية الرسول العربي المربي ﷺ، لقد أدّبه

ربه فأحسن تأديبه ليكون بقلبه الكبير وعقله الحكيم وخلقه العظيم التعبير الصادق عن معاني الرسالة التي بعث من أجل تبليغها للعالمين.

لقد مثّل الرسول الكريم ﷺ مقام التربية الإسلامية، في معناها (الخاص ـ والعام)، ونقصد بالمعنى العام (تربية العقل والفكر ـ بسلوكيّة القرآن الكريم)، كما نقصد بالمعنى الخاص (تربية القلب والوجدان) ومنطلق ذلك ـ كما أشرنا ـ:

أ ـ الثقة والمحبة (والطاعة والأدب)، بين المرشد والمسترشد، فكان ﷺ في هذا المقام، جديراً بالمحبة والطاعة، سيّد من يألف ويؤلف.

ب ـ التزام الطالب المسترشد، بالاستقامة على طاعة الله وذكره، فهو السلاح في معركة الجهاد الأكبر، ولا شك أن الرسول الكريم ﷺ خير من يمثل مقام التربية في هذه الناحية، فهو سيّد الذاكرين لله على الحقيقة (الأمين على وَحْيه)، وخير من يوجّه القلوب والعقول إلى هذه الحقيقة التربوية.

والمرشد (الموجّه ـ التربوي) وعلى قدم الوراثة النبوية، هو الذي يتمثّل هذه المعاني التربوية (النبوية)، ويمثّلها فعلاً (علماً، وعملاً، وأخلاقاً) أسوة برسول الله ﷺ.

هذه هي التربية الوجدانية في الإسلام قدّمناها بعرض وَصْفي موجز. وفي ختام البحث، يجدر بنا أن نستعرض خطوطها العريضة، مروراً بالتربية الإسلامية ـ بصورة عامة، وانتهاء بالإشارة العابرة لبعض أعلام هذه التربية (الوجدانية) في العصر الحديث.

التربية (على العموم) عملية نمو مزدوج، لكل من الفرد والمجتمع، تهدف إلى مساعدة الفرد بالذات على تحقيق التعلّم والتطور المرغوب فيه في سلوكه، وعلى بناء خبراته وتطويرها نحو الأفضل، وعلى تهذيب خلق الفرد وإعداده للحياة الكريمة. وهي الجهد الذي يستهدف المحافظة على فطرة[1]

---

(١) يقصد بالفطرة (في الأصل) ما انطوى عليه الإنسان في أصل تكوينه (في أفكاره وعواطفه وإرادته وسلوكه) من حب للمحسن، وبغض للمسيء وتقديس للرحمة والحكمة والعدالة، كما يقصد بالفطرة (في الواقع) هذا الانسجام بين أفكار الإنسان وعواطفه وإرادته وسلوكه.

الناشىء ورعايتها، وتنمية مواهبه ومكاسبه واستعداداته كلها، وتوجيه هذه الفطرة نحو صلاحها وكمالها اللائق بها[1].

والتربية الإسـلامية[2] هي عمليـة إصلاح الفـرد، وتقويم لـلاعوجـاج البشري، وعملية إيصال الناشىء إلى كماله تدريجيّاً، واعتبار العبادة الصحيحة، خير وسيلة لصياغة السلوك الإنساني (فكراً، وعاطفة، وإرادة وسلوكاً)، وعدم استعباد الإنسان إلا لربّه وخالقه، ومصدر نعمته كلها.

وترويض نفسه على تسليمها المطلق لتوجيه ربّها سبحانه وتعالى. والتأكيد على أن الاستقامة على طاعة الله واتباع رضوانه، هي الصراط السويّ والطريق السليم الذي يوجّه مسيرة الحياة الفردية والاجتماعية نحو التطور والازدهار والتكامل.

أما التربية الوجدانية في الإسلام، فهي عملية تربوية (سلوكية)، رسمها لنا القرآن الكريم وحدّدت معالمها السنّة النبوية الشريفة، انطلاقاً من تبتّل رسول الله ﷺ في غار حراء وانقطاعه إلى ذكر الله، وانتهاءً بالتحقّق بمقام الإحسان (وهو الإيمان الحق في مقام الذروة واليقين) والذي أشار إليه الحديث الشريف:

«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

فالتربية الوجدانية، هي تربية الإسلام في مقام الكمال، كمال الاستقامة على طاعة الله وكمال إخلاص العبودية لله؛ توجّه اهتمامها إلى تزكية النفس لتكون على مستوى الطهارة والصفاء الفطري (بمزيد من ذكر الله عزّ وجلّ)، وبسلوكية الكتاب والسنة.

وقد ثبت (علمياً ـ وتربوياً) أن النفس لا تشـتاق إلى الكمال الأخلاقي ما

---

(١) ينظر كتاب «عالمية الإسلام» للمؤلف، (ملخّص الكتاب ـ على الغلاف).

(٢) تهدف التربية الإسلامية (عامة) والتربية الوجدانية في الإسلام (خاصة) إلى ترويض إرادة المؤمن وتدريب أفكاره وعواطفه على اتباع رضوان الله، وتجريده بحكمة من رعونات النفس واتباع الهوى، وضبط نوازعه وميوله، ليكون على مستوى النقد الذاتي ومحاسبة النفس، حتى ينتفع بعلمه وعمله، ويكون عضواً نافعاً في جسم المجتمع الوطني والإنساني.

لم تكن على مستوى التزكية والصفاء، فصفاء النفس مقدمة طبيعية لشوقها إلى الكمال، وإلى حسن معرفتها بالله عزّ وجلّ تلك المعرفة الانطباعية (النورانية)، التي تتفتّح لها النفس على نور الله وهدايته للإيمان الحق.

فالتربية الوجدانية (حقيقة علمية تربوية) يحملها الموصوفون بالآيات الكريمة:

- ﴿ قد أفلح من تزكّى وذكر اسم ربّه فصلّى ﴾.
- ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾.

أجل ـ يحمل هذه الحقيقة المؤمنون الصادقون المخلصون، الذين وفّقوا للاستقامة على طاعة الله واتبعوا رضوان الله، فهنيئاً لأولي الألباب (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم). هنيئاً لهم القلب السليم والوجدان الطاهر، ونسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى ويجمع قلوبنا على الهدى والتقوى.

وما أروع ما قاله الدكتور محمد إقبال (شاعر الإسلام ـ ومؤسس دولة باكستان):

إن الإسلام (في مجال التربية الوجدانية) يأخذ طابعاً من الجمال والكمال والإنسانية العالية، والأخوة العالمية، إنه الطابع النادر الذي لا نجده في سلوك الفقهاء والمتكلّمين (ويعني بهم فقهاء علم الكلام) الذين حرموا من تذوّق معاني هذه التربية الوجدانية، وبهذا الاعتبار ابتعدوا عن جمال الإسلام وكماله، حين حرموا صفاء القلب والروح، ومعاني القرب الإلّهي (في تربية الوجدان).

أجل ـ هذه هي التربية الوجدانية في الإسلام[1]، وقد حملت في المنطلق الشعار القرآني الخالد:

(١) لقد اجتهد علماء التربية الوجدانية ببيان الأساليب التربوية، التي لا بد للمسترشد (السّالك) أن يأخذ بها، ووصفوا أسس التربية الوجدانية، وتزكية النفس بما يلي:
أ ـ التزام البيئة التربوية (الحكيمة)، للتزوّد بالفقه الصحيح (بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ).
ب ـ الإكثار من ذكر الله تعالى، أدباً مع الآيات الكريمة الموجّهة إلى هذا المعنى. =

● ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، لما كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ الأحزاب: /٢١.

● ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ، يريدون وجهه، ولا تَعْد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه، وكان أمره فرطاً ﴾ الكهف: /٢٨.

● ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين ﴾ العنكبوت: /٦٩.

كما حملت ـ في نهاية المطاف ـ شعارها من السنّة النبوية الشريفة (تحقّقاً بمقام الإحسان).

● «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

● «... إنما التقوى ها هنا، وأشار الرسول ﷺ إلى قلبه في صدره ثلاثاً..».

وقد وعدنا أن نشير ـ في ختام البحث ـ إلى بعض أعلام التربية الوجدانية في الإسلام كما يلي:

= جـ ـ مخالفة النفس، بترك المعاصي والغفلات (وجفاء القلب لأهل المعاصي والغفلة عن الله تعالى).

د ـ الأخذ بسنّة الاعتكاف (والخلوة الموقّتة ـ تبتّلاً وانقطاعاً إلى الله).

هـ ـ الاستقامة على هذا السلوك (ذكراً لله ـ واستقامة على طاعته ـ واتباعاً لرضوانه).

حتى يأذن الله بمقام الإحسان وكمال الإيمان... وقد ورد في الحديث القدسي:

● «إنما أصطفي لخلّتي، من لا يفتر عن ذكري، وليس له همّ غيري، ولا يؤثر عليّ أحداً من خلقي».

فالهداية للإيمان والثقة بالله ـ على الحقيقة ـ اصطفاء إلٓهي، لمن وفّق للصدق والإخلاص والتقوى.. لمن وفّق للاستقامة على طاعة الله (ذاكراً ـ شاكراً) متبعاً لرضوان الله وكما قال الله تعالى:

● ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله مَن اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ المائدة: /١٥ ـ ١٦. صدق الله العظيم.

الدكتور الشيخ عبد الحليم محمود (شيخ الجامع الأزهر):

يعتبر الدكتور الشيخ عبد الحليم محمود (رحمه الله)، علماً من أعلام التربية الوجدانية في الإسلام في العصر الحديث فقد كتب عن هذه التربية وعن علمائها والمربِّين في رحابها، وأيَّد السالكين لهذا الطريق التربوي ما داموا يتقيدون بكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، للوصول إلى الحقائق التربوية، التي تتمثل بالعبودية الخالصة لله وحده.

ويؤكد ـ الدكتور عبد الحليم محمود ـ على قول العارف بالله ـ سهل التستري (أحد علماء التربية الوجدانية الأعلام)، الذي يقدم لنا عرضاً وصفياً موجزاً عن أصول هذه التربية قائلاً:

أصول طريقنا التربوي سبعة:

- التمسّك بالكتاب.
- والاقتداء بالسنّة.
- وأكل الحلال.
- وكفّ الأذى.
- وتجنّب المعاصي.
- ولزوم التوبة.
- وأداء الحقوق (الاستقامة على طاعة الله سبحانه وتعالى).

ويتابع الدكتور عبد الحليم محمود، بأن رأيه الذي توصَّل إليه بعد دراسة طويلة، أن تجارب الصالحين منذ عصور متطاولة دلَّت على أن التربية الوجدانية (وتزكية النفس) والالتجاء إلى الله تعالى والتقرُّب إليه، كل ذلك يسمو بالإنسان إلى عالم من الروحانية وصفاء النفس، تستشرف فيه النفس إلى الملأ الأعلى، فيفاض عليها من نفحات الله وإلهاماته ومعارفه (معرفة انطباعية) لا تتأتّى لذوي النفوس المادية التي شغلت بالدنيا عن الإقبال على الله. ويقول:

«وتزكية النفس طريق تربوي صعب المرتقى (على غير الصادقين

المخلصين)، يحتاج إلى إرادة حازمة، وعزيمة صادقة، ومن عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل».

أجل ـ إن من عرف أنه ينشد معرفة الله ومحبته وقربه، وينشد الإيمان في مرتبة اليقين.. ينشد نبع السعادة الخالدة (في الدنيا والآخرة)، فلا شك أنه يقبل على الله ذاكراً (شاكراً) متبتّلاً مخلصاً، متضرِّعاً منيباً (يدعو ربّه تضرعاً وخيفة) (رغباً ـ ورهباً) إيماناً بفضل الله ورحمته وجوده وإحسانه متمثلاً قوله تعالى:

● ﴿والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾.

اللهم ـ افتح أقفال قلوبنا بذكرك، واجمع قلوبنا على محبَّتك، وألهمنا دوام ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وخذ بأيدينا إلى كمال رضائك.

اللهم ارزقنا التوفيق والاستقامة على طاعتك، وامنحنا القلب السليم المتفتِّح على معرفتك ومحبتك، وهب لنا كل ما يقربنا من محبّتك ومرضاتك ـ آمين.

معالم التربية (الروحية[1]) الوجدانية عند المربّي الكبير الشيخ الدكتور أحمد كفتارو (المفتي العام للجمهورية العربية السورية):

يعتبر الشيخ الدكتور أحمد كفتارو مناراً ساطعاً للتربية الوجدانية في العصر الحديث، فقد أسَّس سماحته المعاهد الشرعية للدعوة والإرشاد بدمشق (منطقة ركن الدين)[2]، لرعاية المعاني الإسلامية لهذه التربية، في ضوء الكتاب والسنّة، كما يلي:

١ ـ القرآن الكريم:

وكان المنهج الأول (في توجيهه العام) الذي اعتمد عليه للوصول إلى

---

(١) ينظر كتاب التربية الروحية، للزميل الأستاذ محمد شيخاني، طبع دار قتيبة بدمشق لعام ١٩٨٥ ص ٢٧٧ وما بعدها.

(٢) لقد أسس سماحة المفتي العام للجمهورية العربية السورية الشيخ أحمد كفتارو المعهد الشرعي للدعوة والإرشاد بدمشق بفرعيه (للذكور ـ وللإناث)، يعمل على تخريج الدعاة إلى الله، منذ عام ١٩٧٤ وحتى الآن.

تكوين شخصية المسلم والمسلمة تكويناً متكاملاً. أقام المحاضرات المتسلسلة في تفسير كتاب الله عز وجل، فكانت (ولا تزال موئلاً للدارسين والباحثين والدعاة، والعلماء العاملين، كل ذلك بواقعية رائدة، وعمق في الفهم (يربط بين واقع الحياة ومثلها الأعلى). فاستطاع أن يخاطب المسلمين بواقعية تجسد معاني القرآن الكريم في المجتمع الإسلامي المعاصر، لتتعايش معه (سلوكاً، ودعوة، والتزاماً)، كل ذلك يتمّ بأسلوب مبسّط رائع يفهمه المتعلم، ولا يستغني عنه العالم والعارف.

٢ ـ السنّة والأحاديث النبوية:

كانت السنّة النبوية الشريفة هي المرتكز الثاني، في مصادر دعوته الإصلاحية، لإقامة الحياة الإسلامية (وتنمية الوعي الإسلامي الصحيح).

فالسنّة الشريفة هي الموضحة لمعاني القرآن الكريم، والأحاديث الصحيحة هي المورد الثاني بعد كتاب الله عز وجل، في معرفة الحقائق الإسلامية. فالسنة والأحاديث الشريفة هي النبراس المضيء في توجيه سماحته، والمنهج الهام بعد القرآن الكريم في تكوين العلماء والدعاة في معاهده الشرعية للدعوة والإرشاد.

٣ ـ الفقه الإسلامي:

اعتبره (سماحته) الدليل لمعرفة الشريعة بأحكامها، فكانت مدارسة الفقه شمولية وليست ضيِّقة المنطلق، فلم يؤكد على مذهب محدَّد (رغم كونه شافعيّ المذهب)، وحصل سماحته على أعلى درجات الإفتاء في سورية، فصار الرئيس لمجلس الإفتاء الأعلى (بالانتخاب المباشر من العلماء).

فأكَّد على أصول المذاهب وطرق اشتقاقها واستنباطها من الكتاب والسنَّة، فحيثما قوي الدليل، فهو القول الذي يفتي به. هكذا دعا سماحته إلى فقه القرآن، وفقه السنّة الشاملة، لجميع أقوال المجتهدين، من غير تعصُّب لمذهب دون آخر، فحيثما قوي الدليل فهو مذهبه، وحيثما كانت المصلحة (على بساطها الموضوعي - في حق المستفتي المتلاقي مع مقاصد الشريعة) كان رأيه وفتواه انسجاماً مع الأصول العامة للشريعة المطهَّرة.

٤ ـ التربية (الروحية) الوجدانية:

التربية الوجدانية (في توجيه سماحته)، هي المرتكز الأساسي لتمثل العقيدة (في مجال الممارسة والتطبيق) والقوة الدافعة لنقل الفِكَرِ المجردة إلى حيِّز العمل والالتزام والسلوك المباشر.

فالفقه الروحي (والوعي الوجداني) المستنبط من الكتاب والسنة هو المنطلق في توجيهه العام. وأكّد سماحته أن هذه العملية التربوية لا تنطوي على الصعوبة على أصحاب الإرادة الحازمة، والهمَّة العالية (فمن عرف ما يطلب، هان عليه ما يبذل)، وعلينا أن نقتحم العقبة، ونجتاز الامتحان لنفوز بحقائق الإيمان، من خلال جهاد النفس والهوى، لنفوز بالقلب السليم والنفس الزكية المطمئنة بذكر الله، متمثلين قوله تعالى:

● ﴿ولكن البرّ من اتقى، وأتوا البيوت من أبوابها...﴾ البقرة: /١٨٩.

● ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين﴾ العنكبوت: /٦٩.

وطالب (سماحته) وكرَّر، بالعودة إلى مصطلحات القرآن الواضحة، في اجتياز عملية التربية الوجدانية (وتزكية النفس). فالتربية الوجدانية واجبة لإرساء حقائق الإسلام (علمياً ـ وتربوياً) في المجتمع الإسلامي، وهي القاعدة الأساسية في التربية الإسلامية لتمثّل الإسلام (كتاباً ـ وسنة) (فكراً وعاطفة وإرادة وسلوكاً).

هكذا حدَّد سماحته المنهج التربوي في مرحلة تكوين الشخصية الإسلامية المتكاملة. أجل ـ لقد تجلَّى لنا سماحته بمظهر المربّي الحكيم والمرشد المجدِّد لمعاني الإيمان الصادق والوعي الإسلامي الصحيح حين مثَّل (بحقّ) المعنى الموضوعي للعلماء الأمناء ورثة الأنبياء، فقد جمع بتوفيق الله بين النظرية والممارسة والعلم والعمل، فكانت تربيته (المثمرة) في توجيهه العام وفي المعاهد الشرعية للدعوة والإرشاد، تنمية للدافع الذاتي للسلوك السليم والعقيدة الصحيحة، وتحقيق الخلق الإسلامي النبيل.

هكذا رفع سماحته شعار التربية الوجدانية في الإسلام، شعار الإيمان والإخلاص لله، لتحقيق الإلفة والمحبة والإخاء الإنساني، فكان (بتوفيق الله) ولا يزال ريحانة القلوب المؤمنة، ومصباح العقول الواعية للإسلام الصحيح، جعل حياته وجهوده المستمرة وفقاً لإرساء قواعد التربية الإسلامية الصحيحة (فقهاً لكتاب الله ـ واتباعاً للسنة النبوية الشريفة)، وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين.

في ختام بحث (التربية الوجدانية في الإسلام) يطيب لنا أن نقدم للباحث الكريم هذه الباقة من الأبيات الشعرية «هدية» تمثل صفاء القلب والروح مع الله تعالى:

إذا سكن الغدير على صفاء وجُنِّب أن يحركه النسيم
بدت فيه السماء بلا امتراء كذاك الشمس تبدو والنجوم
كذاك قلوب أرباب التجلي يُرى في صفوها الله العظيم

(أي يُرى في صفوها نور الله عزّ وجلّ).

ولما تجلّى من أحب تكرُّماً وأشهدني ذاك الجمال المعظّما
ترفّع لي حتى تيقّنت أنني أراه بعيني جهرة لا توهّما
وفي كلّ حال أجْتَليه ولم يزل على طور قلبي حيث كنت مكلّما
وما قدر مثلي أن يحيط بمثله وأين الثَّرى من رفعة البدر إنَّما
أشاهده في صَفْو سرّي فأجتلي جمالاً تعالى عِزُّه أن يقسّما
كما أن بَدْرَ التم يظهره وجهه بصفو غدير وهو في أفق السّما

* * *

أنت الذي ما زلت منّي حاضراً ولناظري يا نور عيني ناظرا
فإذا نظرت فأنت قبلة ناظري حيث اتَّجهت رأيت نوراً باهراً
وإذا سمعت فعنك أسمع دائماً وإذا رويت فعنك أروي ماهرا
أبداً يناجيك الضمير وطالما أبدى العيان له دليلاً ظاهرا
ما رُمْتُ منك على الحقيقة نصرة إلَّا وجدتك لي معيناً ناصراً
فلأنت سرِّي في الفؤاد ولم تزل في ناظري في كل وقت حاضراً
أنْعم وجُد فرِضاك غاية مطلبي وسحاب دمعي فيك أضحى ماطرا



المبحث الحادي عشر

نحو منهج أفضل لفهم قضايا العقيدة الإسلامية ودراستها

● ﴿إن هذا القرآن يهدي لِلّتي هي أقوم...﴾ الإسراء: /٩.

● ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها، وأنابوا إلى الله، لهم البشرى فبشِّر عبادِ. الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولوا الألباب.﴾ الزمر: /١٧ - ١٨.

● عـن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«أفضل المؤمنين إسلاماً من سلم المسلمون من لسانه ويده، وأفضل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وأفضل المهاجرين من هجر ما نهى الله تعالى عنه، وأفضل الجهاد من جاهد نفسه في ذات الله عزّ وجلّ». أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير».

الإسلام دين الكمال (علماً، وعملاً، وأخلاقاً) دين الرحمة والسعادة والكرامة للإنسان والإنسانية. يقود مسيرة الحياة (بسلوكيّة الكتاب والسنة) نحو التطور والازدهار والتكامل.

ارتضاه الله لعباده المؤمنين (الصادقين - المخلصين) ليتمثَّلوا - ويمثّلوا - بسلوكهم حكمة الله ورحمته وعدالته، وإنما يصوغ المسلم سلوكه، في ظلال تقوى الله وتعظيم أمره، كما يعدّل اتجاهه دائماً، بما ينسجم مع حكمة الله ورحمته وعدالتِه، واتباع رضوانه سبحانه وتعالى.



نحو منهج أفضل لفهم قضايا العقيدة ودراستها

رحلة الفكر مع العقيدة: حين أعمل الفكر في قضايا العقيدة في البيئة الإسلامية، لم يكن هناك بدّ من الاختلاف، بعد الابتعاد عن المنهج الذي أتى به الرسول ﷺ، وسار عليه من جاء بعده ممن عرفوا في تاريخ الفكر الإسلامي بالسلف. ومما هو جدير بالملاحظة هنا أن هذا المصطلح قد استعمل في فترات تاريخية لاحقة استعمالاً خطأً.

لم يكن في إمكان فرقة من الفرق الإسلامية (وهي تعالج قضايا العقيدة)، وتردّ على الفرق المناوئة؛ لم يكن في الإمكان (إغفال النص القرآني)، حتى في حال الاعتماد على قضايا المنطق والاستدلال العقلي، وانطلاقاً من هذا المبدأ، استعملت آيات القرآن حسب دلالاتها ومناسباتها ستاراً يتخفى وراءه (أصحاب الأغراض) للوصول إلى أهدافهم، ومآربهم، ويستخدمه الفلاسفة بتعسُّف للبرهنة على مذاهبهم. وصبغها بصبغة دينية إسلامية، ويلعب بألفاظه المتكلِّمون (ليؤسسوا بناء الفكر على أنقاض العقيدة)، حين يخرجون العقل عن دائرة اختصاصه، بل يقحمون العقل في مجال الوحي[1].

---

(١) العقل لن يهتدي إلى كماله المنشود إلاّ (بالوحي - الموصوف بالعصمة - والبريء من ازدواجية القيادة)، ذلك لأن العقول متعدِّدة بلا حدود، والأمزجة مختلفة كذلك، والعقل متدرِّج في مقاييس الذكاء، **فعلى أي عقل نعتمد؟ .. وهل عصم أي عقل من نوازع الأهواء؟**

ولهذا كان من الأخطاء التي يعدُّونها على (منهج علماء الكلام - وعلى الأخص المعتزلة منهم):

أ - خروجهم على الواقع المحسوس، وتجاوزهم إلى غير المحسوس، فقد بحثوا فيما وراء =

إن الهوّة التي انزلق فيها هؤلاء جميعاً على اختلاف مشاربهم وأهوائهم، بوعي أو بدون وعي، هذه الهوة هي التأويل[1]. وكان التأويل للنص بدرجات متفاوتة، تبدأ بهذا النمط من التأويل الذي لا يأباه النص (حسب الوضع اللغوي - وفي ضوء النصوص الأخرى)، وتنتهي إلى نمط من التأويل يحرّف الكلم عن مواضعه، ويطمس معالم النص الشرعي، حتى لا يبقى منه إلّا الرسم، ونجد نماذج من هذا، في الاتجاه الباطني قديماً وحديثاً.

إن قضية التأويل لها من الأهمية والخطورة، بحيث انشطر المسلمون بتأثير منها قديماً وحديثاً إلى سنّة وشيعة[2]. وعلى الرغم من المحاولات الجادة من

= الطبيعة (في ذات الله وصفاته) فيما لا يصل إليه الحسّ (فخرجوا بالعقل عن دائرة اختصاصه)، وأفرطوا في قياس الغائب على الشاهد، أعني في قياس الله على الإنسان، فأوجبوا على الله العدل كما يتصوّره الإنسان.

ب - إعطاؤهم للعقل حرية البحث في كل شيء (فيما يحسّ - وفيما لا يحسّ)، ثم جعل العقل الأساس في الإيمان كله، فترتّب على ذلك أن جعلوا العقل أساساً للقرآن، ولم يجعلوا القرآن أساساً للعقل.

والذين يعتمدون على سلطان العقل وحده، في الوصول إلى عقيدة سليمة راسخة، وفكرة كلية واضحة، تفسّر هذا الوجود وتحلّ ألغازه، قد جاوزوا بالعقل حدود اختصاصه، حين أقحموا العقل في مجال الوحي، بل أهملوا جانباً هاماً من الفطرة الإنسانية، هو جانب الشعور والوجدان كما أغلقوا على أنفسهم باباً واسعاً، ما كان أحوجهم إليه، وما أضلّ سعيهم بغيره، هو باب الوحي الإلّهي.

إن العقل مهما أوتي من الذكاء، والقدرة على التجربة والقياس والاستنتاج، محدود بحدود الطاقة البشرية، مقيد بقيود الزمان والمكان، والوراثة والبيئة، فلا غنى له أبداً عن سند ومُعين، يسدِّده إذا أخطأ، ويهديه إذا ضلّ، ويردّه إلى الصواب إذا شرد، وهذا السند هو الوحي الإلّهي (المعصوم)، وهو أساس الدين، يصل بالعقل إلى كماله المنشود.

(١) إذا أجزنا تأويل نصوص الكتاب والسنة، حسب الآراء الشخصية نكون بذلك قد جعلنا عقيدتنا خاضعة للآراء والأهواء الشخصية. والعقيدة من الأمور الثابتة في الدين والتي لا تؤخذ إلّا عن طريق الوحي، ولا يجوز أن تفهم النصوص المتعلقة بها إلّا كما فهمها رسول الله ﷺ وصحابته، وهو الفهم الصحيح الموافق لمعاني لغة العرب.

وفتح باب التأويل (دون مراعاة هذه المعاني) يؤدي إلى إلغاء الشريعة كلها.

(٢) إن الإسلام بحقيقته الموضوعية، ليس إسلام فرقة من الفرق، ولا بلد من البلدان، ولا مذهب من المذاهب، إنّه (إسلام القرآن والسنة) وإسلام الصحابة ومن تبعهم بإحسان.

ويطالعنا الأخ - الدكتور يوسف القرضاوي - في كتابه (الخصائص العامة للإسلام) ص ١٩٧ : =

بعض أعلام الفكر الإسلامي المعنيين بقضايا العقيدة وفي مقدمتهم (حجة الإسلام ـ أبو حامد الغزالي)، وأبو الوليد ابن رشد، وابن تيمية، بقصد وضع ضوابط للتأويل إلاَّ أن تلك المحاولات لم تجد.

إن قضية تأويل النصوص القرآنية لا تمثِّل في ذاتها مشكلة مستعصية على الحل، في إطار البحث المنهجي لقضايا العقيدة (لو صدقت العزائم ـ وحسنت النوايا ـ على صعيد الإخلاص والتواضع لحكم الله)، لأن الآيات المتشابهة التي تحتاج إلى تأويل قليلة جداً، بل نادرة، إذا ما قيست إلى الآيات المحكمات الصريحة في بابها، والتي يمكن فهم الآيات المتشابهات في ضوئها، ولكن وجدت هذه الفرق أن القرآن الكريم يمثِّل سدًّا منيعاً أمام مثيري الخلاف والاختلاف بكل صوره وأسبابه وغاياته؛ اختلق أقطابها مشكلة التأويل، وفتحوا بذلك باباً لم يتمكن المسلمون حتى الآن من إيصاده.

وقد أشرنا آنفاً أن حاجتنا المستمرة هي: إلى صدق العزائم وحسن النوايا، فمشكلتنا هي قصور في التربية العامة أو الخاصة، ونعني بالتربية العامة (حسن المعرفة بالله ـ وحسن الطاعة لله ـ وحسن الصبر على أمر الله) كما نعني بالتربية الخاصة (التربية الوجدانية ـ وتكوين الوازع الأخلاقي والضمير الحيّ).

وكما قال شاعرنا المؤمن:

ونهج سبيلي واضح لمن اهتدى   لكنها الأهواء أعمت فعمّت

اللهم أرنا الحقّ حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه،

= ولقد سمعت من أحد كبار الشيعة العقلاء الحريصين على وحدة الأمة، كلمة جديرة بأن تسجَّل وتنشر، قال: هل كان هناك (سنَّة ـ وشيعة) عندما أكمل الله الدين لهذه الأمة وأتمَّ عليه النعمة، ونزل قوله تعالى:

● ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ المائدة: ٣/.

وكان جواب الحاضرين... لا، إذن ـ جاء الخلاف بعد ذلك في تفسير قضايا تاريخية، وكان الجواب: نعم، وبكل تأكيد، وهناك قال الرجل العاقل المنصف، الحريص علي وحدة الأمة: فلنغضّ الطرف عما حدث بعد قوله تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ وليسعنا كتاب الله ففيه كل الكفاية.

فالإسلام ـ على الحقيقة ـ كلمة جامعة ـ تحول دون التفرقة، والتعصب المذهبي...

اللهم آتنا من لدنك رحمة وهيّء لنا من أمرنا رشداً يا أرحم الراحمين آمين.

أجل - إن المعضلات التي نعانيها في دراستنا لقضايا العقيدة، ومحاولتنا لفهم كلّياتها وجزئياتها؛ هذه المعضلات إنما نشأت (في جوّ علم الكلام). إن هذا اللون من البحث قد عمّق الخلافات المذهبية وأعطاها صبغة دينية عقدية، ليست جديرة بها، فنشأت في ظله الفرق، وترعرعت المذاهب الكلامية ومنه استمدت عناصر الوجود والبقاء.

وإذا كان بعض الباحثين من مفكرين إسلاميين ومستشرقين يرون أن الفلسفة الإسلامية على حقيقتها إنما تكمن في هذه المذاهب الكلامية، وما انتهت إليه من مباحث، فهذا حق، ولكن الحق أيضاً هو أن هذه المذاهب الكلامية بقدر ما اقتربت من الفلسفة ومناهجها، كان ابتعادها عن العقيدة وطرائقها، لقد كانت هذه المباحث الكلامية إذن على حساب العقيدة. هذا ما يثبته تاريخ هذه الفرق، ويؤكده تاريخ نشأة علم الكلام، فلم يكن هذا العلم في أيّ دور من أدوار تاريخه مقتصراً على هذه المهمة التي حدّدها العلّامة ابن خلدون في مقدمته، ولا متضمناً لها على الوجه الصحيح، إنه يرى أن علم الكلام (في الأصل):

«علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والردّ على المبتدعة والمنحرفين في الاعتقادات، عن مذهب السلف وأهل السنّة».

والمتصفح (للكتب الأصول - في هـذا العلم)، لا يجد بغيته التي أشار إليها ابن خلدون إلا في مواضع قليلة، لكنه سيجد ألواناً من الجدل واللعب بالألفاظ، وسيلتقي بمباحث لا صلة لها بالعقيدة وأصولها وليس فيها شيء من الدفاع عنها.

فإذا وضعنا في الاعتبار أن معظم الكتب التي ألفت في علم الكلام وبمناهجه إنما كانت من أجل الردّ على فرق محسوبة داخل دائرة الإسلام، أصبح في إمكاننا أن نشكّك في أمر قيام هذا العلم بتلك المهمة التي أشار إليها ابن خلدون.

على أن الغريب والجدير بالملاحظة هنا هو ما ذهب إليه ابن خلدون من أن

هذا العلم ـ علم الكلام ـ غير ضروري لهذا العهد ـ أي عهد ابن خلدون ـ القرن الثامن للهجرة ـ، إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودوّنوا.

وموضع الملاحظة على ابن خلدون من وجوه عدة:

أولاً: ليس هناك عصر من العصور خلا من الملاحدة والمبتدعين، من قبل ابن خلدون، وفي عصره، ومن بعده إلى يوم الناس هذا.

ثانياً: من المسلّم به أن طرائق الاحتجاج قد تختلف بين عصر وآخر، ومن ثم فإن ما كتب قديماً دفاعاً عن العقيدة قد لا يكون ملائماً دائماً للقيام بمهمة الدفاع عن العقيدة.

ثالثاً: إنّ حصر مهمة هذا العلم (في الدفاع) ليس له ما يبرّره، فنشر مبادىء العقيدة والمحافظة عليها نقيّة خالصة من الشوائب وأخذها في الاعتبار ضمن منهج الدعوة، ووضعها دائماً في دائرة القرآن، كل هذه الأمور والمهام من المفترض أن تدخل في إطار هذا العلم.

رابعاً: على أن الجدير بالملاحظة هنا ـ أن العقل الحديث ـ داخل العالم الإسلامي وخارجه، لم يعد بإمكانه أن يدرك مباحث العقيدة الإسلامية ويستوعب كليّاتها وجزئياتها بطرائق البحث القديمة، لا من حيث موضوعاتها أحياناً ولا من حيث مناهجها دائماً.

خامساً: الجهات المناوئة للعقيدة الإسلامية سواء أكانت هذه الجهات (متمثّلةً) في التيار اليهودي المسيحي، المعادي سرّاً وعلانية لهذه العقيدة، أم في الاتجاه الإلحادي، المعادي للعقائد الإيمانية على الإجمال، هذه الجهات جميعها قد غيّرت من خططها الهجومية والدفاعية دائماً: فالشّبه التي تختلقها الشيوعية اليوم وتضعها في طريق المدّ الإسلامي، فتلقنها الشباب، وتروّج لها عبر كل وسائل الإعلام وتمكّن لها بالقوة أحياناً ـ هذه الشّبه ـ لم تعد هي تلك الشبه التي كان يثيرها الزنادقة والبراهمة والدهريّون، وكنا نقرأها ونقرأ الردّ عليها في مباحث المتكلمين، كما أن تعامل

مدارس الاستشراق ومراكز التبشير مع الإسلام والمسلمين، لم يعد على ذلك النمط الذي كان سائداً في فترة سابقة بين آباء الكنيسة، في حوارهم مع المفكرين الإسلاميين، المعنيين بأمر العقيدة ومباحثها، والدعوة إليها، لقد انتهى الأمر في هذا الشأن إلى لون من الالتواء بطرق البحث بدرجة يصعب معها إدراك (الحدّ الفاصل بين الإطراء والثناء من جهة ـ وبين التشويه والهجوم من جهة أخرى).

لقد أصبح من المستساغ في ظل تعدد المناهج وتشابكها، أن يكتب مستشرق عن العقيدة الإسلامية بحوثاً يكون له شأن بين بني قومه أو بين من يكتب بلغتهم، في حين أن هذه البحوث إذا ما عرضت على أصول العقيدة الإسلامية ومنهجها تنتهي إلى النقيض.

أما في دائرة التبشير، فقد استحدثت الكنائس ـ ممثلة في مجلسها العالمي ـ أنماطاً جديدة من طرق التبشير ووسائله، ليس آخرها ما أعلن عنه في الدوائر المسيحية، من تقديم المساعدات للأسر المسلمة التي ـ شرّدتها الحرب في أفغانستان، وإيواء عدد من الأطفال المسلمين الذين فقدوا أسرهم في الحرب.

على أننا لا نملك معلومات دقيقة عن الأسلوب الذي يستخدمه المبشرون في الدعاية للمسيحية وفي تشويه عقيدة الإسلام. إن هذه القضايا جميعها وثيقة الصلة ـ في الواقع ـ بمباحث العقيدة الإسلامية في تاريخ الإسلام المعاصر.

إن علم الكلام بوضعه الراهن ـ وكما هو منذ قرون ـ قد فشل فشلاً ذريعاً في القيام بالمهام الملحّة، المنوطة به، وذلك بسبب هذه الشوائب التي علقت به من خلال اتصاله الوثيق بتلك التيارات المتصارعة والمنتمية إلى هذه الفرقة أو تلك، من عديد الفرق التي زخر بها تاريخ الفكر الإسلامي، حتى أصبح الترويج للمذهب والدفاع عنه بعد الانتماء إليه ـ هو الهدف الأول ـ قبل التعريف بالعقيدة وتأييدها ببراهين العقل، من خلال منهج القرآن.

أما الدعاوى العريضة بأن هذه الفرقة أو تلك ـ هي التي على حق ـ

ومخالفوها على باطل، وهم كفرة ملحدون، أو فسقة مارقون، وبالتالي (فهي الفرقة الناجية)، وما عداها من الفرق هالكة.

هذه الدعاوى لازالت في تاريخ المسلمين المعاصر، كما كانت من قبل حين صورها ـ حجة الإسلام الإمام الغزالي ـ في كتابه «المنقذ من الضلال». كل هذا إنما نشأ في جو (علم الكلام)، وبمنهجه الجدلي، بعيداً عن نصوص القرآن ومنهج الرسول ﷺ، في فهم أصول العقيدة من هذه النصوص.

لعل في هذا الذي تقدم ما يكفي لدعوة الباحثين في شؤون العقيدة وقضاياها، والمتطلعين إلى لون جديد من البحث في هذا الموضوع القديم، قدم التاريخ الإنساني كله، لعل في ذلك ما يكفي لدعوة هؤلاء وأولئك، دعوة ملحّة صادقة إلى وقفة طويلة متأنّية، نعيد من خلالها النظر في هذا التراث من الفكر الديني الذي اختلط فيه الدين بالفكر، والحق بالباطل، والاعتراضات بالشبهات، والنتائج بالمقدمات، وخاض في قضاياه المحق والمبطل والمتبع والمبتدع، حتى أنه لم يعد في قدرة المؤمن أو الباحث عن الحقيقة في هذا الجيل أن يميّز الخبيث من الطيب.

وإنها لمهمة صعبة ومجهدة، ولكنها فريضة لا بد منها، لمن ينتمي للدين الحق، وهو حريص في ذات الوقت على أن يعود هذا الدين إلى مركز القيادة والريادة في هذا العصر، الذي تنازعت فيه المشارب، فزخر بالمذاهب وأصبح النزوع إلى العقيدة أمراً تفرضه ظروف العصر وتياراته وانقساماته وتكتلاته، قبل أن يدعو إليه صوت الدين، بوحي من فطرة الإنسان[1].

إن ما ندعو إليه الآن هو إعادة النظر في مباحث علم الكلام، إعادة النظر فيها من حيث القضايا والموضوعات، وإعادة النظر فيها من حيث المناهج وطرق البحث، وإعادة النظر من حيث صلتها بالقرآن، ومنهج الرسول ﷺ قرباً أو بعداً.

---

(١) ينظر بحث الأخ ـ الأستاذ الصديق يعقوب ـ في مجلة (الدعوة الإسلامية) ص ٦٨ وما بعدها، الصادرة عن كلية الدعوة الإسلامية في (طرابلس ـ ليبيا).

المطلوب هو توجيه هذا اللون من الدراسة وجهة صحيحة بعيداً عن الاتجاهات المتعارضة، والتيارات المتصارعة والفرق المختلفة، بل بعيداً عن علم الكلام ذاته (من حيث الشكل)[1] والتسمية ليكون ذلك العمل المرتقب في دائرة (علم التوحيد ـ أو علم العقيدة الإسلامية).

إن تسمية هذا اللون من البحث ـ بعلم الكلام ـ توحي بانتكاسة هذا العلم وانحرافه من البداية إلى جوانب وأغراض من الجدل العقيم، والتمويه المريب، بل إلى استعمال العنف ـ أحياناً ـ والاقتتال بالسيف، بدل الحوار بالكلمة، والدفاع عن وجهة النظر بالرأي والحجة، واحترام الرأي المقابل.

هذا اللون من البحث في مثل هذه القضايا جدير بأن نطلق عليه (علم العقيدة الإسلامية).

إن قضية (التوحيد ـ والوحدانية) هي مرتكز الدين الإلٓهي، ولذلك كانت لبّ جميع الرسالات السماوية على الإطلاق، وإن الوثنية بكل صورها، وفي شتى مظاهرها، هي التي تمثل جبهة الصراع المقابلة لقضية الوحدانية.

إن هذه التسمية هي المنطلق (الذي يضع الأمور في نصابها)، وهي التي تحدد مسار البحث، وترسم خطوطه، وتعين آفاقه من البداية، كما أنها هي التي تعصم الباحث من الوقوع في الخطأ في المقدمات أو في النتائج، وهي التي تربط جميع الرسالات السماوية برباط عقدي واضح، فيكون من المحال التأرجح بينها وبين نقيضها، (هذا من حيث الشكل)، (أما من حيث الموضوع) فإن القضايا التي تبحث في محيط (علم العقيدة الإسلامية)، تختلف منهجاً وموضوعاً عن التي يبحثها علم الكلام ـ كما أشرنا آنفاً.

وفي (الفقرة الثالثة) ـ في معرض الملاحظة على العلامة ابن خلدون، في إشارته إلى علم الكلام (في مقدمته) وموضع الملاحظة (الوارد في الفقرة الثالثة المذكورة) كما يلي:

---

(١) ونعني بعبارة (بعيداً عن علم الكلام ذاته ـ من حيث الشكل) استبدال علم الكلام بـ (علم العقيدة الإسلامية).

«إن حصر مهمة هذا العلم ـ علم الكلام ـ في الدفاع فقط (عن العقائد الإيمانية) أمر ليس له ما يبرّره»: فنشر مبادىء العقيدة، والمحافظة عليها نقيّة خالصة من الشوائب، وأخذها في الاعتبار، ضمن منهج الدعوة، ووضعها دائماً في دائرة القرآن، كل هذه الأمور والمهام من المفترض أن تدخل في إطار (علم العقيدة الإسلامية)، كجزء هام ينطوي ضمن (منهج الدعوة الإسلامية).

أجل ـ إن هناك قضايا من اللازم أن تطوى طيّاً فتبعد من دائرة البحث.

إن كل كليّة أو جزئية، تتصل من قريب أو بعيد بذات الله المقدسة (يجب أن تبقى بعيدة عن دائرة البحث العقلي) وهذا هو المنهج السديد والرشيد في هذه القضايا وما شابهها، لأنه هو المنهج الذي توحي به نصوص القرآن المتصلة بهذه العقيدة، كما أنه هو المنهج الذي دعا إليه الرسول ﷺ، ولكن مؤثرات خارجية وداخلية في البيئة الإسلامية أقحمت هذه القضية في نطاق مباحث علم الكلام، فوجدنا من علماء الكلام، من يتصوّر واهماً، أنه أدخل الذات الإلّهية المقدسة في مشرحة، وصار ينظر إليها من خلال مجهره الموهوم؛ وهذا العمل عبث، وهو نزول بالذات الإلّهية المقدسة إلى أوهام العقول البشرية القاصرة، بل إلى تفاهات هذه العقول، مهما كانت الدواعي، ومهما حسنت المقاصد والنيات.

إن من هذا القبيل، مما يجب إبعاده عن دائرة البحث العقلي في (علم العقيدة الإسلامية) المباحث المتعلقة برؤية الله هل هي جائزة أم مستحيلة؟ . . . وبالقرآن هل هو مخلوق أم لا؟ . . وحسبنا في هذا المقام ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله.

إن قضية الحرية الإنسانية أو مسألة القضاء والقدر (في جانبها المتّصل بالإنسان)؛ وصفت في إطار علم الكلام وضعاً مضطرباً مشوّشاً دون منهج، ودون تحديد، فكانت النتائج متباينة متذبذبة (ارتفاعاً إلى حرية الإنسان المطلقة) و (انخفاضاً إلى الجبرية المطلقة)، وما بين الاتجاهين، يقترب من أحدهما ولا يتوسّط.

وهكذا في غياب المنهج، وفي إغفال بعض النصوص القرآنية، وتأويل

بعضها الآخر على غير (ضابط) وقانون ثابت في التأويل. . في هذا الجو غابت الحقيقة في متاهات الشكوك، وتسربلت بحجاب من ظنون الفلسفة وأوهام علم الكلام، وبات معظم المسلمين يظنون بالإسلام الظنون، معتقدين أن الجبر هو الإسلام، أو (أن الإسلام هو الجبر - وفي محيط علم الكلام)، وما زال الاتجاه الجبري، من الاتجاهات التي تنتمي إلى الإسلام، وليست منه في شيء[1].

بعيداً عن منهج إسلامي أصيل في دراسة العقيـدة وفهمهـا، وتحديد قضاياها، لم يزل بين المسلمين حتى اليوم نزاع يفصم وحدتهم، حول ما دار بين سيدنا علي رضي الله عنه، وغيره من الصحابة في مسائل الخلافة، فهل على وجه الأرض أمة تجترّ ماضيها السحيق، لتلوك منه خلافات قاسية كهذه الأمة؟.

ولماذا نقحم هذه الأمور إقحاماً في شؤون العقيدة؟ ولماذا لا تبقى في نطاق الذكريات التاريخية التي تدرس كأي تاريخ، لتؤخذ منها العبرة فحسب!!.

هذه بعض اللمحات عن بعض الأساسيات التي يمكن أن تكون بداية لسير أفضل نحو دراسة العقيدة دراسة موضوعية منهجية واعية، تستفيد من الماضي، وتقدم للحاضر في محيط الفكر والعقيـدة ما يمكن أن يكون تأسيساً لمستقبل يبحث فيه الإنسان (أي إنسان) قضية العقيدة، بصدق وجدّ، فيركن إليها، ويحيا بمقتضاها، وتلك - على ما احتسب - قضية العصر، في كل قطر، وفي كل عصر، على تباعد الأقطار، وتعدّد الأمصار، (والله الموفق - وهو حسبنا ونعم الوكيل).

(وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين)

---

(١) في هذا الكتاب (علم العقيدة الإسلامية - في ضوء الكتاب والسنة) سيطالع الباحث أن الإسلام بريء من الجبر والجبرية، وكل ما أوهم هذا المعنى، فإنما يتّصل بالنظام العام الإلَهي في الخلق والتدبير وهو سابق على وجود الإنسان. لقد منح الله الإنسان (الإرادة والاختيار الحرّ) بمحض جوده وأراد (سبحانه) الحياة لنا حرّة كريمة (تكليفاً - ومسؤولية)، إخاء وتعاوناً، وتنافساً شريفاً، في سبيل الحياة الأفضل، وجعل الثقة والإيمان به - على الحقيقة - نوراً هادياً إلى السعادة، لمن اتبع رضوان الله.

الباب الأول

- المنهج العلمي للبحث عن الحقيقة عند علماء المسلمين.
- حاجة الإنسان إلى العقيدة الصحيحة.
- مضمون العقيدة والإيمان.
- علم العقيدة الإسلامية:

ـ صفات الله تعالى: الصفة النفسية (الوجود) ـ العلم يدعو للإيمان ـ ارتباط العقيدة بالسلوك.

ـ الصفات السلبية: الوحدانية، القدم، البقاء، المخالفة للحوادث، قيامه تعالى بنفسه.

ـ صفات المعاني: الحياة، العلم، القدرة، الإرادة، السمع، البصر، الكلام.

ـ الصفات المعنوية: كونه تعالى: حيّاً، عليماً، قادراً، مريداً، سميعاً، بصيراً، متكلماً.

- ما يترتب على صفات الله من الحقائق الاعتقادية:

١ ـ تنزيه الله تعالى عن أضداد هذه الصفات وسائر النقائص.

٢ ـ نفي العلة الغائيّة عن أفعاله جل جلاله.

٣ ـ لا يجب على الله تعالى لعباده أو لأحد من خلقه شيء، والحسن والقبح أمر اعتباري.

٤ ـ مصير الإرادة الإنسانية أمام إرادة الله سبحانه وتعالى.

٥ ـ القضاء والقدر معناهما وضرورة الإيمان بهما.



المبحث الأول

المنهج العلمي

للبحث عن الحقيقة عند علماء المسلمين

تمهيد:

إذا كان إدراك الحقيقة على ما هي عليه في الواقع (علماً)، فإن المنهج المتخذ إلى ذلك الإدراك ينبغي ـ بلا ريب ـ أن يكون هو الآخر (علماً)، أي ينبغي أن لا تكون خطوات هذا المنهج في حقيقته إلا مجموعة إدراكات صادقة، من شأنها أن تكشف اللثام عن الحقيقة المبحوث عنها.

من هنا كان على كل باحث عن حقيقة أن يخطّ إليها منهجاً علمياً لا يشوبه الوهم، وأن يلتزم هذا المنهج لا ينحرف عنه يمنة أو يسرة.

تلك حقيقة واضحة لا ينبغي أن يتمارى فيها أحد من الناس. ولنبدأ بالطريقة التي ينتهجها الفكر الإسلامي:

وعلينا قبل كل شيء أن نقرر حقيقة ذات أهمية في هذا الصدد، وهي أن العامل الأول في إخضاع الفكر الإسلامي لمنهج علمي دقيق في البحث ـ كما سنجد ـ إنما هو الدين، ونعني بذلك (إخلاص العبودية لله تعالى)، وما كان للمسلمين ـ لولا العقيدة الدينية ـ أن يحمّلوا أنفسهم مؤونة منهج شاق، يستنفد الكثير من الوقت والجهد (ودون أن يكون له حصيلة من كسب مادي)، ثم يشتدّون في التمسّك به حتى يغدو مصلحاً لهم جميعاً، يتعارفون به ويلتقون عليه؛ إلا حرصهم المؤكد على أن تكون حقائق الدين ومصادره واضحة في الأذهان مشرقة في القلوب والضمائر، بالبرهان الساطع على صحتها والدليل المؤكد على الخبر الصادق فيها.

ويتمثل هذا الدافع الديني في نصوص كثيرة من كتاب الله تعالى، في مثل قوله تعالى:

● ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ الإسراء: /٣٦.

● ﴿ وما يتبّع أكثرهم إلا ظناً، إن الظن لا يغني من الحق شيئاً، إن الله عليم بما يفعلون ﴾ يونس: /٣٦.

وهكذا وجد الفكر الإسلامي نفسه أمام مهمة دينية، هي ضرورة البحث عن الحقيقة، سواء أكانت من قبيل النقول أم الدعاوى، وبدهي أن القيام بهذه المهمة يتوقف على (وضع منهج للبحث).

منهج البحث عند علماء المسلمين: يتلخص المنهج العلمي للبحث، عند علماء المسلمين، في قاعدة جليلة كبرى لم يعرف مثلها عند غيرهم وهي قولهم: (إن كنت ناقلاً فالصحة ـ أو مدعياً فالدليل)، أي مطالبة (ناقل الخبر ـ بالبرهان على صحته)، ومطالبة (مقدم الادعاء ـ بالدليل المثبت لذلك).

وتفصيل الأمر في ذلك أن موضوع البحث لا يخلو دائماً من أن يكون خبراً منقولاً، أو دعوى مزعومة، فأما ما قد يكون منه خبراً، فإن البحث فيه ينبغي أن يكون محصوراً في (تحقيق النسبة) بينه وبين مصدره، إذ هي التي تكون مثاراً للاحتمال والدخيلة والريب، فإذا زال الاحتمال وانجابت الغاشية، انبثقت من ذلك (الخبر الصادق) حقيقة علمية معينة، بشرط أن يكون ذا دلالة قطعية.

وأما ما يكون منه ادعاء، فإنَّ البحث فيه ينبغي أن يتجه إلى الأدلة العلمية المنسجمة معه، والتي من شأنها أن تكشف عن مدى صدق هذا الادعاء.

ولكل نوع من الدعاوى نوع من الأدلة العلمية يناسب (إثباتها)، لا يستبدل به غيره. وهكذا لا تصبح الدعوى حقيقة علمية ثابتة إلاَّ بعد أن يقترن بها دليلها الذي يناسبها.

وبناء على ذلك فما هو السبيل العلمي الذي وضعه علماء الإسلام لتحقيق

النسبة بين الخبر الصادق ومصدره، ولتحقيق القيمة العلمية في الدعوى، على النحو الذي ذكرناه؟

السبيل المتخذ لتحقيق الخبر: تنهض بهذه السبيل فنون عديدة خاصة، لم يعثر عليها التاريخ إلاَّ في المكتبة العربية، وهي: فن مصطلح الحديث، فن الجرح والتعديل، وتراجم الرجال، حيث تلتقي هذه الفنون الثلاثة على وضع ميزان دقيق، يتضح فيه الخبر الصحيح (الصادق) من غيره والفرق بين الخبر الصحيح الذي يورث الظن، والذي يورث اليقين.

فالخبر يرقى إلى أولى درجات الصحة، عندما يثبت لدى التحرِّي والبحث، أن سلسلة السند متصلة من صاحب هذا الخبر ومصدره، بنقل (العدل الضابط ـ عن مثله ـ المعتمد في ضبطه ونقله) إلى نهايته، التي انبثق منها، دون أن يحتوي الخبر على شذوذ في جوهره أو علَّة في روايته فإذا تدانى الخبر عن هذه الرتبة، بأن سقطت حلقة من سلسلة الرواية بسبب الجهل به، أو عدم الوثوق بعدالته، أو عدم اليقين بحفظه وضبطه، أو بأن كان متن الخبر شاذًّا بالنسبة للمقبول من غيره، فهو غير صحيح.

ولكن الصحيح نفسه يرقى في درجات متفاوتة، تبدأ من الظن القوي إلى الإدراك اليقيني فإذا كانت السلسلة التي توفَّرت فيها الصحة مكونة من آحاد الرواة الذين ينتقل الخبر بينهم فهو لا يعدو أن يكون خبراً ظنيّاً في حكم العقل، وإذا كانت حلقات السلسلة مكونة من راويين أو ثلاثة رواة، فهو لا يزال خبراً ظنياً، ولكنه ظن قوي يداني اليقين.

أما إذا غدت كل حلقة من الحلقات، من الكثرة، جموعاً يطمئن العقل أنها لا تتواطأ على الكذب، فإنَّ الخبر المروي يكتسب عندئذ صفة اليقين، وهو ما يسمى (بالخبر المتواتر).

فأما الظنّي من الخبر الصحيح، فلا يقيّد به الحكم الإسلامي في بناء العقيدة، لأنه إنما يفيد الظن، ولقد نهى القرآن (في مجال البحث في العقيدة) عن اتباع الظن، ولكن يُعتدُّ به في نطاق الأحكام العمليّة. غير أنّ اليقيني من

الخبر الصحيح وهو ما يسمّىٰ بـ (الخبر المتواتر)، هو وحده الذي يُعتدُّ به في بناء العقيدة، بمعنىٰ أنّ الإنسان لا يُجبر على الاعتقاد بشيء خبري إلاّ إذا كان قائماً علىٰ برهان التواتر، فإن كان دليله خبر آحاد كان اليقين به عائداً إلىٰ القناعة الشخصية التي يراها من نفسه.

تلك خلاصة سريعة عن السبيل العلمي لدى علماء الإسلام لتحقيق النقل والخبر (الصادق).

السبيل المتخذة للتحقيق في الادعاء: يختلف هذا السبيل كما قلنا، حسب اختلاف نوع الادعاء، فما كان منه متعلقاً بموجود مادي يتناوله تحليلاً أو تكييفاً، فلا بد من الاعتماد فيه على شواهد وبراهين من الحواس الخمس، أي على ما يسمى بالتعبير الحديث (التجربة والمشاهدة)، إذ هي الوسيلة الطبيعية إلى الإدراك اليقيني في مثل هذه الأمور. والإسلام لا يتردَّد في تبنّي كل ما يثبت حقيقاً بهذه الوسيلة.

والإسلام عندما بيَّن للإنسان أن هذا الكون بما فيه مسخّر لمنفعته، ومذلّل للاستفادة منه، كان هذا أعظم دافع لأن يبحث في أي شيء في هذا الكون لينتفع به، ولا يتم هذا إلاّ عن طريق (التجربة والمشاهدة)، كما في قوله تعالى:

● ﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طريّاً، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه، ولتبتغـوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ النحل: /١٤.

وقال سبحانه:

● ﴿وسخَّر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ النحل: /١٢.

● ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة..﴾ لقمان: /٢٠.

فالنصوص القرآنية الآنفة الذكر وغيرها من النصوص التي تتحدث عن التسخير، تحمل في طياتها ـ دعوة صريحة إلى التجربة والاستفادة من هذا

الكون، إذ أن الاطلاع على ما أودع في هذا الكون لهو أعظم دافع إلى الإيمان بخالقه سبحانه وتعالى.

ولقد أثنى الله سبحانه على العلماء الذين يتعمّقون في معرفة هذا الكون ويطلعون على مكنوناته وخباياه، ويصلون إلى معرفة أسراره وخفاياه، وعدَّهم أنَّهم وحدهم هم الذين يخشون الله حق خشيته، كما في قوله تعالى:

● ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء، فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها، ومن الجبال جُدد بيض مختلف ألوانها وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانها كذلك إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ، إن الله عزيز غفور﴾ فاطر: /٢٧ ـ ٢٨.

إنَّ القرآن الكريم أشار إلى حقائق كونية ولم يفصّل القول فيها، ليدفع هذا الإنسان إلى الوصول إليها عن طريق التأمل والتفكّر والتجربة، ليكون نهاية مطافه الإيمان بخالق هذا الكون ومبدعه، ثم الإيمان بقدرته وحكمته. قال تعالى:

● ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أوَلَمْ يكف بربّك أنه على كل شيء شهيد﴾ فصلت: /٥٣.



المبحث الثاني

حاجة الإنسان إلى العقيدة الصحيحة
عن الكون والحياة والتزام مقتضياتها

يظلّ بعض الناس، ممن لم تتهيّأ لديهم ثقافة إسلامية كافية يتساءل:

ما وجه الحاجة أو الضرورة إلى أن يتعبّدنا الله بهذا الدين، ويلزمنا بكل هذا الذي يتضمّنه، من اعتقاد، وعبادة، وأحكام؟. وهلاّ يترك هذا الإلّه عباده أحراراً، يقيمون حياتهم على الوجه الذي يريدون، وينظمونها حسب الشكل أو الطريقة التي يحبّون؟... وقد تمتدّ ببعضهم سلسلة هذا التساؤل، فيسأل في ضيق وتعجب: وما حاجة الله في أن أحبس نفسي على عبادته العمر كله، وما الذي ينقصه أو يضرُّه لو لم أفعل ذلك[1]؟

---

(١) قبل الإجابة (المفصلة) على هذا السؤال، لا بأس من الإشارة إلى الخطوط العريضة للجواب كما يلي انطلاقاً من قوله تعالى:

● ﴿ولو اتّبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، بل أتيناهم بذكرهم، فهم عن ذكرهم معرضون﴾ المؤمنون: /٧١.

إن عزّة السلطان الإلّهي (وهو الواحد الأحد ـ الفرد الصّمد) لم يترك الإنسان سدى، متّبعاً لهواه، لأن من وراء ذلك فساد حياته (الخاصة ـ والعامة)، بل فساد الكائنات جميعاً، لأنه سبحانه اقتضت (حكمته ورحمته وعدالته)، أن يكون للحياة والأحياء، نظاماً عاماً في الخلق والتدبير، ينطق بعلمه الكامل (الشامل للماضي والحاضر والمستقبل) وإرادته في شرائعه ورسالاته إلى أنبيائه.

وقد أراد الله الحياة (للإنسان ـ والإنسانية) حرة كريمة (تكليفاً ـ ومسؤولية)، وجهّز الإنسان (بالعقل والعاطفة والإرادة) قوة واعية (ليمثل بسلوكه ـ ومن خلال عبوديته لله) مراد الله وإرادته في عمارة الأرض (خليفة لله ـ وباسم الله).

والإنسان (كمكلف ـ مسؤول) لتحقيق هذا المعنى (معنى الخلافة عن الله ـ في عمارة الأرض)، لا بدّ أن يلتزم بشريعة الله والاستقامة على طاعته (عقيدة، وعبادة، وسلوكاً)، لكي =

ولا بدّ من إجابة كافية شافية على هذا السؤال أولاً، وقبل الخوض في أيّ بحث من بحوث العقيدة الإسلامية. فلن تتهيّأ الأذهان والعقول لاستقبال حقائق التوحيد ومقوّمات هذا الدين العقيدية، ما لم تَصْفُ الرؤية أمامها، وتخلُص الطريق إليها من كل الشوائب والعقبات والمعوّقات.

فنقول في الجواب على ذلك:

إن الله عز وجل حينما تعلقت إرادته بإيجاد هذا الكون بما فيه من الموجودات أنواعاً وأجناساً، اقتضت حكمته الباهرة، أن يختار نوعاً من هذه الموجودات (وهو الإنسان)، فيجعله سيّد هذا الكون ويجعل سائر مظاهره وموجوداته مسخَّرة له قائمة بخدمته، وأن يكل إليه عمارته وأمر تنظيمه، فذلك هو المعنيّ بالخلافة في قوله تعالى:

● ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ البقرة: /٣٠.

وهو المقصود بالاستعمار في قوله تعالى:

= يحسن استخدام قواه الواعية في معرض أداء مهمته، وتحقيق رسالته في الحياة، فلا يطغى هواه على طاعة خالقه ومولاه، بل يكون بتوفيق الله على مستوى التكليف والشعور بالمسؤولية، والتعظيم لأمر الله ـ حفظاً لحدوده ـ واستقامة على طاعته ـ واتباعاً لرضوانه سبحانه وتعالى.

والله عزّ وجلّ (وهو الأعزّ الأكرم) لا تنقصه طاعة الإنسان، كما لا تضرُّه معصيته، وإنما هي العدالة الإلّهية (في نظامه العام) (وقد ضمَّت علمه الكامل ـ وإرادته في كلمته العليا)، تحصي على الإنسان عمله، ثم توفيه إياه في يوم الدينونة والجزاء (ليكون الجزاء من جنس العمل).
كما في قوله تعالى:

● ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه، ويقولون: يا ويلتنا، ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها، ووجدوا ما عملوا حاضراً، ولا يظلم ربّك أحداً﴾ الكهف: /٤٨.

وبذلك تكون عبودية الإنسان لله سبحانه، وخضوعه الطوعي لمراده في شريعته، لمقتضى نظامه العام في الخلق والتدبير، والالتزام بمنهجه في الحياة، هي الوسيلة الطبيعية لمعرفة غاية وجوده، ونموّ قواه الواعية لتصل إلى الكمال المنشود (في ظلال الاستقامة على طاعة الله)، نموّاً يرقى بمسيرة الحياة الفردية والاجتماعية نحو التطور والازدهار والتكامل، ويحقق إرادة الله على وجه الأرض، في السعادة ـ والكرامة للإنسان والإنسانية.

● ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ هود: ٦١/ (أي طلب إليكم عمارتها).

الإنسان مجهَّز بأخطر الصفات والملكات:

فكان أن جهَّز هذا المخلوق بمجموعة من الملكات والصفات، لا بدَّ منها لتتكامل لديه القدرة على إدارة شأن هذا الكون وتعميره واستخدامه، فبثَّ فيه صفة العقل، وما يتفرع عنها من العلم والإدراك والقدرة على تحليل الأشياء وسبر أغوارها، والوصول إلى ما وراءها وبثّ فيه معنى الأنانية، وما يتفرع عنها من النزوع إلى الأثرة والتملُّك، وبثّ فيه من أسباب القوة ومقومات التدبير، وما يتفرع عنها من النزوع إلى السيطرة والعظمة والجاه، ثم بثّ فيه من العواطف والأشواق والانفعالات التي تعدّ متمّمة لقيمة تلك الصفات وفوائدها كالحب والكراهية والغضب وما إلى ذلك[1].

وأنت خبير أن الإنسان لم يستطع تسخير شيء مما في هذا الكون أو السيطرة على شأن من شؤون الحياة ومظاهرها إلاَّ يوم أن جهّزه الله بهذه الملكات والصفات.

إلاّ أن لهذه الملكات شِرّة كبيرة ولها آفات عظام، وهي أسلحة ذات حدّين، إن استعمل أحدهما جاء بالتنظيم العظيم للكون وبالخير الوفير للإنسان، وإن استعمل الآخر أو استعملا معاً، جاء ذلك بالشرِّ الوبيل والفوضى الهائلة وأورث الإنسانية شقاء لا آخر له.

فمن أجل ذلك سمّى الله هذه الأسلحة (وهذه الصفات والملكات المشار إليها) والتي ائتمن عليها هذا المخلوق (بالأمانة)، وبين مدى أهميتها وعظم شأنها في قوله تعالى:

● ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ الأحزاب: ٧٢/.

---

(١) ينظر كتاب ـ كبرى اليقينيات الكونية ـ للأخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص ٦٥ وما بعدها.

ومصدر خطورة هذه الصفات أنها في حقيقتها ليست إلّا صفات الرّبوبية، فالعلم والسلطان والقوة والتملّك والجبروت، كلها صفات للرّب جل جلاله، فمن شأن هذه الصفات إذا وجدت في الإنسان أن تسكره وتأخذ بلبّه وتنسيه حقيقته، وتجعله يتمطّى إلى مستوى الربوبية والألوهية، وإن كان الإنسان لا يملك منها في الحقيقة إلاّ ظلالاً وآثاراً ليس لها من حقيقة الصفات الإلّهية إلاّ الاسم وحده.

ومن نتائج الخطورة التي في هذه الصفات أن من شأنها أن تحمل صاحبها على أن يستعمل صفة القوة في ظلم الآخرين، وأن يشبع نزوعه إلى السيطرة والسلطان في بسط نفوذه وسلطانه على المستضعفين من الجماعات، وأن يتّجه بما لديه من نزوع للتملك إلى أموال غيره يستلبها ويعثو بها، ثم من نتائجها أن تتسابق جماعات من الناس بدافع هذه الصفات في ميدان من الصراع الدموي على السلطان والجاه والممتلكات والحكم والقيادة، ووقائع التاريخ المطّردة تدلك على هذا دلالة واضحة.

وهكذا تنقلب هذه الصفات (بسبب قصور التربية - وضعف التوجيه المطلوب) إلى عامل اضطراب وشقاء في حياة الإنسان، وهي إنما ركبت فيه لتكون عامل سعادة ورقيّ ونظام.

فمن أجل ذلك كان لا بد من قوة أخرى توجّه هذه الصفات إلى الوجهة الصالحة، وتمنع الإنسان من أن يستعمل أسلحتها (إلاّ من حدّها المفيد)، فما عسى أن تكون هذه القوة التي تسيطر على شرّة تلك الملكات والصفات جميعها، وتدفعه في طريق الصلاح وحده؟

الدين الحق هو اللجام الذي يقي الإنسان خطورة هذه الصفات:

تلك هي حاجة الإنسانية كلها إلى الدين، أي إلى العقيدة الصحيحة عن الإنسان والكون والحياة، وما وراء ذلك كله.

والعقيدة الصحيحة التي يهدي إليها العقل والعلم؛ الإيمان بوجود الله ووحدانيّته، وأن لا سلطان حقيقيّاً في الكون غير سلطانه، ولا قوة قاهرة غير

قوته، ولا ملك غير ملكه، وكل ما وراء ذلك فهو مخلوق لله عز وجل، يمنحه حيث يشاء، ويسلبه عندما يشاء، وأنه الرقيب على عباده كلهم، وسيبعثهم من بعد الموت، فيحاسب كلاً على ما كسب أو اكتسب، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومَن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره.

فإذا تأمل الإنسان في هذا كله، وآمن به إيماناً جازماً قائماً على أساس من البحث العقلي المتأمّل الحرّ، شعر في أعماق كيانه كله بأنه عبد لهذا الإلّه الواحد العظيم. وأصبحت هذه الصفات الخطيرة الهامة التي يتمتّع بها أقل من أن تتجاوز به حدّ عبوديته، وما هي إلاّ أن تنقلب فتصبح وسيلة عظمى لسعادته، من حيث أنه فرد، ولسعادة بني جنسه من حيث الجماعة، وتقوم بين الناس وشيجة الأخوة والمساواة أمام عبوديتهم لله، بعد أن كانت تقوم بينهم مسابقات ومنافسات غير شريفة، في ميدان تتصادم فيه القوى، وتتقارع فيه الأسنّة ويقع المستضعف فيه ضحية نزوات القوي وسكرة جنونه.

حينئذٍ تغدو نزعة التملك في الإنسان وسيلة طبيعية لإقامة حياة عادلة رخيَّة، يقوم فيها العمران، وتخضرّ في أنحائها الحدائق والجنان، وتتكاثر في جنباتها الخيرات، وتصبح نزعة القوة والبطش سبيلاً إلى حراسة الحقوق وحفظ العدالة، والدفاع عن المثل الفاضلة. وتصبح نزعة العلم والإدراك نوراً وهَّاجاً ينكشف به المزيد من خدمات الكون لهذا الإنسان، وقبساً هادياً يؤكد للإنسان دائماً وجود الذات الإلّهية، ويحذِّره دائماً من أن ينسى حدود عبوديته فيتجاوزها إلى أي كفر أو طغيان.

وبكلمة جامعة نقول: إن من شأن العقيدة الإسلامية أن تنزل بالمتألِّهين والمتكبرين، من عليائهم وجبروتهم، وتحجزهم عن التطاول على الآخرين، وأن ترتفع بالدهماء والمستضعفين عن مناخ الذل والصغار الذي فرض عليهم، وتطلقهم فوق صعيد الحرية والكرامة، وتعيد إلى كيانهم مشاعر العزّ والإباء، وبذلك يلتقي هؤلاء وأولئك عند حدود عادلة متساوية لا تدع لهذا الجانب أو ذاك فرصة لاستغلال أو وسيلة لاستعباد.

ووقائع التاريخ ونماذج الحياة الإسلامية التي قامت على هذه الأرض خير

دليل على هذه الحقيقة البدهية الواضحة.

فمن هنا كانت حاجة الإنسانية كلها إلى أن تدين لبارئها عز وجل، بالاعتقاد الجازم بوجوده ووحدانيته، وأن تدين له بالعبودية المطلقة، في كل الشؤون وأطوار الحياة.

أي أن الله عز وجل ليس هو المحتاج إلى شيء من هذه الدينونة له، أو التمسّك بأمره، ولكن سعادتنا الدنيوية ـ فضلاً عن الأخروية ـ هي التي تحوجنا وتضطرنا إلى هذه الدينونة وهذه العبودية. وصدق الله رب العالمين إذ يقول:

● ﴿وما خلقت الجن والإنس إلاَّ ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ الذاريات: /٥٦ ـ ٥٨.

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

المبحث الثالث

مضمون العقيدة والإيمان

العقيدة والإيمان[1] الصحيح هي أهم ما يطلب من الإنسان، لأن العمل إنما يتبع الاعتقاد، وعلى قدر ما تصح عقيدة المسلم وتقوى، تستقيم أعماله وتزكـو أخلاقه.

مفهوم الإيمان والعقيدة:

الإيمان في اللغة: معناه التَّصديق، قال ابن منظور في لسان العرب:

واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم، أن الإيمان معناه التصديق، كما في قوله تعالى:

● ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ يوسف: /١٧. ما أنت بمؤمن: ما أنت بمصدِّق.

---

(١) تطلق كلمة العقيدة على التصديق الناشىء عن إدراك (شعوري ـ أو لا شعوري)، يلزم صاحبه على الإذعان لقضية ما، إذعاناً يبنى على قناعة في الفكر (يتناغم ـ وينسجم) مع اطمئنان النفس لهذه القضية ولهذه الحقيقة. وللعقيدة أثر بارز في حياة الكائن البشري، وفي تكوين شخصيته لأنها تدفع ذلك الكائن البشري إلى أنواع من السلوك بقوة وعزم وتصميم، نظراً لسلطان العقيدة على الفكر والإرادة. وبالإضافة إلى هذه الخصائص، فإن العقيدة الواحدة في الأمة، تمثل دوراً كبيراً في تأكيد وحدتها، لأن الأفراد الذين يؤمنون بعقيدة واحدة، يحسُّون بنوع من الترابـط والتقـارب في أفكارهم وتصوُّراتهم، وهذا التقارب يجذب أفراد المجتمع بعضهم إلى بعض (ويؤلف بين قلوبهم) ليتكوَّن منهم مجتمع قوي متماسك، ينطلق من منطلقات واحدة، ويهدف لأهداف واحدة.
ينظر كتاب ـ عالمية الإسلام ـ للمؤلف ـ ص ٩٤ وما بعدها.

والإيمان في اصطلاح الشرع: التصديق بما جاء به الرسول الكريم محمد ﷺ، مما علم من الدين بالضرورة، أو ما أشبهها من الأدلة اليقينيَّة.

وقد فسر النبي عليه الصلاة والسلام الإيمان، في الحديث الطويل، الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما سأله جبريل عليه السلام، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال:

● «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرُّه». أخرجه الإمام مسلم.

وقد ذكر القرآن الكريم، كما بيّنت السنة النبوية المطهرة، معاني الإيمان العلمية والعملية والأخلاقية.

والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله... هو العقيدة الراسخة التي تملأ جوانح النفس، وتغمر حنايا القلب، ويتبعها آثارها من العمل الصالح، وفعل الخير، والمحبة، والإخلاص لله في الأعمال والأحوال، وهذا الإيمان العميق واليقين الصادق هو الذي زكّى نفوس المؤمنين، من الصحابة والتابعين، وطهَّر قلوبهم من الحقد والحسد، والكبر والعجب، ومن الفتن والمكر، والجور والظلم، وهو الذي أعلى هممهم وقوّى عزائمهم، فطلبوا معالي الأمور، ووطنوا نفوسهم على قيادة الأمم وتحرير الشعوب من رقّ الأوهام والخرافات، وكما قال تعالى:

● ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون﴾ الحجرات: /١٥.

ومفهوم الإيمان والعقيدة ينتظم ستّة أمور:

أولاً: المعرفة بالله، والمعرفة بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، والمعرفة بدلائل وجوده، ومظاهر عظمته في الكون والطبيعة.

ثانياً: المعرفة بعالم ما وراء الطبيعة، أو العالم غير المنظور، وما فيه من قوى الخير التي تتمثّل في الملائكة، وقوى الشرّ التي تتمثّل في إبليس وجنوده من

الشياطين، والمعرفة بما في ذلك العالم من جنّ وأرواح.

ثالثاً: المعرفة بكتب الله التي أنزلها لتحديد معالم الحق والباطل والخير والشر والحلال والحرام والحسن والقبيح.

رابعاً: المعرفة بأنبياء الله ورسله الذين اختارهم ليكونوا أعلام الهدى، وقادة الخلق إلى الحق.

خامساً: المعرفة باليوم الآخر وما فيه من بعث وجزاء وثواب وعقاب، وجنة ونار.

سادساً: المعرفة بالقضاء والقدر (المخطط العام الذي يسير عليه نظام الكون في الخلق والتدبير).

وهذا المفهوم للإيمان، هو العقيدة التي أنزل الله بها كتبه، وأرسل بها رسله، وجعلها وصية في الأوّلين والآخرين، فهي عقيدة واحدة لا تتبدّل بتبدّل الزمان والمكان، ولا تتغير بتغير الأفراد والأقوام، قال الله تعالى:

● ﴿ شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً، والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى، أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه... ﴾ الشورى: /١٣.

● ﴿ ولقد وصّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإيّاكم، أن اتقوا الله... ﴾ النساء: /١٣١.

● ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلّه إلا أنا فاعبدون ﴾ الأنبياء: /٢٥.

﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك، لئن أشركت ليحبطنّ عملك، ولتكونّن من الخاسرين. بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ الزّمر: /٦٥ ـ ٦٦.

وما شرعه الله لنا من الدين ووصانا به ـ كما وصّى رسله السابقين ـ هو أصول العقائد والإيمان، لا فروع الدين، ولا شرائعه العملية، فإن لكل أمة من

التشريعات العملية ما يتناسب مع ظروفها، وأحوالها، ومستواها الفكري والروحي، كما في قوله تعالى:

● ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً. . . ﴾ المائدة: /٤٨.

وإنما جعل الله هذه العقيدة (عقيدة التوحيد، وما يتبعها من إيمان بالملائكة والكتب والرسل. . .)، عامّة للبشر، وخالدة على الدهر، لما لها من الأثر البيّن، والنفع الظاهر في حياة الأفراد والجماعات.

فالمعرفة بالله ـ من شأنها أن تفجّر المشاعر النبيلة، وتوقظ حواس الخير، وتربّي ملكة المراقبة لله، والشعور بالمسؤولية بين يدي جلاله سبحانه، وتبعث على طلب معالي الأمور وأشرافها وتنأى بالمرء عن محقّرات الأعمال وسفسافها.

والمعرفة بالملائكة ـ تدعو إلى التشبّه بهم (في كمال طاعتهم لله)، كما تدعو إلى اليقظة والوعي المتكامل، فلا يصدر من الإنسان إلا ما هو حسن، ولا يتصرف إلا لغاية كريمة وإخلاص لله.

● ﴿ وإن عليكم لحافظين. كراماً كاتبين. يعلمون ما تفعلون ﴾ الانفطار: /١٠ ـ ١٢.

والمعرفة بالكتب الإلٓهية ـ إنما هي عرفان بالمنهج الرشيد الذي رسمه الله للإنسان، كي يصل بالسير على مقتضاه إلى كماله المادي والأدبي.

والمعرفة بالرسل ـ إنما يقصد بها ترسّم خطاهم، والتخلّق بأخلاقهم، والتأسّي بهم، باعتبار أنهم يمثّلون القيم الصالحة، والحياة النظيفة التي أرادها الله للناس.

والمعرفة باليوم الآخر ـ يوم الحساب والجزاء، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوء، هذه المعرفة (إذا امتزجت بشعور الإنسان ـ بأفكاره وعواطفه)، كانت له الباعث الأقوى على فعل الخير وترك الشرّ (إيماناً بعدالة الله سبحانه) في مكافأة المحسن أو مؤاخذة المسيء.

والمعرفة بالقدر ـ بالنظام العام الإلٓهي في الخلق والتدبير، تزوّد المرء

بقوى وطاقات، تتحدّى الصعاب، وتتخطّى الأزمات، وتصغر دونها الأحداث الجسام، إيماناً بأن الحياة إنما يحكمها (بدقة) تدبير الله (العادل ـ الرحيم)، هذا الإيمان يدعّم الثقة بالنفس، ويجعلها على مستوى الصبر والصمود، في مواجهة الأحداث، إيماناً (بعلم الله الكامل الشامل ـ في نظامه العام)، علماً ترافقه الرحمة والحكمة والعدالة الإلّهية... (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً...).

إيماناً يؤدّي ـ في نهاية المطاف ـ إلى الفلاح والظفر بتوفيق الله وكرامته (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) وهكذا يبدو بجلاء أن العقيدة (إنما هي الوعي العلمي والتربوي للحياة الكريمة)، إنما يقصد بها تزكية النفوس، وتهذيب السلوك، وتوجيه القوى الواعية للإنسان نحو المثل الأعلى، فضلاً عن أنها حقائق ثابتة، وهي تعدّ من أعلى المعارف الإنسانية، إن لم تكن أعلاها على الإطلاق.

وغرس العقيدة، وتربية الإيمان (فكراً، وعاطفة، وسلوكاً)، هو أمثل طريقة لإيجاد عناصر صالحة، تستطيع أن تقوم بدورها كاملاً في الحياة، وتسهم بنصيب كبير بتزويدها بما هو أنفع وأرشد، إذ أن هذا النوع من التربية، يضفي على الحياة ثوب الجمال والكمال، ويظلّلها بظلال الأمن والمحبة والسلام[1].

---

(١) إن سلوك الأنبياء الأطهار والمؤمنين الأبرار، هو الذي يرينا جمال العقيدة والإيمان في مجال التطبيق ويصوّر لنا هذا المعنى بوضوح خطاب سيدنا إبراهيم عليه السلام لقومه في الآيات الكريمة:

● ﴿ الذي خلقني فهو يهدين. وهو الذي يطعمني ويسقين.. وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ الشعراء: /٧٧ ـ ٨٠.

فسيدنا إبراهيم عليه السلام (وهو في مقام الإيمان الكامل)، يعترف بعبوديته لله (الخالق الهادي) ويصف لنا أدبه الرفيع، وتواضعه بين يدي الله سبحانه. فإذا أكل وشرب، فإنما يأكل على مائدة الله سبحانه وتعالى، وإذا مرض لم يقل (إذا أمرضني) بل قال (وإذا مرضت)، فقد نسب خطيئة المرض إلى نفسه، وهذا هو تواضع المؤمن بين يدي الله، وأدبه مع عدالة الله سبحانه وتعالى.

أجل ـ هذه هي الحقيقة ـ فإن الإنسان ـ في معرض التوجيه الإلّهي وفي نظام الله العام للخلق والتدبير؛ لا يقع في الخطيئة (ما لم يغفل عن وصية الله ـ عن طاعته وذكره وشكر نعمته). =

ومتى سادت المحبة (الموصولة بحب الله ورسوله ـ وحب المثل العليا)، ارتفعت الخصومة، وانقطع النزاع، وحلّ الوفاق محل الشقاق، وتقارب الناس وتآلفوا، وسعى الفرد لخير الجماعة، وحرصت الجماعة على إصلاح الفرد وإسعاده (بحسن تربيته ـ وتوجيهه نحو الكمال)، ومن ثمّ تظهر الحكمة واضحة من جعل الإيمان الحق عاماً خالداً، وفي أن تدبير الله سبحانه لم يخل جيلاً من الأجيال ولا أمة من الأمم من رسول يدعو إلى هذا الإيمان، وتربية هذه العقيدة.

وكثيراً ما كانت تأتي هذه الدعوة بعد فساد الضمير الإنساني (باتباع الأهواء المضلّلة)، وبعد أن تتحطّم كل القيم والمثل العليا، ويظهر أن الإنسان أشد ما يكون حاجة إلى معونة إلّهية تعيده إلى فطرته السليمة، (ووعيه الوجداني ـ والإنساني)، ليصلح لعمارة الأرض، وليقوى على حمل أمانة الحياة.

= أما الشفاء والصحة فهو العودة إلى الأصل (بالتوبة)، فقد طلب ذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام من الله مستعيناً بالله (إياك نعبد ـ وإياك نستعين) (وإذا مرضت فهو يشفين) طلب الشفاء والصحة من رحمة الله وفضله.

هذه هي العقيدة الصافية والإيمان الحق، تجلّت معانيها وجمالها في سلوك سيدنا إبراهيم في مجال التطبيق، وبالله التوفيق.

إنه يأكل ويشرب على مائدة الله (بحسب مشاعره الإيمانية)، ليعلّمنا كيف نذكر الله عند طعامنا وشرابنا. إنه ينسب المرض إلى نفسه، أدباً وتواضعاً مع جلال الله ليعلمنا ويؤدّبنا على هذه المعاني السامية، التي تغذّي فينا عقيدة التوحيد لنكون على مستوى صفائها وأصالتها، ولنحسن العودة إلى الأصل، إلى التوبة الصادقة وإخلاص العبودية لله سبحانه وتعالى.

وإرساءً لهذه المعاني في تنمية العقيدة والإيمان خاطبنا الله بقوله في الآية الكريمة:

● ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن، واتبع ملّة إبراهيم حنيفاً، واتّخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ النساء: /١٢٤.

اللهم حقّقنا بحقائق التوحيد والإيمان، وأدّبنا بآداب الأنبياء والمرسلين. اللهم اجمع قلوبنا على محبتك، وألهمنا دوام ذكرك وشكرك وحسن عبادتك وخُذ بأيدينا إلى كمال طاعتك واتباع رضوانك، يا أرحم الراحمين ـ آمين.

المبحث الرابع

علم العقيدة الإسلامية

بعد أن استعرضنا العقيدة والإيمان (استعراضاً وصفيّاً موجزاً)، في نطاق الأهداف العلمية والتربوية يطيب لنا أن نستهلّ شرح هذه المعاني بشيء من التفصيل في بداية البحث الموضوعي لـ: علم العقيدة الإسلامية.

لقد أشرنا في (عرضنا الوصفي الموجز) الآنف الذكر إلى أن مفهوم العقيدة والإيمان ينتظم ستة أمور ولنبدأ بشرح الأمر الأول:

● المعرفة بالله، والمعرفة بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، والمعرفة بدلائل وجوده، ومظاهر عظمته في الكون والطبيعة:

يذكر علماء العقيدة الإسلامية أن لله عزّ وجلّ أكثر من (عشرين صفة) يقتصرون على أهمها:

● (الوجود)، الوحدانية، القدم، البقاء، قيامه تعالى بنفسه، المخالفة للحوادث، العلم، الإرادة، القدرة، السمع، البصر، الكلام، الحياة.

وكونه سبحانه: حيّاً، عليماً، مريداً، قادراً، سميعاً، بصيراً، متكلماً ويطلقون على الصفات (السبع الأخيرة ـ الصفات المعنوية)، بينما يطلقون على كل صفة قائمة بذاته تستلزم له حكماً معيناً، كالقدرة ـ تستلزم حكماً معيناً ـ كونه سبحانه وتعالى قادراً، فأطلقوا على هذه الصفات (صفات المعاني) وهي سبع: الحياة، القدرة، الإرادة، العلم، السمع، البصر، الكلام.

ثم أشاروا إلى (الصفات الخمس) وهي ما كان مدلولها سلب صفة، لا تليق به سبحانه وتعالى وهي: الوحدانية، القدم، البقاء، المخالفة للحوادث، قيامه تعالى بنفسه، ودعوها بـ (الصفات السلبية). ونحن فيما يلي نتحدث عن صفات الله على وفق هذا التقسيم:

أولاً: الصفة النفسية[1] - (الوجود):

تبارك الذي نصب في الأكوان الأدلة على وجوده، فما يغفل عنها إلا مستكبر عنيد، وخلق في الإنسان العقل كي يحاكم ويتفكر، فيهتدي بالآثار إلى المؤثر، وبالأسباب إلى المسبّب، وبالصنعة إلى الصانع، وقد دلت الآثار على ثبوت الأسماء، والأسماء أرشدت إلى وجود الصفات، والصفات أفصحت عن ثبوت الذات (إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه).

ولما كان الإسلام هو الطريق الذي ارتضاه الله تبارك وتعالى للعالمين، وكان السلوك ثمرة العقيدة، كان الإيمان بوجود الله عزّ وجلّ أساس مسائل العقيدة كلها، ومنه تتفرع بقية الأمور الاعتقادية، التي يجب إنهاض العقل للتأمل بها ثم الإيمان بها.

إن ما تراه من حقائق الكون كلها إنما هو فيض عن حقيقة واحدة كبرى، ألا وهي ذات الله عزّ وجلّ.

ولما للإيمان بوجود الله من الأهمية، عني العلماء بإقامة الأدلة المتنوعة، والبراهين القاطعة على ذلك، ونحن فيما يلي نذكر بعض هذه الأدلة:

الله في نظر القرآن الكريم:

إذا كان القرآن قد وجّه أنظارنا إلى ما حولنا من عوالم حسيّة مشاهدة ليدفعنا إلى التفكير فيها، والتأمّل في عظمتها، فإنه يثير أمامنا تساؤلات هامة عن مصدر هذه العوالم وموجدها وخالقها، وكأننا نلاحظ أن الغاية من ذكر تلك

---

(١) المراد بالصفة النفسية، الصفة الثبوتية التي يدل الوصف بها على الذات المقدسة دون معنى زائد عليها.

العوالم، إنما هو الوصول إلى التساؤل الهام الذي يطرح نفسه في مثل هذه الحالة وهو (الخالق ـ واهب الحياة). قال تعالى:

● ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون... ﴾ الطور: /٣٥.

وهنا نشعر أن القرآن يطرح أمامنا فكرة (الخالق)، فمن الذي خلق هذا الكون الواسع، ومن الذي نظّم سيره وعمله بشكل دقيق، أيمكن للعقل البشري أن يتغاضى عن فكرة الخالق التي تفرض نفسها علينا، من خلال المخلوقات التي نحسّها، ونراها ونشاهدها، وكأن القرآن يقودنا من خلال مشاهداتنا التي نراها بحواسنا إلى فكرة الموجد الأول، وهو الخالق سبحانه، وإذا لم نؤمن بفكرة الخالق، فهل من المعقول أن تكون هذه المشاهدات الحسية مخلوقة من غير شيء؟... وإذا كان مثل هذا الاحتمال مستحيلًا، فيتعين علينا أن نؤمن بالخالق ليكون تفسيرنا لفكرة المخلوقات صحيحاً ومنطقيّاً.

براهين وجود الله:

عرض القرآن لوجود الله، وناقشت آياته بطريقة منطقية تحليلية فكرة الخلق والخالق، كما قال تعالى..

● ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ﴾ الطور: /٣٥ ـ ٣٦.

ويلاحظ هنا أن القرآن يعرض الاحتمالات الممكنة عقلاً:

ـ هل يمكن أن تخلق الأشياء من غير علة؟
ـ هل يمكن أن تكون المخلوقات هي الخالقة؟

هذان الاحتمالان مرفوضان عقلًا، لأن الأشياء لا تخلق من غير علّة (سبب)، كما لا يمكن أن تُخْلق لنفسها.

وانطلاقاً من منهج القرآن في عرض أدلة وجود الله، نكتفي بذكر بعضها:

١ ـ **برهان الخلق أو السببيّة**: ويعتمد هذا البرهان أن الموجودات لا بدّ لها من موجد في الحياة يتوقف على غيره، ولا بدّ في النهاية من سبب يوجد

هذه الموجودات، ولا يتوقف وجوده على وجود سواه، لأنه قائم بغير حدود في المكان والزمان وهو الله سبحانه وتعالى؛ كما في قوله:

● ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم ﴾ الحديد: /٣.

٢ - **برهان الغاية**: ويقوم هذا البرهان على أساس أن المخلوقات تدل على وجود الله، لأن هذه المخلوقات تدل على قصد (غاية) في تكوينها، وحكمة في تسييرها، فالكواكب في السماء تجري وفق نظام محكم (تتحرك وتدور بدقة متناهية)، وأعضاء الجسم تقوم بوظائفها المعقدة بشكل محكم ودقيق.

البرهان الأول (والأخير) ـ دليل الفطرة والبداهة:

الإيمان بالله (فطرة): الإيمان بوجود الله، والاعتقاد به ربّاً خالقاً لهذا الكون، ومدبّراً له ومتصرفاً فيه، هو فطرة عند معظم الناس، لا يحتاج إلى إقامة برهان عليه، كما لا يحتاج إلى برهان على وجود الغرائز الإنسانية. بل هو شعور في أعماق الإنسان إذا تأمل في نفسه، وفي الكون حوله، إنه ليشعر شعوراً أكيداً، بوجود سلطة كبرى تهيمن على هذا الكون، تمنحه التنظيم، وتتصرّف فيه بالحياة والموت، والبناء والفناء، والتغيير والتطوير، والحركة والسكون وجميع أنواع التغييرات الحكيمة فيه.

والشعور الفطري في الإنسان بوجود هذه السلطة الكبرى، هو من أقوى الأدلة الصادقة على وجود الخالق سبحانه.

من حرّك القلوب بنبضات الحياة؟ من أبدع الحنان في قلوب الأمهات، من أجرى الأنهار وأنبت الثمار، من وهب الحياة ـ وما تزدهر به الحياة؟...

إن الأم لتشعر بعاطفة الأمومة، دون أن تتطلب البرهان على وجودها، وسواء أعلمت أن السرّ في ذلك حفظ الطفل بالرعاية والتربية (حتى يصبح قادراً على الاستقلال بنفسه) أم لم تعلم.

وإننا لنشعر بوجود روح فينا، فندافع عنها، ونحرص على بقائها، دون أن نحسّ بها بإحدى حواسّنا الظاهرة.

ثم ألسنا نشعر في قرارة نفوسنا بالعواطف والوجدانيات، كالحب والبغض والرغبة والكراهية؟ فما الدليل على وجودها فينا، وهي متغلغلة في داخلنا، هل نستطيع أن نقيم عليها دليلاً أكثر من أننا نشعر بها، وهي حق لا شك فيه؟.

إن إحساس الإنسان وشعوره بوجود الخالق، وتلهّفه دائماً لمعونته وإمداده، وشعوره بحاجة هذا الكون الكبير إلى قدرته وعلمه وحكمته، هو إحساس فطري صادق، وهو من أكبر الأدلة على وجود الله سبحانه[1]. وقد أشار القرآن إلى هذا الدليل ـ دليل الفطرة ـ بقوله سبحانه:

● ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيّم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ الروم: /٣٠.

وفي نهاية المطاف ـ إن مسألة وجود الله سبحانه، لا يمكن أن تدرك بالعقل المجرد، ولا بالدليل المنطقي فحسب، لأن العقل المجرد يبقى في جميع الظروف محاطاً بحدود طاقاته على الإدراك، وتبقى هذه المسألة، (بحقيقتها الموضوعية)، أكبر من طاقة العقل والاستدلال المنطقي، لأنها ترتبط بالوجود كله، والعقل لا يستطيع أن يدرك ذاته ـ على الحقيقة ـ ولا أن يدرك

(١) وجعل الله تبارك وتعالى معرفة البشر له أمراً مغروساً في فطرهم، وقد أشهدهم على أنفسهم أنه ربُّهم فشهدوا بذلك، كما في الآية الكريمة:
● ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا: بلى شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين.. ﴾ الأعراف: /١٧٢.
والإنسان لا يذكر هذا الميثاق وإن تفكر وجهد في ذلك، فالجواب أن الله تعالى أنسانا ذلك ابتلاء، لأن الدنيا دار ابتلاء، وعلينا الإيمان بالغيب ابتداء، ولو تذكرنا ذلك الابتلاء لما احتجنا إلى تذكير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.
وذهب فريق من العلماء ـ إلى أن معنى (الإشهاد) بما ركّب في الإنسان من دلائل الوحدانية، فبالإشهاد بالدلالة صاروا كأنهم قالوا: بلى... وقال آخرون: هذا القول لا ينافي القول الأول، إذ الجمع بينهما ممكن، على أن الله تعالى قد جدّد هذا العهد، وذكّرنا هذا المنسي بإرسال الرسل وإنزال الكتب.
ينظر شرح الفقه الأكبر للإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان للأستاذ عبد الكريم تتان ـ ص ٢٧.

الوجود كله، إدراكاً منطقيّاً، وإنما يحسّ بذلك الوعي الوجداني (المنبثق عن العقل)، والذي يحسّه الإنسان في داخله (في قلبه وروحه)[1] يدعوه إلى الإيمان (الفطري)، الذي يمتد إلى أعماق النفس البشرية.

---

(١) يقدم لنا حجة الإسلام أبو حامد الغزالي صورة طريفة تشير إلى وعي الإنسان الوجداني، وبعبارة أوضح إلى العلاقة بين الوحي والعقل (وأن العقل قبس من نور الله ـ ميزان الله في أرضه) وذلك في كتابه (معارج القدس في مدارج معرفة النفس):

إن الوحي وإن كان تعليماً من الله سبحانه، فهو إنما يأتي للبشر بلغاتهم، وبحسب مفهومات عقولهم لما في عالمهم ولما في أنفسهم: ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾، غير أن حقائق الوحي ومقاصده، تحتاج في كثير من الأحيان ـ وفي أمور معينة ـ إلى فهم يتجاوز ظواهر الألفاظ، ويعلو على ظاهر الأشياء، ويحتاج إلى تأويل (تفسير)، يرفع الفكر إلى فهم الحقائق التي يشتمل عليها التعليم الإلّهي، وهكذا تظهر (مشكلة فهم الوحي) على الحقيقة، ودراسة العلاقة بين ما جاء فيه، وبين ما يعرفه الإنسان ويتصوره بما لديه من وسائل المعرفة.

ويضرب الإمام الغزالي لنا أمثالاً للعلاقة بين الوحي والعقل، بعد أن يقدم لذلك التقديم المنطقي المطلوب كما يلي:

العقل لن يهتدي إلى كماله المنشود إلا بالشرع (الوحي)، لأن العقول متعددة بلا حدود، والأمزجة مختلفة كذلك والعقل متدرّج في مقاييس الذكاء، فعلى أي عقل نعتمد؟. . . وهل عصم أي عقل من نوازع الأهواء؟.

فالشرع (الوحي) رائد العقل (المتجرّد عن الهوى) إلى كماله المنشود، والعقل (ميزان الله في أرضه) كالأس، والوحي كالبناء، ولن يغني أسّ ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أسّ.

وأيضاً ـ فالعقل كالبصر، والوحي كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني شعاع ما لم يكن البصر.

وأيضاً ـ العقل كالسراج، والوحي كالزيت الذي يمدّه، فما لم يكن زيت لم يحصل السراج، وما لم يكن سراج لم يضيء الزيت.

فالوحي (تدبير إلّهي ـ عقل من خارج)، والعقل الإنساني (ميزان الله في أرضه ـ شرع من داخل) وهما متعاضدان في الغاية والهدف في الوصول إلى حقائق الأمور. ولكون (الوحي) عقلاً من خارج، سلب الله اسم العقل من الكافر، في غير موضع من القرآن، نحو قوله تعالى:

● ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، صم بكم عمي فهم لا يعقلون ﴾ البقرة: /١٧١.

ولكون العقل شرعاً من داخل، قال الله تعالى في صفة العقل: =

وقد حرص الإسلام على أن يخاطب الناس بحسب طبائعهم الفطرية، وميولهم واستعداداتهم، ولهذا يبقى منهج القرآن (في إيضاح العقيدة والإيمان)، وتكوين القناعة بها، أقوى أثراً من أي منهج بشري، لأنه يخاطب الناس كافة على اختلاف طبائعهم وميولهم، مهما تباعدت نزعاتهم أو تفاوتت مشاربهم، والقرآن حين يخاطب الفطرة، فإنما يخاطب العقل والوجدان معاً، في كيان الإنسان.

العلم يدعو إلى الإيمان: يقول الدكتور (بول كلارنس إيرسولد) مدير قسم النظائر والطاقة الذرية بمعامل (أوك ريدج) وعضو الجمعية الطبيعية النووية بالولايات المتحدة الأمريكية:

«لا شك أن اتجاه الإنسان وتطلعه إلى البحث عن عقل أكبر من عقله (غريزة المثل الأعلى لدى الإنسان) وتدبير أحكم من تدبيره وأوسع، لكي يستعين به على تفسير هذا الكون، يعد في ذاته دليلاً على وجود قوة أكبر وتدبير أعظم (هي قوة الله وتدبيره)».

وقد لا يستطيع الإنسان أن يسلّم بوجود الخالق (تسليماً تاماً)، على أساس الأدلة العلمية وحدها، ولكنّا نصل إلى الإيمان الكامل بالله، عندما نمزج بين الأدلة العلمية والأدلة الروحية، أي عندما ندمج معلوماتنا عن هذا الكون المتّسع إلى أقصى حدود الاتساع، مع إحساسنا الداخلي، والاستجابة إلى نداء العاطفة

= ● ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيّم.. ﴾ الروم: /٣٠.

والذين يعتمدون على سلطان العقل وحده في الوصول إلى عقيدة سليمة راسخة، وفكرة كلّية واضحة، تفسّر هذا الوجود وتحلّ ألغازه، قد جاوزوا بالعقل حدود اختصاصه، وأهملوا جانباً من الفطرة الإنسانية هو الشعور والوجدان، جانب القلب والروح، كما أغلقوا على أنفسهم باباً واسعاً، ما كان أحوجهم إليه، وما أضلّ سعيهم بغيره هو باب الوحي الإلٓهي.

إن العقل مهما أوتي من الذكاء، والقدرة على التجربة والقياس والاستنتاج، محدود بحدود الطاقة البشرية، مقيد بقيود الزمان والمكان والبيئة والوراثة، فلا غنى له أبداً عن سند ومعين، يسدّده إذا أخطأ، ويهديه إذا ضلّ، ويردّه إلى الصواب إن شرد، وهذا السند هو (الوحي الإلٓهي)، وهو أساس الدين، يصل بالعقل إلى كماله المنشود.

ينظر كتاب ـ الإيمان والحياة ـ للدكتور يوسف القرضاوي ـ ص ١٠٦.

والروح، الذي ينبعث من أعماق نفوسنا. ويستطرد بعد ذلك قائلاً:

إن العلم والعقل الإنساني وحدهما لن يستطيعا أن يفسرا لنا لماذا وجدت الذرات والنجوم والكواكب والحياة، والإنسان (بما أوتي من قدرة رائعة).

وبرغم أن العلوم تستطيع أن تقدم لنا نظريات قيمة، عن السّديم والذرات وغيرها من العوالم الأخرى، فإنها لا تستطيع أن تبين لنا مصدر المادة والطاقة التي استخدمت في بناء هذا الكون، أو لماذا اتخذ الكون صورته الحالية ونظامه الحالي؟.

والحق أن التفكير العلمي والاستدلال السليم يفرضان على عقولنا فكرة (وجود الله).

ونتابع ـ معاً ـ ما بدأنا به ـ كلمة الدكتور (بول كلارنس إيرسولد) عضو الجمعية الطبيعية النووية في الولايات المتحدة الأمريكية: حيث يقول في بحث له تحت عنوان (الأدلة الطبيعية على وجود الله) كما يلي:

«إن الأمر الذي نستطيع أن نثق به كل الثقة، هو أن الإنسان (وهذا الوجود من حوله)، لم ينشأا هكذا نشأة ذاتية من العدم المطلق، بل إن لهما بداية، ولا بد لكل بداية من مبدىء، كما أننا نعرف أن هذا النظام الرائع المعقّد الذي يسود الكون (من الذرّة ـ إلى المجرّة)، يخضع لقوانين لم يخلقها الإنسان، وأن معجزة الحياة في حدّ ذاتها لها بداية، كما أن وراءها توجيهاً وتدبيراً خارج دائرة الإنسان؛ إنها بداية مقدسة، وتوجيه مقدس، وتدبير إلّهي حكيم.

الدليل على حدوث الكون: إذا شاهدنا الصور المادية للكون، وجدناها تتغير من صورة إلى أخرى ومن شكل إلى آخر، فدلّ تغيّر الصور على أن الكون محصور في عدد من الصور المتغيرة، ولنأخذ مثلاً الصور المتغيرة للمادة المكونة (للماء).

فالماء الذي تجده في الإناء أمامك، قد نقل إلى الإناء (من البئر) أو النهر، أو العين، وإذا تابعنا (ببساطة) تسلسل وروده، لرأينا أنه جاء من ماء المطر، وقبل ذلك من السحب من بخار ماء البحار وتكونت البحار من غازي

الأوكسجين والأيدروجين، المنفصلين مع الأرض عند تكوينها، وانفصلت الأرض من الشمس، وجاءت الشمس من السّديم، والعلم المادي المحدود يقف بالبشر عند هذا الحدّ.

وأنت ترى أن لكل صورة من الصور السابقة نهاية، انتهت بها إلى صورة جديدة، وإذن كل صورة لا تثبت لا شك أنها متغيرة، ولكل صورة متغيرة (بداية ـ ونهاية).

وإذن فقد أخطأت مزاعم الماديين (وجانبوا الحقيقة والصواب)، بدعواهم أن السديم أزلي قديم، لا أول لبدايته...

وإذا شاهدنا تركيب هذا السديم، وجدناه يتكون من ذرات مادية[1]، وقد عرف العلماء أن هذه الذرات مركبة من عدة جسيمات (الكترونات، بروتونات، نيوترونات)... إلخ، ومن هذا التركيب تستنتج العقول أن هناك بداية لتكوين الذرة في الكون، وأن تكوين الذرة ليس أزلياً (أي ليس قبله شيء)، إنما الذرة مخلوق حادث، وعرفنا ذلك من اجتماع أشياء مختلفة متغايرة (الكترونات ـ ذات شحنة كهربائية سالبة) (بروتونات ـ ذات شحنة كهربائية موجبة) (نيوترونات ـ ذات شحنة كهربائية متعادلة).

وذلك كما تعرف أن القلم الذي بيدك حادث (ليس أزلياً) من ملاحظة تركيبه (سن معدنية ـ وجسم عاجي) فتجزم بأن هناك لحظة جمع فيها المعدن مع العاج، وإذن فليس هذا الكون أزلياً بلا بداية. هكذا تستنتج العقول السليمة، مما تشاهد من أحوال هذا الكون، إنما الأول الأزلي، هو الله خالق هذا الكون والمنظم لقوانينه.

---

(١) إن المادة بحقيقتها الموضوعية (كما تصورها النظرية الذرية ـ في مفهوم العلم الحديث): لا تعدو عن أن تكون حالة من حالات (الحركة ـ أو السرعة)، التي تحدثها الطاقة الذرية، عن طريق تحوّل العناصر إلى بعضها، فالمادة (بهذا المفهوم العلمي) ناشئة عن (حركة ـ وسرعة) الذرات النووية، (تركيباً ـ وتحليلاً)، حيث تتكون وتنحلّ (أي المادة) بفعل الطاقة إلى إشاع ذري، وهكذا تطالعنا النظرية الذرية، وتقيم لنا الدليل العلمي، على حدوث هذا الكون وانتفاء أزليته.

هذا ولا يمكننا أن نثبت وجود الله عن طريق الالتجاء إلى الطرق المادية وحدها، إذ لم يقل أحد بأن الله مادة حتى نستطيع أن نصل إلى معرفته بالطرق المادية، ولكننا نستطيع أن نتحقق من وجود الله باستخدام العقل، والاستنباط مما نتعلمه ونراه، فالمنطق الذي نستطيع أن نأخذ به، والذي لا يمكن أن يتطرق إليه الشك هو أنه (ليس هناك شيء مادي يستطيع أن يخلق نفسه).

وقال الفيلسوف الإفرنسي (ديكارت):

«أنا موجود... فمن أوجدني؟ ومن خلقني؟... إنني لم أخلق نفسي، فلا بد لي من خالق، وهذا الخالق لا بد أن يكون واجب الوجود، وغير مفتقر إلى من يوجده، أو يحفظ عليه وجوده ولا بد أن يكون متصفاً بكل صفات الكمال، وهذا الخالق هو الله بارىء كل شيء».

يقول البروفسور الدكتور «أندروكنواي إيفي» أستاذ الفيسيولوجيا بكلية الطب بجامعة شيكاغو: إن الاعتقاد بوجود الله هو الوسيلة الفكرية الكاملة التي تجعل لهذا الوجود معنى، وهذا الاعتقاد هو الذي يجعل لوجود الإنسان معنى، أكثر من أنه مجرد كتلة من المادة أو الطاقة. والاعتقاد بوجود الله هو المنبع لأسمى فكرة إنسانية حول المحبة، والقاعدة التي تقوم عليها الأخوّة بين البشر، بسبب اجتماعهم على محبة الله وطاعته، وهو مصدر إحساسنا بالحقوق والواجبات. والاعتقاد بوجود الله هو الحصن الذي يعصمنا من الشرور، وهو بعد ذلك الأساس المتين الذي يقوم عليه الإيمان الحق، وتدوم بسببه القيم الروحية التي يعتبر وجودها رهيناً بوجوده سبحانه وتعالى.

ارتباط السلوك بالعقيدة:

سلوك الإنسان وتصرفاته في الحياة مظهر من مظاهر عقيدته، فإذا صلحت العقيدة، صلح السلوك واستقام، وإذا فسدت فسد واعوجّ، ومن ثم كانت العقيدة والإيمان ضرورة لا يستغني عنها الإنسان ليستكمل شخصيته ويحقق إنسانيته.

ولقد كانت الدعوة إلى هذه العقيدة أول شيء قام به رسول الله ﷺ،

لتكون حجر الزاوية في بناء الأمة المسلمة. ذلك أن رسوخ العقيدة في النفس الإنسانية، يسمو بها عن الماديات الوضيعة، ويوجهها دائماً وجهة الخير والنبل والنزاهة والشرف، وإذا سيطرت هذه العقيدة أثمرت الفضائل الإنسانية العليا، من الشجاعة والكرم والصبر والسماحة والإيثار والتضحية، يقول الله تبارك وتعالى:

● ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء. تؤتي أكلها كل حين بإذن ربّها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾ إبراهيم: /٢٤ ـ ٢٥.

فالإيمان مثل الشجرة المثمرة التي لا ينقطع ثمرها، فهي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، والمؤمن كذلك لا يزال الله يرفع له العمل الصالح في كل وقت وحين. يقول الفيلسوف ابن سينا:

● العارف بالله شجاع، وكيف لا؟ وهو بمعزل عن تقية الموت. وهو جواد، وكيف لا؟ وهو بمعزل عن محبة الباطل، وهو صفّاح، وكيف لا؟ ونفسه أكبر من أن تجرحها زلّة البشر، ونسّاء للأحقاد، وكيف لا؟ وفكره مشغول بالحق. (بذكر الله تعالى).

وبعد أن استعرضنا (براهين وجود الله)[1] بشيء من التفصيل، نأتي على ذكر الصفات السلبية) الوحدانية، القدم، البقاء، المخالفة للحوادث، قيامه تعالى بنفسه.

ثانياً: الصفات السلبية:

وقد قدمنا أن الصفات السلبية، سميت كذلك، لأن مدلولها نفي

---

(١) هذا ولا بد من بيان أن الوجود ينقسم إلى قسمين: وجود ذاتي، ووجود تبعي.
فالوجود الذاتي: ما كان المتصف به (غير مفتقر) في الاتصاف به إلى علة تؤثر فيه الوجود.
والوجود التبعي: ما كان المتصف به (مفتقراً) في الاتصاف إلى علة تؤثر فيه الوجود.
ووجود الله تعالى من القسم الذاتي، أي أنه سبحانه لا يفتقر إلى علة تؤثر فيه الوجود، وهذا الوجود هو الوجود الكامل، وهو لا يكون إلا لله وحده سبحانه، وأما ما عداه فوجوده من القسم التبعي، فما من موجود غير الله تعالى إلا وهناك علة لوجوده ويفتقر في وجوده إلى شيء آخر.

(سلب) صفة لا تليق بجلاله سبحانه، وإليك بيان هذه الصفات:

الصفة الأولى (الوحدانية):

أدلة الوحدانية (القرآنية): الآيات القرآنية التي تدعو إلى الإيمان بإلّه واحد، هي أكثر من أن يضمها هذا الكتاب، وحسبك أن تعلم، أنه قلما أن تجد سورة من سور القرآن إلا وفيها دعوة صريحة أو ضمنية إلى الإيمان بالإلّه الواحد جلّ وعلا.

ومبحث الوحدانية أشرف مباحث هذا العلم (علم العقيدة الإسلامية)، ولعظم العناية به كثر التنبيه عليه، كما في الآيات الآتية، فقد قال سبحانه وتعالى:

- ﴿ وإلّهكم إلّه واحد، لا إلّه إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ البقرة: /١٦٣.
- ﴿ الله لا إلّه إلا هو الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ البقرة: /٢٥٥.
- ﴿ قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد. ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ الإخلاص.
- ﴿ ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إلّه، إذاً لذهب كل إلّه بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض، سبحان الله عما يصفون ﴾ المؤمنون: /٩١.
- ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون. لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ الأنبياء: /٢١ ـ ٢٢.
- ﴿ إنما إلّهكم الله الذي لا إلّه إلا هو، وسع كل شيء علماً ﴾ طه: /٩٨.
- ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلّهنا وإلّهكم واحد، ونحن له مسلمون ﴾ العنكبوت: /٤٦.
- ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق،

إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسله، ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيراً لكم، إنما الله إلّه واحد، سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾ النساء: /١٧١.

● ﴿ قل إنما يوحىٰ إليّ، أنما إلّهكم إلّه واحد، فهل أنتم مسلمون ﴾ الأنبياء: /١٠٨.

● ﴿ فإلّهكم إلّه واحد، فله أسلموا وبشّر المخبتين ﴾ الحج: /٣٤.

● ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنّما إلّهكم إلّه واحد، فاستقيموا إليه واستغفروه، وويل للمشركين ﴾ فصلت: /٦.

● ﴿ هو الحي لا إلّه إلا هو، فادعوه مخلصين له الدين، الحمد لله رب العالمين ﴾ غافر: /٦٥.

● ﴿ فاعلم أنه لا إلّه إلا الله، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات، والله يعلم متقلّبكم ومثواكم ﴾ محمد: /١٩.

ومعنى (الوحدانية): سلب (تصور الكمية - في ذاته وصفاته سبحانه وتعالى)، والجزء يقابله (الكلّ) والجزئي يقابله (الكليّ). والمقصود بوحدانية الله، أن تعلم بأنه سبحانه وتعالى ليس كلاً مركباً من أجزاء ولا كليّاً مركباً من جزئيات، والدليل الجامع على ذلك قوله تعالى: ﴿ قل هو الله أحد ﴾، فقد نفت الآية الكريمة (بإسناد صفة الوحدانية إليه) كلاً من صفة (الكلّ) و (الكليّة) عنه سبحانه.

ويوضح الإمام الأعظم (أبي حنيفة النعمان) رحمه الله معنى التوحيد بقوله:

«والله تعالى واحد (أي في ذاته)، وقد يقال واحد، ويراد به نصف الاثنين (وهو ما يفتتح به العدد) وهذا معنى الواحد من طريق العدد (وقد نفاه الإمام عن الله تعالى)، لئلا يتوهم أن يكون بعده، أحد، ويقال (واحد - ويراد به، لا شريك له ولا نظير، ولا مثل، بحسب الذات والصفات، والأفعال)، لا شريك له في

نعته السرمدي (الأزلي ـ الأبدي)، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله».

وكأنه استفاد هذا المعنى من سورة (الإخلاص):

فهو سبحانه (أحد)، أي متوحّد في ذاته، فليست ذاته مركّبة، ولا توجد ذات مشابهة لها، ومتفرّد بصفاته، فلا توجد صفات تشابه صفاته.

وهو سبحانه (الصمد)، المستغني عن كل أحد، والمحتاج إليه كل شيء سواه.

وهو سبحانه ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾، أي ليس بمحل للحوادث، ولا هو بحادث، وفيه ردّ على النصارى واليهود في (ولديّة ـ المسيح والعزير)، وردّ على كفار مكة حيث قالوا: الملائكة بنات الله.

والله سبحانه ﴿ لم يكن له كفواً أحـد ﴾[1]، أي لم يكن شيء في الموجودات يماثله، وهو ليس بجسم فيقدّر ويتصّور، وينقسم، ولا هو بجوهر

---

(١) توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية:

يقسم علمـاء العقيدة الإسلامية (التوحيد ـ في الاعتبار) إلى قسمين: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهيّة ولا يكون الإنسان مؤمناً حقّاً إلا إذا أقرّ بهما جميعاً وعمل بمقتضاهما.

أما توحيد الربوبية ـ فهو الاعتقاد بأن الله وحده، هو الخالق للعالم، وهو وحده، المتصرّف فيه بالرزق، والإحياء، والإماتة، والشفاء والمرض، وغير ذلك، فليس لغير الله خلق، في أي شيء من الأشياء ﴿ الله خالق كل شيء، وهو الواحد القهّار ﴾.

وأما توحيد الألوهيّة ـ فهو إفراد الله تعالى وحده بالعبادة والتوجّه إليه بالدعاء.

والآيات التالية: تشير إلى توحيد الربوبية:

● الآية: ٣١/ من سورة هود ● الآية: ٥٠/ من سورة الأنعام ● الآية: ١٨٧ من سورة الأعراف

● الآية: ٤٩: / من سورة يونس، آية الكرسي: البقرة/ ٢٥٥.

ومضمون الآيات: أن الرسول ـ ليس عنده خزائن الله ـ فيقدر على النفع والرزق، وأنه لا يعلم الغيب، ولا يقول: إنه ملك يتصرّف بتدبير العالم، وإن الله هو الرازق المدبّر لهذا العالم.

ويؤكد هذا المعنى (من الآيات الكريمة) قول الله تعالى:

●﴿ قل من رب السموات والأرض، قل الله، قل أفاتخذتم من دونه أولياء، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً، قل هل يستوي الأعمى والبصير، أم هل تستوي الظلمات والنور، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم، قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴾ الرعد: /١٦.

والآيات التالية: تشير إلى توحيد الألوهية:

● الآيـة: ٥٢/ من سورة هود ● الآيـة: ٩٠ من سورة هود.

فتحلّه الأعراض، ولا بعرض فيحل بالجواهر[1].

وفي ختام (صفة الوحدانية) نأتي على ذكر الخطوط العريضة لعقيدة التوحيد على لسان حجة الإسلام الإمام الغزالي في كتاب «إحياء علوم الدين» كما يلي:

«الحمد لله المبدىء المعيد، الفعّال لما يريد، ذي العرش المجيد، والبطش الشديد، الهادي صفوة العبيد إلى المنهج الرشيد والمسلك السديد، المنعم عليهم (بعد شهادة التوحيد) بحراسة عقائدهم من ظلمات التشكيك والترديد، السالك بهم إلى اتباع رسوله المصطفى، واقتفاء آثار صحبه الأكرمين بالتأييد والتسديد، المعرف إياهم أنه في ذاته واحد لا شريك له، فرد لا مثيل له، صمد لا ضد له، منفرد لا ندّ له، وأنه واحد قديم لا أول له، أزليّ لا ابتداء له، مستمر الوجود لا آخر له، أبدي لا نهاية له، قيوم لا انقطاع له، دائم لا انصرام له، لم يزل ولا يزال موصوفاً بنعوت الجلال، لا يقضى عليه بالأنقضاء والانفصال بتصرّم الآباد وانقراض الآجال، (وهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم).

= فالله سبحانه، هو وحده، مصدر السعادة والخير، ومصدر الرزق والإنعام، ومصدر كل الأشياء إيجاداً، وخلقاً، وتقديراً وتدبيراً، وتشريعاً دينياً (مفهوم توحيد الربوبية).

والله سبحانه، هو وحده المستحق للعبادة، والإنابة، وإخلاص العبودية له، وهو وحده المستحق للتقديس، والتعظيم، والتوجّه والدعاء. (مفهوم توحيد الألوهية).

والخلاصة ـ أن الاعتقاد الصحيح في دين الله يتمثل بكلّ من الإقرار بتوحيد الألوهية (توحيد العبادة) وتوحيد الربوبية (الإيمان بوجود خالق العالم ومدبّر الكون)، فهما متلازمان تلازماً وثيقاً لا يقبل أحدهما الانفصال أو الانفكاك عن الآخر.

فالكون كله، أرضه وسماؤه، إنسانه وحيوانه، نباته وجماده.. مخلوق، والله سبحانه وتعالى هو الإله الحاكم القادر المهيمن، الخالق المدبّر المشرع، المتصف بكل صفات الكمال، المنزه عن صفات العيب والنقصان، لا يشاركه أحد في ملكه، وليس لأحد إرادة مع إرادته.

وهو سبحانه وحده المنفرد بالعبادة والتوجّه إليه بالدعاء، وكما قال سبحانه:

● ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله، فاعبده، وتوكل عليه، وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ هود: /١٢٣.

ينظر مقال الدكتور وهبة الزحيلي في مجلة (رسالة الجهاد ـ العدد ٢٨ ـ ص ٣٨) وما بعدها. (طرابلس ـ ليبيا).

(١) ينظر (شرح الفقه الأكبر للإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان) إعداد الأستاذ عبد الكريم تتان ص ٩.

التنزيه: وأنه ليس بجسم مصور، ولا جوهر محدود مقدر، وأنه لا يماثل الأجسام، لا في التقدير ولا في قبول الانقسام، وأنه ليس بجوهر، ولا تحلّه الجواهر، ولا بعرض ولا تحلّه الأعراض، بل لا يماثل موجود، ولا يماثله موجود ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾، ولا هو مثل شيء، وأنه لا يحدّه المقدار، ولا تحويه الأقطار، ولا تحيط به الجهات، ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات، وأنه مستو على العرش على الوجه الذي قاله، وبالمعنى االذي أراده، استواء منزّهاً عن المماسة والاستقرار، والتمكّن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته، ومقهورون في قبضته، وهو فوق العرش والسماء، وفوق كل شيء إلى تخوم الثّرى فوقية لا تزيده قرباً إلى العرش والسماء، كما لا تزيده بعداً عن الأرض والثّرى، بل رفيع الدرجات (عالي الدرجات أعلى من كل شيء قدراً) عن العرش والسماء، كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى، وهو مع ذلك قريب من كل موجود، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد. إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام كما لا يماثل ذاته ذوات الأجسام، وأنه لا يحلّ في شيء، ولا يحلّ فيه شيء، تعالى أن يحويه مكان، كما تقدّس أن يحدّه زمان، بل كان قبل خلق الزمان والمكان، وهو الآن على ما عليه كان، وأنه بائن عن خلقه بصفاته (متعال ـ عن التشبه بالمخلوقين)، ليس في ذاته سواه، ولا في سواه ذاته، وأنه مقدّس عن التغير والانتقال، لا تحلّه الحوادث، ولا تعتريه العوارض، بل لا يزال في نعوت جلاله منزّهاً عن الزوال، وفي صفات كماله مستغنياً عن زيادة الاستكمال، وأنه في ذاته معلوم الوجود بالعقول، مرئيّ الذات بالأبصار نعمة منه ولطفاً في الأبرار (في دار القرار)، وإتماماً منه للنعيم، بالنظر إلى وجه الكريم» انتهى كلام الغزالي رحمه الله ـ في كتابه: إحياء علوم الدين.

الصفة الثانية: (القدم):

ومعناه عدم وجود أول له سبحانه وتعالى: (ليس لأوله بداية): ودليل ثبوت هذه الصفة له سبحانه، قوله تعالى:

● ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾ الحديد: /٣.

وأنه لو كان مسبوقاً بالعدم لكان لا بد من مؤثر في إيجاده، ومحال أن يكون مع ذلك إلٓهاً، وعندئذٍ فلا بدّ أن يكون الإلٓه هو السابق عليه والموجد له، فيكون هو القديم إذن، وهذا هو المطلوب بيانه أو أن يكون السابق أيضاً مسبوقاً بعدم، وأنّ موجوداً قد أثر فيه فأوجده. . . وهكذا، فيستلزمه ذلك فرض (التسلسل)، وهو باطل (بالبرهان العلمي).

فلا بد إذاً من أن تكون الموجودات كلها مستندة في وجودها إلى ذات واجبة الوجود، ولا تكون هذه الذات واجبة الوجود، إلا إذا كانت مؤثرة في غيرها، غير متأثرة بسواها، وذلك يستلزم أن تكون متصفة بـ (القدم).

وهذا برهان علمي واضح لا يمكن أن يماري فيه العقل، ولا بدّ أن يجزم به.

ولكن العقل بعد ذلك قد يعجز عن تصوّر هذا القدم وهضمه تحليلاً وتكييفاً، ومن أجل ذلك ترى بعض السطحيين يحوك في نفوسهم هذا التساؤل، من الذي خلق الله؟.

ومصدر هذا التساؤل، كما قلت، أن خيال السائل لا يهضم صورة القدم ومعناه بالنسبة لذات الله تعالى، ولما كان الإنسان متطلّعاً إلى تصوّر ولمس كل حقيقة تعرض عليه، فإنه لا يفتأ يفكر في ذلك السؤال.

ولكن الإشكال يزول بإيضاح الحقيقة التالية:

إن جميع مدارك الإنسان إنما هي وليدة تصوّراته، والتصوّرات إنما تتجمع في الذهن عن طريق نوافذ الحسّ الخمس.

وهذا يعني أن الإنسان لا يعقل من المجرّدات إلا ما كان له مقاييس ونماذج حسيّة في ذهنه، فما لم يسبق له في ذهنه أي نموذج أو مقياس، فإن من المُحال بالنسبة إليه أن يتصوّره ويدركه.

وعلى هذا القياس فإن من السهل عليك أن تفهم صفة الرحمة في ذات الله تعالى، لأنك تحتفظ في ذهنك بتصورات لمعانيها وآثارها، ومن السهل عليك أن تتصوّر له صفة العدل، والجلال والإكرام، وأنه شديد العقاب؛ لأنها

كلها تعود إلىٰ معانٍ تُوجَدُ في ذهنك صورٌ لها، وإنْ كانت هذه الصفات مختلفة في ذاته تعالى عنها في ذوات المخلوقين. فإذا قيل لك أنه لا يحدّه زمان ولا مكان، فهذا ما لا تدركه، لأنك لا تحتفظ في ذهنك بأيّ معنى أو صورة لهذه الصفة، بسبب أنها صفة خاصة بذاته تعالى، وكذلك إذا قيل لك: إنه سبحانه وتعالى قديم لا أول له، فأنت تذهب لتتخيل صورة عدم الأولية، فلا تستطيع أن تتخيل أو تتصوّر ذلك، إذ أنه معنىً طارىء على مخيلتك، لم تسبقه رؤية لحقيقته، أو ممارسة له بذاته، ولذلك فلا مطمع لأن يهضم خيالك أو تصوّرك هذا المعنى.

غير أنه من السهل عليك جداً، وقد أدركت هذه الحقيقة وآمنت بها عن طريق البرهان العلمي الذي ذكرناه أن تتيقّنها، وتعتقد بها اعتقاداً جازماً دون أن تنتظر إمكان تصوّركَ لها، لأن من السهل عليك أن تفهم أن عقلك لم يستوعب جميع حقائق الوجود، وأن فكرك لم يسجل جميع صوره وأشكاله، وفي ذلك يقول الفلاسفة وعامة العقلاء والباحثين: (**عدم الوجدان للشيء لا يستلزم عدم وجوده في الواقع**)، فالعقل إنما يدرك بواسطة نوافذ الحسّ (الحواس الخمس)، والحواسّ الخمس تحسّ بقدر محدود إلى مسافة محدودة، فهل هذا يعني أن وراء هذا المحدودهو اللاشيء؟!

إن الاستمرار اللانهائي لا يدرك، وليس ذلك إلَّا لأنَّ الطاقة الفكرية في الإنسان محدودة ومتناهية. ولكن ذلك لا يعني أن العقل يجزم باستحالته، فرب أمر يدرك العقل إمكانه أو وجوده وهو في نفس الوقت يعجز عن تصوره وإدراك كنهه(١).

---

(١) وفي هذا المقام، يضرب لنا الأستاذ محمد متولي شعراوي مثلاً لتكوين القناعة بذلك فيقول: افرض أن شخصاً قرع الجرس (لباب دارك)، فإن (العقل) يدرك، لا بد وأن هناك إنساناً (شخصاً) قرع الجرس ولكن (الحسّ ـ والخيال ـ والتصور)، لا يقوى على إدراك هذا الشخص، وتعيين هويته.

وكذلك فإن العقل (يدرك الله تعالى ـ بآثاره في مخلوقاته)، ولكن (الحس والخيال والتصوُّر) يعجز عن تكوين (صورة ذهنية ـ عن ذات الله سبحانه) بسبب كون العقل محدود الطاقة، حجز الله إمكانياته عن إدراك الذات المقدسة في هذه الدنيا الفانية ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلَّا بما شاء﴾.

الصفة الثالثة (البقاء): ومعناه، امتناع لحقوق العدم بذاته سبحانه وتعالى، ودليلة (النقلي) من القرآن الكريم، الآية ذاتها، التي هي دليل (القدم) وهي قوله تعالى:

● ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن...﴾ الحديد: /٣.

ويقال في دليله العقلي، ما قلناه في دليل القدم: **إذ كما لا يتصوَّر وجود مؤثِّر في واجب الوجود بالإيجاد فلا يتصوَّر مؤثر فيه بالإعدام، وإلاَّ لم يكن واجب الوجود**.

كما أنه يمكن فهم هذه الصفة بالطريقة ذاتها التي نفهم بها صفة (القدم) إذ كلا الصفتين لا مقياس في الخيال لهما، وإن كان في العقل دليل على ثبوتهما، فمن المستحيل أن يستطيع الخيال تصورهما، وفهم حقيقتهما، وإن كان العقل يجزم في الوقت نفسه بثبوتهما، وهكذا تعلم أن عدم قدرة العقل على تصوُّر الشيء ليس دليلاً على عدمه البتّة، كما هو واضح معلوم.

الصفة الرابعة (القيام بالذات): أي أنه تعالى غير مفتقر إلى موجد يوجده، ولا إلى محل يقوم به، فقد كان الله تعالى قبل وجود أي شيء، وقبل وجود الزمان (أي الأفلاك التي تحدّ سير الوقت) والمكان. والدليل على ثبوت هذه الصفة لله تعالى، بالإضافة إلى دليل العقل قوله تعالى: ﴿الله الصمد﴾، أي الذي لا يحتاج إلى شيء ويحتاج إليه كل شيء.

واعلم أنه لا مجال لتوقف العقل في إثبات هذه الصفة لله تعالى، بعد معرفة أنه واجب الوجود، وأنه قديم لا يتأثر بشيء، ويتأثر به كل شيء.

فإذا قلت: كيف أفهم أنه لا مكان لله، والذي أعلمه أنه ما من موجود إلاّ وهو متحيِّز في مكان ما؟ فالجواب: إن علمك هذا إنما استقيته من استقراء حالات الأجسام والحوادث، والصفات المتلبسة بالأشياء الممكنة والحادثة لا يجب تلبسها (بواجب الوجود ـ أيضاً)، وإن رحت تقيس، فذلك قياس لا برهان عليه، إذ لا علة جامعة بين الأصل والفرع، بل العقل يوجب اختلاف واجب الوجود عن الممكنات في كل ذلك.

ولا يضيرك بعد معرفة هذا أنك لا تستطيع أن تتخيل في ذهنك عدم تحيّزه

سبحانه وتعالى في مكان، لأنك قد علمت أن الخيال ليس أكثر من مرآة تثبت فيها صور المرئيات التي مرَّت على حواسك، وهذا مما لم يمرّ على شيء من حواسك بعد، فكيف تتخيَّله وتتصوَّره؟

ثم إنَّه لو ثبت لله مكان يتحدَّد فيه، وأمكنك أن تتصوره في مكانه ذلك، لكان عقلك أكبر إحاطة بالأشياء من إحاطة خالقها بها، وذلك يدل على عدم ألوهيَّته، فكان طبيعياً من العقل إذاً أن يستيقن ولا يتصوَّر، بل يحتار ويجهل.

وليس شيئاً كثيراً في حقّك أن تبلغ الحيرة بك في تصوُّر الذات الإلَهية، مبلغ حيرتك في عقلك وروحك والطاقة التي جعلها الله سرَّ وجود أكثر ما تراه حولك من الموجودات، **فأين هو مكان العقل والروح في جسمك؟** وأين هو مستقرّ الحياة في الأشياء الحيّة؟ وما هي حقيقتها؟.. لا تعلم، ولا أحد يعلم الجواب، على الرغم من تيقّن الجميع بوجود العقل والروح والحياة.

إن الحيرة أمام هذه الأمور ضرورة ناتجة عن كون العقل محدوداً بالحدود التي أرادها له الخالق جلَّ جلاله، وكيف لا يحار المخلوق لدى محاولة تحليل خالقه وتصوره؟!.. من أجل هذا ـ كانت الحيرة ـ بعد الإيمان به وبصفاته سبحانه وتعالى ـ أعلى مراتب الإيمان، فحسبك أن تتيقَّن بوجوده، ثم تحار في فهمه وتصوره.

وتلك هي حقيقة (الإيمان بالغيب)، الذي أمر الله به عباده، إذ هو أن يؤمنوا بما غاب عن محسوساتهم وعن عقولهم (من حيث التحديد والتكييف) لهذا الغيب.

الصفة الخامسة (المخالفة للحوادث):

ومعناها عدم مماثلته جل جلاله لها، فهو سبحانه وتعالى ليس بجرم ولا عرض، ولا كلّي، ولا جزئي (كما مرَّ بيانه)، ولذلك فهو منزّه عما تستلزمه هذه الصفات أيضاً من مختلف الصفات والأحوال والعوارض الجزئية التي تعتور الإنسان وغيره من الكائنات الأخرى كالنوم، والغفلة، والجوع، والعطش، والحاجة، والعوارض الجسمية والنفسية وما إلى ذلك.

وقد ثبت برهان هذه الصفة لله تعالى بكل من دليلي العقل والنقل.

أما دليل العقل: فالألوهية تستلزم البعد عن سائر النقائص، ومن أبرز مظاهر النقص، ما تتلبس به الحوادث من الصفات **التي هي في الحقيقة ليست إلّا نتيجة حدوثها وحاجتها إلى الموجد والمخصص**.

وأما دليل النقل: فقوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ الشورى: /١١. وإدخال (كاف التشبيه) على (لفظ ـ المثل)، مبالغة في (نفي الشّبيه) و (المثل) لله تعالى، ومثله قوله تعالى: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ والكفؤ، والمماثل، واحد.

إذا علمت هذا، فإن لك أن تسأل، ولكننا نرى أن هنالك كثيراً من الصفات يشترك فيها الإنسان (وهو من الحوادث)، مع الله جل جلاله، كصفة العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر ونحوها، وذلك يناقض ما ثبت أنه مخالف للحوادث.

والجواب: إنّ الإنسان يتّصف **بطائفتين من الصفات**: **الأولى** صفات هي في الحقيقة ثمرة الحدوث والمخلوقية القائمة فيه، كالتحيُّز في المكان والزمان، والحاجات الجسمية والنفسية المختلفة، وعوارض العجز والضعف، ومظاهر الطبع، فهذه صفات نابعة من كيانه الذي يتميز بالحدوث. **والطائفة الثانية** صفات هي في الحقيقة من صفات الله جل جلاله، ولكنه سبحانه وتعالى متّع الإنسان بفيوضات يسيرة منها، ليتهيَّأ له بواسطتها أن ينهض بالتكاليف التي خلق من أجلها، وليتسنّى له أن يسخِّر لنفسه مظاهر الكون التي من حوله ويفيد منها، كما مرَّ ذلك في التمهيد الثاني، في بحث (حاجتنا إلى العقيدة الصحيحة)، كالعلم والقدرة، والإرادة، والإدراك، وما شابه ذلك، فهذه الصفات ليست نابعة من كيانه المتميز بالحدوث، بل هي ليست منها في شيء، وليست من خصائصه مطلقاً. وبتعبير آخر نقول:

إن القدر اليسير الذي يتمتع الإنسان به من هذه الصفات لا يسوّغ اعتبار الإنسان شريكاً مع الله فيه لسببين:

الأول ـ إنها صفات ذاتية بالنسبة لله تعالى، أما بالنسبة للإنسان فهي

صفات غير ذاتية إذ هي في حقيقتها ليست أكثر من فيوضات إلّهيَّة عليه، وهيهات أن يكون هذا المعنى موجباً لشركة الإنسان مع الله في شيء منها.

الثاني - إنها تختلف عن صفات الله في الحقيقة والجوهر، وإنما تشترك معها في التسمية فقط ولولا التجاوز في الإطلاق، وملاحظة الاصطلاحات الخاصة بالإنسان، لما استقام الاشتراك بالتسمية أيضاً، إذ ما هي قيمة العلم الذي يتصف به الإنسان أمام علم الله تعالى، وما هي قيمة القوة التي قد يتمتع بها الإنسان في جنب قوة الله وعظيم سلطانه؟...

والخلاصة: إنَّ الملاحظ في نفي مماثلة الله للحوادث، نفي المماثلة في الصفات التي هي من مستلزمات الحدوث وخصائصه، أما المستلزمات الأخرى التي هي من مستلزمات الرّب جل جلاله - ولكنه سبحانه أفاض منها آثاراً أو ظلالاً على بعض مخلوقاته كالإنسان - فهي غير داخلة في عموم هذا النفي[1].

صفات المعاني، والصفات المعنوية لله تعالى

ونبدأ بصفات المعاني: فنقول - هي كل صفة قائمة بذاته سبحانه وتعالى، تستلزم حكماً معيَّناً له كصفة العلم مثلاً، فهي تستلزم أن يكون المتصف بها عليماً، وصفات الكمال لله تعالى كثيرة، ولكنها تجتمع في سبع صفات رئيسة (قام عليها الدليل التفصيلي من الكتاب)، وهي: الحياة - العلم - القدرة - الإرادة - السمع - البصر - الكلام.

ثم إن لمعرفة هذه الصفات بخصوصها أهميـة أخرى، إذ ينبثق من معرفتها، وضرورة الإيمان بها حقائق هامة، يجب اعتقادها والإيمان بها، كتلك الحقائق المتعلقة بتسيير الإنسان واختياره وقضاء الله وقدره، وأثر العلّيَّة وعدمها في أفعاله سبحانه وتعالى.

وسنتّبع في شرح هذه الصفات الطريقة التالية:

١ - ذكر صفات المعاني، وبيان معنى كل منها ودليله.

---

(١) ينظر كتاب كبرى اليقينيات الكونية للأخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص ١١٨.

٢ ـ ذكر الصفات المعنوية ومعنى كل منها.

٣ ـ بيان متعلق هذه الصفات.

١ ـ صفات (المعاني) وبيان معنى كل منها ودليله

١ ـ العلم: وهي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى، يتأتّى بها كشف الأمور والإحاطة بها على ما هي عليه في الواقع، أو ما ستكون عليه في المستقبل.

ولدى تأمُّلك في هذا التعريف تعلم أن هذه الصفة ليس من شأنها تخصيص الممكنات أو التأثير فيها بوجه من الوجوه، ولكن شأنها مجرَّد الكشف والاطلاع، سواء تعلق بواقع ظهر إلى الوجود أو بمغيَّب لا يزال في جوف العدم.

ودليل هذه الصفة آيات كثيرة من كتاب الله تعالى، مثل قوله تعالى:

● ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي، ولو جئنا بمثله مدداً﴾ الكهف: /١٠٩.

● ﴿ولو أنَّما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدُّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله، إن الله عزيز حيكم﴾ لقمان: /٢٦.

وفي هاتين الآيتين يقرب الله للأذهان سعة علمه سبحانه (بالمعنى العام).

● ﴿قل أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض، إنّه كان غفوراً رحيماً﴾ الفرقان: /٦.

● ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض، إن ذلك في كتاب، إن ذلك على الله يسير﴾ الحج: /٧٠.

● ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فثمّ وجه الله إن الله واسع عليم﴾ البقرة: /١١٥.

في هذه الآيات يقرن الله بين وجوده وعلمه سبحانه، ليقرب هذا المعنى إلى أفهامنا... فيما يلي نأتي على ذكر علم الله تعالى بالحوادث المتوقعة، كما في قوله تعالى:

● ﴿إنَّ الله عنده علم الساعة، وينزِّل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير﴾ لقمان: /٣٣.

● ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب، لتفسدن في الأرض مرتين. . .﴾ الإسراء: /٤.

● ﴿وما أهلكنا من قرية إلاَّ ولها كتاب معلوم﴾ الحجر: /٤.

● ﴿وإن من قرية إلاَّ نحن مهلكوها قبل يوم القيامة، أو معذبوها عذاباً شديداً، كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ الإسراء: /٥٨.

● ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين. وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم﴾ الحجر: /٢٤ ـ ٢٥.

● ﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجبِّ، وأوحينا إليه لتنبئنَّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾ يوسف: /١٥.

● ﴿وإذ أسرَّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً. . . قالت من أنبأك هذا قال: نبّأني العليم الخبير﴾ التحريم: /٣.

فهذه الآيات ـ الآنفة الذكر ـ وما شابهها، تشير بوضوح إلى دقة العلم الإلّهي بالحوادث الواقعة والمتوقعة.

أما الآن فنأتي على استعراض طائفة خاصة من الآيات الكريمة التي تشير بوجه خاص إلى أنَّه سبحانه (بكل شيء عليم)، وفي كل آية نلمح معنى تربوياً خاصاً يهدف إلى الغاية (العلمية التربوية) من الإشارة (في نهاية كل آية) إلى أنه سبحانه بكل شيء عليم.

● . . . واذكروا نعمة الله عليكم، وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به، واتقوا الله، واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ البقرة: /٢٣١.

فالغاية (في هذه الآية الكريمة ـ من الإشارة إلى علم الله سبحانه)، أن يذكر المؤمن نعم الله عليه ليشكرها وأن يذكر مواعظ الله ووصاياه لينفذ

مضمونها، وأن يكون على مستوى التقوى والتعظيم لأمر الله، لأنه لتحقيق هذه المعاني: أمامه علم الله الشامل (بصورة عامة) ـ وعلم الله بسلوكه (بصورة خاصة)، ومن وراء هذا العلم عدالة الله ومكافأته، أو المؤاخذة، في حالة الإعراض والتخلف عن الاستقامة على طاعة الله.

● ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون، وما تنفقوا من شيء فإنَّ الله به عليم﴾ آل عمران: /٩٢.

فالغاية من الإشارة إلى علم الله، أن يتحقق المعنى التربوي في مستهل الآية، وأن ينفق المؤمن مما يحبُّ حتى يكون على مستوى المكافأة والتكريم من الله سبحانه وتعالى.

● ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم، وكان الله شاكراً عليماً﴾ النساء: /١٤٧.

الغاية من الإشارة إلى علم الله في هذه الآية الكريم تقرير مبدأ العدالة الإلّهية كما أسلفنا.

● ﴿وتمّت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾ الأنعام: /١١٥.

وهذه الآية مرتبطة بسابقتها (في الغاية والهدف). وفي قوله تعالى:

● ﴿ألم تر أن الله يعلم، ما في السموات وما في الأرض، ما يكون من نجوى ثلاثة إلَّا هو رابعهم ولا خمسة إلَّا هـو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلَّا هـو معهم أين ما كانوا، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة، إن الله بكل شيء عليم﴾ المجادلة: /٧.

في هذه الآية الكريمة: يقرب الله إلى أذهاننا، وجوده الكريم، وعلمه الشامل، لينمِّي في حواسّنا ومشاعرنا ملكة الشعور بالمسؤولية، من خـلال استشعار علمه ومراقبته لسلوكنا.

وفي ختام استعراضنا لطائفة من الآيات الكريمة التي تشير إلى علم الله سبحانه (الكامـل الشامـل ـ للماضي والحاضر والمستقبل)، للحوادث الواقعة

والمتوقعة، نأتي على ذكر طائفة من الآيات الكريمة التي تشير بوضوح إلى الغاية والهدف من ذكر العلم الإلّهي، في معناه العام، ومعناه الخاص.

● ﴿إنما إلّهكم الله الذي لا إلّه إلاَّ هو، وسع كل شيء علماً﴾ طّه: /٩٨.

● ﴿وإن تجهر بالقول فإنَّه يعلم السرَّ وأخفى. الله لا إلّه إلاَّ هو له الأسماء الحسنى﴾ طّه: /٧ ـ ٨.

● ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها...﴾ الأعراف: /١٨٠.

● ﴿... يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾ النور: /٣٥.

● ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، إن الله بكل شيء عليم﴾ التوبة: /١١٥.

ونختم هذه الآيات الكريمة بالآية التي بدأنا بها وهي قوله تعالى:

● ﴿... واذكروا نعمة الله عليكم، وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به، واتقوا الله، واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ البقرة: /٢٣١.

وكذلك الآية الكريمة:

● ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاَّ هو، ويعلم ما في البرّ والبحر، وما تسقط من ورقة إلاَّ يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلاَّ في كتاب مبين. وهو الذي يتوفاكم بالليل، ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليُقضىٰ أجل مسمى، ثم إليهِ مرجعكم، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ الأنعام: /٥٩ ـ ٦٠.

والآية الكريمة التي تحتاج إلى الإيضاح هي قوله تعالى:

● ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم، حتى يبين لهم ما يتقون، إن الله بكل شيء عليم﴾ التوبة: /١١٥.

فعلم الله هنا أتى نتيجة لمقدمتين (على المستوى العلمي ـ التربوي)،

ويعيننا على شرح هذا المعنى قوله تعالى:

● ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضلَّ عنِ سبيله، وهو أعلم بالمهتدين﴾ النحل: /١٢٥.

كما يعيننا على الشرح قوله تعالى:

● ﴿إن الله لا يغير ما بقوم، حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له، وما لهم من دونه من والٍ﴾ الرعد: /١١.

١ ـ فالآية تقرر تدبيراً إلّهياً هو (الضلال بعد الهدى ـ لطائفة من الناس).

٢ ـ تشير الآية إلى الأسباب الموجبة لهذا التدبير الإلّهي الحكيم، وهو تحوّلهم من الطاعة إلى المعصية.

٣ ـ كما تشير الآية إلى علمه بأحوالهم في كلتا الحالتين: ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين﴾.

٤ ـ كما تشير الآية، أنّ الله لم يكتب (الضلال بعد الهدى)، حتى أعاد التنبيه إلى عاقبة كل منهما.

وفي نهاية المطاف ـ إن علم الله بكل شيء (وقد أشارت إليه الآية الكريمة) يهدف للإشارة إلى حكمة الله ورحمته وعدالته، في مكافأته (ومنح هدايته) لمن يستحقها، وفي مؤاخذته (وحجب ثقته) عن المفرّط المصرّ على الانحراف عن مراده، وفي ذلك إيقاظ للشعور بالمسؤولية، حتى لا يغترّ الإنسان بطاعته لله تعالى، بل يقف متذللاً ضارعاً يرجو التوفيق من الله للاستقامة على طاعته.

وفي الآيات الكريمة، التي أشير إليها آنفاً:

● «الآية: /٩٧ ـ من سورة طّه». «والآيتان: / ٦ ـ ٧، من السورة نفسها». «والآية: /١٧٩ من سورة الأعراف»...

فقد ربط الله سبحانه وتعالى بين (توحيده ـ وعلمه الشامل)، وبين أسمائه الحسنى، ليجعل لنا من التوحيد منطلقاً للشعور بالمسؤولية بين يدي جلاله سبحانه وتعالى.

ـ فهو الذي يعلم السرّ وأخفى (الشعور) و (اللاشعور)، يعلم الشعور كما في قوله تعالى:

● ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ قٓ: /١٦.

كما يعلم (الماضي ـ واللاشعور)، كما في قوله تعالى:

● ﴿قال فما بال القرون الأولى. قال علمها عند ربِّي في كتاب، لا يضلُّ ربّي ولا ينسى﴾ طٰه /٥١ ـ ٥٢.

● ﴿وإن تجهر بالقول فإنَّه يعلم السرَّ وأخفى﴾ طٰه: /٧.

فالسرُّ (هو شعور الإنسان الذي يخفى على الناس) وأخفى (هي لا شعوره، وما يدَّخر في ذاكرته)، فهـو يخفى على الإنسان (إلَّا إذا اضـطر لاستدعائه إلى ساحة الشعور) ولكنه لا يخفى على الله، كما أشارت الآية الكريمة آنفاً ﴿قال علمها عند ربِّي في كتاب، لا يضلُّ ربي ولا ينسى﴾.

والغاية من هذه الآيات الكريمة، وما شابهها في إيضاح علم الله سبحانه، أن نحرص (تربوياً) على نظافة مشاعرنا، من غبار الآثام، ولوثات المعاصي، لنقف بين يديه سبحانه دائماً على قدم الأدب التربوي ـ والشعور بالمسؤولية، ولنتَّخذ من التضرع إليه بأسمائه وصفات كماله منافذ تربوية تقرِّبنا من حكمته ورحمته وعدالته، وعنايته وفضله وتوفيقه.

هكذا يكون علم الله تعالى نافذة (تربوية) إلى معرفة كماله، لتستيقظ أحاسيسنا ومشاعرنا (يقظة علمية تربوية)، تقرِّبنا من العقيدة الصحيحة والإيمان الكامل.

٢ ـ الصفة الثانية (من صفات المعاني) الإرادة:

وهي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى من شأنها تخصيص الممكنات ببعض ما يجوز عليها، من وجود، وعدم، وتكيّف، بقطع النظر عن أي مؤثر خارجي.

تقسيم (الإرادة) إلى صلوحية وتنجيزية: ثم إنك إن لاحظت هذه الصفة،

من حيث هي معنى أزلي قائم بذات الله، صالح لأن تخصص به الممكنات (فتلك هي الإرادة الصلوحية).

وإن لاحظت تعلقها الواقعي بمراد من المرادات، (فتلك هي الإرادة التنجيزية)، وهي على كلّ إرادة واحدة وقديمة، ولكن الذي يختلف فيها، اعتبار التعلُّق وعدمه.

ولعلك تسأل: فكيف يكون تعلق الإرادة الإلّهية بالممكنات قديماً أيضاً، كالإرادة الصلوحية العامة مع أننا نسميها بالتنجيزية؟.

والجواب أن تعلق الإرادة الإلّهية بإيجاد شيء أو إعدامه، قديم، ولا يمكن أن يكون حادثاً؛ إذ لو كان كذلك، لكان من مستلزماته، أن لا يكون الله عالماً ببعض ما يريد خلقه وفعله في المستقبل، وهو محال لما مرَّ بيانه، فثبت عكسه إذاً، وهو أن الله يعلم في الأزل كل ما سيفعله وسيخلقه في الحين والوقت الملائمين، وهذا يعني بالبداهة أن (إرادة الله التنجيزيّة) مصاحبة لعلمه القديم هذا.

بقي أن تعلم بأن الشبهة إنما تحوم حول فكرك من كلمة «التنجيزيّة» إذ تتخيل أن معناها الخلق والظهور (وهو شيء حادث قطعاً)، غير أن هذا صحيح بالنسبة (للقدرة ـ التي سنتحدث عنها) أما الإرادة ـ فالتنجيز بالنسبة لها ـ هو محض تعلقها بممكن من الممكنات (من وجود، وعدم، وتكيّف)، سواء ظهر هذا الممكن إلى طور الوجود أم لم يظهر بعد.

وقد تتعلق إرادة الإنسان بعمل من الأعمال، ثم يطويه عن التنفيذ إلى ما بعد سنوات كثيرة فتسمي إرادته هذه (تنجيزيَّة)، أي ليست مجرَّد قابلية محضة بل هي (توجّه فعلي إلى مراد معين).

ودليل (صفة ـ الإرادة) لله تعالى، من العقل: أنها لو لم تكن موجودة وأزلية فيه سبحانه وتعالى، للزم عليه (نقيضها ـ وهو الإكراه)، وهو يستلزم مكرهاً، وذلك ينافي واجب الوجود، ومعنى الألوهية.

ودليلها من النقل: آيات كثيرة، من مثل قوله تعالى:

● ﴿ومن يرد الله فتنته، فلن تملك له من الله شيئاً...﴾ المائدة: /٤١.

● ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردَّ له، وما لهم من دونه من والٍ﴾ الرعد: /١١.

● ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام...﴾ الأنعام: /١٢٥.

● ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم، ويتوب عليكم والله عليم حكيم. والله يريد أن يتوب عليكم، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ النساء: /٢٦ - ٢٧.

● ﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ القصص: /٥.

ثم لا بد أن تعلم أن الإرادة والأمر متغايران، ومنفكّان، فلا لزوم بينهما كما يتصور على ما حقَّقه أهل السنة والجماعة، وموعدنا في شرح هذا التغاير وبيانه، عند الحديث عما يترتب على معرفة هذه الصفات من الحقائق الاعتقادية (في البحث المقبل).

الصفة الثالثة (من صفات المعاني) القدرة:

وهي صفة أزلية قائمة بذاته تعالى، يتأتّى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه وتكييفه.

ثم إنك إن لاحظت هذه الصفة، من حيث هي معنى أزلي قائم بذاته تعالى، صالح لأن يوجد به الممكنات أو يعدمها أو يكيِّفها، بقطع النظر عن التنفيذ، فتلك هي القدرة التي تتعلق بالأشياء تعلُّقاً صلوحياً فقط، وإن لاحظت تنفيذ (الإيجاد، أو الإعدام، أو التكييف الفعلي) فتلك هي القدرة الإلٓهية، في تعلّقها التنجيزي.

وبذلك تعلم أن القدرة واحدة أيضاً، فإن نظرت إلى تعلُّقها الصلوحي، فهو تعلُّق أزلي قديم وإن نظرت إلى تعلقها التنجيزي، فهو تعلُّق حادث، أي أن كلا التعلقين عائدان إلى قدرة واحدة، وإنما الحادث هو (التعلُّق التنجيزي) بالأشياء، أما القدرة ذاتها فهي قديمة على كل حال.

٤ ـ الصفة الرابعة (من صفات المعاني) السمع:

وهو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى، تتعلق بالمسموعات، أو بالموجودات، فتدرك إدراكاً تامًّاً، لا على طريق التخيُّل والتوهُّم، ولا على طريق تأثير حاسَّة ووصول هواء.

٥ ـ الصفة الخامسة (من صفات المعاني) البصر:

وهو أيضاً صفة أزلية قائمة بذاته تعالى، تتعلق بالمبصرات، أو بالموجودات، فتدرك إدراكاً تاماً لا على طريق التخيُّل والتوهُّم، ولا عن طريق تأثُّر حاسة ووصول شعاع[١].

واعلم أن اتصافه جلَّ جلاله بهاتين الصفتين، إنما استفيد من دليل النقل، الثابت بالقطع، في كل من الكتاب والسنَّة، بحيث لا يسع العاقل أن ينكر أو يؤوِّل.

والتَّمسك بالديل النقلي في هذا هو الذي منعنا أن ننسب إليه سبحانه وتعالى صفة الذوق والشم واللمس، إذ لم يرد دليل من النقل يثبتها، عن طريق حاسَّة أو آلة، كما هو الأمر بالنسبة للإنسان والحيوانات.

ثم إن العلماء اختلفوا في مدى شمول كل من هاتين الصفتين فقال البعض منهم كالباجوري والسنوسي، إنهما شاملتان لكل الموجودات، مع اختلاف المعنى في كل منهما، أي فسمعه تعالى يتعلق بما هو قابل للسمع بالنسبة إلينا، وبما هو غير قابل له في سائر الموجودات، وبصره تعالى كذلك، وقال البعض كسعدالدين التفتازاني رحمه الله: إن صفة السمع تتعلق بالمسموعات، وصفة البصر ـ تتعلَّق بالمبصرات.

والذي ينبغي أن نقف عنده في هذا الصدد هو الإيمان بثبوت هاتين الصفتين له سبحانه وتعالى طبقاً لما وصف به نفسه، ثم الإيمان بأن لكل صفة من هاتين الصفتين وظيفة تمتاز عن الأخرى، وإلَّا لما كان في إسناد كل منهما

(١) ينظر كتاب ـ كبرى اليقينيات الكونية ـ للأخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ـ ص ١٢٢ وما بعدها.

إليه تعالى، على حدة، أي معنى غير التكرار، وهو محال في هذا المقام.

أما عن حقيقة كل من هاتين الصفتين، ومدى شمولهما، وهل لكل منهما وظيفة خاصة تتعلق ـ ببعض الموجودات، كما الشأن بالنسبة إلينا، أم هما بالنسبة إليه جل جلاله قائمتان على وظائف أخرى أشمل وأعم، فنكل علم ذلك إلى الله عزَّ وجل، وحسبنا في مثل هذه الأمور التي لا نافذة للعقل إلى الإثبات أو الإنكار فيها، إلَّا الاعتماد على النقل (الوحي) اليقيني، والنص القطعي، حسبنا في ذلك أن نقف عند ما تستوجبه هذه النصوص، وتلك هي طريقة السلف رحمهم الله تعالى، في فهم حقائق العقيدة الإسلامية.

٦ ـ الصفة السادسة (من صفات المعاني) الكلام:

وهو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى، هو بها: آمر وناه ومخبر، عبَّر عنها، نظم ما أوحاه إلى رسله، كالقرآن، والتوراة، والإنجيل.

فأما دليل ثبوت هذه الصفة لله تعالى، فالنصوص القطعية الثابتة في كل من الكتاب والسنَّة منها قوله تعالى:

- ﴿وكلّم اللهُ موسىٰ تكليماً﴾ النساء: /١٦٤.
- ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتىٰ يسمع كلام الله، ثم أبلغه مأمنه﴾التوبة: /٦.

ومنها ما ثبت في الحديث الصحيح، من أن الرسول ﷺ خاطب ليلة المعراج ربَّه جل جلاله، وفرضت إذ ذاك عليه (الصلوات الخمس).

وأما التحقيق في معناها (أي صفة الكلام)، فاعلم أن الكلام في اللغة العربية تطلق على معنيين:

أحدهما: الألفاظ المعبّرة عن المعنى القائم بالنفس، فتقول: هذا كلام فصيح، وكلام واضح.

ثانيهما: المعنى القائم بالنفس، الذي من شأنه أن يعبَّر عنه بالألفاظ، وعليه قول الأخطل:

إن الكــلام لفـي الفـؤاد وإنـمــا   جعــل اللســان على الفؤاد دليــلا

ومثله قول عمر رضي الله عنه: إني زورت في نفسي مقالة (أي قوّمت ـ وهيأت كلاماً). وكثيراً ما تقول لصاحبك، إن في نفسي كلاماً أريد أن أذكره لك.

والقرآن كلام الله تعالى[١]، في المصاحف مكتوب[٢]، وفي القلوب محفوظ[٣]، وعلى الألسن مقروء[٤]، وعلى النبي ﷺ منزل[٥].

٧ ـ **الصفة السابعة (من صفات المعاني) الحياة:**

وهي صفة أزلية قائمة بذاته سبحانه وتعالى، يتأتّى بها ثبوت الصفات السابقة، ودليلها من النقل قوله تعالى:

● ﴿الله لا إله إلاَّ هو الحي القيوم...﴾ البقرة: /٢٥٥.

● ﴿هو الحيّ لا إله إلاَّ هو، فادعوه مخلصين له الدين، الحمد لله رب العالمين﴾ غافر: /٦٥.

وكونه حيّاً نتيجة لثبوت صفة الحياة له، ودليلها من العقل، ما ثبت من اتصافه جل جلاله بصفة العلم والقدرة والإرادة وغيرها، إذا لا يتصوَّر قيامها إلاَّ بمن ثبتت فيه صفة الحياة.

فهذه جملة صفات المعاني التي جاء بها الدليل السمعي (النقلي) وأيدها

---

(١) **القرآن الكريم**: اسم مشترك بين الكلام النفسي (القديم): القائم بذاته تعالى، (وهو صفة له)، وبين الكلام اللفظي الحادث، المؤلف من السور والآيات، ومعنى أنه كلام الله هو كونه ليس من تأليفات المخلوقين، ومراد الإمام أبي حنيفة هنا: القرآن بمعنى الكلام النفسي الأزلي، لا بمعنى السور والآيات.

(٢) **في المصاحف مكتوب**: يعني أن كلامه سبحانه مكتوب بأيدينا بواسطة الحروف وأشكال الكلمات فهذه الكلمات دالّة على (المعنى النفسي) الأزلي القائم بذاته سبحانه.

(٣) **في القلوب محفوظ**: نستحضره عند تصور المغيبات بألفاظه المتخيلات.

(٤) **على الألسن مقروء**: مقروء بحروفه الملفوظة المسموعة.

(٥) **وعلى النبي ﷺ منزّل**: منزّل عليه ﷺ بواسطة الحروف والمفردات والمركبات، نزل به الروح الأمين سيدنا جبريل عليه السلام، وأمرنا بالعمل به، وبتحكيمه في كل شأن من شؤوننا.

ينظر ـ شرح الفقه الأكبر ـ للإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ـ إعداد الأستاذ عبد الكريم تتّان ص ١٥ وما بعدها.

الدليل العقلي، حسب ما ذكرناه عند شرح كل واحدة من هذه الصفات، وكما يجب اعتقاد هذه الصفات لله عز وجل، فإنّه يجب اعتقاد سلب نقائضها عنه سبحانه، إذ هو من مستلزمات ثبوت تلك الصفات.

٢ ـ الصفات المعنوية

أما الصفات المعنوية، فهي ليست أكثر من (نتائج صفات المعاني)، أي هي الأحكام التي تترتب على ثبوت صفات المعاني. فهي كونه جل جلاله: قديراً، مُريداً، عليماً، سميعاً، بصيراً، متكلِّماً، حيّاً.

٣ ـ بيان متعلق كل صفة من هذه الصفات

تنقسم هذه الصفات بالنظر إلى متعلقاتها إلى أربعة أقسام:

فالقسم الأول ـ منها ـ يتعلق بالواجبات، والممكنات، والمستحيلات جميعاً، وهو كل من صفتي العلم والكلام.

ـ أما صفة العلم، فلأنها كما قلنا، إنما تكشف عن حقائق الأشياء على ما هي عليه دون أي تأثير فيها، ومن المحال أن لا يكون ذلك بالنسبة إليه سبحانه وتعالى متناولاً (لسائر الواجبات والممكنات والمستحيلات).

ـ وأما صفة الكلام، فلأنها تتعلق بالأشياء تعلق دلالة وبيان أو أمر ونهي، وقد احتوى بيانه سبحانه وتعالى وأمره ونهيه (الحديث عن الواجب والمستحيل وعن الممكن) كما تشهد بذلك آيات كتابه الكريم.

وأما القسم الثاني ـ منها ـ فيتعلق بالممكنات فقط، وهو كل من صفتي الإرادة والقدرة. أما الواجب والمستحيل فلا شأن لهاتين الصفتين بهما.

وبيان ذلك أن كلّاً من صفتي الإرادة والقدرة، إنما تتعلقان بالأشياء، على وجه التخصيص والتأثير (كالإيجاد ـ والإعدام) ونحو ذلك. **والواجب لا يمكن إعدامه، والمستحيل لا يمكن إيجاده**، وإلّا لم يكن الواجب واجباً والمستحيل مستحيلاً، ولو أمكن انعدام الواجب مع بقائه واجباً، أو إيجاد المستحيل مع كونه

مستحيلاً، لأمكن اجتماع النقيضين في آن واحد ومكان واحد وهو معلوم الاستحالة لكافة العقلاء.

وأما القسم الثالث ـ فيتعلق بالموجودات ـ وهو كل من صفتي السمع والبصر، فهما لا تتعلقان بالمعدومات، واعلم أن هذا البحث يعكس مزيداً من الإيضاح على بحث القدرة والإرادة (وعدم تعلقهما بغير الممكنات) إذ المبدأ فيهما واحد.

وأما القسم الرابع ـ فلا يتعلق بشيء ـ وهو صفة الحياة، فهي بالنسبة لله تعالى قائمة بذاته، لا تعلق لها بشيء سواه. إذ ليس لها علاقة بالأشياء، لا على وجه الكشف (كالعلم) والسمع والبصر، ولا على وجه التخصيص والتأثير (كالإرادة ـ والقدرة)، وإنما هي معنى قائم بذات الله تعالى، من شأنه أن يصحح قيام تلك الصفات السابقة، بذاته سبحانه وتعالى[1].

---

(١) وفي هذا المقام يطيب لنا أن نتحف الباحث بما يلي:

جاء في كتاب (حياة ابن تيميّة) لعلّامة الشام المرحوم الشيخ محمد بهجة البيطار (مقدمة الكتاب ـ فقرة ب) ما يلي:

يقول الإمام ابن تيمية: شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني الدمشقي المتوفى عام ٨٢٨ هـ في كتابه (بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول) ص ١٣ وما بعدها ما يلي:

«إن العقل ليس أصلاً لثبوت الشرع في نفسه، ولا معطياً له صفة ما لم تكن له، ولا مفيداً له صفة الكمال. إن كل من أثبت ما أثبته الرسول ﷺ ونفى ما نفاه كان أولى بالمعقول الصريح، كما كان أولى. وإن من خالف صحيح المنقول (الوحي) فقد خالف أيضاً صريح المعقول.

وفي نهاية المقدمة للكتاب المشار إليه أعلاه يأتي مؤلف الكتاب (الأستاذ البيطار) على وصف الإمام ابن تيمية بما يلي:

«وكان له باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين، وقلّ أن يتكلم في مسألة إلا ويذكر فيها أقوال المذاهب الأربعة، ولما طلب منه (أي من الإمام ابن تيمية) أن يكتب عقيدته فقال اكتبوا: وهو أن اعتقاد أهل السنة والجماعة: الإيمان بما وصف الله به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

المبحث الخامس

ما يترتَّب على صفات الله تعالى من الحقائق الاعتقادية

وتتلخص هذه الحقائق في الأمور التالية:

أولاً ـ تنزيه الله تعالى عن أضداد هذه الصفات وسائر النقائص.

ثانياً ـ نفي العلة الغائية عن أفعاله جل جلاله.

ثالثاً ـ لا يجب على الله لعباده أو لأحد من خلقه شيء، والحسن والقبح أمر اعتباري.

رابعاً ـ مصير الإرادة الإنسانية أمام إرادة الله تعالى.

خامساً ـ القضاء والقدر، معناهما وضرورة الإيمان بهما.

١ ـ تنزيه الله تعالى عن أضداد هذه الصفات وعن سائر النقائص

وبيان ذلك أن هذه الصفات التي فرغنا من شرحها وبيان ما يتعلق بها، ثابتة لله تعالى بكل من دليلي النقل والعقل القاطعين، كما رأيت، فلا بد من الإيمان بها بأن نستيقن اتصاف الله عز وجل بكل واحدة منها.

والإيمان بها يقتضي سلب نقائض كل منها عن الله جل جلاله، فالله عز وجل، بموجب ثبوت تلك الصفات له، ليس له شريك ولا ظهير، ولا يتحيز بمكان ولا ينحصر في زمان، ليس بجوهر ولا عرض ولا جسم ولا يصح عليه شيء من لوازمها كأن يشار إليه بها هنا أو هناك أو تنسب إليه الحركة والانتقال من مكان إلى آخر، ولا يصح عليه الجهل ولا الكذب ولا النوم أو النسيان أو

القسر أو الإكراه. . . إلى آخر ما هنالك من أضداد الصفات التي ذكرناها.

المتشابه من آيات الصفات، وموقف القرآن الكريم منها:

غير أنه يشكل على هذا ـ بحسب الظاهر ـ آيات في كتاب الله، وأحاديث ثابتة عن رسول الله ﷺ، تفيد بظاهر ألفاظها وتعابيرها ثبوت بعض هذه النقائض أو النقائص التي نفيناها عن ذات الله جل جلاله كالجهة والجسميّة والجوارح والأعضاء والتحيز في المكان، كقوله سبحانه وتعالى:

● ﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾ الفجر: /٢٢.

● ﴿يد الله فوق أيديهم. . .﴾ الفتح: /١٠.

● ﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء. . .﴾ المائدة: /٦٤.

● ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ طَه: /٥.

وكقوله عليه الصلاة والسلام:

«إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن».

فكيف نوفق بين ما ذكرناه وأوضحناه بالأدلة القاطعة اليقينية، وبين ظاهر هذه الآيات والنصوص. والجواب أن هذه النصوص القرآنية من نوع المتشابه الذي ذكر الله عز وجل أن في كتابه الكريم آيات منه، وكما قال تعالى:

● ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنَّ أم الكتاب وأُخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ، فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلاَّ الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكّر إلاَّ أولوا الألباب﴾ آل عمران: /٧.

والمقصود بالمتشابه كل نص تجاذبته الاحتمالات حول المعنى المراد منه، وأوهم بظاهره ما قامت الأدلة على نفيه.

غير أن هنالك آيات أخرى تتعلق بصفات الله أيضاً، ولكنها محكمات (أي قاطعة ـ في دلالتها) لا تحتمل إلاَّ معناها الواضح الصريح كقوله جل جلاله:

● ﴿ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير﴾ الشورى: ١١/.

والآيـة الكريمـة (في شطرهـا الأول ـ ليس كمثله شيء) نفت فكـرة التجسيم، ومزاعم المجسّمة (عن ذات الله سبحانه) وصفاته.

والآية الكريمة (في شطرها الثاني ـ وهو السميع البصيـر) نفت فكرة التعطيل ومزاعم المعطلة التي تعطل صفات الله تعالى بنفيها عنه.

إننا إذا سرنا مع نفي الصفات إلى النهاية ننتهي ـ بهذا التطرُّف وهذه المبالغة) إلى النتيجة نفسها التي انتهت إليها (بعض الفرق الباطنية) التي قالت، إننا لا نقول إنَّ الله موجود إلَّا اضطراراً، وإنه لا يجوز أن نصف الله بأية صفة خوفاً من الاشتراك والتشابه مع المخلوقات، وهذا الموقف هو عكس موقف (المشبّهة ـ أو المجسِّمة)، الذين أثبتوا المعنى الحرفي الظاهر للصفات فقال بعضهم، إن الله سبحانه وتعالى له صورة وإن وجهه وجه شاب، ولذلك قال أهل السنة:

● إن المعطلة (الذين ينكرون الصفات) كأنَّهم يعبدون عدماً.

● وإن المجسمة والمشبهة (الذين يثبتون المعنى الحرفي الظاهر للصفات) كأنَّهم يعبدون صنماً[١].

وأمر آخر ـ في مسألة الصفات ـ يرتبط بالتأويل، فإننا إذا أجزنا تأويل نصوص الكتاب والسنة حسب الآراء الشخصية، نكون بذلك قد جعلنا عقيدتنا خاضعة للآراء والأهواء الشخصية.

والعقيدة من الأمور الثابتة في الدين، والتي لا تؤخذ إلَّا عن طريق الوحي. ولا يجوز أن تفهم النصوص المتعلقة بها إلَّا كما فهمها رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام ومن تبعهم من السلف الصالح وهو الفهم الصحيح الموافق لمعاني لغة العرب. وقد قال الإمام أحمد بن تيمية (في هذا المقام) رحمه الله:

كان منهج أهل السنة (في الصفات) هو: «أن يوصف الله بما وصف به

---

(١) ينظر كتاب المدخل إلى الثقافة الإسلامية للدكتور محمد رشاد سالم. ص ٢٠٠ وما بعدها.

نفسه، وبما وصفه به رسله (نفياً ـ وإثباتاً)، فيثبت لله ما أثبته لنفسه، وينفي عنه ما نفاه، وقد عرف أن طريق سلف الأمة وأئمتها، إثبات ما أثبته من الصفات، من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل..»[1]، وفتح باب التأويل يؤدي (من غير ضابط) إلى إلغاء الشريعة كلها.

ولذلك كانت القاعدة الأساسية التي يعتمد عليها أهل السنة والجماعة في معرفة صفات الله سبحانه وتعالىٰ؛ قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾، فمع إثباتنا لصفات الله عز وجل التي وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ فنحن ننزّهه عن مماثلة أي شيء أو مخلوق من المخلوقات، فهو سبحانه يتكلم ولكن لا نعلم كيف يتكلم لأنه ﴿ليس كمثله شيء﴾، وهو يستوي على العرش، ولكن: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة» كما قال الإمام مالك بن أنس رحمه الله[2].

وقد أوضح الله في كتابه الكريم بصريح العبارة، **ضرورة اتباع المؤمن للنصوص المحكمة**:

- ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ الشورى: /١١.
- ﴿قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد﴾ سورة الإخلاص.

وبناء عقيدة المسلم في الله بموجبها، ووضع النصوص المتشابهة، من ورائها، من حيث فهمها والوقوف على المعنى المراد منها، وشدّد النكير على من يتجاهل النصوص المحكمة النيِّرة القاطعة، ليلحق (ويتبع) العبارة المتشابهة الغامضة، ويفسِّرها كما يشاء. كما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة (٧) من سورة آل عمران.

---

(١) ينظر كتاب العقيدة التدمرية لابن تيمية، ط ـ المنار، القاهرة.

(٢) ينظر كتاب المدخل إلى الثقافة الإسلامية للدكتور محمد رشاد سالم ص ١٩٩.

٢ ـ نفي العلة الغائية عن أفعاله جل جلاله

تعريف العلة الغائية:

ويقصد بالعلّة الغائية: الغرض الذي يقوم في ذهن الإنسان، ويتّجه إلى تحقيقه، فيدفعه ذلك إلى تنفيذ الوسائل والأسباب التي توصله إلى ذلك الغرض.

فالغرض الذي قام في ذهنه هو العلّة لتحقيق تلك الوسائل والأسباب، ومن أجل أن هذا الغرض هو في الحقيقة غاية يستهدفها الإنسان عند مباشرته الأسباب، يطلق عليه العلماء اسم: (العلّة الغائية)، ومن شأن هذه العلّة أنها في الوجود الذهني تكون سابقة على القيام بالوسائل والأسباب، وأما في الوجود الخارجي فتأتي متأخرة عنها.

مثال ذلك شعورك بالحاجة إلى الدفء. فإنه غرض يحملك على أن تقوم فترتدي معطفك الثقيل، فإذا فعلت ذلك تحقق لك الغرض المطلوب وأخذت تشعر بالدفء، فتحقيق الدفء علة غائية، لأنها الحامل على الفعل، وهي ماثلة في الذهن من قبله، ولكنها تتحقق في الوجود الخارجي بعده.

بيان ـ انتفاء العلة الغائية عن أفعال الله تعالى: إذا علمت هذا، نقول:

أولاً: ذكرنا أن من جملة صفات المعاني الثابتة لله تعالى، صفة الإرادة، وقد علمت معناها، وأنها تنافي الجبر والإكراه على فعل ما لا يريد، كما علمت أن إرادة الله تعالى تامة لا يشوبها أي معنى من معاني الجبر والحمل على ما لا يريد، وبذلك تفترق إرادة الله عن إرادة الإنسان؛ فهي في الإنسان ناقصة مشوبة بالقسر والجبر، ولكنها بالنسبة لله عز وجل تامة كاملة.

وهذه حقيقة واضحة يفهمها الباحث بتأمل يسير.

ولكن هل يمكن والحالة هذه أن نقول بأن أفعال الله تقوم على علل غائية كشأن أفعالنا نحن؟ والجواب أنه لا يجوز لنا أن نقول ذلك، لأنه يتنافى مع ما ثبت من أن صفة الإرادة في ذاته سبحانه وتعالى صفة تامة كاملة، وأنه لا يشوبها

أي جبر أو قسر. فلو قلت بأن الله عز وجل أنزل المطر من أجل علة استهدفها، وهو ظهور النبات على وجه الأرض، وأنها هي الحاملة له على إنزال المطر (كما هو شأن العلة الغائية)، فمعنى ذلك أنك تقول إن الضرورة هي التي حملته على الإمطار، إذ كانت هي الواسطة التي لا بد منها للنبات، فالإرادة الكاملة متجهة إذاً إلى الإنبات، أما إلى الإمطار فإنها مشوبة بقدر كبير من الضرورة التي تنافي الإرادة وكذلك القول بالنسبة لجميع المخلوقات التي هي أسباب غيرها.

ومعلوم أن مثل هذا الاعتقاد أو القول في حق الباري جلّ جلاله، يتناقض مع مقتضى الألوهية تناقضاً بيّناً.

ثانياً: ذكرنا أن من صفاته أيضاً القدرة التامة المطلقة، وهي تستلزم أن يكون جميع الموجودات بخلقه وتكوينه، وإلا لما صدقت صفة القدرة التامة المطلقة بالنسبة إليه جلّ جلاله على أن القرآن صرّح في أكثر من موطن، بأن جميع الموجودات من خلقه، كقوله عزّ وجلّ:

- ﴿ وخلق كل شيء فقدّره تقديراً ﴾ الفرقان: /٢.
- ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ البقرة: /٢٩.

وإنما يصدق أن الله عزّ وجلّ قد خلق كل شيء، إذا توجهت إليه قدرته ابتداء، بدون اتخاذ أي واسطة أو سبب، وكان وجوده بسبب مباشر واحد (هو قدرة الله وخلقه)، فأما إذا قدرنا العلة الغائية في أفعاله وخلقه، فمعنى ذلك أن بين قدرة الله عزّ وجلّ وبين تلك العلة وسائل وأسباباً هي المؤثر المباشر في إيجاد الغاية، فلم يتعلق خلق الله بها إلا عن طريق التوسط والتسبب إليها. وهو مناف لتلك النصوص القرآنية التي تنطق في عبارة قاطعة بأن الله هو الخالق (المباشر) لكل شيء، كما أنه مناف لاتصاف الله تعالى بالقدرة المطلقة.

وفي إيضاح هذا المعنى يقول الله تعالى:

- ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسام من علق﴾ العلق: /١ ـ ٢.
- ﴿ أفرأيتم ما تمنون. أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون. نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ﴾ الواقعة: /٥٨ ـ ٦٠.

ففي هذه الآيات الكريمة ـ نجد أن الله سبحانه وتعالى يعرفنا ببعض صفاته العلية (إرادته ـ قدرته) عن طريق النظر إلى آياته النفسية والكونية، والاعتبار بما فيها من دلائل على تلك الصفات، فنحن إذا تأملنا في طريقة خلق الإنسان، التي تبدأ بالمني (الذي يقذف في الأرحام)، علمنا أنه سبحانه هو الخالق (الخالق للمني ـ والخالق للإنسان)، وإن توسّط الوالد (ظاهراً ـ سبباً من النظام العام) لخلق ولده. وكذلك إذا اعتبرنا بتقدير الله تبارك وتعالى لآجالنا وكتابته لها عرفنا أنه هو المحيي المميت (وإن توسّط ملك الموت لقبض الروح ـ بإذنه سبحانه وتعالى).

ولذلك أتت آية الكرسي لإتمام هذا المعنى في الأذهان وتوضيحه كما يلي:

● ﴿ . . . من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه. . . ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ البقرة: /٢٥٥.

فإرادة الله سبحانه ـ كما أشرنا ـ تامة وكاملة ومطلقة (من حيث الأصالة) دون توسط علة غائيّة. . . وإنما جعل الله (الأسباب ـ الجعلية)، من متممات النظام العام في الخلق والتدبير، حكمة منه وتقديراً سبحانه وتعالى.

ثالثاً: علمت من مجموع ما ذكرناه من الصفات السلبية:

الوحدانية، القدم، البقاء، المخالفة للحوادث، قيامه تعالى بنفسه.

وصفات المعاني: (الحياة، الإرادة، القدرة، العلم، السمع، البصر الكلام).

والمعنوية: (الحي، المُريد، القادر، العليم، السميع، البصير، المتكلم).

إن الله عزّ وجلّ متّصف بكل صفات الكمال، ومنزّه عن كل صفات النقص. فلو قلنا مع ذلك بأن أفعال الله عزّ وجلّ تنطوي على العلّة الغائية (كما هو الشأن بالنسبة لنا)، لاستلزم ذلك القول بأنّ الله سبحانه وتعالى متصف ببعض النقائص، وأنه يستكمل هذه النقائص بغيره، (تعالى الله عن ذلك علوّاً

كبيراً)، لأن من يحتاج إلى أمر ثم لا يستطيع بلوغ هذا الأمر إلا بواسطة معينة يستعملها فإنما هو ناقص من جهتين:

الأولى: من حيث أنه يحتاج إلى ذلك الأمر (والحاجة فرع من النقص).

والثانية: من حيث أنه لم يقدر أن يصل إليه إلا مستعيناً بغيره (والعجز ـ فرع من النقص).

فهذا شأن من تقوم أعماله على أساس العلة الغائية، فكيف يصح أن تستند هذه العلة إلى شيء من أفعال الله الخالق جلّ جلاله[1]؟.

رابعاً: ذكر الله لنا في كتابه العظيم، في بيانٍ مشرق ومعجز، أنه سبحانه خلق كل شيء مما نراه موجوداً، وبثّ فيه عمله الذي أراده له (أي خلق الذات ـ وأعطاها السببيّة أيضاً لما شاء من المسببات فقال:

● ﴿ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ طَه: /٥٠.

أي منح كل مخلوق استعداده الفطري (من عقل وغريزة وسواها)، ثم وجّه هذا الاستعداد لما خلق له. ويؤكد هذا المعنى قول الله تعالى:

● ﴿ سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوّى. والذي قدّر فهدى ﴾ الأعلى: /١ ـ ٣.

وهذا نص صريح قاطع، بأن لا سبب في الكون إلا بخلقه وجَعْله، فكيف يتصوّر مع ذلك أن يوسّط هذا الخالق العظيم بعض مخلوقاته لتحقيق غاية معينة (توسّط حاجة أو عجز) وهو الفعّال لما يريد، ولم يكن له كفواً أحد سبحانه وتعالى؟...

أما الآيات والأحاديث الموهمة لثبوت العلل والأغراض لله تعالى، بسبب استعمال (لام التعليل) كقوله تعالى:

● ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ الذاريات: /٥٦.

---

(١) ينظر كبرى اليقينات الكونية للأخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص ١٤٥.

● ﴿ وأنـزلنـا من السمـاء مـاء طهـوراً. لنحيي بـه بلدة ميتـاً. . . ﴾ الفرقان: /٤٨ ـ ٤٩.

فاللام في مثل هذه الآيات إنما هي تعبير عن (العلة الجعلية) الموضحة للنظام العام في الخلق والتدبير لا عن العلة الحقيقية، أي تعلقت إرادة الله بإيجاد الإنسان، وبتكليفه بمستلزمات العبودية له، كما تعلقت إرادته بإنزال المطر، وبإنبات الأرض، وبأن يكون الأول علّة للثاني برابط من محض مشيئته وقدرته (كما هو مفهوم نظامه العام في الخلق والتدبير).

فهذا المعنى إنما يعبّر عنه ـ لنا نحن البشر، الذين اعتدنا أن نتصوّر ارتباط الأشياء ببعضها في حقنا ـ برابطة التعليل والسببيّة، بلام التعليل ونحوها، وليس من ضير في ذلك، ولا في أن تستعمل أنت أيضاً، في كلامك عن خلق الله وترتيبه الأشياء على بعضها. . لام التعليل، ولكن المحظور أن تفهم من لام التعليل؛ الدلالة على (ثبوت العلة الباعثة) أو (العلة الغائية) في حقه سبحانه وتعالى.

فالله سبحانه غنيّ عن الأسباب، في خلقه وتدبيره، وإنما جعل للخلق أسباباً مباشرة (جعليّـة) (تسبب الوالد والوالدة لخلق الولـد) لتقرير مبدأ النظام العام في الخلق والتدبير، كقوله تعالى:

● ﴿ يا أيها الناس **إنا خلقناكم** (**من ذكر وأنثى**). . . ﴾ الحجرات: /١٣.

وقد أوجد سبحانه سيدنا المسيح عيسى ابن مريم، من غير واسطة أب، ليلفت أنظارنا إلى الأصالة في مشيئته وإرادته المطلقة[١]، حين خاطبنا بقوله سبحانه:

● ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون ﴾ آل عمران: /٥٩.

---

(١) نعني بإرادة الله سبحانه وتعالى أنها مطلقة: أي غير مقيدة، لا بمبدأ النظام العام في الخلق والتدبير ولا بغيره (وهو سبحانه موصوف بالحكمة والرحمة والعدالة، ومنزّه عن الخطأ والظلم، ومتصف بصفات الكمال المطلق).

٣ ـ لا يجب على الله شيء
والحسن والقبح في الأشياء اعتباري

لعلك تدرك إذا تأملت في هذا العنوان، أنه نتيجة ضرورية للحقيقة السابقة التي أوضحناها (وهي نفي العلة الغائية عن أفعاله جلّ جلاله).

فإذا ثبت أنه لا واسطة بين الله وخلق أيّ شيء مما تعلقت به إرادته بخلقه (واسطة حاجة أو عجز ـ كما أسلفنا)، وأن كل الموجودات بما فيها من تكيّف وأعراض، إنما هو بخلق من الله تعالى، فقد ثبت إذن أن الأشياء لا تنطوي (انطواءً ذاتياً) على شيء من الحسن والقبح، أي لا يمكن أن تكون متّسمة بحسن أو قبح متأصلين فيها بالطبع لا بالخلق.

فخالقية الله لجميع الأشياء، بجميع صفاتها، تقتضي أن يكون هو الخالق للشيء، وهو الخالق لمعنى الحسن ولمعنى القبح، هو الرابط والجامع بين ذلك الشيء وهذا المعنى.

الحسن والقبح حالان اعتباريان لا موجودان ذاتيان:

وإذا أدركت هذه الحقيقة، أدركت إلى جانب ذلك، أن الحسن أو القبح، ليس له جذور ذاتية مرتبطة بذات الشيء، بحيث لا يمكن الانفكاك عنه، وإنما هو معنى استتبع حكماً من أحكام الله عزّ وجلّ، فكان ما نسمّيه نحن بالحسن أو القبح، ولو شاء الله لعكس الأمر، فجعل الحسن قبيحاً والقبيح حسناً، ما دام الكلّ بخلق الله وحكمه، وهذا معنى قولنا إن الحسن والقبح في الأشياء اعتباري، ونحن من شدة إلفنا للترابط الذي خلقه الله بين الأشياء وخواصّها، نظن أن معنى الحسن أو القبح قد غدا كامناً في ذات كل منهما، فهما لا ينفكّان بعضهما عن بعض.

فإذا أدركت هذه الحقيقة إدراكاً جيداً علمت أن الله تعالى ليس مجبوراً في خلقه، وفي حكمه على أي شيء، إذ لو كان مجبوراً عليه، لكان سبب الجبر هو ضرورة اتباعه الأصلح والأفضل وتجنّبه عن الفاسد والقبيح، ولقد علمت أن الذي جعل الصالح صالحاً والفاسد فاسداً، هو الله عزّ وجلّ وأنه لا شيء يسمى

بالنظر لذاته حسناً أو قبيحاً، وأن الأمور كلها بالنسبة إلى الله في بدء الخلق سواء.

وصفوة القول أن الله خلق ما شاء في هذا العالـم، ورتّب جزئياته على بعضها ترتيباً، صيّر البعض منها حسناً مفيداً، وصيّر البعض الآخر قبيحاً مفسداً، ولم نكن نعلم أو نستشعر صفة الحسن أو القبح في هذا ولا ذاك، لولا خلقه وترتيبه وتأليفه بين الذوات وخصائصها.

النتائج الهامة التي تنبثق من هذه الحقيقة:

وهذه الحقيقة تكشف لك بسهولة عن ثلاث نتائج متفرعة عنها:

الأولى: إن الأشياء في أصلها خالية من صبغة الحسن والقبح، والنفع والضرر، ثم إن الله عزّ وجلّ صبغ بعض الأشياء بهذه الصبغة، وبعضها الآخر بتلك، وهذا معنى قولنا إن الحسن والقبح في الأشياء اعتباري وليس جوهريّاً.

الثانية: إنه يصدق قولنا إذن بأن الله خلق القبيح الضار، لأنه عندما ركّب في الأشياء خصائص معينة، أو ساقها إلى نتائج ذات تأثير معين، تخالف مصالح الناس، أو خلق في الأمزجة اشمئزازاً منها، فمعنى ذلك أنه قد خلق القبيح، ضمن ما خلقه من المكوّنات.

الثالثة: ليس من صفات النقص (التي علمنا أن الله منزّه عنها) أن يكون قد خلق القبيح والضار في الكون، لأن من صفات الكمال الثابتة لله، أن يخلق ما يشاء، دون أن يصدّه عن ذلك أي شيء، قوة كان أو عرفاً أو قانوناً، وليس خلقه لأصناف الموجودات، من قبيح وحسن وضار ونافع إلا مظهراً لهذه الصفة الكاملة، ولكن المنافي لصفة الكمال والمستلزم للنقص، أن يقال أنه اكتسب القبيح أو اتصف به، وفرق كبير بين هذا وذاك.

ليس نقصاً في ذات الله أن يخلق العجز في الكون، متمثلاً في شتّى المظاهر، ولكن النقص أن يتصف هو بشيء من العجز.

ويترتب على كل ما ذكرناه أن العقل بمفرده لا يستطيع أن يستظهر حكم

الله في الأشياء بموجب ـ ما يتراءى فيها من صفة الحسن أو القبح، لأن ما نراه فيها من هذه الصفة ليس ضرورة عقلية ملازمة للذات، بحيث لا بد أن يكون حكم الله تابعاً لها، وإنما هو ارتباط جعلي أو تصوّر خيالي، بسبب ارتباط تلك الأشياء بما ذكرناه من المصالح الظاهرة الخارجة عنها، وقد لا يأتي حكم الله على وفقها.

ولذلك اتفق جمهور المسلمين أنه لا شرع قبل بعثة الرسل ولا تكليف، وأن أهل الفترة الذين انقطعوا عن خبر الأنبياء السابقين، وبعثة خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام، ليسوا مؤاخـذين ولا مكلفين، ويدل عليه قوله تعالى:

● ﴿ وما كنا معذِّبين حتى نبعث رسولاً ﴾ الإسراء: /١٥.

خلاف المعتزلة في هذه المسألة:

واعلم أن المعتزلة خالفوا أهل السنة والجماعة في هذه المسألة فاعتبروا أن للأشياء حسناً وقبحاً عقليين (منبعثين من ذات الشيء)، وقرروا بموجب ذلك أن أحكام الله لا بد أن تسير وفق الأصلح والأحسن، وأن ذلك واجب من الله عزّ وجلّ، وأن العقل وحده يحكم في الأشياء ويعرف حكم الله فيها ولذلك فالعقلاء كلهم مكلفون (سواء بعثت إليهم الرسل أم لا)، والرسول في الآية هو العقل فيما زعموا...

ولقد زلّ المعتزلة في هذه المسألة زلّات كثيرة، ولم يظهر تهافت أفكارهم في مسألة كما ظهر في هذه المسألة. ولقد علموا أنهم في كلامهم هذا يقفون على شفير الكفر، وليس بينهم وبينه إلا أن يقولوا: إن مصالح الكون هي الحاكم على شرع الله وأفعاله، وهو نتيجة طبيعية لتصورهم وحكمهم على الأشياء بالحسن والقبح الذاتيين، إلا أنهم لم يقولوا إنه يجب على الله الأصلح، ولكنهم قالوا: يجب منه الأصلح، فهم لا يعنون بالوجوب إجباراً خارجياً له وإنما يقصدون أن صفة الكمال في الله هي منبع هذا الوجوب. وهذا كلام حسن، ولكنه مضطرب مع أصلهم الأول الذي اعتبروه، وهو ثبوت صفة الحسن والقبح في ذات الأشياء ابتداء.

٤ ـ مصير الإرادة الإنسانية أمام إرادة الله جلّ جلاله

والآن ـ وقد علمنا أن إرادة الله تعالى مطلقة (لا يقيدها شيء)، وكاملة (لا يشوبها نقص ـ ولا عجز ـ ولا إكراه)، وصالحة للتعلق بكل الممكنات (إيجاداً، وإعداماً، وتكييفاً)، فكيف نتصوّر أن تكون للإنسان إرادة إلى جانبها؟... وقد علمنا ببراهين التجربة والمشاهدة، أن الإنسان يريد ويختار، في كثير من سلوكه وتصوراته، فما نوع هذه الإرادة (الإنسانية) وحقيقتها، وما مصيرها في جنب إرادة الله؟.

والجواب ـ إن الله عزّ وجلّ لما خلق الإنسان أقامه على نوعين من الحركة والتصرف، أما ـ أحدهما فيستوي فيه الإنسان مع سائر الموجودات الأخرى من حيوانات وجمادات ونبات وأفلاك: حركات قسرية ووظائف آلية، ليس فيها للإنسان (أي كسب ـ أو مشيئة) كحركة النمو، وما يتبعه من قوة وشيب وضعف، وكالولادة والموت، وكالانفعالات المختلفة من حب وكراهية وجوع وعطش وخوف وفزع.

ـ أما النوع الثاني منهما، فتصرفات تنشأ عن سرّ عجيب خاص، أودعه الله عزّ وجلّ في الإنسان نسميه الاختيار والإرادة، فلقد تعلقت إرادة الله عزّ وجلّ بأن يغرس في كيان الإنسان هذا السر العجيب، الذي هو محور التكيف فيه، وأن يجعله يصدر في كثير من تصرفاته عن هذا السرّ العجيب الذي به يسمّى (حرّاً ـ مختاراً ـ مُريداً).

ومعنى ذلك أن إرادة الله تعالى تعلقت بأن تكون مريداً، فسرت إرادة الله عزّ وجلّ بذلك إلى كل ما تريده وتختاره من الأعمال (وكما في الحديث القدسي):

● «يا عبدي بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء ـ وبإرادتي كنت أنت الذي تريد لنفسك ما تريد». وإذن فلا يمكن أن يقع أي تعارض بين إرادة الله تعالى (في الأصل)، وما تختاره عن طريق إرادتك (الخاصة ـ في الواقع).

إذ لو فرضنا أن الله غير مريد لعمل قد اخترته بإرادتك، فمعنى ذلك انه

سبحانه وتعالى، غير مريد لإرادتك التي وجهتك إلى ذلك الفعـل، وهو مناقض لما ثبت من أن الله عزّ وجلّ قد شاء لك أن تكون مريداً، وشاء أن يخلق فيك هذا السرّ (لتقرير مصيرك ـ وصياغة سلوكك ـ حسب استقرار قناعتك ـ واطمئنان نفسك)، وعلى هذا الأساس فأنت (مكلف ـ ومسؤول) فثبت إذن فرض أن الله قد لا يريد العمل الذي تختاره، طالما أنه منحك الإرادة بمحض جوده وإرادته، وقضت مشيئته أن تكون (حرّاً ـ مختاراً ـ مريداً) وتكون في الوقت نفسه (مكلفاً ـ ومسؤولاً).

هكذا منح الله الإنسان (بمحض جوده ـ ومشيئته) الإرادة الحرّة[1]، وجعل ذلك منطوياً في مبدأ نظامه العام للخلق والتدبير (مخطط القضاء والقدر للحياة والأحياء).

وهكذا تعلم أن الله تعالى لا يقع في ملكه إلا ما يشاء ويريد، ولا يناقض

---

(١) ولأضرب لك مثلاً يقرّب إليك هذه الحقيقة: خادم عندك في الدار، تريد أن تعلم مدى صدقه وأمانته في الخدمة والمعاملة، ولكي تصل إلى بغيتك هذه، تعطيه مبلغاً من المال وتبعثه إلى السوق لشراء بعض الحوائج، وتفسح له المجال أن يتصرف كما يشاء، دون أن تضع عليه رقيباً، أو تضيّق عليه السبيل.
فأنت بترتيبك هذا، أردت أن يكون حرّاً فيما يفعل ويذر، لا يستجيب إلا لنداء ضميره، وتفكيره الداخلي، بحيث يتمتع بإرادة لا يشوبها قسر، حتى تعلم بذلك طويّته. فإذا عاد وقد خان الأمانة فيما أعطيته من المال، وما عاد به من المتاع، **فأنت في الواقع مريد لهذه النتيجة**.
ـ مع ملاحظة الفرق، وهو أن الله يعلم طويّة العبد، ويعلم ما سيختاره بمحض إرادته ـ وإذا عاد وقد حقّق منتهى الأمانة، **فأنت مريد أيضاً لهذه النتيجة**، إذ أنت لم ترد إطلاق يده بالتصرف كما يشاء إلا وأنت مريد لظهـور نتيجة ذلك (أياً كانت النتيجة)، تحبها وترضاها أم لا. كما أشارت الآية الكريمة:
● ﴿.... إنا هديناه السبيل، إما شاكراً وإما كفوراً﴾ الدهر: /٣.
إذا تبين لك هذا، علمت أن مصير الإرادة الإنسانية في جنب إرادة الله، ليس إلا كمصير إرادة الخادم في جنب إرادة سيده (ولله المثل الأعلى)، فإرادتك المتعلقة بتصرفاتك الاختيارية منطوية تحت إرادة الله تعالى ولكن لا عن طريق القسر والإكراه، بل عن طريق بث سرّ الإرادة والاختيار في كيانك، وكانت حكمته من ذلـك أن تكتسـب بموجبها كل ما تحب دون قسر أو إكراه، لتتجلّى طويتك في سلوكك فتستأهل بذلك مثوبة الله أو عقابه، وواضح أن سلوكك هذا يصبح بسبب ذلك من مرادات الله عزّ وجلّ.
ينظر كتاب ـ كبرى اليقينيات الكونية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص ١٥٦.

ذلك أنه أعطاك أيضاً إرادة ومشيئة، كما لا يناقض علمه بالأشياء كلها أنه أعطاك أنت أيضاً علماً ببعض يسير منها.

● ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما يشاء... ﴾ البقرة: ٢٥٥/.

٥ ـ القضاء والقدر: معناهما ووجوب الإيمان بهما

تتفرع ضرورة الإيمان بالقضاء والقدر من دليلين اثنين:

ـ **أولهما**: الحديث الصحيح الذي رواه مسلم:

● «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشرّه».

ـ **ثانيهما**: ما سبق من بيان أن الله يتصف بالعلم والقدرة، فالقضاء فرع عن ثبوت صفة العلم والإرادة لله عزّ وجلّ، والقدر فرع عن ثبوت صفة القدرة له.

تعريف كل منهما:

فأما القضاء: فهو علم الله عزّ وجلّ في الأزل بالأشياء كلها، على ما ستكون عليه في المستقبل (مقرونة بأسبابها).

والقدر: إيجاد تلك الأشياء بالفعل طبقاً لعلمه الأزلي المتعلق بها.

ومعنى وجوب الإيمان بهما ـ كما ذهب أهل السنّة والجماعة، هو أنه يجب على المكلف أن يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى علم[1] أولاً بجميع أفعال

---

(١) وهو الذي قدر الأشياء وقضاها، ولا يكون في الدنيا ولا في الآخرة شيء إلا بمشيئته وعلمه وقضائه وقدره، وكتْبه في اللوح المحفوظ (وقد كتبه بالوصف ـ لا بالحكم)، وإنما يتوالى حدوث الأشياء في المستقبل (مقرونة بأسبابها ـ وفقاً لما جرى به علمه ـ وسبق به كتابه ـ بالوصف لا بالحكم)، وكما قال ﷺ:

● «أول ما خلق الله القلم، فقال له اكتب، فقال القلم ماذا أكتب يا رب؟ فقال الله تعالى: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، كما في الآية: ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر، وكل صغير وكبير مستطر﴾.

العباد، وكل ما يتعلق بالمخلوقات، مما سيتوالى حدوثه في المستقبل، كما يجب عليه بأنه سبحانه وتعالى إنما أوجدها حين أوجدها، على القدر المخصوص والوجه المعين الذي سبق العلم به.

ومن هنا تعلم بأن لا علاقة للقضاء والقدر بالجبر مطلقاً، كما يتوهم بعض الناس، لأن الله سبحانه وتعالى (بموجب ألوهيّته)، لا بد أن يكون عالماً بما سيفعله عباده من مختلف الأعمال وبما سيقع ويحصل في ملكه، وإلا لكان ذلك نقصاً في صفاته التي ذكرناها، **ثم لا بد أيضاً أن تقع هذه الأمور مطابقة لعلم الله عنها** (**بالوصف ـ لا بالحكم**)، وإلا لانقلب علمه جهلاً، وهو محال. وإيجاد الله لأفعال الناس لا يستلزم إجبارهم عليها، ولا يعني سلب الاختيار عنهم، فعلمه سبحانه وتعالى (كاشف ـ بالوصف)، وتوالي حدوثها في المستقبل (مقرونة بأسبابها) طبقاً لما جرى به علمه، وسبق به كتابه (في اللوح المحفوظ).

وواضح أن هذا كله لا علاقة له بكون هذه الأفعال قد صدرت عن أصحابها على وجه القسر أو الإكراه أو بمحض الإرادة والاختيار، فقد علمت أن العلم صفة كاشفة فقط، وكل شأنها أن تكشف عن الأمور، على ما هي عليه، أو على ما ستوجد عليه (كشف الحوادث الواقعة ـ والمتوقعة)، وهو شيء لا علاقة له بالجبر أو التخيير، حيث أن (إرادة الإنسان الحرة واختياره)، إنما ينطوي في مبدأ النظام العام الإلّهي في الخلق والتدبير[1].

يقول النووي رحمه الله (في شرحه على صحيح مسلم)، بعد أن عرَّف

---

(١) وفي هذا المقام سُئِل الحسن البصري (أحد كبار التابعين)، هل أجبر الله عباده؟ فقال: هو أعدل من ذلك، فقيل له: هل فوَّض إليهم؟ أي هل تركهم (على مستوى الإرادة المطلقة ـ بلا تكليف ولا مسؤولية) بلا نظام عام في الخلق والتدبير؟ قال: هو أعزّ من ذلك، أن يترك الإنسان سدىً، وإنما شرع لهم من الدين منهجاً واضحاً (افعل كذا ـ ولا تفعل كذا) حتى يجعل حياتهم قائمة على النظام العام وتوفير الطاقة وتوحيد الأهداف، فهو سبحانه (تعالت عزّته ـ وجلّ سلطانه) من أن يترك الإنسان سدىً، فلو أجبر عباده: لما عذَّبهم على انحرافهم عن منهجه، ولو فوّض إليهم السلوك على مستوى الإرادة المطلقة (بلا تكليف ـ ولا مسؤولية) لما كان للأمر والنهي معنى، في إرسال الأنبياء بالشرائع والمناهج الملزمة.
ينظر كتاب «مفتاح السعادة» للحسن البصري، «بتصرّف» في المشروحات.

القضاء والقدر بما ذكرناه: قال الخطابي: (وقد يحسب كثير من الناس، أن معنى القضاء والقدر، إجبار الله سبحانه وتعالى العبد، وقهره على ما قدَّرْ وقضاه، وليس الأمر كما يتوهمونه، وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله سبحانه بما سيكون (من إكساب العبد ـ وعمله بإرادته)، وصدورها عن تقدير منه.

ومخطط القضاء والقدر، إشارة إلى نظام الله العام في الخلق والتدبير، حيث تمتزج الحكمة والرحمة والعدالة بعلم الله الكامل الشامل (للماضي والحاضر والمستقبل)، وحيث يشير الله سبحانه إلى ما ينطوي عليه نظامه العام (من قابلية التعديل)، وبمشيئته المطلقة، كما في الآية الكريمة:

● ﴿لكل أجل كتاب. يمحوا الله ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب﴾ الرعد: /٣٨ ـ ٣٩.

● ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...﴾ الرعد: /١١.

ففي الآية الأخيرة، يحدثنا الله سبحانه وتعالى، أن ما يجريه الله من تغيير على عباده، من مكافأة إلى مؤاخذة، أو بالعكس، مسبوق بما يجرونه هم في أنفسهم من تغيير، في مجال الاستقامة أو الانحراف، وكما قال سبحانه أيضاً:

● ﴿فلولا أنه كان من المسبّحين. للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾.. الصافات: /١٤٣ ـ ١٤٤.

وهذه الآية الكريمة تفسير عملي للآية السابقة ﴿إن الله لا يغير ما بقوم...﴾.

كما أن هذه الآية الكريمة تعطينا معنى الدقة البالغة في مجاري القضاء والقدر، في (نظام الله العادل ـ في الخلق والتدبير)، فتسبيحة واحدة، من سيدنا يونس عليه السلام، بما أعربت عن توبة صادقة مخلصة، أعادته إلى صفاء العقيدة وأصالة التوحيد، والاعتراف لله بالعدالة والكمال، بدَّلت حكم الله تعالى (من السجن المؤبد ـ إلى العفو).

وهكذا كل إنسان في مواجهة الأقدار الإلّهية، معرض (في كل لحظة)

للمكافأة أو المؤاخذة، حسبما يصدر عنه (من نيّة ـ أو سلوك)، فالجزاء في حكم الله (من جنس النية والعمل).

حكمة الإيمان بالقضاء والقدر:

الإسلام يهيب بالإنسان المؤمن أن يحرِّك قواه الواعية (في نطاق الفكر ـ وفي مجال الروح)، لتنمو في ظلال الثقة والإيمان بالله، وحرية الإرادة هي القاعدة الأساسية في تربية الإسلام، والإنسان من خلال هذه الحرية (مكلف ـ مسؤول)، عليه أن يقرر مصيره، ويصوغ سلوكه، على ضوء ما يراه من قناعة في الفكر واطمئنان في النفس: على صعيد التناغم والانسجام، بين هذه القناعة وهذا الاطمئنان، وبعد تنفيذ مراده يعود (دائماً) إلى شرع الله متبعاً رضوانه ليعدل من سلوكه على ضوء التوجيه الإلٓهي (للمؤمنين جميعاً).

أجل ـ لنذكر دائماً أن هذا الكون الذي نعيش فيه، خاضع لنظام عام إلٓهي (في الخلق ـ والتدبير) يشعّ بعلم الله الكامل (الشامل للماضي والحاضر والمستقبل)، وقد انسجم علمه سبحانه مع عدالته الدقيقة وحكمته البالغة، ورحمته الشاملة.

وهذا الكون قد ربط الله فيه بين الأسباب والمسببات، والمقدمات والنتائج، فما يحدث الآن يكون نتيجة لما سبقه، ومسبّباً لوجود ما بعده، سنّة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

فهذا الكون ـ كما ذكرنا ـ خاضع للنظام العام الإلٓهي في الخلق والتدبير، تظهر على صفحته المتتابعات (الأسباب ـ والمسبّبات)، والتتابع في قانون الله، هو تغييرات يحدثها الإنسان بإرادته الحرة فتؤدي (بإذن الله) إلى تغييرات أخرى في حياة الناس (من المكافأة إلى المؤاخذة ـ أو بالعكس)، بحكم سنة الله في خلقه، وكما قال تعالى:

● ﴿إنَّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. . .﴾ الرعد: ١١/.

فالإنسان ـ في دائرة وجوده الضيِّقة ـ سيد نفسه في تصرُّفاته (بما منحه الله من إرادة حرَّة ـ وبمحض جوده) وهو المسؤول عنها، وعن استعمال القوى التي

وهبت له، وفي مقدوره أن يرتفع بنفسه إلى أعلى مستوى إنساني إنْ هو سلك طريق الهدى والتقوى والتربية الصحيحة، وأتى البيوت من أبوابها، فلزم البيئة الصالحة ـ كما أمر الله ـ التي تغذي في نفسه معـاني الصدق والإخـلاص والتواضع لله، وتعينه ـ بإذن الله ـ على ذكره الله وشكره وحسن عبادته والاستقامة على طاعته بما يجد فيها من فقه صحيح لكتاب الله، واتباع صادق لسنة رسول الله ﷺ.

فعناية الله (وكرامته) وتكريمه للإنسان، منطلقها طلب العلم النافع، وبذل العمل الصالح، وجهاد النفس والهوى، وإيثار ما يبقى على ما يفنى، وكما قال ﷺ:

● «الكيِّس (العاقل) من دان نفسه (حاسبها ـ وذلَّلها لطاعة الله)، وعمل لما بعد الموت والعاجز، من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأماني».

رواه الإمام مسلم والزندي وابن ماجه ـ عن شدَّاد بن أوس رضي الله عنه.

فحكمة الإيمان بالقضاء والقدر: تهيب بالإنسان، للتعرّف على سنّة الله في خلقه، ومنهاجه في شريعته، على حكمته ورحمته وعدالتـه، ومن ثم الانطلاق في مجالات العمل والبناء، بقوة العلم ويقظة الإيمان، فيرفع من نفسه إلى معالي الأمور (التي يحبُّها الله ويرضاها)، من الإباء والشجاعة، من أجل إحقاق الحق والقيام بالواجب، ويرفع في نفسه منسوب الثقة بالنفس، شعوراً وإيماناً بعدالة الله وسلطانه الأعلى في هذا الكون.

والإيمان بالقضاء والقدر، يُري الإنسان أن كل شيء في الوجود، إنما يسير وفق مشيئة الله المطلقة، وحكمته العليا، فإذا مسّه الضرُّ (أو وقع في أزمة) فإنه لا يجزع، وإذا حالفه التوفيق والنجاح فإنَّه لا يفرح (فرحاً مبطراً ـ يخرجه عن عناية الله)، وإذا نجا الإنسان من الجزع عند الفشل والإخفاق، ومن الغرور والبطر عند التوفيق والنجاح، كان إنساناً سويّاً متزناً، بالغاً منتهى السموّ والرفعة (بتوفيق الله) وهذا هو معنى قوله تعالى:

● ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلَّا في كتاب من قبل

أن نبرأها، إن ذلك على الله يسير. لكيلا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم، والله لا يحب كل مختال فخور﴾ الحديد: /٢٢ - ٢٣.

وهذه سنّة رسول الله ﷺ قولية وعملية توجّهنا إلى ممارسة الأسباب، وإتيان البيوت من أبوابها، فقد لبس الرسول الكريم ﷺ الدروع في الحرب، وحفر الخندق، واستعمل العيون والحرّاس، واستنصر بالحلفاء، واستعان بالأصحاب، وتداوى وأمر بالتداوي، وكان يدّخر لقوت أهله ما يكفيهم عاماً، وأمر بالاقتصاد في العيش، والشورى في الرأي، والتعاون على البر والتقوى[1].

ومن جوامع الكلم، وفصل الخطاب في هذا المعنى قوله ﷺ، فيما يرويه الإمام مسلم في صحيحه:

● «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء (أي خلاف مرادك)، فلا تقل لو أني فعلت كذا... كان كذا، ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان».

وفي نهاية المطاف - (من حيث الإيمان بحكمة القضاء والقدر)، لقد أعطانا القرآن الكريم درساً بليغاً (عقب غزوة أحد)، تأكيداً للإيمان بعدالة الله سبحانه، معلّلاً أسباب الفشل والهزيمة في هذه الغزوة، قال تعالى:

● ﴿أولمّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها، قلتم أنّى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم، إن الله على كل شيء قدير﴾ آل عمران: /١٦٥.

ومعنى الآية الكريمة، أولما أصابتكم مصيبة (في قتل سبعين من المسلمين - في غزوة أحد) قد أصبتم مثليها (يوم بدر - حين قتلتم من عدوكم سبعين - وأسرتم سبعين). قلتم: أنّى هذا؟ - أي من أين جاءت هذه المصيبة وهذه الهزيمة؟ قل هو من عند أنفسكم، (أي بسبب إهمال الرماة لوصية رسول الله ﷺ).

---

(١) ينظر كتاب - عالمية الإسلام - للمؤلف ص ١٤٩.

هكذا ـ قرر الإسلام أن الإنسان خُلق مزوّداً بقوى وملكات واستعدادات، يمكن أن توجّه إلى الخير كما يمكن أن توجَّه إلى الشر، وكما قال تعالى:

● ﴿ونفس وما سوَّاها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دسَّاها﴾ الشمس: /٧ ـ ١٠.

والله سبحانه، زوّد الإنسان بالعقل الذي يميِّز بين الحق والباطل، وأعطاه القدرة التي يستطيع بها أن يحق الحق ويبطل الباطل، وأن يأتي الخير ويدع الشر، وأن يقول الصدق ويجانب الكذب، ورسم له منهج الاستقامة (الحكمة والرحمة والعدالة) بما أنزل من كتب، وبما أرسل من رسل، وما دام العقل المميز موجوداً والقدرة على الفعل صالحة، والمنهج المرسوم واضحاً، فقد ثبت للإنسان حرية الإرادة واختيار الفعل.

وعلى الإنسان أن يواجه مسؤوليات الحياة (كمكلّف ـ مسؤول). يقول الله تعالى:

● ﴿إنا هديناه السبيل، إما شاكراً وإما كفوراً﴾ الإنسان: /٣.

والهداية هنا، الدلالة على الطريق الأقوم.

وكل إنسان مسؤول عن تهذيب نفسه وإصلاحها، حتى تصل إلى الكمال، فإن إصلاحها باجتياز العملية التربوية المعهودة ألتي تعني تزكية النفس، وتدريبها (وحسن ترتيبها) على حب الله والمزيد من ذكره، وتنميتها بالعلم النافع والعمل الصالح، والتزام البيئة التربوية المؤمنة التي تعين الطالب المسترشد على بلوغ هذه المعاني، التي هي سبيل الفلاح والنجاح والفوز برضا الله سبحانه وتعالى. قال الله سبحانه:

● ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ القيامة: /١٤.

إنّ الإنسان عارف بما تنطوي عليه نفسه، فعليه أن يتعهدها دائماً بالعلم والتربية والإصلاح حتى يكون من المفلحين. قال تعالى:

● ﴿قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دسّاها﴾ الشمس: /٩ ـ ١٠.

● ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها، وما ربك بظلاّم للعبيد﴾ فصلت: /٤٦.

وفي نهاية المطاف ـ يجب أن يستقر في الذهن بأن إرادة الله (ومراده سبحانه) لا تشبه بحال إرادة البشر، سواء من حيث تقرير مبدأ النظام العام في الخلق والتدبير، أو من الوجوه الأخرى (التي تتجلّى بها هذه الإرادة المقدسة).

ـ ففي أمر الله سبحانه ـ تطالعنا الآية الكريمة، ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ أي يحصل المراد ـ بمجرد الإرادة.

ـ وفي رضا الله سبحانه ـ تطالعنا الآيات الكريمة:

● ﴿وأن تشكروا يرضه لكم﴾ ﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾.

والملاحظ هنا أن رضى الله سبحانه ثمرة العمل الصالح (على العموم) وثمرة الشكر (بصفة خاصة) ولقد نفى القرآن الكريم (فكرة الجبر مطلقاً ـ فيما يتعلق بالقضاء والقدر) كما يلي:

● ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ﴾ البقرة: /٢٥٦.

● ﴿قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ الأنعام: /١٤٩.

ففي الآية الأولى: نفي للإكراه، وتقرير لحرية الإرادة.

وفي الآية الثانية: إشارة واضحة، أنه لو كان من الله سبحانه (مشيئة في الجبر ـ على الهداية أو الضلال) لكان جبراً على الهداية، وبقوّة الأمر (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)، ولكن الله تعالى جعل الهداية (بقوّة الوعي العلمي التربوي)، من حيث اختيار الهداية وسلوك طريق جهاد النفس والهوى، واجتياز العملية التربوية المعهودة..

فمقدمات الهداية: إنابة وتوبة إلى الله (على صعيد الصدق والإخلاص) وجهاد النفس والهوى:

● ﴿ويهدي إليه من أناب. الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ الرعد: /٢٧ ـ ٢٨.

● ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾ العنكبوت: /٦٩.

كما جعل الله الغواية والضلال، في حال غياب هذه القوة الواعية بسبب الجهالة والغفلة عن وصية الله واتباع الهوى. قال تعالى:

● ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله، إن الذين يضلُّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد، بما نسوا يوم الحساب﴾ صٓ: /٢٦.

● ﴿ويضلُّ الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾ إبراهيم: /٢٧.

● ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ الصف: /٥.

والمؤمن الموفّق (من توافقت إرادته مع مراد الله) بحسن المعرفة بالله، وحسن الطاعة لله، وحسن الصبر على أمر الله، واتباع رضوان الله.

يستعين بالله ليصل إلى الهداية بكمالها ﴿إياك نعبد وإياك نستعين)، كما يستعيذ بالله من الضلال، يحافظ على استقامته على طاعة الله، على مستوى الخشية والإجلال لله، والشعور بالمسؤولية بين يدي عظمته سبحانه، ولسان حاله في هذا المقام منطوقه الآية الكريمة:

● ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾ آل عمران: /٨.

وما يجب أن يستقر في ذهن المؤمن أمران:

الأمر الأول - الإيمان بعدالة الله سبحانه، في نظامه العام للخلق والتدبير.

الأمر الثاني - قابلية التعديل (لمشيئة الله - في مفهوم هذا النظام)، وقد أشارت إلى ذلك الآيات الكريمة:

● ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم...﴾ الرعد: /١١.

● ﴿فلولا أنه كان من المسبّحين. للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ الصافات: /١٤٣ - ١٤٤.

● ﴿لكل أجل كتاب. يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ الرعد: /٣٨ ـ ٣٩.

وطالما أن عدالة الله سبحانه (في الأصل) ترافقها قابليَة التعديل لمشيئته (في الواقع) فالجبر منفيّ في قضاء الله وقدره، وعلم الله تعالى (بالمستقبل ـ بالحوادث المتوقعة) إنما هو (علم وَصْفي ـ كاشف)، لا ينال من حرية الإرادة الإنسانية، كما أشرنا.

وعلم الله سبحانه (وخاصة في كشف الحوادث المتوقعة) لا مجال فيه لوضع النقاط على الحروف ولا للسؤال عنه بكيفيَّة، لأن ذلك يتَّصل بذات الله الذي لا تحيط به الفكرة ولا تناله كيفية، ولا سبيل للعقل البشري إلى معرفة كنهه وحقيقته.

ولذلك أيَّد الله الوحي والرسالة بالمعجزات والآيات، الخارقة لقانون الحياة العادي، حتى يذعن الفكر ويستسلم العقل البشري لـوحي الله بلا مناقشة، كما قال تعالى:

● ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيـرة من أمـرهم، ومن يعص الله ورسـولـه فقـد ضـلَّ ضــلالاً مبينـاً﴾ الأحزاب: /٣٦.

والتربية الإسلامية إذا استكملت أبعادها المطلوبة (في نطاق الفكر ـ وفي مجال الروح والوجدان) حاز المؤمن (بتوفيق الله) صفة التقوى[1] بحقيقتها، وسار في طريق الكرامة واتباع رضوان الله.

---

(١) التقوى كلمة جامعة لفضائل النفس وكمال الخلق ـ تعبّر عن الاستعداد لطاعة الله على مستوى الإجلال والتعظيم لأمر الله، والشعور بين يدي جلاله سبحانه (استقامة على طاعة الله ـ وحفاظاً على ذكره سبحانه).
فطاعة الله تربّي الإنسان على التكامل النفسي، وذكر الله ينمي في النفس معاني اليقظة التربوية ويقرب الإنسان من حكمة الله ورحمته وعدالته، وهو الحافز الأكبر لشكر نعم الله.
التقوى ـ وقاية وحفظ من سخط الله، بل تهذيب وتربية النفس لحفظها من غضب الله، ودليل تربوي لاتباع رضوان الله. التقوى هي تلك الكلمة التي تعبر عن التكامل النفسي، لنفس =

. . . .

= مؤمنة قطعت بتوفيق الله مرحلة الجهاد الأكبر، فأصبحت على قدم الاستقامة على طاعة الله وذكره وشكر نعمته.

التقوى ـ هي الكلمة المعبرة عن السلوك السليم الصحيح، المتوافق مع حكمة الله ورحمته وعدالته وتعظيم أمره الذي يستحق صاحبه الكرامة عند الله في الدنيا والآخرة، وكما قال تعالى:

- ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ الحجرات: /١٣.
- ﴿ونفس وما سوَّاها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكّاها، وقد خاب من دسّاها﴾ الشمس: /٧ ـ ١٠.

سوّاها: سوّى خلقها وعدل ـ ألهمها فجورها وتقواها: أعطاها القدرة على التمييز، بين الاستقامة والانحراف ـ قد أفلح من زكاها، فاز من جاهد نفسه، وطهرها بطاعة الله.

دسَّاها: أخفى مزاياها بالجهل والغفلة والفسوق.

خاب من دسَّاها: خسرت نفس (جاهلة ـ غافلة عن وصية الله ـ فاسقة منحرفة عن مراده سبحانه) أخفت مزايا إنسانيتها بمعصية الله.

من خلال هذه الآيات وأمثالها، تبرز لنا نظرة الإسلام إلى تربية النفس، وتنمية فكر الإنسان وتهذيب عواطفه، وتقويم سلوكه، وبقصد تحقيق أهداف الإسلام في حياة الفرد والجماعة.

فالتربية الإسلامية على هذا الأساس، عملية تنمية وإعداد، تتعلق قبل كل شيء بتهيئة عقل الإنسان وفكره وتصوراته عن الكون والحياة، وعلاقته بهذه الدنيا، وعلى أي وجه ينتفع بهذا الكون وما هو الهدف الذي يجب أن يوجّه إليه مساعيه، حتى يحقق غاية وجوده.

لقد أراد الله لنا الحياة حرَّة كريمة (تكليفاً ـ ومسؤولية)، إخاء وتعاوناً على البر والتقوى وتنافساً شريفاً في سبيل الحياة الأفضل، وكما قال تعالى:

- ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً. . .﴾ سورة الملك: /٢.

وقد قدَّم الإسلام هذه الأفكار كلها في منظومة من التصوُّرات، مترابطة البنيان، كما قدَّم لنا العقائد التي يجب على الإنسان أن يؤمن بها، لكي تحرّك في نفسه الأحاسيس والمشاعر، وتغرس العواطف النبيلة الجديرة بأن تدفعه إلى السلوك السليم، الذي نظّمت له الشريعة قواعده وضوابطه.

وعملية التربية الإسلامية هي تنمية شخصية الإنسان المسلم، على أن يتمثَّل كل هذه الجوانب: (الاعتقادية، والفكرية، والتشريعية، والتعبُّدية) في انسجام وتكامل، تتوحَّد معه طاقات الإنسان، وتتضافر جهوده، وتتناسق حول محور واحد هو (إخلاص العبودية لله ـ واتباع رضوانه سبحانه).

إن تربيتنا الإسلامية تربية فريدة (في أهدافها، ووسائلها، وثمراتها)، هي عملية إصلاح الفرد، وتقويم الاعوجاج البشري، وإيصال الناشىء إلى كماله تدريجياً، واعتبار العبادة الصحيحة خير وسيلة لإعداد المواطن الصالح والمواطنة الصالحة، وخير سبيل لتوجيه الإنسان نحو غاية وجوده، وتعليمه كيف ينكر ذاته، ويرتفع عن شهواته (غير المشروعة) بإرادة قوية، ووعي تربوي صحيح، ويروّض على تسليمها المطلق لتوجيه ربّها سبحانه وتعالى، جهاداً للنفس والهوى، واتباعاً لرضوان الله. =

واستكمالاً لبحث (حكمة القضاء والقدر) نأتي على شرح حديث نبوي، يلتبس في الفهم على كثير من المسلمين وهو الآتي: عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدَّثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق:

● «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيد، فوالله الذي لا إلّه غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلاَّ ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلاَّ ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» رواه البخاري ومسلم.

قبل أن نأتي على شرح هذا الحديث الشريف، نقدم له إيضاحاً موجزاً (يمثل الخطوط العريضة لمعناه) فنقول: إن إرسال الملك للإنسان ـ بإذن الله ـ لينفخ فيه الروح، إنما يعني بداية ارتباطه وخضوعه للنظام العام الإلّهي في

= وبعد هذا الاستعراض الوصفي الموجز لمعاني التربية الإسلامية، نعود إلى منطلق البحث: بأن فلاح الإنسان ونجاحه في معركة الحياة، يكون من خلال حسن المعرفة بالله، وحسن الطاعة لله، وحسن الصبر على أمر الله، وحسن الشكر لنعم الله، وبلوغ مرتبة الحكمة التي تعني حسن التصرف ـ على مستوى ملاءمة الظروف (زماناً، ومكاناً، وأشخاصاً)، والإصابة في القول والعمل.

أجل ـ من استخدم قواه الواعية ـ كما أمر الله ـ في تزكية نفسه، وتهذيب قواها ونوازعها، وتطهيرها من رعوناتها ونزعات الانحراف فيها، وتنمية استعداد الخير فيها (وتغليبه على استعداد الشر) فقد أفلح ونجح (بتوفيق الله ـ ومعونته)، ومن حجب قواه الواعية، وأخفى مزاياها (بالجهل والفسوق) فقد خاب وخسر.

هنالك ـ إذن ـ تبعة (مسؤولية) مترتبة على منح الإنسان هذه القوة الواعية (العقل) القادرة على الاختيار والتوجيه، توجيه الاستعدادات الفطرية (القابلة للنمو في حقل الخير ـ وفي حقل الشرّ سواء) فهي حرية تقابلها مسؤولية، وقدرة يقابلها التكليف. ومنحة يقابلها واجب. ورحمة من الله للإنسان، لم يدعه لمجرد استعداد فطرته الإلهامي، ولا للقوة الواعية المالكة للتصرُّف، وإنما أعانه بالتشريع السماوي، الذي يضع له الموازين الثابتة الدقيقة، فتكشف له حقائق الإيمان ودلائل الهدى، فيبصر الحق في صورته الصحيحة، ويتكامل عقله بنور الوحي، وبذلك يتضح

الخلق والتدبير، وهنا يأتي التقرير الأوَّلي من قبل الله سبحانه، لتقرير المواهب الشخصية للإنسان، واستعداداته الفطرية، على ضوء قانون الوراثة العـام،

له الطريق، وضوحاً كاشفاً، لا لبس فيه ولا شبهة، فتنصرف القوة الواعية (العقل) نحو غايتها، على بصيرة وهداية من واهب الحياة، وهذه في جملتها هي مشيئة الله بالإنسان، وكل ما يتم في دائرتها، فهو محقّق لمشيئة الله وقدره، في نظامه العام الكوني للحياة والأحياء، الذي يعني علمه الكامل الشامل للماضي والحاضر والمستقبـل، الممتزج بحكمتـه ورحمتـه وعدالته سبحانه.

هذه النظرة المجملة تنبثق منها حقائق ذات قيمة في التوجيه التربوي.

فهي أولاً - ترتفع بقيمة الكائن الإنساني، حين تجعله أهلاً لاحتمال تبعة (مسؤولية) اتجاهه، وتمنحه حرية الاختيار، في نطاق المشيئة الإلّهية، التي شاءت له هذه الحرية فيما يختار، فالحرية والتبعة (المسؤولية) يضعان هذا الكائن في مقام كريم، ويقرران له في هذا الوجود منزلة عالية تليق بالإنسان الذي نفخ الله فيه من روحه، وسوّاه بقدرته، وفضّله على كثير من العالمين.

وهي ثانياً - تلقي على هذا الكائن تبعة مصيره، وتجعل أمره بين يديه (في إطار المشيئة الإلّهية الكبرى)، في المخطط العام للقضاء والقدر، وقل إن شئت (النظام العام الإلّهي في الخلق والتدبير)، فتثير في قواه الواعية كل مشاعر اليقظة والتقوى، وتحمل هذه الكلمة الجليلة - كما أسلفنا - كثيراً من المعاني العلمية التربوية المعهودة، وكما قال تعالى:

● ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. وأن سعيه سوف يرى. ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾ النجم: /٣٨ - ٤١.

وهو يعلم أن قدر الله فيه من خلال (تصرفه هو - بنفسه) وإرادته الحرة، استقامة أو انحرافاً كما قال تعالى:

● ﴿ إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم. . ﴾ الرعد: /١١.

وقد سبق شرح هذه الآية الكريمة: (في مفهوم قابلية التعديل لمشيئـة الله في نظامه العام سبحانه).

فلا مجال لإعادة الشرح. وهي (أي هذه الإرادة الإنسانية) تبعة ومسؤولية ثقيلة تستدعي اليقظة العلمية التربوية الصحيحة.

وهي ثالثاً - تشعر هذا الإنسان بالحاجة الدائمة للرجوع إلى الموازين الإلّهية الثابتة، ليظلّ على يقين أن هواه لم يخدعه، ولـم يضلّله، كي لا يقوده اتباع الهوى إلى الضلال عن سبيل الله.

بذلك يظل الإنسان (المؤمن - التقيّ)، على قدم محاسبة النفس وممارسة النقد الذاتي قريباً من الله (من حكمته ورحمته وعدالته)، يهتدي بهديه، ويستضيء بالنور الذي أمدّه به في متاهات الطريق، وكما قال الله سبحانه وتعالى:

● ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتّبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ المائدة: /١٥.

ويدخل في تقرير ذلك ما يتمتع به الوالد والوالدة من صفات (حسنة ـ أو سيئة).

ولا شك أن (عدالة الله ـ في الأصل) و (تربية البيئة ـ في الواقع)، تخضع هذا التقرير الأوّلي غالباً إلى قابلية التعديل (سلباً ـ وإيجاباً)، إلا أن يشاء الله أمراً (استثنائياً ـ معيناً)(١).

أما (سبق الكتاب) الواردة في الحديث الشريف، فإنما يعني (والله أعلم) التعبير عن مقارنة الأسباب للنتائج (كما سيأتي شرح هذا المعنى بالتفصيل ـ بإذنه تعالى).

فالتقرير الأوّلي (من قبل الله سبحانه) في بداية خضوع الإنسان (الطفل) للنظام العام الإلّهي في الخلق والتدبير قد يتضمن مكافأة من الله تعالى (للوالدين ـ أو لأحدهما) بهبة الطفل المستقبل الباسم والمواهب النادرة، والاستعداد الفطري الخصب لقبول التوجيه الإلّهي، ومثال ذلك:

والدة [السيدة مريم بنة عمران]، حين قالت تناجي الله تعالى:

● ﴿ إذ قالت امرأة عمران: ربِّ إني نذرت لك ما في بطني محرراً، فتقبّل مني إنك أنت السميع العليم ﴾ آل عمران: /٣٥.

وكان الردّ الإلّهي الأكرم:

● ﴿فتقبلها ربّها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفّلها زكريا...﴾ آل عمران: /٣٧.

فالله سبحانه وتعالى ـ تكريماً لوالدة السيدة مريم المؤمنة ـ منح السيدة مريم الاستعدادات الفطرية النادرة (في الأصل)، كما منحها (في الواقع) رعاية

---

(١) كما في الآية الكريمة:
● ﴿ إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ القصص: /٦.

نبيّ من أنبيائه، يشرف على حسن تربيتها وتوجيهها نحو استكمال عناية الله وفضله وتوفيقه.

وقد يتضمن (التقرير الأوّلي ـ الإلّهي) المعنى المعاكس، مؤاخذة من الله تعالى (للوالدين) أو لأحدهما، حيث يأتي الطفل متخلفاً في مواهبه واستعداداته الفطرية، وحيث يواجه الصعوبات في اجتيازه للعملية التربوية في الواقـع.

وفي هذا المقام حاز (عدد) من أصحاب رسول ﷺ ببشارته الكريمة (بالجنة) (وما ينطق عن الهوى ـ إن هو إلا وحي يوحي)، وذلك لسبقهم في تلبية نداء الله، وإصرارهم على الاستقامة على طاعة الله.

في الوقت الذي استحق (أحدهم) إعلان الوحـي عن حشره في زمرة أهل النار بسبب إصراره على معصية الله، ومحاربة رسول الله. ﴿ تبّت يدا أبي لهب وتبّ. . . ﴾.

وبعد أن أشرنا إلى الخطوط العريضة للحديث الشريف، بتقديم الإيضاح الموجز لمفهوم (التقرير الأوّلي لله سبحانه) و (معنى سبق الكتاب) نأتي بتوفيق الله على شرح هذه المعاني بشيء من التفصيل:

بالنسبة (لسبق الكتاب) أشرنا أنه يعني مقارنة الأسباب للنتائج فما معنى ذلك؟ أجل ـ إن الذي عمل بعمل أهل النار إنسان حقّت عليـه كلمة الله بالضّلالة بعد الهدى.

وقد سبق أن ذكرنا ذلك في شرح الآية الكريمة (التالية)؛ ومن خلال بحثنا لصفة العلـم لله عزّ وجلّ:

● ﴿ وما كان الله ليضلّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون، إن الله بكل شيء عليم ﴾ التوبة: /١١٥.

فالضلالـة بعد الهدى، لا تكون من الله إلا لمن وقع في شراك (الغفلة، والمعصية)، واتباع الهوى والضلال عن سبيل الله، فإذا هو في مواجهة العدالة الإلّهية (الجزاء من جنس العمل).

والتعليل الذي يمكن أن يرد في هذا المقام: أن الذي ختم بعمل أهل الجنة، إنسان تاب إلى الله توبة صادقة مخلصة، واستأنف السلوك السويّ في مجالات العمل الصالح الذي يرضي الله، فإذا هو في مواجهة مغفرة الله وعنايته (والتائب من الذنب كمن لا ذنب له).

كما يعطي هذا الحديث لكل مؤمن ـ على الحقيقة ـ أن الأعمال بخواتيمها، حتى لا يغترّ أحد بعمله الصالح، ولا يقنط العاصي من رحمة الله.

ولا شك أن الذي ختم له بدخول النار، كان بناء العقيدة والإيمان لديه ينطوي على ضعف في الإخلاص، حتى إذا غاب هذا المعنى (في صياغة السلوك) وتجرّد العمل من الإخلاص لله فلا قبول لهذا العمل عند الله، والذي يبني على غير أساس، أو على أساس ضعيف، فالنتيجة المرتقبة هي انهيار البناء (والضلال بعد الهدى ـ كما أشرنا أعلاه).

ولا شك أن الذي وقع في هوّة الضلال بعد الهدى (كما هو منطوق الآية ـ ١١٦ من سورة التوبة) إنما هو إنسان ضعيف الإخلاص، تعدّى حدود الله وظلم نفسه، واخترق حواجز التقوى وتجاهل علم الله بسلوكه، فكانت النتيجة الضلال بعد الهدى (والعياذ بالله).

أما إجابتنا عن (كيفية سبق الكتاب)، فهذا الأمر يتصل، بذات الله ومشيئته، ومعرفة كيفيّته؛ فوق مستوى العقل البشري، ولكن الله سبحانه رحمة بنا قرّب هذه الكيفية إلى قناعة الفكر، يحملها الإيمان بعدالة الله سبحانه، كما هو منطوق الآيات الكريمة:

● ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ الصافات: /١٧١ ـ /١٧٣.

● ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا، ساء ما يحكمون ﴾ العنكبوت: /٤.

وكأن العدالة الإلّهية تخاطب المسيء ـ في هذا المقام ـ لا تحسبن الله غافلاً عن معصيتك أو أنك تسبق مشيئة الله (ويُعْصى الله مغلوباً ـ في منظار

السفهاء)، وقد سبقك علم الله ومشيئته بتقرير المؤاخذة لك (مسبقاً)، ولكل من كان على شاكلتك، إلا أن تتوب صادقاً مخلصاً فالله سبحانه ﴿لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

فلتكن أيها العاصي على مستوى التوبة، قبل أن تنزل بك العقوبة، فإن علم الله سبحانه (كاشف واصف عليم بذات الصدور ـ ألا يعلم مَن خلق وهو اللطيف الخبير).

يرى سبحانه (في مرآة علمه الكامل) (عملك ـ وعمل كل إنسان) في حيّز النية والتصميم قبل أن يظهر إلى حيّز التنفيذ والواقع.

أجل ـ فلنذكر الله ـ على الحقيقة ـ ذكراً كثيراً، حتى نستشعر علم الله ورقابته ونحاسب أنفسنا على هذا الأساس، فهذا غذاء ثقتنا وإيماننا بالله، وهذا الذي يمنحنا الضمير الحيّ مع تقوى الله وكرامته في الدنيا والآخرة.

وبعد هذه المشروحات التي لا بد منها نختم البحث بإيضاح العبارة التالية: هل يَعْني سبق الكتاب مقارنة الأسباب للنتائج؟.

أجل ـ إن معصية الله قرينة الجهل، والغفلة عن وصية الله قرينها تسلّط الشيطان، كما في قوله تعالى:

● ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين﴾ الزخرف: /٣٦.

واتباع الهوى مؤدّاه الضلال عن سبيل الله، وكما قال تعالى:

● ﴿.. ولا تتّبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله إن الذين يضلّون عن سبيل الله، لهم عذاب شديد، بما نسوا يوم الحساب﴾ صٓ: /٢٦.

● ﴿أفرأيت من اتخذ إلّهه هواه... وأضله الله على علم...﴾ الجاثية: /٢٣.

فاتباع الهوى يمحو من النفس نور العلم، ويوقعها في ظلمات الضلال عن سبيل الله.

هكذا يكون سبق الكتاب (في السلب ـ والإيجاب) إنما يعني مقارنة الأسباب لنتائجها وبذلك تظهر لنا بوضوح عدالة الله سبحانه في نظامه العام للخلق والتدبير، وتستكمل هذه العدالة أبعادها (في الوضوح) في مفهوم قابلية التعديل في مشيئته سبحانه التي أشرنا إليها سابقاً في الآيات الكريمة:

● الآية: /١١ من سورة الرعد ● والآية/ :١٤٢ ـ ١٤٣ من سورة الصافات ● والآية: /٣٩ من سورة الرعد أيضاً.

ونكون بذلك قد أتممنا ـ بتوفيق الله ـ شرح حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي بدأنا به.

الباب الثاني

النبوّة والوحي

المبحث الأول: ظاهرة الوحي.
المبحث الثاني: الأنبياء الذين بعثهم الله عزّوجلّ.
المبحث الثالث: الصفات الضرورية للأنبياء عليهم الصلاة والسلام.
المبحث الرابع: الإنسان في منظار علم العقيدة الإسلامية.

المبحث الأوّل

ظاهرة الوحي

تمهيـــد:

الآن ـ وقد انتهينا من البحث في وجود الله عزّ وجلّ، ورأينا كيف أن الفطرة السليمة والعقل الراجح لا يتردّدان في الإيمان بوجود خالق مدبِّر للكون، مالك لأمره، وعلمنا الخصائص الهامة والصفات التي يتصّف بها هذا الخالق العظيم.

يكرر الله عزّ وجلّ في خطابه لنا (التنبيه)، إلى أنه تعالى لا يمكن أن يكون قد خلق الإنسان عبثاً ويهيب بالعقول أن تنتبه إلى هذه الحقيقة الواضحة:

● ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً، وأنكم إلينا لا ترجعون. فتعالى الله الملك الحق، لا إلّه إلا هو رب العرش الكريم ﴾ المؤمنون: /١١٥ ـ ١١٦.

● ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين. لو أردنا أن نتخذ لهـواً، لاتخذناه من لدنّا إن كنا فاعلين. بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، ولكم الويل مما تصفون ﴾ الأنبياء: /١٦ ـ ١٨.

فإذا أدركت هذه الحقيقة، بعد إيمانك بالله عزّ وجلّ، فلا بد أن تجدَّ في البحث عما يكون مرتباً عليك من وظيفة ومسؤولية تجاه خالقك العظيم.

ولكي لا تحار طويلاً ـ أيها الإنسان ـ في معرفة وظيفتك، فقد أرسل الله عزّ وجلّ رسلاً إلى هذه الصفوة المختارة من مخلوقاته يبلغونهم أوامر الله ونواهيه، وينقلون إليهم شرائعه وأحكامه، ويحذرونهم من أن حياة أخـرى

تنتظرهم من بعد الموت، وأنهم مجزيّون فيها بدون شك بحسب أعمالهم التي اكتسبوها في الدنيا، وكما قال تعالى:

● ﴿ الله لا إلّه إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً ﴾ النساء: /٨٧.

● ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء ﴾ آل عمران: /٣٠.

فلنبحث إذاً في أمر هؤلاء الرسل والأنبياء وما قد أرسلوا به، وفي الدلائل العلمية على صدقهم، وصدق ما قد بعثوا به، وفي المؤيدات التي يؤيدون بها، حتى نعلم جيداً حدود المسؤولية المنوطة بعنق الإنسان، والدليل اليقيني على ثبوتها وضرورة التزامنا بها.

معنى النبوّة والرسالة:

النبوة، مأخذوة من النبأ بمعنى الخبر، ومعناها وصول خبر من الله بطريق الوحي إلى من اختاره من عباده لتلقّي ذلك، فالكلمة إذن تفسير للعلاقة التي بين النبي والخالق جل جلاله، وهي علاقة الوحي والإنباء.

والرسالة تعني تكليف الله أحد عباده بإبلاغ الآخرين بشرع أو حكم معين، فالكلمة إذن تفسير للعلاقة بين النبي وسائر الناس، وهي علاقة البعث والإرسال.

فإذا لاحظت في النبي الحالة التي بينه وبين الله عزّ وجلّ (فهي النبوّة)، وإذا لاحظت حالته التي بينه وبين الناس فهي الرسالة.

تعريف كل منهما: وعلى هذا نعرّف كل من النبي والرسول بأنه:

«إنسان أوحى الله إليه بواسطة جبريل أن يبلّغ عامة الناس أو فئة منهم أمراً من قبل الله جلّ جلاله فإن أوحى الله إليه بأمر ولم يأمره تبليغه فهو نبيّ فقط».

وإذا تأملت في هذا التعريف الذي أجمع على مضمونه المسلمون كلهم، ودلّت عليه قواطع الأدلة، علمت ما يلي:

أولاً - ليس الوحي المعنيّ هنا ما يشمل الإلهام والشعور الباطني، وما يسمّى بالفراسة والحدس، وإن كانت كلمة الوحي تطلق على كل ذلك في مخاطبات الناس واصطلاحاتهم، وسيأتي تحقيق ذلك قريباً.

ثانياً - لا مجال لهذا الوحي في ابتدائه إلا حال اليقظة التامة، فليس للرؤى والأحلام إذ ذاك أي علاقة بإثبات معنى النبوة أو الوحي الإلّهي، الذي يعتبر الدعامة الأولى للنبوة، فإذا ثبتت دلائل النبوة لنا، فإن رؤى الأنبياء تعتبر بعد ذلك من الوحي (ما لم يأت وحي في اليقظة يعارضه أو يردّه).

ظاهرة الوحي:

الوحي هو الأساس الأول الذي يقوم على حقيقته معنى النبوة والرسالة، ومن ثم فهو المنبع الأول لعامة الإخبارات الغيبيّة وشؤون العقيـدة وأحكام التشريع، ذلك أن (حقيقة الوحي) هي الفيصل الوحيد بين الإنسان الذي يفكر من عنده بواسطة رأيه وعقله، والإنسان الذي يبلّغ عن ربّه، دون أن يغيّر أو ينقص أو يزيد.

إن مصدر كلمة الوحي في حياة محمد عليه الصلاة والسلام، هو الخبر الذي نقل إلينا عن طريق القرآن وعن طريق السيرة وصحاح السنة، فلولا أن الكلمة وردت إلينا من هذه المصادر، لما كان لها وجود في أفكارنا.

ومعنى هذا الكلام أن نسبة الوحي إليه عليه الصلاة والسلام من حيث هو (ظاهرة) أمر متفق عليه عند جميع الباحثين، وسبب الاتفاق على ذلك دليل التاريخ؛ التاريخ الذي يتمثل في وثيقة القرآن والسنّة الصحيحة والسيرة النبوية، وفي مقدمة ذلك كله، قصة بدء الوحي المروية في صحيح البخاري وغيره.

لقد فوجىء محمد عليه الصلاة والسلام (وهو في غار حراء) بجبريل أمامه يراه بعينه، وهو يقول له اقرأ، حتى يتبين أن ظاهرة الوحي ليست أمراً ذاتياً مردّه إلى حديث النفس المجرد، وإنما هي استقبال وتلق لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس وداخل الذات. وضمّ الملك إياه ثم إرساله ثلاث مرات قائلاً في كل

مرة: اقرأ، يعدّ تأكيداً لهذا التلقي الخارجي، ومبالغة في نفي ما قد يتصوّر من أن الأمر لا يعدو كونه خيالاً داخلياً فقط.

ولقد داخله الخوف والرعب مما سمع ورأى، حتى أنه قطع خلوته في الغار، وأسرع عائداً إلى البيت يرجف فؤاده، لكي يتضح لكل مفكر عاقل أن رسول الله ﷺ لم يكن متشوقاً للرسالة التي سيدعى إلى حملها وبثّها في العالم، وأن ظاهرة الوحي هذه لم تأت منسجمة أو متمّمة لشيء مما قد كان يتصوّره أو يخطر في باله، وإنما طرأ طروءاً مثيراً على حياته وفوجىء بها (بالرسالة) دون أي توقع سابق.

ولا شك أن هذا ليس شأن من يتدرّج في التأمل والتفكير إلى أن تتكون في نفسه ـ بطريقة الكشف التدريجي المستمر ـ عقيدة يؤمن بالدعوة إليها.

ويتجلّى مزيد من صورة المفاجأة المخيفة لديه ﷺ، في توهّمه، أن هذا الذي رآه وغطّه وكلّمه في الغار، قد يكون طائفاً من الجن، إذ قال لخديجة بعد أن أخبرها بالخبر (لقد خشيت على نفسي) أي من الجان، ولكنها طمأنته بأنه ليس ممن يطولهم أذى الشياطين والجان لما فيه من الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة.

ثم إن فيما ألهم الله السيدة خديجة من الذهاب به عليه الصلاة والسلام إلى (ورقة بن نوفل) وعرض الأمر عليه (وهو الشيخ الهرم العليم بشؤون النصرانية واليهودية)، تأكيداً من جانب آخر بأن الذي فوجىء به عليه الصلاة والسلام، إنما هو الوحي الإلٓهي، الذي كان قد أنزل على الأنبياء من قبله، وإزالة لغاشية اللبس التي كانت تحوم حول نفسه بالخوف والتصوّرات المختلفة عن تفسير ما رآه وسمعه.

أما انقطاع الوحي بعد ذلك، وتلبّثه ستة أشهر أو أكثر (على الخلاف المعروف فيه)، فينطوي على مثل المعجزة الإلٓهية الرائعة، إذ في ذلك أبلغ الردّ على ما يفسّر به محترفو الغزو الفكري: الوحي والنبوة؛ من أنّه الإشراق النفسي المنبعث لديه من طول التأمل والتفكير، وأنه أمر داخلي منبعث من أعماق ذاته.

لقد شاء الله عزّ وجلّ أن يحتجب عنه الملك الذي رآه لأول مرة في غار حراء مدة طويلة وأن يستبدّ به القلق من أجل ذلك، ثم يتحول القلق لديه إلى خوف في نفسه من أن يكون الله عزّ وجلّ قد قلاه بعد أن أراد تشريفه بالوحي والرسالة، لسوء قد صدر منه، حتى لقد ضاقت الدنيا عليه.

وراحت تحدثه نفسه، كلما وصل إلى ذروة جبل، أن يلقي بنفسه منها، إلى أن رأى مرة أخرى الملك الذي رآه في حراء، وقد ملأ شكله ما بين السماء والأرض يقول:

«يا محمد إنك رسول الله إلى الناس» فعاد مرة أخرى وقد استبدّ به الخوف والرعب إلى البيت، حيث نزل عليه قوله تعالى:

● ﴿ يا أيّها المدّثر. قم فأنذر ﴾ المدّثر: /١ - ٢.

إن هذه الحالة التي مرّ بها رسول الله ﷺ، تجعل مجرد التفكير في كون الوحي إلهاماً نفسياً ضرباً من الجنون، إذ من البداهة بمكان أن صاحب الإلهامات النفسية والتأملات الفكرية، لا يمرّ إلهامه أو تأمّله بمثل هذه الأحوال.

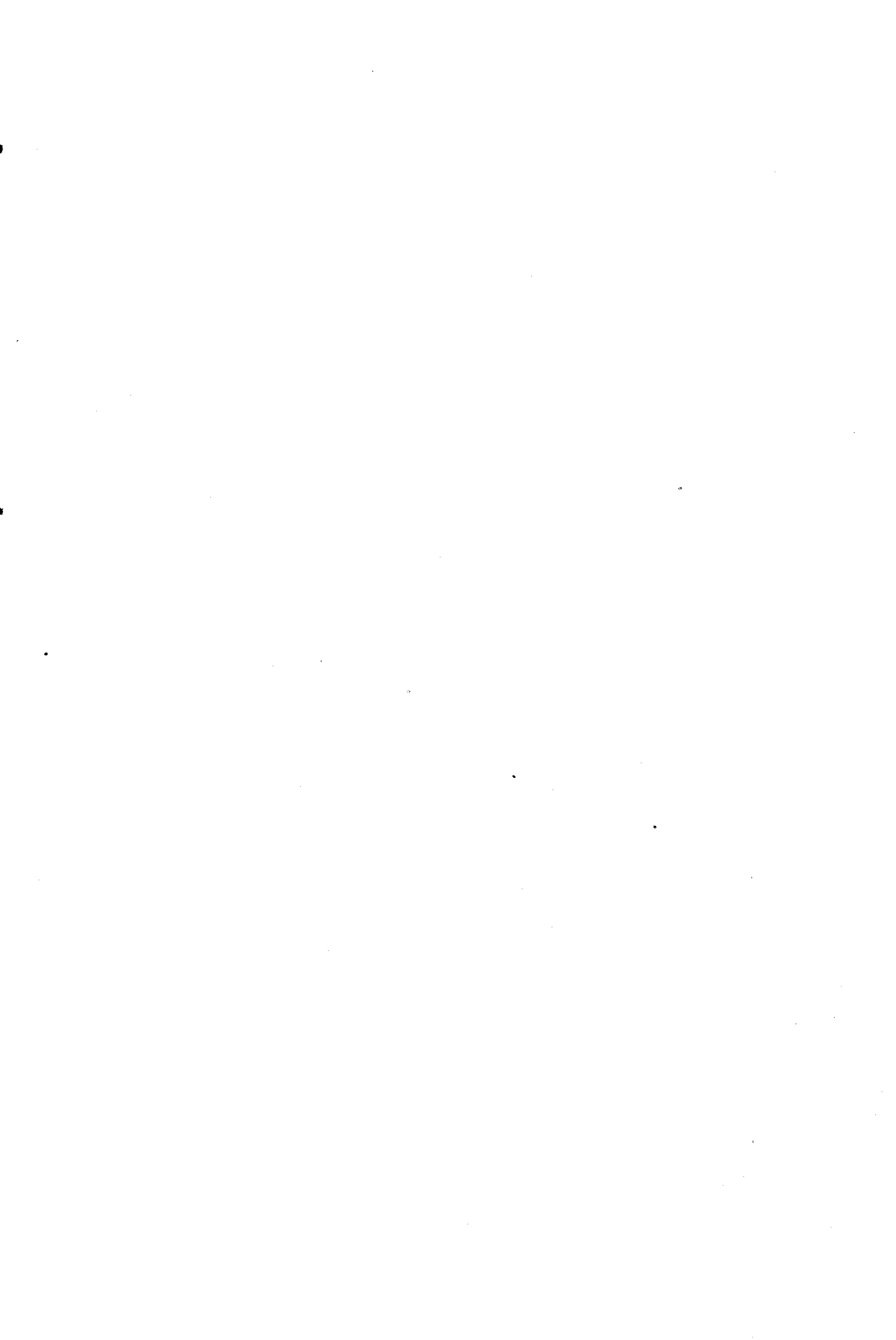
كان رسول اللّه ﷺ أميّاً... وليس من الممكن أن يعلم إنسان بواسطة المكاشفة النفسية حقائق تاريخية، كقصة يوسف، وأم موسى حينما ألقت وليدها في اليمّ... وقصة فرعون... ولقد كان هذا من جملة الحكم في كونه ﷺ أميّاً:

● ﴿ وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ﴾ العنكبوت: /٤٨.

وانظر إلى هذه الآية الكريمة التي جاءت تعليقاً على تأمّلاته ودراسته الأولى، في محاولة لاستكشاف حقيقة ما قد ساوره في هذا الأمر.

● ﴿ فإن كنت في شكٍّ مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكوننّ من الممترين ﴾ يونس: /٩٤.

ولذا روي أن النبي ﷺ قال بعد نزول هذه الآية: «لا أشكّ ولا أسأل».



المبحث الثاني

الأنبياء الذين بعثهم الله عزّ وجلّ

إذا أيقنت أن محمداً ﷺ قد أوحي إليه، وأيقنت معنى الوحي بالبرهان العلمي القطعي الذي أوضحناه، كان لا بد أن توقن بنبوّة محمد عليه الصلاة والسلام، وذلك يعني أن تؤمن بأن القرآن كلام الله عز وجل أوحى به إلى رسول الله ﷺ.

فإذا آمنت بالقرآن أنه كلام الله عز وجل، اقتضاك ذلك أن تعرف الأمور التالية، بصدد الإيمان بالرسل والأنبياء:

١ - إن أول نبي أرسله الله تعالى مؤيداً بالوحي والأحكام هو: آدم أبو البشر عليه الصلاة والسلام وآخر الأنبياء هو محمد ﷺ فلا نبيّ بعده.

فأما نبوة آدم عليه الصلاة والسلام فهي ثابتة بصريح ما أخبرنا الله من قصة خلقه ثم إنزاله إلى الأرض، وتكليفه بالهدى الذي سيأتيه من قبله له ولذريته[١].

وأما أن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء، فقد ثبت ذلك بالنصوص الواضحة في كتاب الله عز وجل وفي السنة المطهرة. فمن نصوص الكتاب قوله جل جلاله:

● ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين، وكان الله بكل شيء عليماً﴾ الأحزاب: /٤٠.

ومن نصوص السنة قوله ﷺ في الحديث المتفق عليه:

---

(١) ينظر قصة آدم في سورة البقرة والأعراف والكهف وطه.

«مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلَّا موضع لبنة في زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلاّ وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين».

ذكر الله تعالى في كتابه الكريم أسماء خمسة وعشرين نبياً مرسلاً، فهؤلاء يجب الاعتقاد بنبوّتهم تفصيلاً وهم: آدم، إدريس، نوح، هود، صالح، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحق، يعقوب، يوسف، شعيب، أيوب، ذو الكفل موسى، هارون، سليمان، داود، إلياس، اليسع، يونس، زكريا، يحيى، عيسى، محمد، عليه وعليهم الصلاة والسلام.

ولا بد من الإيمان بالكتب التي بعث الرسل بها إلى أقوامهم وجماعاتهم، نؤمن بهم إجمالاً بالنسبة لما لم يأت فيه تفصيل وذكر أسماء، ونؤمن بهم تفصيلاً بالنسبة لما ورد تفصيل في شأنه، كالتوراة والإنجيل والزبور والصحف التي أنزلت على بعض الرسل كإبراهيم عليه الصلاة والسلام.

ومعنى الإيمان بها الاعتقاد بأنها وحي من الله عز وجل للأقوام الذين أرسل إليهم الرسل الذين بعثوا بها. وأنها تحتوي (في الأصل) على عقيدة التوحيد الخالص، الباقية على مدى الدهر، ولكن معظمها منسوخ، بما قد جاء بعدها.

إنَّ شريعة خاتم الأنبياء محمد ﷺ ناسخة لجميع الشرائع السماوية السابقة[1].

(١) ينظر كتاب كبرى اليقينيات الكونية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص ٢٠١.

المبحث الثالث

الصفات الضرورية للأنبياء
عليهم الصلاة والسلام

ونقصد بصفاتهم ما يشمل شرائط النبوة التي يجب أن تتوفر فيهم، كما يعبّر بذلك أكثر علماء العقيدة الإسلامية؛ إذ الصفات الضرورية والشرائط شيء واحد لا فرق بينهما. وجملة ما يجب للأنبياء أربع صفات:

الصفة الأولى ـ الذكورة:

فلا تكون النبوة والرسالة لأنثى، واعلم أن دليلنا على ذلك هو كل من الواقع الذي دلّ عليه إخبار الله تعالى عن الرسل والأنبياء الذين بعثهم إلى الناس على مرّ الزمن، وصفة الكمال التي يجب توفرها للرسل والأنبياء، وهي تنافي الأنوثة كما هو معلوم، ولم يقع خلاف عند جمهور المسلمين في اشتراط هذه الصفة.

الصفة الثانية ـ الأمانة:

ونعني بها الصدق وحفظ الله لظواهرهم وبواطنهم عن التلبُّس بأي منهيّ عنه، إذ لو لم يكونوا كذلك لكانت بعثتهم إلى الناس عبثاً، وهو محال على الله عز وجل ـ كما علمت.

وهذا يعني أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون عن الكذب، خصوصاً فيما يتعلق بأمر الشرائع وتبليغ الأحكام وإرشاد الأمة.

الصفة الثالثة ـ العصمة عن الوقوع في الذنوب:

حسبنا أن نعلم ونعتقد بأن الأنبياء معصومون عن الكفر والكبائر قبل البعثة

وبعدها قطعاً، ومعصومون من الصغائر (بعد البعثة) فيما ذهب إليه الجمهور.

واعلم أن الخطأ في الاجتهاد ليس داخلاً في شيء من الذنوب التي ثبتت عصمة الأنبياء عنها، إذ الاجتهاد عبادة يُثاب عليها المجتهد أصاب أو أخطأ، ولكن ثبت أن الأنبياء لا يقرّون على الخطأ في الاجتهاد، بل لا بدَّ أن يأتيهم الوحي ببيان ما هو الأتمّ والأصوب أو الأكمل في علم الله عز وجل. ومما لا يخفى أن هذا التصويب الذي يأتي به الوحي دليل من أقوى الأدلة على نبوة النبي ﷺ، وعلى أنها ليست أفكاراً داخلية أو شعوراً وجدانياً كما يتصوره المشككون والمنافقون.

وعلى كل فإن خطأ النبي في الاجتهاد لا يسمَّى خطأ، إلاَّ بالنظر لعلاقته ﷺ بربه. أما بالنظر إلى الناس فلا يسعهم إلاَّ اتباعه في كلا الحالين (قبل تصويب الوحي له ـ وبعده). أي أن كل ما يأتيهم به النبي ﷺ صحيح في حقهم يجب قبوله واتباعه.

الصفة الرابعة ـ كمال العقل والضبط والعدالة:

إذ هي من مستلزمات أداء الرسالة التي كلف تبليغها، ولو أمكن أن يكون الرسول ناقصاً في عقله أو ضبطه أو عدالته مع تكليفه بتبليغ الرسالة المنوطة به لكان ذلك متنافياً مع أصل الرسالة وهو من العبث المحال على الله عز وجل.

المعجزات

تعريفها: هي كل أمر خارق للعادة يظهر على يد مدعي النبوة عند تحدِّي المنكرين له، على وجه يبين صدق دعواه.

حكم الاعتقاد بها: يجب على المسلم أن يعتقد بأن الله عز وجل جهَّز أنبيائه ورسله الذين أرسلهم إلى الناس بمعجزات تبين صدق دعوتهم وتوضح للناس ارتباطهم بالله جل جلاله، وأنهم مؤيدون به. وما من نبي إلاَّ وقد أكرمه الله عزّ وجلّ بمعجزات نبهت الناس إلى ضرورة الإيمان والتمسك بهديه وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ:

«ما من نبي إلاَّ وأوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحْياً أوحى الله به إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

والآيات القرآنية التي دلت على تأييد الله أنبياءه بالمعجزات المختلفة كثيرة ومعروفة لا حاجة لنا إلى سردها.

معجزات سيدنا محمد ﷺ:

والذي يعنينا تفصيله هنا، هو البحث في معجزات نبيّنا محمد عليه الصلاة والسلام وبيان وجوب الاعتقاد بها وأهميتها في كشف معنى النبوة وحقيقتها في حياته ﷺ.

وأول معجزاته التي أيّده الله عز وجل بها إنما هي معجزة القرآن:

وهي أبلغ وأعظم المعجزات التي أيِّد بها رسله وأنبياءه كافة، ذلك لأنها معجزة باقية علىٰ مرّ الزمن ناطقة بنبوّته ﷺ في كل زمان ومكان، على حين أن سائر المعجزات الأخرى التي أيَّد الله بها سائر أنبيائه قد انتهت وذهبت، وأصبحت تاريخاً وأخباراً تذكر.

والحكمة في ثبوت هذه المعجزة لرسالة سيدنا محمد ﷺ دون الأنبياء والرسل السابقين، أن رسالة سائر الأنبياء من قبله عليه الصلاة والسلام كانت موقوتة، أما رسالة نبينا محمد ﷺ فباقية إلى يوم القيامة، فاحتاجت إلى معجزة تشهد لها خلال هذه العصور كلها.

ويتمثل إعجاز القرآن الكريم (على العموم) بالآية الكريمة:

● ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ الإسراء: /٨٨.

ويتجلّى إعجاز القرآن في:

● إخباره بالمغيّبات التي لم تكن وقعت بعد، ثم وقعت كما أخبر.

● وعن الأمم الماضية وقصصها.

● كما يتمثل في تشريعه الكامل الدقيق (الصالح لكل زمان ومكان)، مع ما عرف من كونه ﷺ أمياً لم يقرأ كتاباً، ولا خطّه بيمينه، فضلاً عن أنه لم يدرس قانوناً ولا تشريعاً، كما يتمثل فيما ينطوي عليه القرآن من القواعد والبحوث العلمية التي لا يزال الباحثون اليوم في طور اكتشافها والوقوف عليها.

وكذلك في روعة أسلوبه البلاغي النادر في مخاطبة الفطرة الإنسانية (العقل والقلب معاً) فهذا الكتاب الكريم هو أعظم معجزات نبيّنا محمد ﷺ.

معجزاته الأخرى:

ثم إن للنبي ﷺ من دون معجزة القرآن، معجزات كثيرة أخرى، وصلت إلينا عن طريق الخبر الصحيح، اتَّسع النقل بالنسبة لمجموعها إلى ما يزيد على حدّ التواتر.

فمنها معجزة الإسراء والمعراج، وقد تحدَّث عنها القرآن وأجمع جمهور المسلمين أنها كانت بالجسد والروح معاً.

ومنها معجزة انشقاق القمر، وقد تحدث عنها القرآن، وذلك في قوله تعالى:

● ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر. وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمر﴾ القمر: ١/ ـ ٢.

وورد الحديث عنها بطرق كثيرة جداً، وانتهت عند المحققين من علماء الحديث إلى ما هو أعلى من حدود التواتر.

ومنها معجزة نبع الماء بين أصابعه، روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر، فالتمس الناس وضوءاً فلم يجدوه، فأتى رسول الله ﷺ بوضوء في إناء، فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده، ثم أمر الناس أن يتوضؤوا منه، قال أنس: فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضؤوا عن آخرهم.

ولقد تكررت معجزة نبع الماء من بين أصابعه أكثر من مرة بروايات صحيحة.

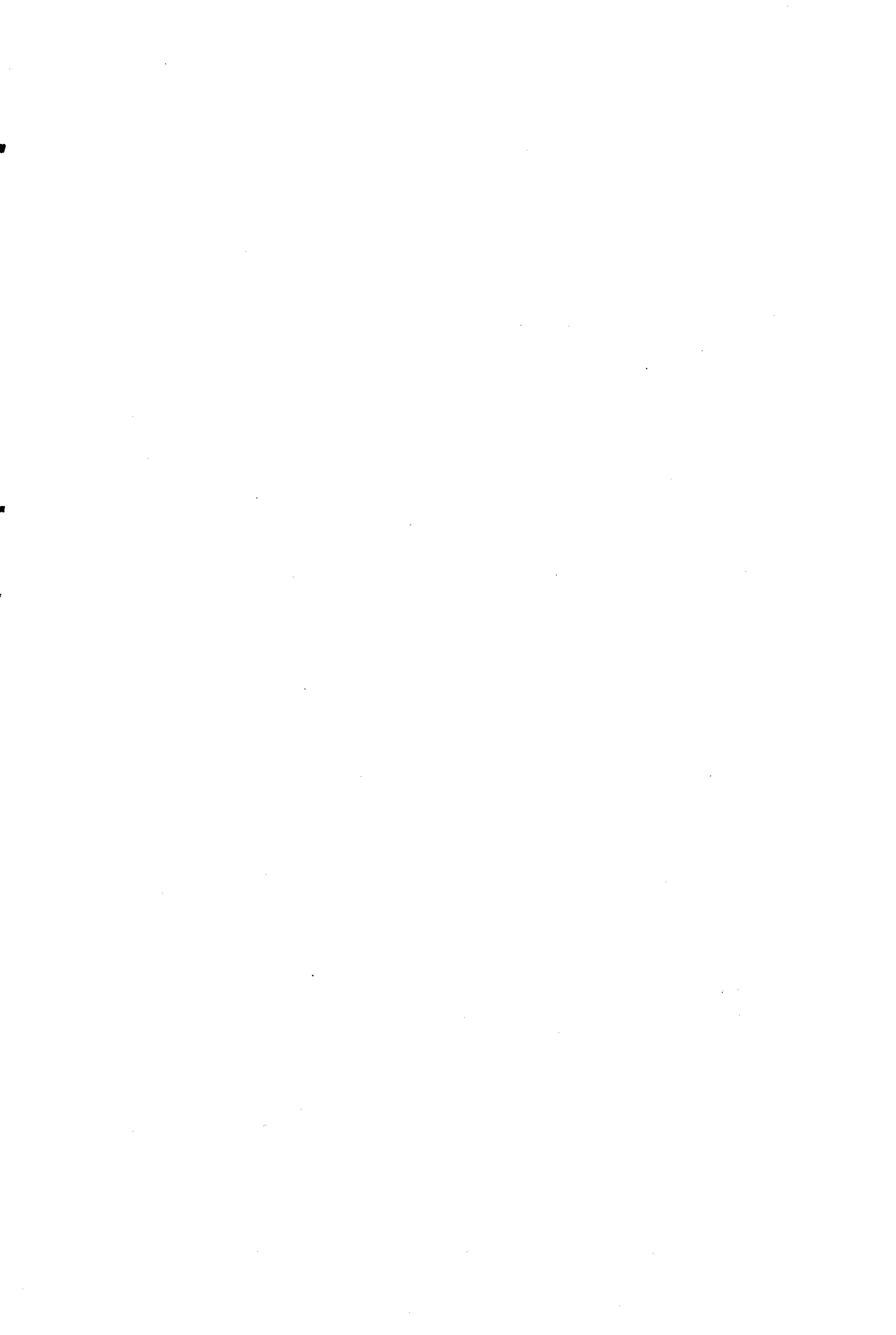
النبوة لا تأتي عن طريق الكسب:

إذا كان أساس النبوة الوحي الذي عرفنا معناه، وإذا كانت المعجزة من المؤيدات التي يؤيد الله بها الأنبياء، بقدرته وإرادته، فمعنى ذلك أن الرسالة لا تأتي إلَّا بمحض اختيار من الله عز وجل كما قال في محكم تنزيله:

● ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته...﴾ الأنعام: /١٢٤.

وكما قال أيضاً:

● ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس...﴾ الحج: /٧٥.



المبحث الرابـع

الإنسان
في منظار علم العقيدة الإسلامية

على المسلم أن يلمّ بالحقائق التالية عن الإنسان وواقعه، ثم يستيقنها في نفسه، ويقيم عليها معنى إيمانه بالله عز وجلّ:

أ ـ الإنسان أفضل المخلوقات وأشرفها.

ب ـ الإنسان مخلوق ـ من حيث الجنس ـ من عنصر التراب، ومتكاثر من حيث المصدر من الإنسان الأول آدم عليه الصلاة والسلام.

جـ ـ الإنسان مخلوق، منذ النشأة الأولى في أتم مظهر وأحسن تقويم، لم يتطوّر خلال شيء من تاريخه تطوراً نوعياً، يتدرَّج به من فصيلة إلى أخرى.

ولنعد بالإيضاح إلى كل حقيقة من هذه الحقائق الثلاث على حدة.

أ ـ الإنسان أفضل المخلوقات وأشرفها:

ثبتت هذه الحقيقة بدليلين: أحدهما دليل الخبر اليقيني الصادق، ثانيهما برهان العقل. أما الخبر الصادق، فقوله عز وجل:

● ﴿ولقد كرَّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات، وفضَّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ الإسراء: /٧٠. وقوله عز وجل:

● ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاَّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ البقرة: /٣٤.

والدليل في كل من الآيتين واضح الدلالة على المطلوب، ولا إشكال في

أن الإنسان أفضل ـ مما عدا الملائكة ـ من المخلوقات كلها، فهاتان الآيتان وكثير من الآيات الأخرى تصرّح بذلك.

قال القرطبي: ولا طريق إلى القطع بأن الأنبياء أفضل من الملائكة، ولا إلى القطع بأن الملائكة خير منهم، لأن طريق ذلك خبر الله وخبر رسوله (أي المتواتر من ذلك)، أو إجماع الأمة، وليس ها هنا شيء منه.

وأما برهان العقل فيتمثل في الأمور التالية:

الأمر الأول: إنّ النفس الإنسانية تمتاز على سائر النفوس والموجودات الأخرى بتلك القوة المدهشة العجيبة، ألا وهي القوة العاقلة المدركة لحقائق الأشياء، وهي بذلك أول مفتاح لتسخير كثير من مظاهر الكون للإنسان ولجعلها تحت سلطانه.

ومن خصائص هذه القوة العاقلة، أنها القوة التي يتجلّى فيها نور معرفة الله تعالى، ويشرق منها ضوء (صفات كماله)، فتهيّء صاحبها لممارسة العبودية لخالقها العظيم جل جلاله. فيصبح الإنسان نتيجة لذلك أول مظهر لألوهية الله عز وجل. وكما قال تعالى:

● ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ الروم: /٢٠.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن من لوازمه الواضحة أن تكون النفس الإنسانية أشرف النفوس الموجودة في العالم (إذا استثنينا الملائكة نظراً للاعتبارات الاستثنائية بالنسبة إليهم).

الأمر الثاني: ما نراه بالتجربة والمشاهدة من دلائل صدق قول الله تعالى:

﴿وسخّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه...﴾ الجاثية: /١٣.

فأنت ترى أن كلاً من حركة الفلك ونظام الكون، ووظائف المكونات المختلفة، إنما يجري وفقاً لحاجة الإنسان وخدمته، فالإنسان يمثّل في هذا الوجود الذي من حوله قطب الدائرة، على حين ينجذب إليه في تطواف دائب

وسعي مستمر مختلف الموجودات الأخرى، لتنسج له مقومات الحياة الفضلى وتهيّء له متطلباته وحاجاته المختلفة.

ومن لوازم ذلك (كما ترى) أن يغدو هذا الكائن (الذي هذا شأنه مع سائر الموجودات وشأن سائر الموجودات معه) أفضلها وأشرفها.

الأمر الثالث: صفات ركّبها الله تعالى في الإنسان، هي في جملتها فيوضات من صفات الربوبية، كالعلم والقدرة، والنزوع إلى السيطرة والملك، وغير ذلك.

وإذا أمعنت الفكر علمت أن الإنسان إنما يؤمن بالله عزّ وجلّ، ويمتلىء قلبه بتعظيم أمره وإجلاله بواسطة ما ركّب فيه من هذه الصفات:

- فبعلمه الجزئي المحدود يتصوَّر علم الله الواسع الذي لا يحدّ.

- وبقدرته الجزئية المحدودة يستطيع أن يتصوَّر قدرة الله المسيطرة على كل شيء[1].

- وبملكيته الصغيرة يتمكن من تصوُّر ملك الله الواسع، الذي يدخل فيه كل ما كان وما يكون. ولولا ما أودع الله فيه من هذه النماذج من الصفات، لما تهيّأ لإدراك عظمة الله تعالى وجليل سلطانه.

فإذا كان الإنسان في حقيقته مستودعاً لظلال أو فيوضات من صفات ربّ العزَّة جل جلاله فأخلق به أن يكون أشرف المخلوقات وأكرمها.

وخلاصة القول: إنّ أفضلية الإنسان على سائر المخلوقات (باستثناء الملائكة) حقيقة ثابتة بالقطع، دلَّ عليها الخبر الصادق المتواتر، والبرهان العقلي الصحيح، فوجب على المسلم أن يعتقد ذلك.

وأما أفضليته على الملائكة، فالأمر في ذلك محتمل، والأدلة ظنيّة، ولذلك وقع الخلاف ولعلَّ الأسلم فيه أن نُحيل حقيقة الأمر في ذلك إلى علم الله عز وجل.

---

(١) قال الله تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلاَّ كنفس واحدة، إن الله سميع بصير﴾ لقمان: ٢٨/.

ب ـ الإنسان مخلوق (من حيث الجنس) من تراب، ومتكاثر (من حيث المصدر) من الإنسان الأول آدم عليه الصلاة والسلام:

واعلم أنَّ البرهان على هذه الحقيقة: محصور في اعتماد الخبر الصادق المتواتر. إذ هي ليست من المسائل المتعلقة بالحسيّات حتى تخضع لدليل التجربة والمشاهدة، وإنّما هي منبثقة عن خبر يتعلق بتاريخ قديم، فلا مطمع للتحقق منها بأكثر من التحقيق في الخبر نفسه[1].

فأما أنَّ الإنسان مخلوق (من حيث جنسه) من عنصر التراب، فقد دلَّت على ذلك آيات صريحة وكثيرة في كتاب الله عز وجل. منها قول الله تعالى:

● ﴿منها خلقناكم، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ طه: /٥٥.

وقوله عز وجل:

● ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون﴾ الحجر: /٢٦.

● ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾ الرحمن: /١٤.

والصلصال طين يَبس، فهو يتصلصل، أي يصوّت كأنّه الفخار، أي الطين المشوي، والحمأ طين أسود متغيِّر، والمسنون أي المصوَّر صورة إنسان.

فالصلصال تفسير لجنس التراب، والحمأ المسنون تفسير لجنس الصلصال. كما تقول: أخذت هذا من رجل من العرب من الشام.

وأما أنَّه متكاثر من آدم عليه الصلاة والسلام، وأنّه الإنسان الأول، فقد دلَّت على ذلك آيات صريحة وكثيرة في كتاب الله تعالى. تقرأ هذه الآيات في قصة خلق آدم، التي تكررت كثيراً في الكتاب المبين.

---

(١) ينظر كتاب كبرى اليقينات الكونية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص ٢٤٩.

ج ـ الإنسان مخلوق منذ النشأة الأولى، في أتمّ مظهر وأحسن تقويم:

والحديث عن النشأة الأولى للإنسان، قول الله تعالى:

● ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ التين: / ٤.

و «ال» الداخلة على الإنسان للاستغراق كما هو معلوم، فهي عامة للأفراد كلهم.

ومثل ذلك قول الله تعالى:

● ﴿يا أيها الإنسان ما غرَّك بربك الكريم. الذي خلقك فسوَّاك فعدلك﴾ الانفطار: /٦ ـ ٧؛ أي جعلك سويّاً مستقيماً معتدل القامة، منتصباً في أحسن الهيئات والأشكال.

ومن مؤكدات هذه الحقيقة التي قررها القرآن، ما روي في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خلق الله آدم على صورته..».

أي أنه منذ خلق، إنما كانت صورته هي الصورة ذاتها التي استمر عليها وعرف بها، أي لم ينشأ متنقِّلاً من شكل لآخر. فالضمير في (صورته)، راجع إلى آدم.

وهناك رأي آخر، يرى أن الضمير راجع إلى ذات الله تعالى، والمقصود بالصورة «الصفة»، أي خلقه: عالماً، مريداً، حكيماً، سميعاً، بصيراً... وتلك هي صفات الله تعالى (في الأصل) وإنما منح الله الإنسان (فيوضات ـ وظلال) منها، ليتمكن من ممارسة مهمَّته في خلافة الله على الأرض.

وسواء أعدت الضمير (على آدم)، كما هو رأي الجمهور، ويدلُّ عليه ظاهر الحديث، أو أعدت الضمير (على ذات الله تعالى)، فالحديث تأكيد للدلالة القطعية في القرآن، إذ البحث في معرض بيان تكريم الله لآدم منذ أول خلقه.

وإذا كان الأمر كذلك، وجب أن نعلم بأن الإنسان لم يتنقَّل خلال تاريخه

كله، في أي تطوُّر نوعي. كأن يقال أنه ترقَّى من فصيلة إلى أخرى، أو تدرَّج من مظهر نوعي في الهيئة والشكل إلى مظهر آخر.

وهذا الحكم نتيجة قطعية للأمور الثلاثة التي ذكرناها عن الإنسان وهي:

- أنه أفضل المخلوقات وأشرفها.
- أنه مخلوق من التراب، ومتكاثر من آدم عليه الصلاة والسلام.
- أنه خلق في نشأته الأولى في أحسن تقويم.

وفي ختام بحثنا عن (الإنسان في منظار العقيدة الإسلامية) نأتي على استعراض الخصائص العامة للتربية الإسلامية (انطلاقاً من نظرة الإسلام الموضوعية للإنسان ككيان متفرِّد له خصائصه الذاتية).

وأولى هذه الخصائص هي: أنه بناء الله وخليفته في الأرض، خلقه من سلالة من طين، ثم نفخ فيه من روحه، وأنشأه خلقاً آخر، وكرَّمه على العالمين.

وأما السمة الثانية في تكوين الإنسان فهي نسبية طاقاته الذاتية، تجاه نواميس الكون والحياة، وعدم قدرتها التزام الموضوعية المطلقة خلال تخطيطها لقضايا الوجود الإنساني.

فالعقل البشري - رغم قدرته الفذَّة على الاكتشاف والابتكار، والتأمل والتخطيط، يجد نفسه يقف عند حدود لا يستطيع تجاوزها إلى مسافات أبعد، بمعنى أن الفكر الإنساني لا يستطيع أن يستشرف الإنسانية ويطلّ عليها (أن يدرك كليّتها، أن يراها في الإطار الأكبر)، وهي تتحرك وتكدح وتتصارع، وهي تتفاعل مع الأرض والزمن، وتنتج وتمتد، وهي تنحسر وتشعر وتتألم، وهي تمدّ خطاها باحثة عن طريق النور، أو هي تتخبط في الظلام؛ أن يرى تاريخها الطويل، ويتأمل في مستقبلها المجهول، ويحلِّل حاضرها المعقَّد المتشابك. يستطيع الفكر أن يدرك شيئاً من هذا، ولكنه لن يستطيع أن يدركه كله، لأنه إنسان من ملايين الناس، فرد من البشرية ممتزج معها، مغمور في نشاطاتها ومطامحها وأشواقها، هذا بالإضافة إلى أن الفكر الإنساني ليس بمنعزل عن مؤثرات الواقع المحدود المعين، الذي يحيا ويتفاعل معه، ويعكس

آماله وآلامه فهو الوليد الطبيعي للواقع التاريخي (المحدود بحدود الزمان والمكان والجماعة المعينة).

ويجيء دور الدين (الوحي الإلهي المعصوم) عند ذاك: ليأخذ بيد العقل إلى كماله المنشود، ويجيبه عن كل الأسئلة المحيِّرة التي أعجزته. وليس بمستطاع مذهب أو نظام ـ غير الدين الحق ـ أن يقدم للإنسان القاعدة العلمية التربوية العامة في السلوك، ويضع له منهج الحياة الكامل الذي يسير بركب الحياة الفردية والاجتماعية نحو التطور والازدهار والتكامل.

لن يتأتى ذلك كله لغير الدين، لأن الدين الحق هو المنهج الوحيد القائم على الموضوعية المطلقة والنظرة الشاملة (للإنسان والإنسانية)، لأنه صادر عن الله سبحانه وتعالى، واهب الحياة وما تزدهر به الحياة، المنظم المدبِّر لهذا الكون، الحيّ القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، ذو العلم الكامل (الشامل للماضي والحاضر والمستقبل)، العليم بسنَّة التطور وقانون الحياة، بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير.

١ ـ **فتربية الإسلام ـ وقد خطَّط لها العليم الحكيم ـ تربية إنسانية شاملة ومتوازنة، فردية واجتماعية**، جعلت هدفها تكوين (الإنسان المتكامل)، ولذلك فهي تحتوي كل المجموعات البشرية، مهما كان لونها وجنسها وعرقها ومكانها، دونما تفريق أو تمييز إلاَّ بالتقوى والعمل الصالح، قال تعالى:

● ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾ الحجرات: /١٣.

٢ ـ والتربية الناجحة هي التي تنظر إلى الإنسان بهذه النظرة (الموضوعية ـ الشاملة)، وتوجّه عوامل تربيتها إلى الإنسان ككل (إرادة، وفكراً، وعاطفة، وسلوكاً) وتعنى بجوانبه الحسية والإدراكية والروحية والانفعالية والخلقية، فلا تهمل جانباً على حساب الآخر. وبهذا المعيار التربوي السليم نجد أنواعاً من التربية غير الإسلامية قد اهتمت بجانب واحد أو أكثر من جوانب الإنسان، وأهملت ما عدا ذلك، وكانت النتيجة أن أنتجت إنساناً (ناقص الإنسانية)، يمثل تقدماً علمياً هائلاً وقوة مادية كبيرة، ولكنه يعيش في قلق دائم وتفكك أسري،

وجدب روحي، وفراغ خلقي، لأنه لا يجوز الاكتفاء بالجانب المادي البحث العلمي الصّرف وحدهما بل لا بد من رعاية الجانب الروحي، لأنه أكبر وازع لصفاء السلوك، إلى جانب التربية الخلقية للمعنى الإنساني.

وعلى التربية أن تكون شاملة لجميع أبعاد التكوين الإنساني، **وهذا ما تحققه التربية الإسلامية في جذورها الأصيلة، للعناية بجسم الإنسان (قوة)، وقلبه ووجدانه (إيماناً بالله)، وعقله (علماً وتفكيراً وإبداعاً) وشخصيته (خلقاً - وسلوكاً سويًّاً).**

٣ - والتربية الإسلامية، حين تؤكد أهمية الرعاية لجَميع أبعاد الإنسان في تكوينه الشخصي، وفي متطلبات الجماعة من حوله، من أسرة إلى وطن إلى إنسانية عامة، فإنّها (تحفظ التوازن النسبي) في هذا النمو التربوي المتناسق، **فالتربية الإسلامية تربية متوازنة.**

والميل المتطرف إلى الجانب الروحي - مثلاً - والإغراق فيه بعيداً عن العلم والتعلـم، يمثل اختلالاً في التوازن النسبي في النمو التربوي الإنساني. والميل المتطرف إلى الجانب الجسدي، على حساب الجانب الروحي أو العلمي يمثـل اضطرابـاً في التوازن النسبي في التكوين الإنساني. فالتربية الناجحة هي التي تَعنى بجميع مجالات التكوين الإنساني في حفظٍ للتوازن بينها جميعاً.

٤ - والتربية الإسلامية تسعى لبلوغ حياة الفرد أسمى مستوى في نموّه التربوي المتكامل. وهذه الفردية لها مميزاتها، باعتبار الإنسان مسؤولاً، وباعتبار شعوره بشخصيته، وسعيه الحثيث لتحقيق ذاته، لأنها جميعاً دوافع فطرية ينبغي تشجيعها ما دامت في سبيل النمو والتكامل.

ولكن هذه الفردية ليست فردية اعتزال، أو وحدة انطوائية، بل هي فردية عضوية متشابكة الحلقات في بناء المجتمع المتماسك. . . فقوة البناء للمجتمع من قوة بناء كل لبنة في حدِّ ذاتها، وكونها في المكان المناسب لها، مع وجود اللحمة الواصلة فيما بين اللّبنات. هذا عامل هام في أهمية احترام الفردية والاجتماعية في آن واحد عند تربية الإنسان.

والرسول الكريم ﷺ يجسِّد لنا هذه المعادلة الدقيقة بين طرفي ميزان

(الفردية ـ والجماعة) في مسؤولية كل طرف، وارتباط كل جانب بـالجانب الآخر، بما رواه النعمان بن بشير في حديث السفينة حيث قال رسول الله ﷺ:

● «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها. وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أننا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعاً». ومن هذا المنطلق في مزج الفردية بالاجتماعية، شرعت التربية الإسلامية مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومبدأ النصيحة وتبادلها، ومبدأ (المقاطعة الاجتماعية)، كما حدث لثلاثة تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ ـ دون عذر مشروع ـ ينظر سورة التوبة: الآيات: /١١٦ ـ ١١٩.

ولعل أجمع تشبيه لعضوية الفرد في تماسك الجماعة: حين شبّه الرسول ﷺ المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتناصحهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى.

وفي ختام بحثنا عن خصائص التربية الإسلامية، على أنها:

تربية إنسانية، شاملة، متوازنة، فردية واجتماعية (في آن واحد)، نأتي على استعراض:

مقومات الشخصية المتكاملة الناضجة:

من أولى الصفات العامة للشخصية القوية الصالحة التي ينبغي للتربية (بكافة أنواعها ووسائلها) أن تسعى لغرسها في الإنسان ليكون فرداً صالحاً هما: (صفة التكامل) و (صفة النضج).

أ ـ ويقصد بتكامل الشخصية: أن تنمو في كافة الأبعاد والجوانب (الروحية والنفسية والبدنية والعقلية والمزاجية والاجتماعية)، وأن يترابط هذا النمو ويتّسق بحيث لا يطغى جانب على آخر، كما يعني تكامل الشخصية أيضاً وحدتها وتناسق عناصرها وأغراضها.

فالشخص الذي تتجاذبه الأهواء المتنازعة المتعارضة، لا يكون على

مستوى قوة الشخصية، ويقول علماء النفس في هذا المجال، الشخص السويّ هو الذي يستطيع أن يحبّ ويعمل، وهو الشخص الذي حصل الانسجام بين أفكاره وعواطفه (وهو الإنسان الصادق)، بين عقيدته وسلوكه (وهو الإنسان المخلص في عبادته) وهو الشخص الذي يستفيد من كل ما لديه من ملكات ومواهب، ومن كل ما تنتجه له الظروف من فرص للتقدم والازدهار والتكامل. فالدين والإيمان (بالمعنى الصحيح) يهب الإنسان تكامل الشخصية.

ب ـ وأما بالنسبة لصفة النضج: فإنَّها تعني فيما تعني أن تصل إلى درجة مناسبة من النمو السويّ في كافة جوانبها وأبعادها تكويناً ووظيفة (في جميع جوانبها العقلية والروحية، والانفعالية والاجتماعية) وكأن صفة النضج تعبير عن رسوخ معنى التكامل واستقراره في النفس.

وقد استطاع علماء النفس أن يحدِّدوا لنا (نسبياً) علامات النضج في أغلب جوانب الشخصية:

١ ـ فمن علامات النضج الانفعالي (مثلاً): القدرة على ضبط النفس في المواقف التي تثير الانفعال، والبعد عن التهوُّر والاندفاع، والتعبير عن الانفعالات بصورة متزنة هادئة.

٢ ـ ومن علامات النضج الاجتماعي: مشاركة الناس مسرَّاتهم وأحزانهم، وشعوره الشخصي بشعور غيره وقياس نفسه بمقياس سواه من الناس، والتواضع وقلة الحديث عن النفس، وترك عمله يتحدَّث عنه ويدلُّ عليه، والقدرة على مرافقة الناس والتعاون معهم، وتقدير الواجب والمسؤولية، إلى غير ذلك من خواص النضج الاجتماعي.

٣ ـ ومن علامات النضج العقلي: ما يظهر على الإنسان من قدرة على حلِّ المشاكل ومواجهة المواقف، وحكمة ولباقة في التصرف، وسداد في الرأي، وقدرة على وضع الأشياء في مواضعها الصحيحة، واستقلال ووضوح في الفكر، وموضوعية ونزاهة في الحكم، وقوة في الملاحظة، إلى غير ذلك من علامات النضج العقلي.

٤ ـ ومن علامات النضج الروحي: الإيمان الصادق (العميق ـ وعلى

مستوى اليقين) بالله، وبحكمته ورحمته وعدالته بملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر، وبقضاء الله وقدره، بالتمسك بتعاليم الدين والحرص على تطبيقها في حياته، وصدق التقوى لله، وحسن التوكل عليه، والثقة بوعده، وقوة الوازع الديني والخلقي والاستقامة على طاعة الله في السلوك، وامتلاك فلسفة كاملة في الحياة تقوده (بلا كلفة ـ أو تكلّف) إلى اتباع رضوان الله.

ومن علامات النضج في الشخصية قدرة الإنسان على الشعور بذاتيته المتميزة (بخصائص معينة) عن ذوات الغير، فمعرفة الإنسان لخصائص ذاتيته المتميزة عن الغير هي أساس كل نضج حقيقي للشخصية.

إنَّ الشخص الناضج في منظار التربية الإسلامية، هو الذي سيطر ذكر الله وتعظيم أمره ـ على الحقيقة ـ على مشاعره (على إرادته وأفكاره وعواطفه وسلوكه). هو الإنسان الصادق (الذي انسجمت أفكاره وعواطفه) والمخلص (الذي يبتغي بعمله رضاء الله) والمتواضع (الذي يخفض جناحه خدمة لإخوانه، بلا تكلُّف)، هو الذي يمكنه أن ينظم عمله تنظيماً واعياً من شأنه أن يؤدي إلى بلوغ أهدافه. وهو شخص أكثر اتزاناً وتؤدة، وأكثر استعداداً لمقاومة الضغوط التي تفرضها عليه الحياة، وأكثر حيوية وأكثر قدرة على ملاءَمة نفسه للظروف المتغيرة المحيطة به، وأكثر قدرة (للتحايل المشروع) على هذه الظروف إذا كانت غير مواتية.

والشخص الناضج هو الذي يتميز بفهم دقيق لنفسه، وأهم خصائصه الخلقية أنه شخص يمكن الثقة به وله القدرة على الحكم السليم على مواقف الحياة المتغيرة، وله القدرة على تحمل المسؤوليات، وعنده استعداد للتسامح.

والشخص الناضج هو الذي يلتزم (بنفسه ـ من نفسه) (عقيدة وسلوكاً) مبادىء آمن بها إيماناً راسخاً ينبعث من قرارة نفسه، ولا يدافع عن نفسه إذا أخطأ ليبرِّر خطأه، وإنما يعترف بالخطأ ـ (وخاصة إذا ظهر واضحاً)، ويرجع عنه في اعتزاز[1].

(١) ينظر بحث (الشخصية الناضجة) في علم النفس، للأخ الدكتور صالح رياض. مجلة الفيصل العدد الخامس ـ السنة الأولى ص ٦٦ وما بعدها.

ومن النضج الكلّي للشخصية، الذي تنتظم فيه وتترابط وتتناسق كل أنواع النضج وجوانبه التي أشرنا إليها، تبرز الشخصية القوية المؤثّرة، التي تؤثر فيك (وترتاح لها ـ وتألفها بسرعة) وتحبها وتجد نفسك مجذوباً إليها، وكأن فيها مغناطيسية تجذبها إليك. إنك شخصية المؤمن الواعي الحكيم (الفقيه بكتاب الله ـ العامل بسنّة رسول الله ﷺ) والذي قال عنه الرسول الكريم ﷺ: «المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس».

وبالنسبة لتوجيه الإسلام بالذات الذي يهمنا معرفة موقفه من تربية وتنمية الشخصية القوية فقد اهتم بتنمية الشخصية الإنسانية نموّاً شاملاً متكاملاً، وهيّأ لهذا النمو كافة الظروف والعوامل المساعدة عليه وأزال من طريقه كل الحواجز والعقبات. فالإسلام يرفع من شأن كرامة الإنسان وعقله وحريته وحقّه في العدل والمساواة والأمن والاطمئنان، ويجعل صلاح الفرد شرطاً وخطوة نحو صلاح المجتمع، وصلاح الباطن (الروح والضمير والوجدان) شرطاً لصلاح الظاهر، والإيمان الحق شرطاً لصلاح العمل، والعمل الصالح شرطاً لتمام الإيمان، ويوفق بين مطالب الجسد وأشواق الروح، ويستجيب للحاجات الإنسانية الضرورية، ويدعو إلى الثقة والإيمان بالله، والتوكل عليه والثقة بوعده، والرضا بقضائه وقدره، وإلى الصبر والحلم والشجاعة وضبط النفس، وكظم الغيظ والهدوء والتأنّي والمرونة في التعامل والرحمة والمروءة (الإنسانية ـ ومكارم الأخلاق)، وينفر من الكفر والنفاق واليأس والغرور، والرياء، والكبرياء، والأنانية والطمع والحسد والبغضاء، وما إلى ذلك.

فالدين الإسلامي بتأكيده ودعوته إلى هذه المبادىء والفضائل، وتنفيره من أضدادها قد يسّر السبيل أمام بناء شخصية قوية (متّزنة ـ معتدلة) ناجحة.

وفي اعتقادنا الجازم أنه لا توجد وسيلة صالحة (لتربية وتنمية الشخصية الإنسانية الناضجة) إلاّ ويؤيدها ويباركها الإسلام[1].

الإسلام الذي هو خلق الإنسانية الرفيع الذي يعيد البشر إلى أصل واحد

---

(١) ينظر كتاب «من أسس التربية الإسلامية» للأخ الدكتور عمر الشيباني ص ١٠٢ وما بعدها.

تذوب عنده فوارق الجنس واللون واللغة، ولا تفاضل إلاَّ بالتقوى والعمل الصالح الذي تبنى به الحياة الكريمة السعيدة.

الإسلام الذي ربَّى الإنسان الفاضل[1]، وبنى الأسرة المتآلفة السعيدة، وأقام الدولة الراشدة لحراسة العقيدة وتنمية الوعي الاجتماعي، وتحقيق الأخوَّة الإنسانية.

---

(١) في مقام تربية الإنسان الفاضل في الإسلام، يحدثنا (الإمام مالك) عن قاعدة هامة في أساس تربية الإسلام كما يلي:

«الحكمة هي الفقه في دين الله، والعمل به، ففي الفقه في دين الله (في كتاب الله وسنة رسوله) الكمال العلمي، وفي العمل به الكمال العملي. وحكم بمعنى أمسك، والحكمة ثمرة العلم الصحيح، الذي يمسك صاحبه عن الجهالات، ويأخذ به إلى حيث المعرفة الصحيحة والصواب في القول والعمل، فيكون ذا إدراك للحقائق قويم، وعمل مستقيم، لا يحكم إلا عن تفكير ولا يقول إلا عن علم، ولا يفعل إلا على بصيرة (بعواقب الأمور)، إذا نظر أصاب، وإذا فعل أطاب، وإذا نطق أتى بفصل الخطاب. (الحكمة هي التصرّف الواعي حسب ملائمة الظروف (زماناً ومكاناً وأشخاصاً)، هي فعل ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي على الشكل الذي ينبغي والإصابة في القول والعمل، والنجاح في المسعى والسلوك).



الباب الثالث

الإيمان بالغيب والمعاد

● الإيمان بالملائكة.

● الإيمان بالجنّ.

● الإيمان باليوم الآخر وما يتعلق به.

١ - حقائق تتعلق بالموت.

٢ - أشراط الساعة.

٣ - يوم القيامة وأحداثه.



الإيمان بالغيب والمعاد

تمهيد:

المقصود بالغيبيّات هنا كل ما لا سبيل إلى الإيمان به إلاَّ عن طريق الخبر اليقيني.

أما المقصود بالغيب في القرآن، فكل ما كان غائباً عن الحواس، والذي يعنينا في هذا البحث أن نتحدث عن ثلاثة من أمور الغيب، مما يجب علينا الإيمان به إيماناً جازماً لا ريب فيه وهي:

- الإيمان بالملائكة.
- الإيمان بالجنِّ.
- الإيمان باليوم الآخر وما يتعلق به.

الإيمان بالملائكة

والحديث في هذا المقام يتعلق، بوجودهم، وصفاتهم، ووظائف بعضهم.

فأما وجودهم: فقد دلَّ عليه الخبر الصادق المتواتر عن الله جل جلاله، وعن رسوله عليه الصلاة والسلام، فأما الوارد من ذلك عن الله سبحانه وتعالى فقوله:

- ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربِّه والمؤمنون، كُلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله...﴾ البقرة: /٢٨٥.

● ﴿ينزّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إلَه إلَّا أنا فاتقون﴾ النحل: /٢.

وأما الوارد من ذلك عن رسول الله ﷺ فقوله عليه الصلاة والسلام لجبريل في الحديث المعروف عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما سأله جبريل عن الإيمان:

● «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه».

وفي كل من القرآن والسنَّة الصحيحة نصوص كثيرة أخرى تخبر بصريح العبارة عن وجود الملائكة وبذلك تعلم أن وجودهم ثابت بدليل القطع الذي لا يمكن أن يلحقه شك أو ريب. على أن الإيمان بنبوَّة محمد ﷺ ونزول القرآن عليه يستلزم الإيمان بالملائكة، فإنكار وجودهم إنكار للنبوَّة والقرآن معاً.

صفاتهم: وأما معرفة صفات الملائكة إجمالاً، فلنا إلى العلم والاعتقاد بها سبيل لا تنكر، وسبيلنا إلى ذلك الخبر الصادق الوارد في كتاب الله عز وجل. فمن ذلك قوله تعالى:

● ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون....﴾ النساء: /١٧٢.

وقوله عز وجل في وصف النار وخزنتها:

● ﴿عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ التحريم: /٦.

● ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون. لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ الأنبياء: /٢٦ ـ ٢٧.

● ﴿الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع، يزيد في الخلق ما يشاء إنّ الله على كل شيء قدير﴾ فاطر: /١.

ومن ذلك ما ورد في الآيات والأحاديث التي تدل على أنهم منحوا القدرة على التشكل والظهور بأشكال مختلفة، في مثل قوله تعالى:

● ﴿فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثَّل لها بشراً سويّاً﴾ مريم: /١٧.

والأحاديث الكثيرة التي تثبت أن النبي ﷺ كان يرى جبريل في هيئة رجل من الناس وأنه كثيراً ما كان يتمثل في شكل ـ دحية الكلبي.

فهذه الآيات وما يتبعها من أحاديث كثيرة صحيحة تؤيدها، توجب على المسلم أن يعتقد عقيدة جازمة بأن الملائكة يتصفون بالصفات التالية:

١ ـ العبودية لله عز وجل، فليسوا أولاداً ولا أنداداً له سبحانه.

٢ ـ إنهم متقيِّدون بأوامر الله لهم، فلا يعصون في أمر، ولا ينحرفون إلى ارتكاب منهيّ، وإنهم ملازمون لعبادته، دأبهم ذكره والتسبيح بحمده.

٣ ـ إن لهم أجنحة مثنى وثلاث ورباع، كما نصَّ الخالق جل جلاله على ذلك، وليس لنا أن نعلم من الصفات التفصيليّة لهذه الأجنحة وكيفيتها، إذ أنهم محجوبون عنا بإرادة الله وحكمه، ولم يفصّل القرآن الخبر عن ذلك.

٤ ـ إنهم مع كونهم مخلوقين من نور غير مرئي بالعين، فإن الله عز وجل قد منحهم القدرة على التشكُّل والظهور بمظهر الأجسام الكثيفة المختلفة.

ولا يسع المؤمن بالله ورسوله إنكار شيء من هذه الصفات، فإن أنكرها أو أنكر شيئاً منها فإنَّه يكفر بذلك باتفاق.

وأما وظائفهم: فلا سبيل إلى معرفة هذه الوظائف بالتفصيل بالنسبة لجميع الملائكة. إذ لم يرد بذلك خبر يقيني يثبت به العلم. غير أن القرآن أخبرنا عن بعض هذه الوظائف، فيجب الإيمان بها طبقاً لبيانه وإخباره، كما نصَّ على أسماء بعضهم، فيجب الإيمان بهم بأسمائهم هذه.

فمن هذه الوظائف: إبلاغ كلام الله وحكمه إلى عباده المرسلين، ثبت ذلك بقوله تعالى:

● ﴿نـزل به الروح الأمين. على قلبـك لتكـون من المنـذرين...﴾ الشعراء: /١٩٣ ـ ١٩٤.

وقد ثبت بالسنة الصحيحة المتواترة أن الموكّل بهذه الوظيفة هو جبريل عليه الصلاة والسلام. ومنها: وظيفة حمل العرش، وقد نصَّ القرآن بصريح العبارة، أن عدد الذين يحملونه يوم القيامة ثمانية من الملائكة، تقرأ ذلك في قوله تعالى:

● ﴿والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية...﴾ الحاقّة: /١٧.

ومنها رعاية الجنة وأهلها، وقد أطلق القرآن على الذين يقومون بهذه الوظيفة اسم (الخزنة) تجد ذلك في قوله تعالى:

● ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾ الزمر: /٧٣.

ومنها القيام بشؤون النار وأهلها، وقد أطلق القرآن على الملائكة الذين أقامهم الله على هذا الأمر اسم (الزبانية)، وقد ذكر الله تعالى أن عدتهم تسعة عشر ملكاً، تقرأ ذلك في قوله تعالى:

● ﴿وما أدراك ما سقر. لا تبقي ولا تذر. لوَّاحة للبشر. عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلاَّ ملائكة، وما جعلنا عدَّتهم إلاَّ فتنة للذين كفروا...﴾ المدثّر: /٢٧ ـ ٣١.

ومنها مراقبة أعمال المكلفين وتصرُّفاتهم، وإحصاؤها في كتاب مبين، وقد أطلق الله على الملكين القائمين بهذا الأمر صفتي: رقيب وعتيد، أحدهما يكون على يمين الإنسان وهو يحصي ما يحققه من حسنات، والثاني عن شماله، وهو يحصي ما اكتسبه من آثام، تجد بيان ذلك في قوله تعالى:

● ﴿إذ يتلقَّى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلاَّ لديه رقيب عتيد﴾ قٓ: /١٧ ـ ١٨.

ومنها المحافظة على الإنسان خلال مراحل حياته في مختلف شؤونه كلها، وقد سمّى الله تعالى الملائكة الذين وكّل إليهم هذا الأمر بالمعقّبة والحفظة، فقال سبحانه:

● ﴿له معقّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونـه من أمر الله...﴾ الرعد: /١١.

● ﴿وهو القاهر فوق عباده، ويرسل عليكم حفظة...﴾ الأنعام /٦١.

ومنها وظيفة قبض الأرواح. وهل أنيطت هذه الوظيفة بعدد من الملائكة أم بفرد واحد منهم؟ لم يوضِّح القرآن الجواب على هذا ببيان قاطع، فقد ذكر الله تعالى في آية من كتابه الكريم ما يدل على أنهم طائفة من الملائكة فقال سبحانه:

● ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفّته رسلنا وهم لا يفرّطون...﴾ الأنعام: /٦١.

وذكر في آية أخرى ما يدل على أنّه واحد فقط، كما في قوله تعالى:

● ﴿قل يتوفّاكم ملك الموت الذي وكِّل بكم، ثم إلى ربكم ترجعون﴾ السجدة: /١١.

والجمهور على أن ملك الموت واحد، ولكن الله عز وجل عزَّزه بطائفة أخرى من الملائكة، شأنها معه كشأن الجنود مع القائد.

هذا وأنت ترى أن النصوص لم تكشف عن أسماء هؤلاء الملائكة الذين وكل إليهم هذه الأمور المختلفة التي ذكرناها ما عدا جبريل، فالذي يجب على المسلم معرفته والاعتقاد بموجبه، هو أن الله عز وجل، قد أناط هذه الوظائف المختلفة بجماعات من الملائكة، الله أعلم بأسمائهم وخصائصهم.

ولعلك تسأل بعد هذا الذي ذكرناه، عن معنى توظيف الله الملائكة بتلك المهام التي ذكرناها، وعن حكمة ذلك، مع العلم بأن الله عز وجل لا يعجزه القيام بأي أمر حتى يتصوَّر احتياجه إلى من يتولى له بعض المهام.

والجواب: أن ذلك ليس إلاّ مظهراً لسلطانه وعظيم ملكه، وإظهاراً لقدرته المعنوية، في مظهر حسّي، يتلاءم مع تصوُّر الإنسان والمألوف في حياته. (والله أعلم).

الإيمان بالجنّ

وإنما يتعلّق الحديث هنا بشأن وجودهم وأصلهم الذين خلقوا منه، أما ما وراء ذلك من الحديث عن صفاتهم وأعراضهم، وخصائصهم التفصيلية، فلا شأن لنا بذكر شيء من ذلك في هذا المقام، إذ البحث فيه إنما يستند إلى (أخبار الآحاد)، والأدلة الظنيّة المحتملة، ومعظمه مما وقع الخلاف فيه.

وقد علمت أن أمور العقيدة لا بد في وجوبها أن تقوم على الأدلة اليقينيَّة القاطعة، أي فلا يكفّر الإنسان بجحود ما يقوم على الظنّون والاستنتاجات.

وجودهم: لقد ثبت وجودهم بالدليل القطعي الذي لا احتمال فيه، والدليل هو الخبر الصادق الذي جاء به القرآن، بنصوص قاطعة لا احتمال فيها.

وقد أخبر القرآن عن (الجانّ) في مواضع كثيرة.. فمن ذلك قوله تعالى:

● ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلاَّ ليعبدون﴾ الذاريات: /٥٦.

ومنه قوله تعالى:

● ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن... ﴾ الأحقاف: /٢٩.

● ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار. وخلق الجانّ من مارج من نار﴾ الرحمن: /١٤ ـ ١٥.

وقد جاء في السنة أيضاً أحاديث مختلفة تثبت حقيقة الجان وتخبر عنهم.

فمن ذلك ما رواه البخاري ومسلم والترمذي، وعامة علماء السيرة ـ واللفظ للبخاري ـ أنه ﷺ انطلق في طائفة من أصحابه، عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وخبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين فقالوا: ما لكم قد حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب

قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث، فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء؟ قال: فانطلق الذين توجّهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ، وهو يصلّي بأصحابه صلاة الفجر، فلمّا سمعوا القرآن تسمّعوا له فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم، فقالوا: يا قومنا إننا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربّنا أحداً[1].

وإذا كان وجود هذه الخليقة مستنداً إلى هذه الأخبار اليقينيّة التي وردت إلينا من الكتاب وفصّلتها السنّة، وكان أمرها معلوماً عن الإخبارات الإلٓهية بالضرورة، أجمع المسلمون على أن الإيمان بالجنّ من المستلزمات الأساسية للإيمان بالله عزّ وجلّ.

إن إنكارهم يستلزم نتيجتين اثنتين:

الأولى ـ إنكار شيء علم ثبوته من الدين بالضرورة.

الثانية ـ تكذيب الخبر الصادق المتواتر اليقيني الوارد إلينا عن الله جلّ جلاله، وهو يناقض الإيمان بالله جلّ جلاله، كما يناقض الإيمان بالقرآن الكريم.

وكلا هاتين النتيجتين تتنافيان مع الإسلام ومقوّمات الإيمان بالله عزّ وجلّ.

أصلهم: أما أصل الجانّ. أي العنصر الأول الذي وجد منه هذا المخلوق، فلا مطمع في معرفته إلا بالخبر اليقيني، وإنما يكون الخبر يقيناً مورثاً القطع واليقين إذا ورد عن الخالق نفسه، وقد ورد هذا الخبر في قوله تعالى:

● ﴿ وخلق الجانّ من مارج من نار ﴾ الرحمن: /١٥.

والمارج اللهب الصافي الذي لا دخان فيه.

وإذا ثبت هذا الخبر الواضح بيقين، فقد وجب علينا معرفة مضمونه والإيمان بموجبه.

(١) صحيح البخاري: ٦/٨٣ ـ كما سجل القرآن هذا المعنى في سورة الأحقاف/ الآية: ٢٩.

الإيمان باليوم الآخر وما يتعلق به

وتنحصر هذه المعاني في الأمور الثلاثة التالية:

أولاً - حقائق تتعلق بالموت.

ثانياً - أشراط الساعة.

ثالثاً - يوم القيامة وأحداثه.

أولاً - حقائق تتعلق بالموت

أما الموت فقد علم الناس كلهم أنه حقيقة مشاهدة محسوسة. وهو قصة الحقيقة الكبرى في هذا الوجود، الحقيقة التي يسقط عندها جبروت المتجبرين، وطغيان البغاة والمتألهين... إنها الحقيقة التي تمدّ صفحة هذا الوجود المائج بغاشية الانتهاء والفناء، وتصبغ الحياة البشرية كلها بصبغة العبودية والذلّ والخشوع لقهّار السموات والأرض.

إنها الحقيقة التي تعلن على مدى الزمان والمكان، وفي أذن كل سامع وعقل كل مفكر: أن - لا ألوهيّة إلا لذاك الذي تفرّد بالبقاء (السرمديّ)، فهو الذي لا مردّ لقضائه، ولا حدود لسلطانه، ولا مخرج عن حكمه، ولا غالب على أمره.

غير أن ثمّة أموراً أخرى تحيط بالموت (من بين يديه - ومن خلفه)، لا مجال للعلم بها إلا عن طريق الخبر اليقيني الوارد في شأنها، إذ لا تكشف على سبيل الحسّ والمعاينة، إلا لمن وقع في سياق الموت وأخذ يعاني من سكراته، ولمن تجاوزه إلى الحياة البرزخية القائمة وراء الموت. ولذلك كانت هذه الأمور مغيّبات بالنسبة إلينا، ما دمنا لا نزال نسير في معبر هذه الدنيا، ولم نصل بعد إلى هذه النهاية التي إليها مصير كل حي من المخلوقات. وهذه الأمور الغيبيّة هي:

● ملك الموت وقبضه الأرواح ● سؤال القبر ● عذاب القبر ونعيمه.

ولنبدأ في بيان كل منها على حدة.

أ ـ ملك الموت وقبضه الأرواح:

لا ريب أن المحيي والمميت هو الله عزّ وجلّ، فهو الذي يتوفّى الأنفس ويميتها عندما يشاء، وفي بيان ذلك يقول الله عزّ وجلّ:

● ﴿ الله يتوفّى الأنفس حين موتها.. ﴾ الزمر: /٤٢.

ولكن اقتضت حكمة الله عزّ وجلّ، أن يكل قبض الأرواح إلى واحد من ملائكته المقربين، كما اقتضت حكمته أن يكل وجود مخلوقاته المختلفة إلى أسباب جعلية، جمع بينها برابط من محض مشيئته (في نظامه العام للخلق والتدبير)، وقد دلّ على ذلك الخبر اليقيني، الذي لا يقبل الاحتمال وهو قول الله تعالى:

● ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكّل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ السجدة: /١١.

وهو ملك عظيم سمّاه الله كما رأيت (ملك الموت)، وقد ورد في بعض الآثار أن اسمه: (عزرائيل ـ أي عبد الجبار)، وقد اشتهر بهذا الاسم. قال مجاهد في وصفه: طويت له الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها متى يشاء.

قال ابن كثير: ورواه زهير بن محمد عن النبي ﷺ، مرسلاً، وقال ابن عباس أيضاً[1].

فهذه أولى الحقائق الغيبية المتعلقة بالموت، وعلى المسلم أن يعتقد بها اعتقاداً جازماً لورود الخبر اليقيني بها.

ب ـ سؤال القبر:

فإذا مات الإنسان، أرسل الله ملكين، فسألاه عن الدين الذي عاش عليه، وعن علمه بهذا الرجل الذي سمع عنه (وهو محمد عليه الصلاة والسلام)، فمن

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير: ٣/٤٥٨.

كان قد ثبّته الله عز وجل، ومات على الحق وختم له بالحسنى، ألهمه الله الجواب على سؤال الملكين، كما في قوله تعالى:

●﴿ يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضلّ الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ إبراهيم: /٢٧.

ومن لم يكن معتصماً بحبل الإيمان في حياته الدنيا، ومات على ما عاش عليه من لهو وعصيان واتباع للهوى وإدبار عن الحق، ملأ الله قلبه فزعاً منهما (من الملكين)، فغاب عن فكره الجواب المطلوب.

وهذه من الحقائق الغيبية التي لا يلمسها إلا من انتهى إلى ذلك المصير، ويوشك كل منا أن ينتهي إليه. وقد دلت عليها أحاديث صحيحة كثيرة تجاوزت في مجموعها حدّ التواتر. ولذلك تم إجماع المسلمين كلهم على الإيمان بذلك، طبقاً لما دلّ عليه الخبر اليقيني.

فمن الأحاديث الواردة في ذلك ـ ما رواه البخاري ومسلم ـ وغيرهما، أن الرسول ﷺ صلى بالناس صلاة الكسوف مرة، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«ما من شيء كنت لم أره إلا قد رأيته في مقامي هذا، حتى الجنة والنار، وقد أوحي إليّ أنكم تفتنون في القبور مثل أو قريباً من فتنته الدجّال، يؤتى أحدكم فيقال له: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن أو الموقن، فيقول: هو محمد رسول الله، جاءنا بالبيّنات والهدى، فأجبنا وآمنّا واتبعنا، فيقال له: نم صالحاً، قد علمنا أن كنت مؤمناً، وأما المنافق أو المرتاب فيقول: لا أدري... سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته.

ومن ذلك ما رواه الشيخان (البخاري ومسلم)، أن النبي ﷺ قال: إن العبد إذا وضع في قبره، وتولّى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، فيأتيه ملكان، فيقعدانه، فيقولان له، ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، قال: فيقال له انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك به مقعداً من الجنة، قال النبي ﷺ: فيراهما جميعاً. وأما المنافق والكافر

فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ويضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين. . .

ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما بسنده عن البراء بن عازب أن رسول ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»، فذلك قوله جلّ جلاله:

● ﴿يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾ إبراهيم: /٢٧.

ج ـ عذاب القبر ونعيمه:

وهما من الحقائق الغيبية التي ثبت الدليل عليها أيضاً بالخبر اليقيني المتواتر. ولنذكر لك طائفة من هذه الأخبار، إذ هي العمدة في موقفنا من المغيبات التي لا مجال للمشاهدة والعقل في الخوض فيها. يقول الله تعالى:

● ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون. . . ﴾ الأنعام: /٩٣.

● ﴿فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ سورة محمد: /٢٧.

روى البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ مرّ على قبرين فقال:

● «إنهما ليعذّبان، وما يعذّبان في كبير، ثم قال: بلى، (أي ـ إنهما ذنبان كبيران عند الله)، أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة[1]، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله» ثم أخذ رسول الله ﷺ عوداً رطباً فكسره باثنتين، ثم غرز كل واحد منهما على قبر، ثم قال: «لعله يخفّف عنهما ما لم ييبسا».

(١) النميمة: الأخذ والردّ لإشاعة خبر السوء بين الناس (لغير مصلحة عامة مشروعة).

وروى البخاري ومسلم وغيرهما، عن نافع بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال:

● «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة».

ولا شك أن في هذا تنعيماً لمنْ هو من أهل الجنة، وتعذيباً لمن هو من أهل النار.

فهذه بعض النصوص الواردة في الكتاب والسنّة في عذاب القبر ونعيمه، وهي في مجموعها تتجاوز حدّ التواتر المطلوب، لقطعية الدلالة على المضمون، ولذلك تمّ إجماع المسلمين، على أن الميت يتعرض قبل النشور للعذاب أو للنعيم حسب حاله، كما تمّ إجماعهم على قبض ملك الموت للروح (بإذن الله) وعلى سؤال الملكين من بعد الموت.

ثانياً ـ أشراط الساعة

موعد قيام الساعة مجهول لا يعرفه من دون الله أحد:

والساعة من أسماء يوم القيامة، ويوم القيامة هو الحادثة الكونية العظمى التي تطوى عندها السموات والأرض، وينتثر فيها هذا النظام الكوني أجمع.

فأما عن موعد هذا الحدث وزمنه والوقت الذي يكون فيه، فذلك ما أخفى الله علمه عن الناس كلهم، بما فيهم الرسل والأنبياء. ولقد صرّح القرآن بهذا مكرّراً ومؤكداً فقال سبحانه:

● ﴿ يسألونك عن الساعة أيّان مرساها، قل إنما علمها عند ربّي، لا يجلّيها لوقتها إلا هو، ثقلت في السموات والأرض، لا تأتيكم إلا بغتة، يسألونك كأنك حفيّ عنها، قل إنما علمها عند الله، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ الأعراف: /١٨٧.

وأوضح النبي عليه الصلاة والسلام هذا في الحديث الصحيح المتفق

عليه، عندما سأله جبريل: متى الساعة؟ حيث أجابه ما المسؤول عنها بأعلم من السائل.

علاماتها الكبرى: وأما عن علامات الساعة وأشراطها، التي تكون بين يديها، فقد حدثنا كل من الكتاب والسنّة عن أشراط لها، ولا شك أن جملة هذه الأشراط مما هو معروف من الدين بالضرورة، فلا يجوز للمسلم أن ينكرها، أو يمتري بها، وإن كانت داخلة في المغيبات التي لم تقع بعد.

وأما النظر التفصيلي في كل منها فإن ذلك يقتضينا أن نقسم هذه الأشراط إلى قسمين:

فأما القسم الأول منها، فثابت بالخبر المتواتر، الذي يورث القطع واليقين. وأما القسم الثاني فمنقول إلينا عن طريق الآحاد.

وحديثنا عن القسم الأول فقط، وهو الذي ورد به الخبر القطعي، فكان الإيمان به بسبب ذلك واجباً.

١ ـ ظهور الدّجال:

والدجال لقب له، لقّب به لشدة تدجيله وكذبه، ولقدرته الخارقة على تغطية الحق بالباطل، وهو رجل يهودي الأصل، من جهة المشرق، فيدّعي بين الناس الصلاح والاستقامة، ثم إنه يدّعي الألوهية ويتبعه ـ فيما يدعو الناس إليه ـ خلق كثير ـ معظمهم من اليهود.

ولقد فاضت بالأحاديث المتعلقة به جميع كتب السنّة، تحذيراً، وإخباراً، ووصفاً، ولننقل لك بعضاً يسيراً من هذه الأحاديث:

● روى الشيخان وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قام رسول الله ﷺ في الناس، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجّال فقال: إني لأنذركموه، وما من نبي إلا أنذر قومه، ولكني سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه، إنه أعور، وإن الله ليس بأعور.

● روى مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد وغيرهم، حديثاً طويلاً

في شأن الدجال، وما يكون في وقته نسوقه لك باختصار. عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال:

«ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فخفض فيه ورفع، حتى ظنّنّاه في طائفة النخل»[1]، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال:

«غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم، فامرؤ حجيج نفسه. والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط عينه طافئة، كأني أشبّهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خلّة[2] بين الشام والعراق. فعاث يميناً وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا».

قلنا يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم».

قلنا يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا أقدروا له قدره، قلنا يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك، فبينما هو كذلك!.. إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين[3]، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفع تحدّر منه مثل الجمان... فيطلبه (أي فيطلب الدجال)، حتى يدركه بباب لدّ[4]، فيقتله.

هذا وإن مجموع الأحاديث المختلفة الواردة في حقه، تبين أنه ذو علامات فارقة كثيرة. فهو يهودي الأصل، ويكون ظهوره من جهة المشرق، على

---

(١) أي حتى توهمناه أصبح على مقربة منا عند نخيل المدينة.
(٢) أي طريق بينهما.
(٣) أي بين ثوبين أو حلتين تضربان إلى الصفرة.
(٤) اللدّ بلدة معروفة بفلسطين قريبة من بيت المقدس.

خلاف في البقعة المعينة التي يكون خروجه منها، وعينه اليمنى عوراء جاحظة وطافية بشكل منكر، ولا يولد له ولد، ولا يمكّن من دخول مكة والمدينة مكتوب على جبهته (كافر) يتبيّنها كل مسلم، ويقتله عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام.

٢ ـ نزول عيسى ابن مريم:

وهو من أهم أشراط الساعة، ومن أخطر الأحداث التي تكون بين يديها. ومعنى نزوله أنه يهبط إلى الأرض بعد احتجابه عنها كل هذه الحقبة الطويلة من الدهر، في مكان ما من ملكوت الله عزّ وجلّ، وهو لا يزال يتمتع بحياته الأولى التي أحياه الله بها، إذ كان في الأرض رسولاً نبياً. فيمكث في الأرض مدة من الزمن يقيم عليها دعائم العقيدة الإسلامية التي بعث هو والأنبياء كلهم لإقامتها، وينفذ الشريعة الإسلامية الناسخة لجميع الشرائع السابقة، والتي بعث بها محمد عليه الصلاة والسلام، دون أن يؤيد خلال ذلك بوحي جديد من الله عزّ وجلّ.

ثم إن الدليل على ذلك ثابت بيقين في كل من الكتاب والسنة، أما دليل الكتاب فإليك منه هاتين الآيتين:

الآية الأولى ـ قوله تعالى في سورة النساء: ١٥٧/ ـ ١٥٩:

● ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريمٍ رسول الله، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبِّه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شكٍّ منه، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً. بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً. وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به قبل موته، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾.

ومحل الشاهد قوله تعالى:

● ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾.

والمعنى: لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام إلا آمن به قبل موت عيسى عليه السلام. فالضمير في «قبل موته» عائد ـ كما هو واضح من سياق الآيات ـ إلى عيسى ابن مريم، وهو نص على أنه عليه الصلاة والسلام لم يمت بعد.

قال ابن كثير بعد أن شرح الآية على هذا الوجه:

«ولا شك أن هذا هو الصحيح، لأنه المقصود من سياق الآية في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة بذلك. فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك وإنما شبّه لهم فقتلوا الشّبه وهم لا يتبيّنون ذلك، ثم أنه رفعه إليه، وأنه باق حيّ، وأنه سينزل قبل يوم القيامة، كما دلّت عليه الأحاديث المتواترة، التي سنوردها إن شاء الله قريباً، فيقتل مسيح الضلالة ويكسر الصليب ويقتل الخنزير، (ويضع الجزية) أي لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ، ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم[1].

الآية الثانية ـ قوله تعالى في سورة الزخرف: /٥٧ ـ ٦١:

● ﴿ ولما ضُرِبَ ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يَصِدُّون. وقالوا أآلهتنا خير أم هو، ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون. إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل. ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون. وإنه لعِلْمٌ للساعة فلا تمترنّ بها، واتبعون هذا صراط مستقيم ﴾.

ومحــل الشاهد في هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها ﴾ فالضمير كما ترى عائد إلى ابن مريم، الذي تتحدث الآيات عنه، والمعنى أن عيسى ابن مريم دليـل على قيام الساعة، وإنما يكون كذلك بنزوله من السماء، حكماً مقسطاً عادلاً.

وتدلّ القراءة (السبعية الأخرى ـ من قراءات القرآن الكريم) على أنَّ الآية كما يلي:

● ﴿ وإنه لَعَلَمٌ للساعة ﴾ أي إشارة ورمزٌ لها (بفتح اللّام ـ لا سكونها)،

---

(١) تفسير ابن كثير: ١ ـ ٥٧٧.

ولا ينبغي أن يكون للآية أي معنى غير هذا، وهو المعنى الذي اتفقت عليه كلمة المفسّرين عامة.

وأما الأحاديث فكثيرة جداً، وإليك بعضاً منها.

١ ـ ما رواه الشيخان وغيرهما بطرق مختلفة كثيرة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ:

● «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الحرب، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها، ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم قوله تعالى:

● ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ النساء: /١٥٩.

٢ ـ ما رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: طلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال: ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة قال: إنها لن تقوم حتى تروا عشر آيات: الدخان[١]، والدّجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها[٢]، ونزول عيسى

---

(١) قال جمهور المفسرين إنه الدخان الذي تحدث عنه القرآن في قوله تعالى:
● ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين، يغشى الناس هذا عذاب أليم... ﴾ الدخان: /١٠ ـ ١١.
وهو دخان يأخذ المؤمن كهيئة الزكام، ويدخل في مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيذ أي المشوي على النار، من شدة الفيح والحرارة اللتين تنتابهما»، ينظر تفسير ابن كثير: ١٤٠/٤.

(٢) روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:
● «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين: ﴿لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً﴾» الأنعام: /١٥٨، ولتقومن الساعة وقد نشر رجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه. ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته ـ أي ناقته ـ فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه ـ أي يصلحه ـ فلا يسقي منه، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها.

ابن مريم ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب؛ وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم.

٣ ـ ما رواه أحمد وأبو داود وابن جرير بطرق مختلفة عن أبي هريرة قال:

● قال رسول الله ﷺ: الأنبياء إخوة لعلات[1]، أمهاتهم شتّى ودينهم واحد، وإني أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن نبي بيني وبينه، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع، إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممصّران، كأنّ رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيدقّ الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية ويدعو الناس إلى الإسلام، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجّالَ فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون.

فهذه أحاديث تنص على نزول عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، وهي أحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ.

وقد وقفت قبل ذلك على نصوص الآيات المحكمة من كتاب الله تعالى، الناطقة بمثل ما دلت عليه هذه الأحاديث، فمن أجل ذلك تمَّ إجماع المسلمين على الاعتقاد بنزول عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام في آخر الزمن، على النحو وبالصفة التي ذكرها لنا رسول الله ﷺ، وإنه إنما رفع ببدنه حيّاً إلى السماء كما بين الله عز وجل صريحاً في محكم بيانه.

٣ ـ ظهور يأجوج ومأجوج:

يأجوج ومأجوج: هاتان الكلمتان عبَّر بهما القرآن عن أمة كبيرة من الناس يفاجأ بها العالم تنسل إليه من كل حدب، تنشر الفساد والدمار في الأرض، على نحو مذهل وبطريقة مرعبة.

غير أن القرآن أخفى عن الناس ميعاد ظهورهم، فلا يعلم أجل ذلك أحد إلاَّ الله عز وجل ولكنه نصَّ على أن ظهورهم علامة من العلامات الكبرى لاقتراب الساعة.

(١) قال ابن الأثير في النهاية: أولاد العلاّت الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد، أراد أن إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة.

وهذا هو إخبار القرآن عنهم:

● ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون. واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا، يا ويلينا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين﴾ الأنبياء: /٩٦ ـ ٩٧.

أما إخبار السنة عنهم فتأكيد للذي أخبر عنهم القرآن:

روى الشيخان وغيرهما عن زينب بنت جحش أن النبي ﷺ استيقظ من نومه وهو يقول:

«لا إلّه إلاَّ الله، ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه. وعقد الراوي بيده عشرة. قلت يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث».

فهذه نصوص من الكتاب والسنة ذات دلالة قاطعة على أن من أشراط الساعة ظهور هذه الأمة التي تعثو فساداً في الأرض، فكان الإيمان بذلك من الضروريات التي لا بد منها للإيمان بالكتاب والسنة.

٤ ـ ظهور دابة الأرض:

ودابة الأرض تعبير قرآني عن حيوان نكل علم نوعه وشكله وهيئته إلى الله عزّ وجلّ، يظهر للناس قبيل الساعة يكلمهم، ويصف كلاً منهم بصفته من الإيمان أو الكفر، فيسم الكافر بوسم الكفر، ويطبع المؤمن بطابع الإيمان، وحينئذٍ لا تنفع نفس إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل. يقول الله تعالى:

● ﴿وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابّة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ النمل: /٨٢.

وروى مسلم بسنده عن عبدالله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

● «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابّة على الناس ضحى وآيتها كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً.

٥ ـ طلوع الشمس من مغربها:

وهو من الآيات التي تفرَّدت السنة بذكرها صراحة. روى البخاري عن النبي ﷺ حديثاً طويلاً عن أشراط الساعة وفيه: لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها. فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً.

فهذه الأمور من أهم أشراط الساعة، التي وصل إلينا علمها عن طريق الخبر الصادق، وأجمع المسلمون على ضرورة الاعتقاد بها.

وللساعة أشراط وعلامات أخرى تحدث عنها النبي ﷺ في كثير من أحاديثه، وكثير منها ظهر وتحقق كما أخبر، ولا مجال لذكرها والتوسع في الحديث عنها في هذا المقام (والله تعالى أعلم).

٣ ـ يوم القيامة وأحداثه

تمهيد:

إذا تكاملت أشراط الساعة التي تحدثنا عنها، وجاء ميقات اللحظة المحددة المعلومة عند رب العالمين، والخفية عن عباده أجمعين، ذلك الميقات الذي ينتهي عنده أجل الدنيا بما فيها، حينئذٍ تنتهي الحياة على هذه الأرض، وينتثر هذا النظام الكوني بأجمعه... بعد أن ظلَّ دهراً مديداً سائراً في خدمة مولاه ملتزماً ما وضعه فيه من منهج لا ينحرف عنه. إن خدمته الرتيبة هذه في تلك اللحظة التي لا يعلم ميقاتها إلاَّ الله عز وجل، ليبدأ من ورائها طور جديد من الخلق والتكوين والتنظيم.

فهذه النهاية التي تنعدم عندها الحياةمن الكون، وينهار عندها نظامه وتتبدل معالمه وتنتثر أجزاؤه، هو بدء ما يسميه القرآن بالساعة، وبيوم القيامة. ثم تمتد هذه البداية إلى حشر الأجساد وإعادة أرواحها إليها، ثم إلى ما يتبع ذلك من طول حساب وميزان واجتياز صراط، إلى أن يستقر أصحاب الجنة في جنان خلدهم ويستقر أصحاب العذاب في سعيرهم.

كيف تقوم الساعة وتنعدم الحياة:

حسبك لمعرفة ما يجب أن تعلمه من ذلك أن تقرأ قوله تعالى:

● ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلّا من شاء الله، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ الزمر: /٦٨.

الأدلة على قيام الساعة:

اعلم يا أخي المسلم أن قيام الساعة أخطر الأخبار الغيبية التي أخبر عنها الخالق جل جلاله على الإطلاق.

فمن أجل خطورة هذا الحدث العظيم، يظل القرآن يخبر الإنسان عنه وينذره إياه في تأكيد متوال لا ينقطع. ولنتأمل طائفة من هذه الآيات بقلب متيقظ وعقل متدبِّر، ولننتبه إلى ما فيها من فنون التأكيد المختلفة بشتى الوجوه والأساليب، التي تخاطب في الإنسان وجدانه وعقله ومشاعره، حتى ينقلب بذلك على الواقع (من قيود الهوى ـ وأسر الشهوات غير المشروعة) الذي حصر كل خياله فيه، وحتى يتحرر من سجن دنياه التي يعيش فيها، ويستيقظ من الأحلام التي يتقلب فيها عسى أن يحسب لهذا الذي سيفجؤه عما قليل حسابه، ويعدُّ له عدته، كما قال تعالى:

● ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ البقرة: /٢٨١.

● ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ الحشر: /١٨.

● ﴿يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم. فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره﴾ الزلزلة /٦ ـ ٨.

وانظر إلى هذه الآيات الأخرى التي سيقت مساق الحجاج والنقاش، لتبديد ما يطوف بذهن الإنسان من عوامل الريب والشكوك حول إمكان وقوع هذا الأمر العظيم، بأسلوب معجز يتجلّى فيه سلطان الرّبوبية.

● ﴿ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيّاً. أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل، ولم يك شيئاً﴾ مريم: /٦٦ ـ ٦٧.

● ﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين. وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه، قال من يحيي العظام وهي رميم. قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ يٓس: /٧٧ ـ ٧٩.

وانظر إلى هذه الآية الكريمة كيف ينبّه الخالق جل جلاله فيها العقل إلى أن ما يراه من عظمة هذا الكون بكل ما فيه، إنما هو بالنسبة لقدرة الإنسان فقط، فما ينبغي له أن يتخذ من العظمة ـ التي ليست عظمة في الواقع إلاَّ بالنسبة لضعف الإنسان ـ دليلاً على إنكاره ليوم القيامة.

● ﴿يوم نطوي السماء كطيّ السجل للكتب، كما بدأنا أول خلق نعيده، وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ الأنبياء: /١٠٤.

وأحياناً أخرى يظهر في مكان هذه الأساليب كلها أسلوب آخر هادىء، إنَّه أسلوب النظر العلمي ولفت العقل إلى ما ينبغي أن يتنبه إليه من مذاهب التأمل والفكر:

● ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلّقة لنبيّن لكم، ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمًّى ثم نخرجكم طفلاً، ثم لتبلغوا أشدَّكم، ومنكم من يتوفى ومنكم من يردُّ إلى أرذل العمر، لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزَّت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج. ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير. وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور﴾ الحج: /٥ ـ ٧.

وأحياناً يلجأ القرآن إلى خطاب العاطفة بأسلوب الثقة، وانطلاقاً من عقيدة التوحيد:

● ﴿الله لا إلٓه إلاَّ هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه، ومن أصدق من الله حديثاً﴾ النساء: /٨٧.

وإن استقصاء الآيات التي تلحّ على الإنسان أن يتنبّه بكل جوارحه وعقله ووجدانه لخطر ذلك اليوم المقبل عليه، وأن يعدّ لذلك عدَّته، نقول إن استقصاء ذلك أمر يطول، فما عليك إلاَّ أن تقبل على كتاب الله جل جلاله، وتتأمل ما يفيض به من حديث الساعة وشؤونها، والأساليب المعجزة المختلفة في تأكيد أمرها، وتحذير الإنسان من أن يخدعه أي خادع عنها.

فهذا دليل ما بعده دليل على قيام الناس بعد موتهم لرب العالمين.

ويتبع هذا الدليل ما كنا قد أوضحناه من قبل، وهو أنه مما لا يتصوره العقل أن تكون قصة الإنسان تبدأ في غلاف الولادة، وتنتهي بغلاف الموت، إلاَّ إذا تصورنا أن الذي خلقه وأطلق يده في الحياة، إنما فعل ذلك عبثاً، وقد علمت أن العبث من أجلى صور المحالات بالنسبة لذات الله جلّ جلاله.

● ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً، وأنكم إلينا لا ترجعون. فتعالى الله الملك الحق، لا إلَه إلاَّ هو رب العرش الكريم﴾ المؤمنون: /١١٥ ـ ١١٦.

كيفية حشر الأجساد وعودة أرواحها إليها:

لا يستطيع العلم أن يصف كيفية حشر الأجساد، أو أن يحلِّلها ويعلِّلها بالطريقة العلمية التي يمارسها الإنسان في هذه الحياة، وذلك لما كنا قد ذكرناه من أن شأن العلم محصور في أنه يبدأ البحث بموضوعات توجد في التجربة الخارجية البعيدة عن وحي العقل والتفكير المحض، ثم تفرض نفسها عليه طبق ما دلت عليه المشاهدة والتجربة، وعلى العقل بعد ذلك أن يفسِّرها ويحلِّلها فقط.

والمعاد الجسمي لم يتحقَّق بعد، ومعنىٰ ذلك أنه لم يوجد بعد الموضوع الذي يستطيع العلم أن ينظر ويبحث فيه، فمن العبث أن تُسائل المجهر عن تحليل ما لم يوضع تحته بعد من صنوف المركَّبات.

سبيلنا إذن إلى إثبات حشر الأجساد (البعث بعد الموت) هو الخبر اليقيني الصادق في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى:

● ﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث (أي القبور) إلى ربهم ينسلون (يسرعون). قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا؛ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ يس: ٥١/ ـ ٥٢.

وورد في السنة الصحيحة، إذا مات ابن آدم بلي جسده كله، ولا يبقى منه إلَّا ذرَّة صغيرة تسمى «عجب الذنب» وهذا يكون في رأس العصعص، وقد ثبت ذلك في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال:

● «وليس شيء في الإنسان إلَّا يبلى إلَّا عظماً واحداً وهو عجب الذنب، ومنه يركّب الخلق يوم القيامة».

فإذا أراد الله تعالى البعث أنزل من السماء ماء على ذلك الجزء الباقي، ثم يحيي إسرافيل ويأمره أن ينفخ في الصور النفخة الثانية (وهي نفخة الإحياء)، فتنبت الخلائق كما ينبت البقل، كما قال عليه الصلاة والسلام: «ثم ينزل الله من السماء ماء فينبثون كما ينبث البقل» أخرجه البخاري ومسلم، وينادي الرب سبحانه الأرواح فتعود إلى أجسادها التي كانت فيها في هذه الدنيا، فيقوم الخلائق قائلين:

● ﴿يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا... هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾.

الحساب

وهو إطلاع الله عباده ـ قبل انصرافهم من المحشر ـ على كل ما قد جنوه في حياتهم الدنيا من تصرُّفات فعليَّة وقولية واعتقادية خيراً كانت أو شرًّاً، وذلك بالشكل أو الواسطة التي لا يعلمها أحد غيره.

قال تعالى:

● ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء، تودّ

لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً، ويحذِّركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد﴾ آل عمران: /٣٠.

● ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ الأنبياء: /٤٧.

والحكمة من هذا الحساب أن يظهر الله فضائل المتقين ومناقبهم، وفضائح العصاة ومثالبهم، وذلك على رؤوس الأشهاد. وهو مما أنذر الله به عباده في الدنيا، فلا بدَّ أن يتحقَّق في الآخرة.

وقد دلَّ الخبر الإلَهي أن هذا الحساب هو أهم وأعظم ما يراه الإنسان من أحداث يوم القيامة حتى أنَّه سبحانه وتعالى أطلق على يوم القيامة اسم «يوم الحساب»، فقال في محكم كتابه:

● ﴿هذا ما توعدون ليوم الحساب﴾ صٓ: /٥٣.

● ﴿ولا تتبع الهوى فيضلَّك عن سبيل الله، إن الذين يضلُّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ صٓ: /٢٦.

● ﴿وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبِّر لا يؤمن بيوم الحساب﴾ غافر: /٢٧.

ومن أجلى الآيات الدالة على محاسبة الله عباده يوم القيامة، قوله تعالى:

● ﴿وإنْ تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ البقرة: /٢٨٤.

● ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه. فسوف يحاسب حساباً يسيراً. وينقلب إلى أهله مسروراً﴾ الانشقاق: /٧ ـ ٩.

أما عن طول الحساب على الإنسان وقصره، وصعوبته ويسره، فهو يختلف باختلاف الناس وتفاوت درجاتهم (في الإيمان)، فمنهم من لا يستغرق الحساب بالنسبة إليه أكثر من فواق ناقة ـ أي حلبها ـ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام، ومنهم من يطول عليه أمد ذلك ويشتد عليهم الكرب.

واعلم أن الإيمان بالحساب يستلزم الإيمان بـالكتب، وهي صحائف بأسماء أصحابها تعطى إلى يمين كل منهم أو يساره، وقد سجل فيها كل ما كان قد اجترحه أو اكتسبه، والله أعلم بكيفية هذه الصحائف ونوعها وكيفية الكتابة المسجلة عليها. وكل ما أعلمنا الله إياه بإخباره القطعي هـو أنَّ من أوتي كتابه بيمينه كان من السعداء، وكل من أوتي كتابه بشماله كان من أهل الشقوة والضلال.

وحسبك أن تنصت في بيان هذا الأمر إلى هذه الآيات الباهرة، ثم تخضع لها وتوقن بمضمونها:

● ﴿ولله ملك السموات والأرض، ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون. وترى كل أمة جاثية، كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ الجاثية: /٢٧ ـ ٢٩.

هول الموقف وعظائمه:

واعلم أنه لن يجدي في تصوير حقيقة هذا الهول وبيانه أيّ وصف يكتب أو حديث يتلى، وإنما هو شيء خبَّأه الله وأخفاه إلى حينه، وحسبك أن تعلم أنه أهول من كل هول وأعظم من كل عظيم وأن تستحضر في تصوّر عظمة ذلك قوله تعالى:

● ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد﴾ الحج: /١ ـ ٢.

● ﴿فإذا جاءت الصَّاخَّة. يوم يَفِرُّ المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرىء منهم يومئذٍ شأن يغنيه﴾ عبس: /٣٣ ـ ٣٧.

وقد وصف رسول الله ﷺ طرفاً من هول الموقف فقال فيما رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يحشر الناس يوم القيامة، حُفاة عُراة غرلاً (أي غير مختونين) قلت: يا رسول الله الرجال والنساء

جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال ﷺ: يا عائشة الأمر أشدُّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض. ﴿ لكل امرىء منهم يومئذٍ شأن يُغنيه ﴾.

كما أوضح ﷺ أن الشمس تدنو إذ ذاك من رؤوس الخلائق، حتى تكون منهم بمقدار ميل، ويذهب العرق يسيح في الأرض سبعين ذراعاً، فمنهم من يبلغ العرق كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً، وأشار الرسول ﷺ إلى فيه.

وحسبك من هول هذا اليوم أن يتمنى الناس الانصراف ولو إلى النار، وأن يطلق الله عليه اسم «الفزع الأكبر».

إلَّا أن شيئاً من هذا الهول لا يمسّ ـ كما ورد في الخبر الصادق ـ الأنبياء، ومن قبلهم الله عز وجل عنده من عباده وأوليائه الصالحين، دلَّ على ذلك قوله تعالى:

● ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون. لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون. لا يحزنهم الفزع الأكبر، وتتلقاهم الملائكة، هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ الأنبياء: /١٠١ ـ ١٠٣.

وقد دلَّ الحديث الصحيح أن من هؤلاء الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر، ويكونون في مأمن من هذا العذاب الأليم، أولئك الأصناف السبعة الذين أخبر الرسول ﷺ، أنَّهم يظلّهم الله في ظله، يوم لا ظل إلَّا ظله... الحديث»[1].

فاجهد أيها الإنسان العاقل ـ وإن فرصة العمر لا تزال في يدك ـ أن تكون

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:
● «سبعة يظلّهم الله يوم القيامة في ظله، يوم لا ظلَّ إلَّا ظله:
١ ـ إمام عادل.
٢ ـ وشاب نشأ في عبادة الله.
٣ ـ ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه.
٤ ـ ورجل قلبه معلّق بالمساجد.
٥ ـ ورجلان تحابَّا في الله، اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه.
٦ ـ ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال. فقال إني أخاف الله.
٧ ـ ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفقه يمينه».

واحداً من هؤلاء الذين قال عنهم (القرآن) لا يحزنهم الفزع الأكبر. اجهد أن تكون واحداً منهم بسلوكك وخلقك ودينك وقيامك بحق ربك، ولا يخدعنَّك عن ذلك طول الأمل وسلطان الشهوات والأهواء، فيوشك والله أن ترى هذا الموقف بعينك، وإذا البعيد قريب، وإذا المشكوك متحقِّق، وإذا الفرصة فائتة (لا سمح الله)، والندم لا يفيد. ولنكن معاً مع الحديث النبوي الشريف:

● «الكيِّس (العاقل) من دان نفسه (حاسبها) وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني».

الميزان والوزن:

وكلاهما مما أخبر الله به في محكم كتابه، بعبارات واضحة صريحة لا تحتمل التأويل، فهو حق يجب الإيمان به كما أخبر. قال الله عز وجل.

● ﴿والوزن يومئذ الحق﴾ الأعراف: /٨.

● ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾ الأنبياء: /٤٧.

● ﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون﴾ المؤمنون: /١٠٢ ـ ١٠٣.

وعلينا أن نمسك ـ كما قال العلماء ـ عن تعيين نوع هذا الميزان وجوهره وكيفيَّته، وهل هو ميزان واحد للخلائق كلهم أم موازين كثيرة، فكل ذلك مما لا سبيل إلى القطع به، ولكننا نؤمن بما أخبر الله عنه ونقول إنه كما أخبر جل جلاله، دون أن نؤوّل أو نقحم عقولنا وأخيلتنا في حمل هذه الآيات على مجاز أو استعارة أو نحو ذلك.

الصراط والاجتياز عليه:

والصراط يطلق على معنيين: **أحدهما في الدنيا**، وهو المنهج الذي شرعه الله لعباده، وأمرهم باتباعه والتزامه وهو المعنيّ بقوله تعالى:

● ﴿وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه﴾ الأنعام /١٥٣.

● ﴿اهدنا الصراط المستقيم. . .﴾ الفاتحة: /٦.

ثانيهما في الآخرة، وهو الجسر الذي ينصب على نار جهنم يوم القيامة فيجتاز عليه الناس، على اختلاف مذاهبهم وتفاوت درجاتهم، فمنهم من يدقّ تحت قدميه، حتى يبدو له أنه أدقّ من السيف، فيترنّح من فوقه، ثم يهوي في النار، ومنهم من ينبسط عريضاً تحت قدميه، فيمر من فوقه إلى ما أعدَّه الله له من النعيم المقيم. وإليه يشير قوله تعالى:

- ﴿وإنْ منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً. ثمّ ننجي الذين اتقوا، ونذر الظالمين فيها جثيّاً﴾ مريم: /٧١ ـ ٧٢.
- ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنَّا يبصرون﴾ يس: /٦٦.

وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟... هكذا ترون ربكم يوم القيامة... إلى أن قال: ويضرب الله جسر جهنَّم فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ودعاء الرسل يومئذٍ اللهم سلِّم سلِّم، وبه كلاليب مثل شوك السعدان، أما رأيتم شوك السعدان[1]؟ قالوا بلى يا رسول الله، قال: فإنها مثل شوك السعدان غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلاَّ الله جل جلاله، فتخطف الناس بأعمالهم، منهم الموبق بعمله، ومنهم المخردل ثم ينجو.

واعلم أن هذا الصراط إنما هو تجسيد لمعنى الصراط الذي ألزم الله به عباده في الدنيا، فمن ضيَّق على نفسه سبل العيش والحياة حتى لا يخرج عن صراط الله ونهجه الذي أمر باتباعه، اتسع أمامه الصراط الممتد على متن جهنم، ومن وأتبع نفسه هواها، فتجاوز حدود الله وأحكامه، ضاق عليه الصراط غداً، وإليك ما يقوله في بيان هذه الحقيقة الإمام الغزالي ـ حجة الإسلام ـ رضي الله عنه:

«فمن استقام على الصراط المستقيم، خفّ على صراط الآخرة ونجا، ومن عدل

---

(١) السعدان: نبت ذو شوك عظيم.

عن الاستقامة في الدنيا وأثقل ظهره بالأوزار وعصى، تعثّر في أول قدم من الصراط وتردَّى. . .»[1].

الشفاعة والحوض:

فأما الشفاعة ـ فهي في الحقيقة مظهر من مظاهر رحمة الله عز وجل بمن شاء من عباده في ذلك الموقف، ويتجلَّى هذا المظهر بأشكال مختلفة، فمنها أن يغفر الله لمن شاء من عباده العصاة ما لم يكن من أهل الكفر أو الشرك، وفي إيضاح هذه الحقيقة يقول الله عز وجل:

● ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ النساء: /٤٨.

ومنها تكريم الله رسوله ﷺ بالشفاعة في أمته، وهي ما يطلق عليه العلماء «الشفاعة العظمى» وهي تتمثل في شفاعات كثيرة أعظمها:

● شفاعته ﷺ لأهل المحشر عامة لإراحتهم من طول الموقف وأهواله.
● ومنها إدخال طائفة من أمته الجنة من غير حساب.
● ومنها شفاعته فيمن استحق دخول النار، أن لا يدخلها.
● ومنها شفاعته في إخراج المؤمنين والموحّدين منها بعد دخولهم فيها، ويشاركه في هذه الشفاعة والتي قبلها على الأصح الأنبياء والملائكة والمقربون من المؤمنين.

والمقام المحمود الذي وعد الله رسوله به، إنما هو المنزلة التي تخوّله هذه الشفاعات المختلفة في أهل المحشر عامة وفي أمته خاصة. وعلى هذا فالمقام المحمود الذي سيقيم الله تعالى نبيّه فيه يوم القيامة، ليس اسماً لشفاعة معينة في الشفاعات المذكورة، وإنما هو اسم لجميعها، حيث يغبطه الخلائق كلهم عليها.

وإنما شفاعته ﷺ لأهل المحشر بإراحتهم من طول الموقف هو أول هذا

---

(١) إحياء علوم الدين: ٤/٥٢٤.

المقام المحمود، كما قال في شرحه لجوهرة التوحيد[1].

والآيات والأحاديث التي تتحدث عن الشفاعة كثيرة جداً، فمن ذلك قوله تعالى:

- ﴿ ... من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه... ﴾ البقرة: /٢٥٥.
- ﴿ لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ مريم: /٨٧.
- ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾ طه: /١٠٩.

غير أن الشفاعة، إنما هي ـ كما أشرنا ـ مظهر من مظاهر رحمة الله بعباده الذين شاء لهم المغفرة ولكنها اتخذت هذا الشكل تكريماً لرسله وأنبيائه، وبعض الصالحين من عباده.

وأما الحوضـ فهو مكرمة عظيمة خصّ الله بها محمداً ﷺ، وقد نصّ عليه البيان القرآني في قوله تعالى:

- ﴿ إنا أعطيناك الكوثر. فصلّ لربك وانحر. إن شانئك هو الأبتر ﴾.

روى الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً، قلنا ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: لقد أنزلت عليّ آنفاً سورة فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إنا أعطيناك الكوثر، فصلّ لربك وانحر، إن شانئك هو الأبتر ﴾. ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربّي عزّ وجلّ، عليه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم في السماء.

وتبين لك مما ذكرناه، أن ماء الحوض والكوثر شيء واحد، وأن أصله في الجنة، فما كان جارياً منه في داخلها فهو ماء الكوثر، وما انصب منه في خارجها فهو ماء الحوض، وهو الذي يرده المؤمنون الذين لم يبدّلوا في دين الله شيئاً

---

(١) ينظر عبد السلام اللقاني على الجوهرة ص ٢٤٢.

(باستقامتهم على طاعة الله ـ حتى نهاية حياتهم الدنيا). حيث يردونه قبل دخول الجنة ويكون رسول الله ﷺ فرطاً لهم عنده.

والأحاديث الواردة في شأن الحوض ووصفه كثيرة جداً، وقد زادت عن حدّ التواتر. وهو أيضاً من مظاهر إكرام الله تعالى لنبيّه محمد ﷺ ورحمته بعباده.

الجنة والنار، والخلود في كل منهما

وهما العاقبة التي لا بد أن تنتهي إلى إحداهما حياة الإنسان. وهي عاقبة أخيرة ودائمة لا عاقبة من بعدها.

ولا مجال لوصف أهل النار وعذابها، ولا لوصف نعيم الجنة وأسباب السعادة فيها، فحديث ذلك يطول، وهو على كل لا يكاد يصوّر شيئاً من الواقع الذي هو اليوم غيب عن الناس كلهم، إلى أن يأتي ميقات ذلك اليوم المعلوم والمحدد في علم الله جلّ جلاله.

وإنما يتعلق الحديث هنا ببيان حقيقتين اثنتين لا بد أن يعيهما المسلم ويعتقدهما اعتقاداً جازماً.

الحقيقة الأولى: الجنة والنار شيئان مادّيان:

أجل ـ إن الجنة والنار حقيقتان ماديتان من متعلقات كل من النفس والجسم معاً، وليستا مجرد وَهْم يطوف بالنفس أو الروح وحدها. إذ لو كان الأمر كذلك لما كان ثمّة أي معنى للمعاد الجسمي الذي فرغنا من بيانه، والذي حفل كتاب الله تعالى بذكره وتأكيده والتحذير من عواقبه في كثير من نصوصه وآياته القاطعة. وبدهي أنه لا ينكر مادّية كل من الجنة والنار إلا من أنكر قبل ذلك الحشر والمعاد الجسمي وعودة الأرواح إلى أجسادها.

ومن أوضح الأدلة وأجلاها على هذه الحقيقة، الطريقة التي يصف بها القرآن كل من الجنة والنار وهي طريقة قد تثير استفساراً لدى بعض الناس عن حكمة اتباع القرآن لها والتزامه إياها.

فالحكمة منها أنها تعبير عن أن نعيم الجنة حسّي مادي يلقاه الجسم والروح معاً، وعذاب جهنم حسّي مادي أيضاً يلقاه الجسد والروح معاً، وأنها تأكيد لهذه الحقيقة بأقوى الأساليب العربية المؤكدة. تأمّل هذه الآيات في وصف الجنة وأهلها:

● ﴿وجوه يومئذ ناعمة. لسعيها راضية. في جنّة عالية. لا تسمع فيها لاغية. فيها عين جارية. فيها سررٌ مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابيّ مبثوثة﴾ الغاشية: /٨ ـ ١٦.

● ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين. في سدر مخضود. وطلح منضود. وظل ممدود. وماء مسكوب. وفاكهة كثيرة. لا مقطوعة ولا ممنوعة. وفرش مرفوعة﴾ الواقعة: /٢٧ ـ ٣٤.

فما الحكمة من وصف هذه الجزئيات كلها من الجنة ونعيمها، ومعلوم أن أحدنا إذا أراد أن يصف مظهراً من مظاهر النعيم، قد لا يجد نفسه بحاجة إلى أن يتناول في وصفه له هذه الدقائق الجزئية كلها.

الجواب: إنّه منتهى ما يتمثل به الأسلوب العربي في تأكيد أن نعيم الجنة شيء حسّي ملموس يعيش فيه الإنسان بكل حواسّه ومشاعره، وليس معنى روحياً مجرداً، ثم تأمل هذه الآيات وهي تصف النار وأهلها:

● ﴿وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى ناراً حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لا يسمن ولا يغني من جوع﴾ الغاشية: /٢ ـ ٧.

● ﴿ثم إنكم أيها الضّالون المكذبون. لآكلون من شجر من زقوم. فمالئون منها البطون. فشاربون عليه من الحميم. فشاربون شرب الهيم. هذا نزلهم يوم الدين﴾ الواقعة: /٥١ ـ ٥٦.

● ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر. يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مسّ سقر ﴾ القمر: /٤٧ ـ ٤٨.

● ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً، كلما نضجت جلودهم

بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب، إن الله كان عزيزاً حكيماً﴾ النساء: /٥٦.

فما الحكمة من هذا الوصف التفصيلي بهذا الشكل؟، إنّه أيضاً بيان وإيضاح للناس كلهم، إنه عذاب مادي محسوس ملموس، تنغمس فيه حواس الكافرين وجسومهم ومشاعرهم، وليس كرباً روحانياً مجرّداً. **فهذه هي الحقيقة الأولى** (ونعني بذلك أن الجنة والنار شيئان ماديان ـ وليستا مجرد وهم يطوف بالنفس أو الروح وحدها).

الحقيقة الثانية: كل من الجنة والنار خالد لا نهاية له:

إن نعيم الجنة باق خالد لا نهاية له، وعذاب جهنم باق لا نهاية له، والآيات التي توضح هذه الحقيقة في كتاب الله كثيرة. فمن ذلك قوله تعالى:

● ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً. خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً..﴾ الكهف: /١٠٧ ـ ١٠٨.

● ﴿إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون. لا يفتّر عنهم وهم فيه مبلسون. وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين. ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾ الزخرف: /٧٤ ـ ٧٧.

وقد جاءت السنّة بمزيد من التأكيد لهذه الحقيقة، وذلك في أحاديث كثيرة منها: ما رواه الشيخان (البخاري ومسلم) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

● «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، جيء بالموت، حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم».

وسواء أكان تجسيد الموت وذبحه بهذا الشكل حقيقة، أم كان ذلك كناية عن القضاء على معنى الموت وإزالته من الوجود، فإن الحديث على كل حال

ينطوي على أبلغ الأساليب المؤكدة لمعنى الخلود في كل من الجنة والنار. على أنا لا نرى داعياً إلى إدخال أي تأويل على ظاهر الحديث.

غير أن الذين يستقرون خالدين في عذاب الله تعالى إنما هم الكافرون بمختلف فئاتهم وأضرابهم، من مشركين وملاحدة وأهل كتاب، ممن لم يؤمنوا بنبوّة الأنبياء كلهم.

أما العصاة من المؤمنين بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر فمصيرهم، مهما طال عليهم العذاب إلى مغفرة الله وجنته.

وربما استشكلت بهذا الصدد قوله تعالى:

● ﴿ فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق. خالدين فيها، ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعّال لما يريد. وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴾ هود: /١٠٦ ـ ١٠٨.

ذلك أن ظاهر قوله: إلا ما شاء ربك استثناء من الخلود، وهو ينافي ما تقرره الآيات الأخرى والأحاديث الثابتة وما اتفق عليه المسلمون.

والجواب: إنه استثناء من قوله: (شقوا) في الآية الأولى، ومن قوله (سعدوا) من الآية الثانية. أي إن جميع الأشقياء خالدون في النار **إلا من شاء الله منهم أن لا يخلدوا فيها وهم العصاة من أهل الإيمان والتوحيد**، كما دلت على ذلك الأدلة الكثيرة الأخرى. وجميع أهل السعادة خالدون في الجنة **إلا من شاء الله منهم أن يتعذب في النار إلى أمد قبل ذلك، وهم أولئك الذين غمرت حياتهم بالمعاصي والأوزار من المؤمنين، ولم تكتب لهم الشفاعة أولاً**.

وإنما لم يأت الاستثناء بصيغة ـ إلا من شاء ربك ـ كما كان يقتضي ظاهر الاستثناء لأن المـراد من المستثنى منه (العدد المجرد) لا (الأشخاص بأعيانهم)، حتى يراعى فيهم العقل، وذلك كقوله تعالى:

● ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع. . ﴾ النساء: /٣ فقد عبّر عن النساء بـ (ما) عندما كان الملاحظ فيهم (العدد ـ لا الشخص).

فهذه هي جملة الحقائق الغيبيّة التي يجب أن يعيها الإنسان ويعتقدها اعتقاداً جازماً بعد أن اجتاز مرحلة الإيمان بالله ورسوله وكتبه، ولا يمكن عقلاً أن ينفك الإيمان بالله عن الإيمان بهذه المغيبات، إذ هما متلازمان تلازماً واضحاً لكل ذي عقل مؤمن ـ (لمن كان له قلب ـ أو ألقى السمع وهو شهيد).

الخاتمـــة

- النظام العام الإلّهي في الخلق والتدبير.
- الإيمان والحياة (العقيدة والإيمان في مجال التطبيق).
- آثار العقيدة الإسلامية في الفرد والمجتمع.
- الإنسان بين العلم والدين.
- حاجتنا إلى تجديد الإيمان.
- عقيدة التوحيد في أبعادها الموضوعية.
- مختارات من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة تمثل الخطوط العريضة لعلم العقيدة الإسلامية.



المبحث الأول

النظام العام الإلّهي في الخلق والتدبير[1]

نستهل هذا البحث بحديث رسول الله ﷺ فيما يتعلق بالنظام العام الإلّهي في الخلق والتدبير وهو كما يلي:

● قال رسوله الله ﷺ: «الإيمان بالقدر نظام التوحيد».
رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة رضي الله عنه.

● وقال ﷺ: «القدر نظام التوحيد، فمن وحّد الله وآمن بالقدر فقد استمسك بالعروة الوثقىٰ».

رواه الطبراني في الأوسط عن ابن عباس رضي الله عنهما.

لقد مرّ بنا أن العقيدة بمعناها الذي اصطلح عليه هي مجموع الأمور التي يجب أن يدين المرء بها في الدين الإسلامي، ويؤمن بها إيماناً لا يشوبه أيّ شك مهما كان هذا الشك ضئيلاً.

---

(١) في تمثّلنا للمفهوم العام للنظام الإلّهي في الخلق والتدبير، يجب أن نذكر أموراً أربعة هامة تنفي فكرة الجبر (في مشيئة الله سبحانه ـ في المخطط العام للقضاء والقدر).
الأمر الأول ـ إن مشيئة الله سبحانه (التنظيمية) التي انطوى عليها نظامه العام، تحمل قابلية التعديل كما أشرنا سابقاً في الآيات الكريمة:
● ﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم...﴾ الرعد: /١١. =

= ● ﴿ فلولا أنه كان من المسبّحين، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ الصافّات: /١٤٢ - ١٤٣.
● ﴿ لكل أجل كتاب. يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ الرعد: /٣٩.

الأمر الثاني - إن إرادة الله التنظيمية في صياغة هذا النظام، ليعمل بقانون السببيّة العام الذي ترتبط فيه الأسباب بالمسبّبات، تنسجم مع مشيئته (المطلقة)، التي يعبر عنها قوله تعالى:

● ﴿ يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ الأنبياء: /٦٨.
● ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم... ﴾ آل عمران: /٥٩.

ذلك - حتى نعلم، ونعتقد اعتقاداً جازماً، أن الفاعلية والتأثير، **لا لطبيعة النظام الإلّهي** (المعبّر عنه بقانون السببيّة)، **وإنما (الفاعلية والتأثير) لمشيئة الله المطلقة وإرادة المنظّم** وقد عبّر عن هذا المعنى قوله تعالى:

● ﴿ إنه هو يبدىء ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعّال لما يريد ﴾ البروج: /١٣ - ١٦.

الأمر الثالث - لقد استعرضنا معاً (في بحث القضاء والقدر) - شرح الحديث النبوي الشريف التالي: عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: (فيما رواه البخاري ومسلم).

● ﴿ إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح... إلى آخر الحديث (الوارد كاملاً في ذلك البحث).

وتأكيداً لما سبق شرحه (وزيادة في الإيضاح) نقول:

إن (سبق الكتاب) الوارد في الحديث الشريف، إنما يعني (ارتباط النتائج بالمقدمات - في سابق علم الله سبحانه) والذي عمل بعمل أهل الجنة - ثم عمل بعمل أهل النار في نهاية المطاف، فالنتيجة (أنه ضلّ بعد هدى) وهو بهذا الاتجاه في مواجهة قوله تعالى:

● ﴿ وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم، حتى يبين لهم ما يتّقون، إن الله بكل شيء عليم ﴾ التوبة: /١١٤.

وقد علمنا - آنفاً - من شرح الآية الكريمة هذه، أن الذي ضلّ بعد الهدى، إنما هو إنسان مصرّ على اتباع هواه، ولا بدّ أن يكون مؤدّاه الضلال عن سبيل الله، كما قال تعالى:

● ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله، إن الذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ صٓ: /٢٦.

وأما الذي منح الهداية بعد الضلال فهو إنسان تائب صادق منيب، عمل بعمل أهل الجنة مستقيماً على طاعة الله، و**(سبق الكتاب) هو إرادة الله التنظيمية، في النظام العام، حيث ربط النتائج بمقدماتها، في سابق علمه سبحانه فإذا** باشر الإنسان أمراً بمقدماته (وبمحض إرادته واختياره)، فلا بد أن يصل إلى النتيجة المقررة في سبق الكتاب في النظام العام الإلّهي للخلق والتدبير.

الأمر الرابع - هو الشرح الموجز لقوله تعالى:

● ﴿ قل فللّه الحجة البالغة، فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ الأنعام: /١٤٨. =

= ومعنى ذلك أنه لو شاء الله (بإرادته المطلقة - وبقوة الأمر - كن فيكون) لكان الجبر من الله على الهداية (للعموم). ولكنه جعل الهداية سبحانه (وبإرادته التنظيمية - في النظام العام للخلق والتدبير) جعلها بقوة الوعي العلمي التربوي من الإنسان لا بقوة الأمر المطلق من الله تعالى. وهذه هي حجة الله البالغة في منح الإنسان الإرادة الحرة في تقرير مصيره وصياغة سلوكه.

وبعد الإشارة الواضحة - لهذه الأمور الأربعة الهامة - بصدد استعراضنا لمفهوم النظام العام الإلّهي للخلق والتدبير وهي تنفي (فكرة الجبر - نفياً مطلقاً) في علم العقيدة الإسلامية (في مخطط القضاء والقدر)، نأتي على استعراض دليل من (السنّة النبوية الشريفة) استكمالاً لهذا المعنى المقصود.

ورد في الأثر عن رسول الله ﷺ، أن أحد الأعراب وجّه إليه السؤال التالي وهو المدعو (معاوية بن قرّة):

يا رسول الله: إن الله كتب عليّ الشقوة، فأنا مدرك ذلك لا محالة، إن الله جعل رزقي بضرب كفّي على دفّي (ويعني باللهو والغناء) فَأْذن لي بذلك، وكان الردّ النبوي الحازم:

● «كذبت، أي عدوّ الله، إن الله جعل للرزق أبواباً كثيرة، فاخترت ما حرّم الله عليك بدل ما أحلّ الله لك، وإن عدت إلى مقالتك، لأجعلنّك نكالاً للناس...».

فالرسول الكريم ﷺ بجوابه الحازم لهذا المستهتر، أثبت له حريّة الإرادة والاختيار، وقرّر مسؤوليته عن انحرافه، وهدّده بالعقوبة، إن هو أصرّ على اتجاهه المنحرف.

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه. اللهم رحمتك نرجو فلا تكلنا إلى أنفسنا (وإلى اتباع الهوى) طرفة عين ولا أقلّ من ذلك، وأصلح لنا شأننا كله، لا إلّه إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك.

اللهم اجمع قلوبنا على محبتك، وألهمنا دوام ذكرك وشكرك وحسن عبادتك وخذ بأيدينا إلى كمال رضائك يا أرحم الراحمين - آمين.

ملاحظة:

هناك أيضاً الآية الكريمة (٩٨) في سورة يونس وهي التالية:

● ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ وهذه الآية الكريمة كسابقتها ﴿ قل فللّه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ الأنعام: /١٤٨.

فالقرآن يقرر بوضوح أن ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ وأن الهداية من الله تكون بقوة الوعي من الإنسان لا بقوة الأمر من الله، فالله لم يسلب الإنسان إرادته في نظامه العام للخلق والتدبير، حتى يهديه بقوة الأمر، وإنما منحه الإرادة والاختيار الحرّ، بمحض جوده وفضله، ليكون حرّاً في صياغة سلوكه وتقرير مصيره. ولتكون الهداية ثمرة يانعة لتوبة صادقة وإنابة مخلصة، واستقامة على طاعة الله، وجهاداً للنفس والهوى، كما قال سبحانه:

● ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين ﴾ العنكبوت: /٦٩.

وعلم العقيدة الإسلامية ـ كما أشرنا ـ هو العلم الذي يوضح معاني العقيدة، وإقامة البراهين اليقينية على صحتها وصدقها.

ومفهوم العقيدة والإيمان ـ كما أشرنا ـ ينتظم ستة أمور.

١ ـ المعرفة بالله جلّ جلاله، بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، والمعرفة بدلائل وجوده ومظاهر عظمته في الكون والطبيعة.

٢ ـ المعرفة بعالم ما وراء الطبيعة، وما فيه من قوى الخير التي تتمثل في (الملائكة)، وقوى الشر التي تتمثل في (إبليس ـ وجنوده) من الشياطين، والمعرفة بما وراء هذا العالم من (جنّ) وأرواح.

٣ ـ المعرفة الموجزة بكتب الله التي أنزلها لتحديد معالم الحق والباطل والحلال والحرام.

٤ ـ المعرفة بأنبياء الله ورسله الذين اختارهم ليكونوا أعلام الهدى، وقادة الخلق إلى الحق (إلى حسن المعرفة بالله ـ وحسن الطاعة لله ـ وحسن الصبر على أمر الله واتباع رضوانه سبحانه وتعالى).

٥ ـ المعرفة بيوم الحساب (اليوم الآخر)، وما فيه من بعث وجزاء وثواب وعقاب وجنة ونار.

٦ ـ المعرفة بالمخطط العام للقضاء والقدر الذي يسير عليه نظام الكون في الخلق والتدبير وهو ما نحاول إيضاحه بشيء من التفصيل (كما ورد في الكتاب والسنة).

إنَّ مفهوم النظام العام الإلّهي في الخلق والتدبير، يُعتبر من الأبحاث الهامة في علم العقيدة الإسلامية، لأنه يشير إلى الهيكل التنظيمي لأبحاث العقيدة، يشير إلى الصورة الحيوية المتحركة التي انطوت على حكمة الله ورحمته وعدالته، وامتزجت بعلمه الكامل سبحانه (الشامل للماضي والحاضر والمستقبل)، وكيف أن علم الله سبحانه (كاشف ـ واصف) للحوادث الواقعة والمتوقعة، كما في الآية الكريمة:

● ﴿إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير. .﴾ لقمان: /٣٤.

● ﴿وإن من قرية إلاَّ نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً، كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ الإسراء: /٥٨.

أما في مجال (العرض العام) لمفهوم هذا النظام الإلّهي في الخلق والتدبير فدليلنا من كتاب الله الآيات الكريمة التالية.

● ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين، وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها، وقدَّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين، وأوحى في كل سماء أمرها، وزيّنا السماء بمصابيح وحفظاً، ذلك تقدير العزيز العليم﴾ فصّلت: /٩ - ١٢.

● ﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً، والشمس والقمر والنجوم مسخَّرات بأمره، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين﴾ الأعراف: /٥٤.

● ﴿الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش، ما لكم من دونه من وليّ ولا شفيع أفلا تتذكرون. يدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض، ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة ممَّا تعدُّون. ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم. الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين. ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سوَّاه ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون. وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد، بل هم بلقاء ربهم كافرون. قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكِّل بكم ثم إلى ربكم ترجعون﴾ السجدة: /٤ - ١١.

● ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل، ويعلم ما جرحتم بالنهار، ثم يبعثكم فيه ليُقْضَى أجل مسمًّى، ثم إليه مرجعكم، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ الأنعام: /٦٠.

● ﴿سبح اسم ربك الأعلى. الذي خلق فسوَّى. والذي قدَّر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى. سنقرئك فلا تنسى. إلاَّ ما شاء الله، إنه يعلم الجهر وما يخفى﴾ الأعلى: /١ ـ ٧.

● ﴿والليل إذا يغشى. والنهار إذا تجلى. وما خلق الذكر والأنثى. إن سعيكم لشتَّى. فأما من أعطى وأتقى. وصدَّق بالحسنى. فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى. وكذب بالحسنى. فسنيسِّره للعسرى. وما يغني عنه ماله إذا تردَّى. إنَّ علينا للهدى. وإن لنا للآخرة والأولى﴾ سورة الليل: /١ ـ ١٣.

بعد أن استعرضنا معاً ما ورد في كتاب الله الكريم، من الآيات التي تشير إلى المفهوم العام للنظام الإلّهي في الخلق والتدبير، نحاول أن نعيد إلى الأذهان، ما سبق أن أشرنا إليه من الآيات الكريمة التي تعبر عن قابلية التعديل في المشيئة الإلّهية في هذا النظام كما يلي:

● ﴿إنَّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم...﴾ الرعد: /١١.

وقد سبق أن أفضنا في شرح هذه الآية الكريمة (في بحث القضاء والقدر ـ فليعد إلى ذلك الشرح من يرغب).

● ﴿فلولا أنه كان من المسبّحين. للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ الصافات: /١٤٣ ـ ١٤٤.

وهذه الآية الكريمة هي تفسير وتطبيق عملي للآية الأولى ﴿إن الله لا يغير ما بقوم﴾.

وقد سبقت الإشارة إلى ذلك (بشيء من التفصيل) في بحث القضاء والقدر أيضاً.

● ﴿لكل أجل كتاب. يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب...﴾ الرعد: /٣٨ ـ ٣٩.

وهذه الآية الكريمة ـ كما أشرنا ـ تعبر بوضوح عن مفهوم قابلية التعديل (في الأصل) مع الحفاظ على طبيعة النظام العام الإلّهي للخلق والتدبير (في الواقع)، لا سيما من حيث الحفاظ على حرية الإرادة الإنسانية[1].

(واستكمالاً لهذا العرض الوصفي الموجز) بطبيعة هذا النظام الإلّهي في الخلق والتدبير، كما وردت في كتاب الله الكريم، نأتي على استعراض طائفة من الأحاديث الشريفة، التي تعطينا مزيداً من الإيضاح في هذا المقام. عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ما منكم من أحد إلاَّ وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة، قالوا يا رسول الله: أفلا نتّكل على كتابنا وندع العمل؟ قال (لا) اعملوا فكل ميسّر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة، فسييسّر لعمل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة، فسييسّر لعمل الشقاوة، ثم قرأ:

---

(١) بمناسبة مفهوم قابلية التعديل للمشيئة الإلّهية (في الأصل ـ في النظام العام الإلّهي للخلق والتدبير) وعلى الحفاظ (في الواقع ـ على طبيعة ذلك النظام العام) لا سيما بالنسبة لحرية الإرادة الإنسانية، نحاول أن نأخذ معاً مثالاً (واقعياً ـ من حياتنا اليومية) لإيضاح هذا المعنى (ويقصد إيضاح منطلق السلوك الإنساني ـ في مواجهة النظام العام الإلّهي للخلق والتدبير. ويتلخص المثال بشرح اتصال مشتركين (يطلب أحدهما الآخر) كما هو المفهوم في نظام الهاتف الآلي:

«فعند رفع السماعة (من المشترك الطالب)، وإدارة القرص ـ أو ضغط الأزرار المعهودة حسب الرقم المطلوب، فالذي يحصل أن المشترك الطالب بعمله هذا، يرسل اهتزازات كهربائية منتظمة، تحرِّك أجهزة معينة في مقسم الهاتف الآلي، وأول ما يتحرك (أجهزة البحث ـ عن الرقم المطلوب)، ثم يتحول التأثير إلى (أجهزة الانتخاب)، ثم إلى (أجهزة التسجيل) فيحصل الاتصال بالرقم المطلوب.

«نقول ـ ولله المثل الأعلى ـ ما أشبه تصرُّفاتنا (وانبعاثنا الإرادي الحرّ ـ في مواجهة النظام العام الإلّهي) بهذا المثال المحسوس، فإن انبعاثنا الإرادي بحرية واختيار مقصود، يحرك أجهزة الرقابة في النظام العام الإلهي لرصد نوايانا وأفعالنا ليكون الجزاء (في تخطيط الله ونظامه) من جنس العمل. وقد نبهنا الله في منهجه سلفاً أن يكونْ انبعاثنا الإرادي موافقاً لخط الاستقامة على طاعته واتباع رضوانه، علماً وعملاً وأخلاقاً، حتى تكون مساعينا (الحكيمة) مؤداها الفوز والنجاح، وحذر من اتباع الأهواء المضللة، وسلوك الطريق المعاكس، حتى لا نتردَّى في مهاوي الفشل والشقاء.

﴿فأما من أعطى واتقى. وصدَّق بالحسنى. فسنيسِّره لليسرى. وأما من بخل واستغنى. وكذَّب بالحسنى. فسنيسِّره للعسرى﴾ سورة الليل: /٥ ـ ١٠.

وبهذه المناسبة نعيد إلى الأذهان، ما سبق أن قدمنا شرحه في هذا المقام، في بحث القضاء والقدر وأن مفهوم (سبق الكتاب)، إنما يعني (في طبيعة نظام الله تعالى ـ للخلق والتدبير) مقارنة الأسباب لنتائجها، ليس إلّا، فإذا أضفنا إلى ذلك قابلية التعديل (في المشيئة الإلّهية) المشار إليها آنفاً أدركنا بوضوح ما انطوى عليه النظام العام الإلّهي من حكمة ورحمة وعدالة (للماضي والحاضر والمستقبل).

وخير ما نختم به هذا الإيضاح حديث رسول الله ﷺ: عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول:

● «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، فقلت يا رسول الله، آمنَّا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ فقال: نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلِّبها كيف يشاء» رواه الترمذي في شرح هذا الحديث الشريف.

جدير بنا أن نلتفت إلى ما يلي:

١ ـ فيما يتعلق بالنص: (بين إصبعين من أصابع الله) إن الله عز وجل ليس كمثله شيء، وإنما وردت هذه العبارة على سبيل تقريب المعنى إلى أذهاننا والله أعلم).

٢ ـ فيما يتعلق بالنص (يقلِّبها كيف يشاء):

إن قلب الإنسان (هذه اللطيفة الروحانية ـ التي جعل الله مركزها في هذه العضلة اللحمية ـ الدائبة الحركة بإذن الله) هذا القلب، وبهذا المعنى الروحاني اللطيف، إنما هو حقيقة الإنسان ومركز كيانه الذاتي، ومنبع رغباته، ومنطلق سلوكه (حيث أن الرغبة ـ منطلق السلوك بإذن الله):

وعلى الإنسان المؤمن، أن يمتثل أمر الله في توجيه هذا القلب ـ وهذه الروح، دائماً، نحو الاستقامة على طاعة الله واتباع رضوانه (صدقاً، وإخلاصاً، وتواضعاً لله). وكما قال تعالى:

● ﴿واذكر ربك في نفسك تضرُّعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدوّ والآصال، ولا تكن من الغافلين﴾ الأعراف: /٢٠٥.

● ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾ الكهف: /٢٨.

وكما قال ﷺ:

● «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» رواه عبدالله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ أخرجه الطبراني وقال النووي رحمه الله حديث حسن صحيح.

فالمؤمن ـ مأمور بجهاد النفس والهوى ـ ليكون هواه (قلبه) وسلوكه، تبعاً لما جاء به رسول الله ﷺ من الكتاب والسنة، وبذلك يكون متبعاً لرضوان الله، ومرشح لعناية الله وتوفيقه وهدايته كما قال الله سبحانه:

● ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ المائدة: /١٥ ـ ١٦.

فهذا الحديث الشريف: الذي رواه لنا أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ كان يقول:

● «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» ينطوي على ملاحظتين هامتين:

١ ـ إنّه تفسير لقوله تعالى (في سورة الفاتحة): ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

٢ ـ إن العبد لا يصل إلى كمال عبادة الله بطاقته البشرية فحسب، بل لا بدّ له من معونة إلّهية، وفضل إلّهي، يطلبه من الله دائماً بافتقار وتذلُّل وانكسار، فالإنسان لا يملك رغبته (في الأصل) دائماً، وإنما يملك ـ بإذن الله ومعونته ـ أن يكون على مستوى العبودية والاستقامة على طاعة الله ﴿ إياك نعبد ـ

وإياك نستعين ﴾ وكأنَّه يناجي الخالق (العليم الحكيم ـ والعادل الرحيم)، بلسان الحال:

اللهم اجمع قلبي على محبَّتك، وألهمني دوام ذكركَ، وخذ بيدي إلى كمال رضائك، وسلوك صراطك المستقيم، مردِّداً دعاء رسول الله ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك»[1].

وفي ختام بحثنا للنظام العام الإلّهي للخلق والتدبير نأتي على استعراض صورة شعرية نابضة بحياة العقيدة والإيمان، من شاعر مؤمن، آمن بعدالة الله ورحمته وحكمته في قضائه وقدره، ونظامه العام في الخلق والتدبير، وهي بعنوان:

القدر . . . وسعي البشر

أنت ربّ الخير ربّ الشر ربّ العالمين ... أنت رب الأتقياء الأنقياء الصالحين

أنت ربّ الظالمين المجرمين الكافرين ... أنت علَّام محيط بالبرايا أجمعين

أنت سوّيت نفوس الخلق خلّقت الجنين ... قابليات فجور وتقى سرّ دفين

ووهبت العقل للناس ليهوى ويزين ... فالذي زكّى فقد أفلح أصحاب اليمين

والذي دسّى فقد قدرته في الخائبين ... أنت ربّ الخير والشر أجل في كل حين

---

(١) ومن دعائه ﷺ:

اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله لا إلّه إلاَّ أنت، يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، لا إلّه إلاَّ أنت **سبحانك إني كنت من الظالمين (أي قبل عنايتك ورحمتك)**، اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور بصري، وجلاء حولي وذهاب همّي، لا حول ولا قوة إلاَّ بالله.

رواه النسائي وابن حبان من حديث علي، والحاكم من حديث أبي هريرة وعبدالله بن مسعود والترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «يا معاذ والله إني لأحبّك أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» رواه أبو داود.

ليس في الحق التباس في يقين المدركين — إن من يأمر بالعدل على العدل يعين
والذي ينهى عن المنكر عن كل مُشين — ليس يرضى السوء من عبد ويرعى العابدين
فهمـا دربٌ ودربٌ جعلا للسـالكين — ونـداء الله يدعـو بلسان المـرسلين
لصراط مستقيم نيّر البون أمين

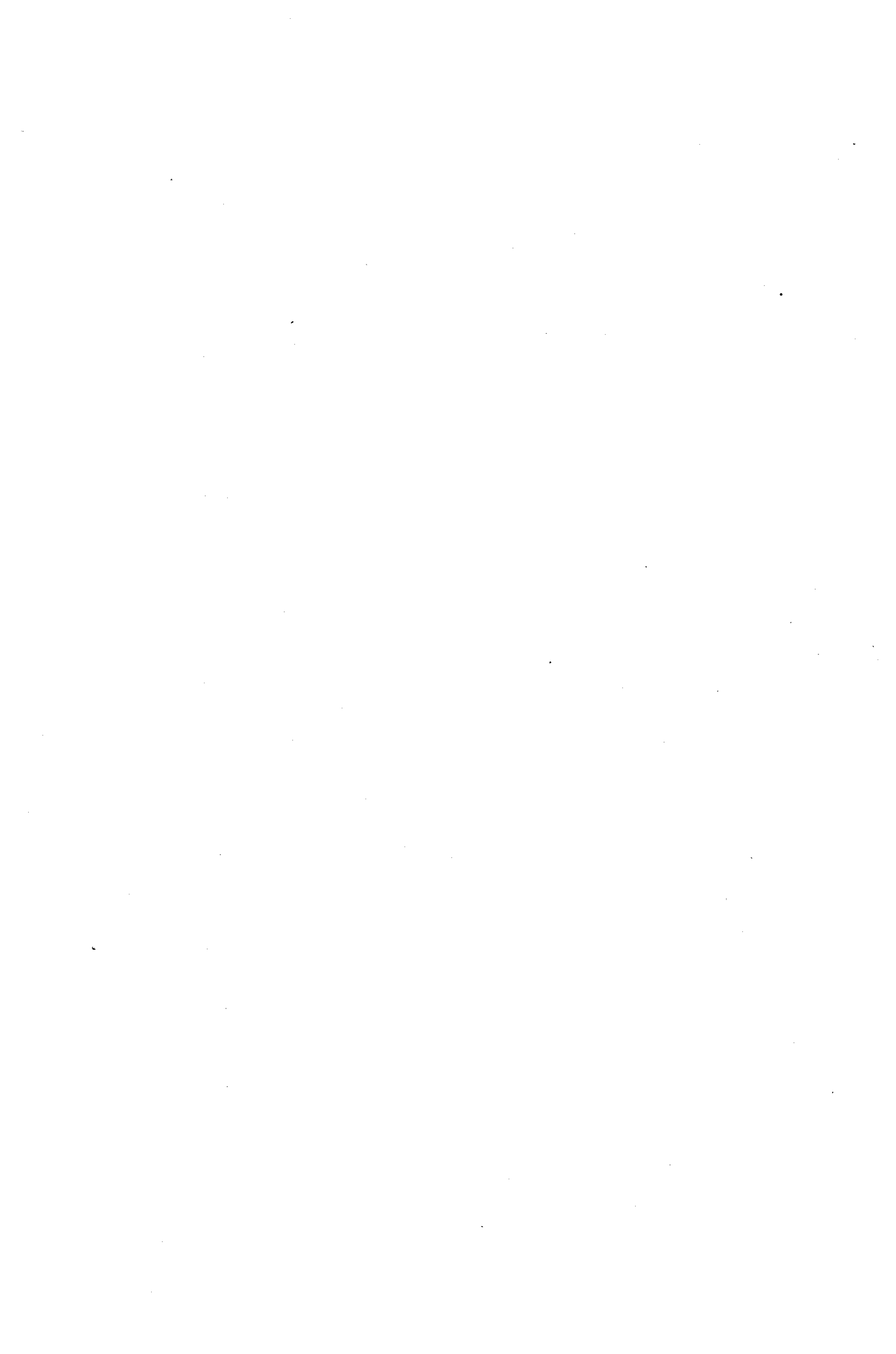
ولقد يصرف عنه الناس شيطان لعين — والـذي يتبعه يـرديه في زيـغ أفين
والذي ينبذه يلبث في حصن حصين — ويحب الله أن نختار درب الراشدين
ولقد يطلقنا حتى على العدل يدين — والهدايات لنا منه مدى الدهر مَعين
فالذي يهدى بها يكتبه في الفائزين — والذي يعرض عنها جائر في الهالكين
يا ذوي الأبصار هذي عبرة المعتبرين — نزِّه الله عن الإلزام بـالنهج المهين
قدر الله، قضاء الله في الحق اليقين — ليس للإنسان إلاَّ ما سعى ديناً ودين
فيحيق الشرَّ عدلاً بالعصاة القاسطين — ويحيط الله بالأحوال خير الحاسبين
وسلوك العبد حرّ مـطلق وهو رهين — وهـو محصيٌّ عليـه بكـرام كـاتبين
وندى الله مشاع والرضا فتـح مبين — إنَّه القسط فلا جبر ولا يا مبصـرين
هذه ذكرى عسى تنفعني والمؤمنين

(عمر بهاء الأميري) حلب ـ سوريا

المفردات: (كما وردت ـ من أول القصيدة):

١ ـ رب الخير رب الشر رب العالمين: المقصود بالخير (مكافأة الله) وبالشر (مؤاخذة الله).

٢ ـ قابليات فجور وتقى سرّ دفين: أي أن الله عز وجل كما أودع في عقل الإنسان الإرادة الحرة، والانبعاث الاختياري في صياغة سلوكه وتقرير مصيره، أودع فيه أيضاً قابلية الاستقامة والخير والتّقى وما يقابلها من قابلية الانحراف والشرِّ والفجور. والسعيد من وفَّقه الله للاستقامة على طاعته (بعد بذل جهاد النفس والهوى في ذات الله).



المبحث الثاني

الإيمان والحياة

العقيدة والإيمان في مجال التطبيق

الإيمان ـ على الحقيقة ـ يضفي على الحياة ثوب الكمـال والجمال، ويجعل لها هدفاً سامياً، فالحياة في نظر الإسلام عقيدة وجهاد. هذه العقيدة كلما استعرضنا معناها وأثرها الروحي وفاعليتها في ميـدان السلوك، أدركنا مقوماتها العلمية التربوية، تمثل في الإسلام الجملة العصبية في الكائن الحي.

هذه العقيدة وهذا الإيمان يحمله ـ على الحقيقة ـ (كمؤهل علمي تربوي) من يجتاز الفحص والاختبار المعهود، كما في قوله تعالى:

● ﴿آلم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون (أي لا يختبرون). ولقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمن الله الذي صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ العنكبوت: / ١ ـ ٣.

وكما قال رسول الله ﷺ:

● «لا يكون الرجل مؤمناً حتى يكون قلبه مع لسانه سواء، ويكون لسانه مع قلبه، ولا يخالف قوله عمله، وأن يأمن جاره بوائقه (غشّه ـ وظلمه)». رواه ابن عساكر عن أنس رضي الله عنه.

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

● «الإيمان هو الصبر والسماحة» رواه الطبراني.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

● «أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت» رواه الطبراني.

والأنبياء الأطهار هم أئمة الهدى وأعلام الإيمان، وأول من يجتاز هذا الاختبار، ويواجه هذا الابتلاء. قال تعالى:

● ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمّهن، قال إني جاعلك للناس إماماً، قال ومن ذريتي، قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ البقرة: /١٢٤.

والإيمان (على العموم) عهد ووفاء، وميثاق وبيعة بين الإنسان وخالقه، وكما قال تعالى:

● ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم فمن نكث، فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾ الفتح: /١١١ - ١١٢.

● ﴿إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم. التائبون، العابدون، الحامدون، السائحون، الراكعون، الساجدون، الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله وبشّر المؤمنين﴾ التوبة: /١١٠.

هكذا يتجلى لنا الإيمان في خطوطه العريضة، وثمراته اليانعة، صعوداً من القاعدة إلى القمة، حتى يستكمل أبعاده في الوعي الاجتماعي، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحفاظ على حدود الله، والاستقامة على طاعته سبحانه وتعالى.

هكذا - يكون الإيمان والثقة بالله حقيقة موضوعية (لها مقوماتها العلمية والتربوية) يتشرَّف بها المؤمن ويكتبها الله سبحانه وتعالى في قلوب عباده الصادقين المخلصين، وكما قال تعالى:

● ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر، يوادُّون من حادّ الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيَّدهم بروح منه...﴾ المجادلة: /٢٢.

● ﴿ولكن الله حبَّب إليكم الإيمان، وزيَّنه في قلوبكم، وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون. فضلاً من الله ونعمة، والله عليم حكيم﴾ الحجرات: /٧ ـ ٨. وقال سبحانه:

● ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله، وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. أولئك هم المؤمنون حقاً، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾ الأنفال: /٢ ـ ٤.

إذن ـ ليس الإيمان هو مجرَّد النطق باللسان، وإنما هو عقيدة تملأ القلب والجَنَان، وتصدر عنها آثارها، كما تصدر عن الشمس أشعتها، وكما يصدر عن الورد شذاه.

الإيمان والحياة:

والمؤمن يستشعر آيات الله في نفسه وفي من حوله، فالإنسان (بخلقه السويّ ـ آية من آيات الله).

● ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ الروم: /٢٠

والمؤمن يتمثل آيات الله، في زوجته وقرينة حياته، وكما قال سبحانه:

● ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً، لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودَّة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ الروم: /٢١.

ويرى المؤمن في أولاده (ذكوراً ـ وإناثاً) هبات وهدايا من فضل الله وجوده.

● ﴿لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء، يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور﴾ الشورى: /٤٩.

كما يرى (بعين الحقيقة) أن الناس أسرة واحدة، إن صحَّ منهم الإيمان والتعاون على البر والتقوى:

● ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ الحجرات: /١٣.

● ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾ الحجرات: /١٠.

ومن آثار الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إلى المؤمن مما سواهما، وأن يظهر ذلك في الأقوال والأفعال، وفي ميدان السلوك. قال الله تعالى مؤكداً لهذا المعنى الكريم:

● ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم، وأموال اقترفتموها، وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ التوبة: /٢٤.

إن الإيمان على الحقيقة لا يكمل إلا بالحب الخالص (المخلص) لله ولرسوله، وكما ورد في الأثر جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله:

«لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا نفسي، فقال: لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال عمر: والذي بعثك بالحق، لأنت أحبّ إليّ من نفسي، فقال ﷺ: الآن يا عمر» أي الآن تمّ إيمانك.

والإيمان يرفع من قوى الإنسان المعنوية، ويربطه بمثل أعلى، وهو الله سبحانه وتعالى، مصدر الخير والحق والكمال، وبهذا يسمو الإنسان عن الماديات، ويرتفع عن الشهوات (الرخيصة غير المشروعة) ويرى أن الخير والسعادة في تحصيل حقائق الإيمان والثقة بالله سبحانه وتعالى، في النزاهة والشرف وتحقيق القيم الصالحة، ومن ثم يتّجه المؤمن (بقوة العلم - ويقظة الإيمان) لخير نفسه ولخير أمّته ولخير الناس جميعاً، وهذا هو السّر في اقتران العمل الصالح بالإيمان، إذ أنه الأصل الذي يتفرع عنه كل عمل صالح.

وفيما يلي نستعرض معاً طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة، التي تشير

إلى الخطوط العريضة في معاني الإيمان، بمنظار السنة المطهرة، قال رسول الله ﷺ:

● «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً، ثم شبك بين أصابعه» أخرجه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري.

● «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى» أخرجه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير.

● «ثلاث من كن فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار» أخرجه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

● «والذي نفس محمد بيده، لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا، أولا أدلّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» أخرجه الإمام مسلم عن أبي هريرة.

«أفضل العمل الإيمان بالله والجهاد في سبيله» أخرجه البخاري ومسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

● «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت» أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة.

● «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس لأحد ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له» أخرجه الإمام مسلم عن صهيب الرومي.

● «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم خُلقاً» أخرجه الترمذي عن أبي هريرة.

اللهم حبّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من عبادك الراشدين.

الأثر المتبادل بين العقيدة والإيمان وبين الوعي الاجتماعي الصحيح:

إن سرّ عظمة الإسلام يكمن وراء تربيته المثلى التي تجسّدت في شخصية الرسول الكريم والمربّي العظيم ﷺ لقد أدّبه ربه فأحسن تأديبه ليكون بقلبه الكبير وعقله الحكيم، وأخلاقه الفاضلة، مرآة صافية تعكس أنوار الحكمة والرحمة والعدالة الإلّهية، والتعبير الصادق عن معاني الرسالة الخالدة التي بعث من أجل تبليغها للعالمين.

ولقد أقامت لنا تربية الإسلام المثلى (رافداً احتياطيّاً) يساهم في تغذية العقيدة والإيمان، ألا وهو (الوعي الاجتماعي الصحيح).

في هذه السطور القليلة، سنشهد معاً كيف أحدث الإسلام (بتربية العقيدة والإيمان) هذا التناغم، (وهذا الأثر الانعكاسي المتبادل) بين الدين والحياة، بين العقيدة والإيمان والوعي الاجتماعي الصحيح، حتى يكون أحدهما منمياً للآخر، ويكون المؤمن لأخيه مفتاحاً لرحمة الله وعوناً على مرضاة الله. قال الله تعالى:

● ﴿ وقضى ربك ألّا تعبدوا إلا إياه، وبالوالدين إحساناً... ﴾ الإسراء: /٢٣.

فعبادة الله (الواحد الأحد) عقيدة وإيمان، والإحسان إلى الوالدين ذروة الوعي الاجتماعي، وقد جمعهما الله في آية واحدة، لندرك بوضوح هذا الأثر الانعكاسي المتبادل بين الدين والحياة.

وقال الله سبحانه:

● ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ التوبة: /١١٩.

فتقوى الله وتعظيم أمره، عبادة وعقيدة وإيمان، ولزوم الجماعة المؤمنة من لوازم الوعي الاجتماعي وقد جمعهما الله في آية واحدة، لندرك أهمية كل منهما (في الأصل)، ولنكون (في الواقع) على مستوى الوعي الاجتماعي في معيّة الصادقين. وقال سبحانه مؤكداً هذا المعنى نفسه.

● ﴿ إنما المؤمنون إخوة، فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾ الحجرات: /١٠.

ففي كل آية من هذه الآيات الكريمة (وما شاكلها)، يمثل الشطر الأول العقيدة والإيمان كثقة متبادلة بين الإنسان وخالقه؛ بينما يمثل الشطر الثاني الوعي الاجتماعي كثقة متبادلة بين المؤمن وإخوانه.

فالإسلام - اهتم بتنمية العقيدة والإيمان، كما اهتم بتنمية الوعي الاجتماعي، وعلى نفس المستوى من الأهمية، وفوق ذلك فإننا نشهد (تناغماً - أثراً انعكاسياً متبادلاً) بين هذين المعنيين، بحيث يغذّي أحدهما الآخر. قال رسول الله ﷺ:

● «الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه» رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة.

● «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» رواه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة.

● «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام فيما بينكم» أخرجه الإمام مسلم عن أبي هريرة.

ولنذكر بهذه المناسبة عبارة التحية الإسلامية (السلام عليكم ورحمة الله)، كيف ختم الله بها العبادة (الصلاة)، وجعلها في نفس الوقت شعاراً للحب المتبادل بين المؤمنين، ومنطلقاً لتوطيد العلاقات الاجتماعية الطيبة.

هكذا يحدث الإسلام تناغماً (أثراً انعكاسياً متبادلاً) بين الدين والحياة، بين الإيمان الصادق، والوعي الاجتماعي الصحيح، حتى يكون أحدهما منمّياً للآخر، ويكون المؤمن لأخيه مفتاحاً لرحمة الله وعوناً على مرضاة الله.

وبهذه المناسبة - وبعد أن علمنا أن الإيمان عنصر تنمية (وإغناء) للإلفة والمحبة والوعي الاجتماعي بين الناس، جدير بنا أن نمرّ على المعنى

المعاكس، لنرى أن من أسباب الاختلاف والتفرقة والتنازع، ضعف الإيمان والثقة بالله، حيث أن الشيء لا يتميز إلا بضده وسوف نسترشد لإيضاح هذا المعنى بآيات من كتاب الله الكريم. قال تعالى:

● ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ الكهف: /٢٨.

ومفهوم هذه الآية أن غفلة القلب (النفس) عن وصية الله، منطلق لاتباع الهوى.

● ﴿ ولا تتّبع الهوى، فيضلّك عن سبيل الله ﴾ صّ: /٢٦.

ومفهوم هذه الآية، أن اتباع الهوى مؤدّاه الضلال عن سبيل الله.

● ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتّبعوا السّبل فتفرّق بكم عن سبيله ﴾ الأنعام: /١٥٣.

ومفهوم هذه الآية أن (التفرقة) من منطلقات الضلال عن سبيل الله.

● ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيّنات.. ﴾ آل عمران: /١٠٥.

ومفهوم الآية الكريمة، أن الاختلاف نتيجة طبيعيّة، للتفرقة، فبعد أن تتشعب الآراء والأهداف، يتشبّث صاحب الهوى برأيه، ويدير ظهره إلى أخيه (وإلى الآخرين) أي يضع الآخرين (خلفه) في الاهتمام.

مراحل الاختلاف إذن (بدليل من كتاب الله الكريم) الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هي التالية:

١ ـ غفلة عن وصية الله (كمنطلق لاتباع الهوى).
٢ ـ اتباع الهوى (ومؤدّاه الضلال عن سبيل الله).
٣ ـ ضلال عن سبيل الله (كمنطلق إلى التفرقة ـ وتشعّب الآراء).
٤ ـ اختلاف (تشبّث بالرأي الشخصي ـ ووضع آراء الآخرين في الخلف).

ونهاية المطاف ـ الاختلاف مع الآخرين في الرأي، والبعد عن أصل الإلفة والمحبة ووحدة الهدف، وما تحمله العقيدة من وعي (علمي ـ تربوي). هكذا يحدث الاختلاف بسبب ضعف العقيدة والإيمان، بسبب الغفلة عن وصية الله (في المنطلق) وما تؤدي إليه من اتباع للهوى وضلال عن سبيل الله، وتفرقة واختلاف. وكما قال ﷺ:

● «الجماعة رحمة والفرقة عذاب وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية».

والإسلام جعل لنا من الأنبياء والمرسلين الأطهار نماذج رائعة لحقائق العقيدة والإيمان، فقد مثّل آدم ويونس التوبة الصادقة، كما مثّل نوح وأيوب ويوسف الصبر الجميل، ومثّل إبراهيم التضحية البالغة، ومثّل عيسى التواضع وخفض الجناح، ومثّل زكريا التوكّل، كما مثّل داود وسليمان الشكر، عليهم الصلاة والسلام.

وقد جمع الله في خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، صفات الكمال الإنساني، حيث ربّى الإنسان الفاضل، وبنى الأسرة المتآلفة، وأقام الدولة الراشدة لحراسة العقيدة وتنمية الوعي الاجتماعي، وقد سجله القرآن الكريم (تعاوناً نادراً ـ بين المهاجرين والأنصار) في سورة الحشر، كما يلي:

● ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون. والذين تبوَّؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبّون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ الحشر: /٨ ـ ٩.

هكذا ـ جعل الإسلام «الأخوّة في الله» من أوثق عرى الإيمان، وذروة الوعي الاجتماعي الصحيح ومن الوعي الاجتماعي (برّ الوالدين، وصلة الأرحام، وإصلاح ذات البين)، والمقام لا يتّسع للتفصيل في هذه المواضيع الجليلة، التي ترفد الإيمان وتدعّمه، وتمنح صاحبه مزيداً من ـ معونة الله وعنايته وتوفيقه.

المبحث الثالث

آثار العقيدة الإسلامية في الفرد والمجتمع

للعقيدة الإسلامية أهمية كبرى ومكانة عظيمة في حياة الإنسان، نظراً إلى المهمة التي تقوم بها والآثار الرفيعة التي تخلفها في حياة الإنسان فرداً ومجتمعاً. لأنها تقوم على أسس يقينية ثابتة، ومبادىء علمية حقيقية، وإليك بعض آثار العقيدة الإسلامية:

١ ـ العقيدة الإسلامية تعطي الفكرة الصحيحة عن الإنسان والكون والحياة:

فالإنسان في عقيدة الإسلام خليفة الله في الأرض، ليعمرها بالعمل الصالح، ويقود مسيرة الحياة نحو التطور والازدهار والتكامل، حين يمثل (بعقيدته ـ وسلوكه) حكمة الله ورحمته وعدالته.

والإنسان في نظر الإسلام هو سيّد هذه الأرض، يستمدّ سيادته من ربّه الذي منحه هذه السيادة، وهو مؤهّل لهذه السيادة، بما منحه الله من القوى الواعية، الممثلة بالعقل (القوة المفكرة ـ المتطوّرة). والكون بجميع أجرامه وقوانينه هو مصنوع لخدمة الإنسان ومهيأ لمنفعته، وقد ابتدعته قدرة الله تعالى على نظام محكم، يساعد النوع الإنساني على استبقاء حياته على ظهر الأرض، إلى الأجل الذي ضربه الله لبقاء الحياة على ظهر الأرض، وذلك عندما يرث الله الأرض ومن عليها، فما على الإنسان إلا أن يعمل عقله ويشحذ تفكيره للتوصّل إلى الطريقة العلمية التي يستخدم بها هذا الكون لمنفعته، وبذلك استطاعت العقيدة الإسلامية أن تجعل الطبيعة خادماً مطيعاً بدلاً من أن تجعلها إلّهاً يعبد، فأنقذت الإنسان من الخرافة والذعر والرهبة من قوى الطبيعة.

وأما الحياة على الأرض، فهي في نظر العقيدة الإسلامية، طريق إلى الحياة الأبدية والبقاء السرمدي الخالد، الذي ينشده الإنسان، فما على الإنسان في هذه الأرض إلا أن يسير في الطريق المستقيم، ويخضع لأمر الله ويخلص له العبودية، حتى يضمن لنفسه الخلود الصحيح الذي ينشده.

وبذلك حملت العقيدة الإسلامية الإنسان على العمل الصالح، والانتفاع من هذا الكون على الوجه المشروع والارتقاء إلى قمة السعادة، والسير في طريق الإيجابية والبناء، وما أحوج الإنسان إلى ذلك.

٢ ـ العقيدة تحارب الأوهام والخرافات:

لقد كان الإنسان القديم في بعض حقب التاريخ، يؤلِّه قوى الطبيعة، ويدين لها بالعبودية، ويقدّم لها القرابين، ليسلم من تسلّطها وأذاها، أو ليستدرّ عطفها وخيرها.

لكن العقيدة الإسلامية حررته من هذه الخرافات عندما أفهمته، أن ما يعدّه إلّهاً، إن هو إلا خادم مخلص ـ بإذن الله ـ عندما يعرف الطريق إلى استخدامه والإفادة منه، وبهذا ارتقى التفكير الإنساني من مجال الخرافة والأساطير، إلى التأمّل العلمي والمشاهدة الصحيحة، والتجربة المنتجة، ليصل بذلك إلى إدراك الحقيقة، ولتحقيق استخلاف الله له على الوجه الصحيح، وما أحوج الإنسان إلى ذلك.

٣ ـ العقيدة الإسلامية تلبي الحاجات النفسية:

شعور الإنسان بأن له إلّهاً خالقاً أمر فطري (كما نوّهنا بذلك سابقاً)، وتطلّعه إلى معرفته والاتصال به ومناجاته والالتجاء إليه (حاجة نفسية)، فإذا لم تلبّ هذه الحاجة سعى هو إلى تلبيتها، وكثيراً ما يخطىء الطريق إلى ذلك، فالعقيدة الإسلامية لبّت داعي الفطرة، ودلّت الإنسان على خالقه وصانعه، الذي بيده ملكوت كل شيء، فأخرجته بذلك من الانحراف والتخبّط، وما أحوج الإنسان إلى ذلك.

٤ ـ العقيدة الإسلامية تشعر الإنسان بالمسؤولية:

كثير من الناس يقصّرون في أعمالهم، لشعورهم بأنهم غير مسؤولين عما يقومون به من أعمال، فشعور الإنسان بأنه مسؤول، هو أعظم حافز للإنسان على أن يجيد عمله ويتقنه، سيّما إذا ضممنا إلى ذلك شعور بدوام المراقبة من الله له.

والعقيدة الإسلامية بما جاءت به من الإيمان باليوم الآخر، وما يقع فيه من بعث وحشر وحساب وجزاء هي أكبر عامل على صقل مشاعر الإنسان بمسؤوليته أمام الله سبحانه، فيندفع بذلك إلى أشرف وأنبل الأعمال، ويهيمن على سلوكه مبدأ ممارسة النقد الذاتي ومحاسبة النفس (إيماناً بعدالة الله سبحانه).

٥ ـ العقيدة الإسلامية تنقذ الإنسان من استعباد الإنسان:

إذ أنها جعلت البشر جميعاً عباداً لله الواحد الأحد، وهم مخلوقون له وحده، فهم سواسية أمامه حاكمين ومحكومين، والله رب العالمين.

٦ ـ العقيدة الإسلامية توضّح الطريق إلى السعادة:

فبدلًا من أن يضيّع الإنسان حياته في سبيل تلمّس الطريق الموصل إلى السعادة، فيصل تارة ويخفق تارات، جاءت العقيدة الإسلامية توفّر عليه الجهد، وتصونه من نتائج الإخفاق، فأوضحت له الطريق الذي يسعده في دنياه وأخراه، عن طريق الرسالة المحمديّة الجامعة الكاملة، فما عليه إلّا أن يعمل بمقتضاها، ويغتنم فرصة حياته المحدودة، فينفقها فيما يسعده، وما أحوجه إلى ذلك.

٧ ـ العقيدة الإسلامية أكبر عامل على التضحية:

إن العقيدة الإسلامية إذا ما حلّت قلب امرىء غزت كل جوارحه، وتملّكت سائر مشاعره، وأصبحت موجّهه الوحيد، فلا يحسّ بدونها، ولا يرى حياته بغيرها، فيندفع إلى تأييدها ونشرها بكل ما أوتي من نفس ومال، وهذا ما نشاهده في حياتنا الواقعية، فبالعقيدة يضحّي الشهداء بأنفسهم، وبها يسهر العلماء على كتبهم وتآليفهم، راضين بشظف العيش وخشونة المأكل، وبها يجود الإنسان بماله، راضية بذلك نفسه. قال الله تعالى:

● ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله، فيقتلون ويُقتلون، وعداً عليه حقّاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ التوبة: /١١١.

● ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون ﴾ الحجرات: /١٥.

هذا ولا بد من الإشارة ـ في هذا المقام ـ إلى أمرين اثنين:

أولهما: إنَّ العقيدة الإسلامية لما لها من أهمية في حياة الإنسان وآثار عظيمة في سلوكه وبناء مستقبله، مكث رسول الله ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة، والقرآن ينزل عليه لغرس العقيدة وتوضيحها، ومحاربة ـ الأوهام والشِّرك والخرافات التي كانت سائدة بين العرب، فإن الإنسان ما لم تصلح أفكاره ومعتقداته لا يمكن أن يسير في الطريق الذي رسم له أن يسير فيه، فالإنسان يقاد من داخله بالعقيدة الصحيحة، لا من خارجه.

ثانيهما: إنَّ العقيدة في كل أمة تشكّل (المنطلق الفلسفي)، الذي تنبثق عنه حضارتها ونظامها الاجتماعي، وبمقدار ما تكون عقيدتها صحيحة، يكون تقدمها وإنسانيتها وسعادة المجتمع البشري بها[1].

وفي ختام بحثنا لآثار العقيدة الإسلامية[2] في حياة الفرد والمجتمع، يطيب لنا أن نمتّع الفكر معاً بهذه الباقة من الأبيات الشعرية تناسب هذا المعنى:

---

(١) ينظر مبادىء العقيدة الإسلامية للأخ الدكتور مصطفى سعيد الخن ص ٣٩٣.

(٢) الله سبحانه وتعالى هو محور العقيدة الإسلامية، وهو سبحانه المنظم لهذا الكون ﴿ ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير)، وهو المتعالي عن التشبّه بالمخلوقين.

اقتضت حكمته (في هذه الحياة الدنيا) أن يكون محجوباً بذاته عن مدارك الإنسان، وقد بسط لنا في كتابه الكريم صفات كماله، لتكون لنا دليلاً إلى معرفته وحسن عبادته.

وقد شاءت حكمته سبحانه أن نتعرف على صفاته من خلال التفاتنا إلى ذاتنا (تقريباً للأفهام) كما في قوله تعالى:

● ﴿ يقول أهلكت مالاً لبداً. أيحسب أنْ لم يره أحد. ألم نجعل له عينين؟ ﴾ سورة البلد: /٦ ـ ٨.

هكذا ـ يخاطبنا الله ـ في قرآنه الكريم ـ وكأنه سبحانه ينبّهنا بلسان الحال ـ أيها الإنسان: =

وهـل غير ذات الله للنفس مـطلب — حرام سوى الرحمن يدخل في نفسي
وتـوّجت بـالقـرآن نفسي عقيـدة — أصون بها نفسي عن الزّيغ والدّس
وما اتخذت روحي سوى الله غايـة — فتمَّ الهـدى للروح والقلب والحسّ
تعشّقت نـور الله وهـو بصيـرتـي — وقد وضح البرهان من آية الكرسي
وقد شاهدت روحي جلالك فارتقت — تجرّدت عن معناي في عالم الحسّ
أحبّـك يـا ربّي مـحبّـة مـوقـنٍ — ومن قـوة الإيمان أصبح أو أمسي
فؤادي قد أَبْعدتُ عن مشهد الورى — فَطُهِّـر في نجواك من ظلمة الرّجس
لقـاؤك يـا رحمن عيـدي وعـدّتي — ونورك غيثي وهو لي في الورى أنسي
وكـلّ رجـائي أن أحبـك صـادقـاً — إذ الصدق في الوجدان مرتبة القدس

. . . .

تخـلّ ولا تَحفـل بجـنّ ولا إنس — وعِشْ في رضا الرحمن تسعد بالأنس
وأقبـل على مولاك بـالقلب مخلصاً — وأسلم وسلِّم واتّجه طالب القـدس
تجـرّد تجـد مـولاك أكبـر نـاصـرٍ — وفـوّض له مـا كان بـالغد والأمس
يقـولون لي من أنت قلت مـوحّـدٌ — إلى ربّـه يسعى ولم يـر من بـأس
وإن قيل لي اطلب قلت ربّي مطلبي — وإن قيل اشرب قلت أنواره كأسي

= إن الذي وهبك الحياة حيّ، وإن الذي وهبك الإرادة مُريد، وإن الذي وهبك القدرة قادر، وإن الذي أودع فيك قابلية العلم عالم، بل عليم خبير.
وإن الذي أودع فيك (الذاكرة ـ وحفظ المعلومات) هو كما وصف نفسه سبحانه:
● ﴿ علمها عند ربّي في كتاب، لا يضلّ ربّي ولا ينسى ﴾ طه: /٥٢.
أجل ـ لقد قربّ الله لأفهامنا ـ سبحانه ـ معنى وجوده، وسائر صفات كماله لنكون على مستوى إخلاص العبودية له، مؤسساً ذلك على حسن المعرفة به، وحسن الطاعة له وحسن الصبر على أمره، وحسن الاتّباع لرضوانه سبحانه وتعالى، وكما خاطبنا في كتابه الكريم:
● ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ المائدة: /١٥ ـ ١٦.
وجعل منطلقنا إلى (هدايته) وحقيقة الإيمان به رغبتنا الصادقة المخلصة بذلك، وجهادنا للنفس والهوى، حتى يكون هوانا تبعاً لمراده ولما جاء به رسوله الكريم، وكما قال سبحانه:
● ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين ﴾ العنكبوت: /٦٩.
● ﴿ قل إنني هداني ربّي إلى صراط مستقيم، ديناً قيماً، ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين، قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ الأنعام: /١٦٠ ـ ١٦٢.

المبحث الرابع

الإنسان بين العلم والدين

تمهيد:

الوحي الديني - حقائق موضوعية - ألقيت بإذن الله في روع واحد من البشر، امتاز على غيره بموهبة خاصة واصطفاء إلٓهي (والله أعلم حيث يجعل رسالته)، امتاز الرسول بسموّ مداركه، ورقَّة إحساسه، وباستعداد خاص يجعل قلبه وروحه (جوهر كيانه الذاتي - منبع الرغبات ومنطلق السلوك) متَّصلاً بالملأ الأعلى، لتلقِّي وحي ربِّه المنزل، لإرشاد الخلق - بإذن الله - إلى حسن المعرفة بالله، وحسن العمل بطاعة الله وحسن الاتّباع لرضوان الله (إلى ذكر الله وشكره وحسن عبادته - إلى حكمته ورحمته وعدالته وإعلاء كلمته). وذلك عن طريق الحسّ والعقل المؤيدين بالوحي، وكما قال تعالى:

● ﴿نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربيّ مبين﴾ الشعراء: /١٩٣ - ١٩٥.

● ﴿قل من كان عدوًّا لجبريل فإنَّه نزَّله على قلبك بإذن الله...﴾ البقرة: /٩٧.

وقد أيّد الله الوحي والرسالة بالمعجزات الخارقة لقانون الحياة العادي، حتى يذعن الفكر ويستسلم العقل البشري لوحي الله بلا مناقشة، كما قال تعالى:

● ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم

الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً﴾. الأحزاب: /٣٦.

وعلى هذا الأساس نقول أن الوحي موصوف بالعصمة (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)، وبريء من ازدواجية القيادة، يضمن (بعقيدة التوحيد) وحدة الرأي والهدف وتآلف القلوب، وهو ضمان لسيادة الحكمة وحراسة العدالة وشمول الرحمة والسعادة للإنسان والإنسانية.

وكذلك العلم الصحيح ونظرياته هي حقائق موضوعية: كانت ثمرة نظر واستقراء، وحصيلة استنتاج وتجربة هذه الحقائق استقرت في مدارك العلماء ممن أدمنوا التفكير والتأمل، ثم أدمنوا الاختبار التطبيقي، وإمعان النظر في وحدات الكائنات ونواميسها وعلائقها، بحثاً عن الصلة الواقعة بين بعضها البعض، فتمَّ لهم (عن طريق البحث في خواص الأشياء ومنافعها) (طلباً لتسخير قواها الكامنة فيها) ما أرادوا، فقرَّروها كنظريات علمية، ثم يتركونها لخلفائهم وأعقابهم، لإتمام بحثها، وتطوير النتائج المرجوَّة من خصائصها ومنافعها.

وها نحن نرى أن مبعث الدين (منطلقه) والعلم مبعث واحد ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾، هو الشخصية المعنوية للإنسان، وما استقر في فطرته (في أفكاره وعواطفه) من إلهام إلّهي، أو إدراك عقلي أو خبرات حسيّة. وليس على التحقيق (في العقيدة بالوحي ـ ما ينافي حقائق العلم)، ولا خلاف (في الجوهر والموضوع) في نظر ـ العالم المحقِّق ـ والمتديِّن المخلص، بين الوحي والعلم في المنطلق والهدف، وخصوصاً في عصر تلاقت فيه التجربة الذريَّة بالخبرة الرياضية، مع العلوم النفسية الحديثة، كل ذلك دلَّ على أن وراء هذا الكون المتطور، عجائب وغرائب (لا تنظر ـ ولا تحسّ) منها (الإشعاعات الذرية) فيما فوق البنفسجي وما تحت الأحمر ومنها الكائنات الحية غير المنظورة كالجراثيم وغيرها. ومنها (الروح) أو قل إن شئت (حقيقة الحياة) التي يعجز علمنا الحاضر عن اكتناه سرِّها، ولا يعلم منها إلاَّ ظاهرتها، كما قال تعالى:

● ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربِّي، وما أُوتيتم من العلم إلاَّ قليلاً﴾ الإسراء: /٨٥.

لقد علّمتنا النظرية الذرية، أن كتلة المادة تبنى بالكهرباء (بالنواة والكهارب)، وقل إن شئت: بالنور تبنى كتلة المادة، وبالروح (وهي نور أيضاً ـ غير منظور) تظهر تصاريف الحياة، ألا يدلُّ كل ذلك على أنه يقع وراء المادة والنور (النور الذرّي ـ أو الروحي)، والتطور الحيوي، عقل كلّي حكيم أرقى من عقولنا، وله مدارك أسمى من مداركنا؟... هو الوجود المنظِّم لهذا الكون (أعني وجود الله سبحانه وتعالى) جعل هذه الحقائق كلها يتصل بعضها بالبعض الآخر (على نحو متناسق منسجم) عن طريق منظور مباشر أو عن طريق غير منظور غير مباشر... حرَّك القلوب بنبضات الحياة، أودع الحنان في قلوب الأمهات، وهبنا السمع والبصر، نوّر السموات والأرض بضياء الشمس ونور القمر، أجرى الأنهار وأنبت لنا الثمار، أسعدنا بروائح الزهور وتغريد الطيور، وهب لنا الحياة وما تزدهر به الحياة. قال تعالى:

● ﴿ذلكم الله ربكم لا إلَه إلاَّ هو، خالق كل شيء فاعبدوه، وهو على كل شيء وكيل. لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ الأنعام: /١٠٢ ـ ١٠٣.

غاية الوحي أن تكون كلمة الله (منهاجه في الحياة) هي العليا، رائدة موجِّهة، ضابطة للسلوك، مؤلفة للقلوب، موحّدة للرأي والهدف. وهي نفسها غاية العلم، يهدي الإنسان والإنسانية إلى معرفة الأشياء بحقائقها وارتباط الأسباب بمسبباتها، يهدي الإنسان إلى كشف النظام العام الإلَهي في الخلق والتدبير، ضماناً وصيانة للحرية الفردية، وتحقيقاً لانتفاع الإنسان بهذا الكون الذي يعيش فيه.

لقد تجلّى لنا بوضوح (الهدف المشترك) بين العلم والدين، ويمكن أن نصرِّح أن الخلاف بينهما (وهميّ) يكاد ينحصر في طبيعة المنهج والأسلوب.

فأسلوب العلم في بحثه (حسّي ـ تجريبي)، يؤيده الدين (في الأصل ـ وينمّيه في الواقع) ومنهج العلم يدعو إلى المعرفة الصحيحة، وتنتهي مهمته لدى تكوين النظرية العلمية.

أمّا المنهج الديني فإنّه دعوة (لا إلى المعرفة الصحيحة فحسب)، ولكنه

دعوة (أعمّ ـ وأشمل) دعوة إلى الثقة والإيمان بالله (واهب الحياة) وإلى إعلاء كلمته، من خلال فاعلية الفكر ونشاط النفس استدلالاً بالأكوان على المكوّن، وبتصاريف الحياة على واهب الحياة.

الدين يستنفر كل طاقات الإنسان لبناء الحياة الفاضلة (للإنسان والإنسانية ـ علماً وعملاً وأخلاقاً) وهو عنصر قيادة عليا لمسيرة الحياة (في الماضي والحاضر والمستقبل)، يربط بين أفكار الإنسان وعواطفه، بين علمه وعمله، وينسق فاعلياته، وعلاقاته الفردية والاجتماعية، ويضمن للحياة سيراً طبيعياً في طريق التطور والازدهار والتكامل[1].

الإنسان بين العلم والدين:

بعد هذا العرض التمهيدي السابق، نطرح السؤال التالي: هل صحيح أن الدين في جوهره (وإنما نعني هنا بالدين الحق) إنما يسير على خط مستقل يوازي خط العلم؟... الحق أن الأمر ليس كذلك، بل إن هذا التصوُّر ينطوي على شرود بالغ عما يقضي به منهج النظر والبحث العلمي[2].

إنك تسبر أغوار الأرض بالبحث العلمي، فتقع على ثروة في باطنها فتقبل عليها وتستغلُّها وتستفيد منها، من الواضح أن هذه الاستفادة بحدِّ ذاتها ليست ممارسة لجهد علمي، ولكنها نتيجة منطقية وعملية ـ للدراسة العملية. وكما أن من الخطأ أن تضع (تجارتك بهذه الثروة) على خط مستقل يوازي خط البحث العلمي في باطن الأرض، ثم توازن بينهما فتقول، إن البحث العلمي أجدى وأصح من السعي التجاري ـ كذلك من الخطأ أن تضع الدين الحق على خط مواز لخط العلم ثم توازن بينهما وتقول إن العلم أفضل من الدين.

كذلك نطرح السؤال التالي: ما الدليل على أن السير في ركاب العلم

---

(١) ينظر كتاب ـ أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية (للمؤلف) ص ٢٢٤ وما بعدها.

(٢) ينظر مقال «للأخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي» في مجلة نهج الإسلام التي تصدرها وزارة الأوقاف بدمشق وهو بعنوان (بين العلم والدين) ص ٣٠ وما بعدها. عدد (٢٢) ربيع الأول سنة ١٤٠٦ هـ ـ تشرين الثاني سنة ١٩٨٥ م.

يوصل صاحبه أخيراً إلى محراب الحق ويفرض عليه الخضوع لسلطانه؟. . . وكيف يتم ذلك؟

إنَّ حديثنا هذا لا يتَّسع لإجابة مفصلة عن هذا السؤال، إلَّا أن لا بدَّ من بيان ولو جاء موجزاً، تتضح به رابطة العلم بالدين، ويتجلَّى من خلاله كيف أن الوصول إلى حقائق الدين أهم غاية تكمن في طريق البحث العلمي المتواصل الصحيح.

يجب أن نعلم قبل كل شيء أن العلوم ليست في حقيقتها إلَّا أجزاء من كلّ واحد، لا يستقلّ بعض عن بعض، فَصِلةُ ما بينها كصلة الفصول المتعددة بالكتاب الواحد، لا يتجلَّى في الذهن مضمون حقيقي لأي منها إلَّا استناداً إلى معرفة ما تضمّنته الفصول الأخرى.

فعلم الاجتماع مثلاً وثيق الصلة بعلم التاريخ، وعلم التاريخ موصول النسب بالتاريخ الطبيعي، وهذا بدوره شديد الصلة بالعلوم الطبيعية المختلفة. هذه العلوم ترسم بدورها إشارات استفهام لا يتصدَّى لها إلَّا علم الفلسفة، وينتهي الأمر بهذا العلم والذي قبله إلى جدار هائل لا يمكن اختراقه، ألا وهو جدار النواميس الكونية الثابتة، والتي تدور حول محورها أحداث هذا الكون وتطوراته. وهي نواميس لم ينل العلم منها سوى الوصف لأغشيتها، ومرئياتها الظاهرة، دون أن يملك معرفة لكنهها أو قدرة على أي تبديل أو تغيير فيها، وإليك الدليل على ذلك:

لقد تقدمت المدارك البشرية العامة تقدماً ملحوظاً. ولقد تهيَّأ لإنسان الحضارة الحديثة من أسباب العلوم والمعارف ما خيّل إليه أنه حقَّق حلماً لم يحلم به من قبل. . . ومع ذلك فإنَّ إنسان هذه العلوم كلها لم يستطع أن يزحزح شيئاً من تلك السنن والنواميس الكونية عن مكانه، فضلاً عن أن يقوى على نسخه أو تبديله. فلا تزال شقّة ما بينه وبين المشيب وضعفه كما هي، لم تسعفه علومه في إطالة أمدها، فضلاً عن أن تسعفه في القضاء عليها، ولا يزال على الرغم من كل المنجزات العجيبة التي وصل إليها، يموت كما يموت أي مخلوق

ضعيف في الكون. . . بل لا يزال أمد ما بين ولادة الإنسان وموته كما هو في جملته. بدليل ما نلاحظه من أن كلمة (الجيل) لا تزال تحمل مدلولها اللغوي ذاته.

دفعة من البشر تمرُّ فوق جسر هذه الحياة ضمن ميقات زمني لا يتجاوز مئة عام تقريباً أي أن شيئاً من العلوم الحديثة للطب والصحة ورعاية الأبدان لم يستطع أن يتدخل لتعديل هذا الميقات الزمني المحدد لعمر الجيل فيجعله مثلاً مئة وخمسين عاماً.

ولا يزال إنسان الحضارة والعلوم الحديثة اليوم مضطراً إلى محاكاة ما كان يفعله أجداده السابقون من قبل: يستجدي من السماء شرابه ومن الأرض قوته، ومن ضروع الأنعام غذاءه. فإذا شحَّ بالعطاء هذا أو ذاك استبدَّ به القلق، ونال منه الهلع، ووقع ضعيفاً بل صريعاً بين براثن الجوع والظمأ.

ثم إن هذا الإنسان كلما التفت إلى ذاته يتأمل فيها، لم يدرك من هذه الذات إلَّا جملة ظاهرات وعلاقات تختفي وراءها أسرار عجيبة لا يخترق إليها علم، ولا يصل إلى كنهها سلطان جهاز ولا فكر! لقد بذل كل ما أمكنه من جهد في سبيل أن يعلم شيئاً عن حقيقة الروح التي تسري في كيانه فانقلب من سعيه جاهلاً لم يأت بطائل، وأذعن الجميع بعد تجربة ومحاولة دائبتين، بأن الروح شيء يستعصي على العلم وطبيعته، ويندُّ عن فكر الإنسان وفهمه.

أجل فلقد أذعن بذلك حتى الماديّون الذين قرَّروا ـ واشتهوا أن يصدِّقهم الواقع ـ أن الحياة من مادة انطلقت وإليها تعود، وإليك ما يقوله الإمام الأول للمادية الجدلية بعد ماركس؛ إليك ما يقوله (انجلز) في كتابه (أنتي دوهرنغ):

إن العلم الطبيعي لم ينجح بعد في إنتاج الكائنات العضوية دون تناسل من كائنات أخرى. وفي الحقيقة أنه لم ينجح بعد حتى في إنتاج الهيولى البسيطة، أو الأجسام الآحينية الأخرى من العناصر الكيميائية وبالتالي فإنه ليس

من مكنة العلم الطبيعي حتى الوقت الراهن أن يؤكد شيئاً بخصوص أصل الحياة[1].

وينقل (لينين) تأكيداً لهذا الكلام عن (فيورباخ) في تعليقاته الفلسفية المشهورة:[2] ولقد تقدمت العلوم والمعارف الإنسانية إلى اليوم تقدماً كبيراً، ولكنها لا تزال فيما يتعلق بمسألة النواميس الكونية عموماً، وسرّ الحياة أو الروح خصوصاً، باقية وواقفة عند حدودها السابقة القديمة من الجهالة والحيرة[3].

هذا كله بالإضافة إلى ما يراه المتأمل في هذه المكونات من كثرة هائلة تنتهي في الانسجام إلى وحدة لا انفصام لها، ومن تلاق عجيب فيما بين مظاهرها المتنوعة، على تحقيق غايات محددة، ضمن نظام دقيق لا يلحقه أي اضطراب أو شذوذ، حتى ألجأ ذلك أئمة المادية الجدلية إلى أن ينعتوا الطبيعة بالعقلانية وأن يطلقوا على ما يبـدو فيها من ظاهرة (العلة الغائية) اسم عقلانية الطبيعة.

إذن، فالعلم يوصل الإنسان ـ من خلال تبصيره بهـذه الحقائق وأمثالها ـ بأنه مقود في هذه الحياة وليس بقائد، محكوم وليس حاكماً، يتحرَّك ولكن ضمن الزمام المثبت في عنقه، ويتصرف ولكن ضمن نطاق (النظام العام الكوني للحياة ـ والحكم الذي أبرم في شأنه). ومن ثمَّ فإنَّ العلم يسلم الإنسان إلى يقين، بأن وراء هذا الكون مكوناً، ووراء هذا النظام منظماً، ووراء هذا الخلق والتدبير خالقاً مدبِّراً أبدع نواميسه، فهو يمسكها من تدبيره وقدرته، في قبضة عجيبة لا تغلب، وبأن ما يسمى بعقلانية الطبيعة، ليس في الحقيقة العلمية إلاَّ مظهراً لتدبير ذلك الإلّه العظيم الذي دبَّر فأحكم تدبيره.

فإذا قرر العلم ذلك، فقد أسلمنا إلى يقين بوجود الله عز وجل، وإلى يقين بأنه موصوف بكل صفات الكمال، منزّه عن سائر صفات النقصان.

---

(١) ينظر ـ أنتي دوهرنغ ـ ترجمة فؤاد أيوب ص ٩٠.

(٢) الدفاتر الفلسفية لـ (لينين) ٢/٥٧.

(٣) ينظر كتاب «قصة التطور» للدكتور أنور عبد العليم ص ١١ ـ ٢٣.

ثم إن العلم يقف عند ذلك الحدّ ليدلنا على تتمة الطريق وكيفية متابعته، وهو الآن ـ الإصغاء إلى خطاب هذا الإلّه وتعاليمه، من خلال الرسل الذين بعثهم والكتب التي نزّلها عليهم، ثم ما أمكن من الجهد والوسع لتنفيذ هذه التعليمات والأوامر (تعظيماً لأمر الله سبحانه)، فإن الإلّه الذي أبدع مكوناته على هذا النظام الحكيم ـ العادل الرحيم ـ لا يعبث في خلقه ولا يتعسف في حكمه، ولا يأمر إلاّ بما فيه الرشد (وما يوحي به العقل المتكامل)، ولا ينهى إلاّ عما فيه ضلال وغيّ وشقاء.

وهكذا يتبين ما أوضحناه، من أن الدين الحق (نهاية في طريق العلم)، وليس خطأً يواكبه ويوازيه، وأن إقبال الإنسان (المنصف) إلى الدينونة له، والخضوع لأحكامه، ليس إلاّ تحصيلاً لثمرة العلم، وهو يفوق في القداسة ممارسة أي جهد علمي بحد ذاته.

وأخيراً هذا هو الإسلام في قراره الأول والأخير، إن العلم الحقيقي (الذي يثمر الإيمان بواهب الحياة ـ وبالواجد ـ الواحد الأحد ـ المنظم المدبّر لهذا الكون) هو الذي يجب أن يكون ميزاناً للحقائق، وهو العلم الذي يحمله عقل المؤمن (الصادق ـ المخلص ـ المعظم لأمر الله سبحانه وتعالى).

ولكن اليقين العلمي الذي يهيمن على العقل، لا يستلزم دائماً التصوُّر الذي يهيمن على الخيال، ذلك لأن القدرة على (تصوُّر المخيّلة للأشياء على حقيقتها) تظلُّ دائماً متخلفة عن الطاقة العقلية لإدراكها. أرأيت إلى الضرير الأكمه (الذي خلق دون بصر)، إنَّه يدرك وجود الشمس المشرقة يقيناً بعقله، ولكنه لا يقوى على تصوُّرها في خياله، فلا يكون هذا العجز الثاني دحضاً لليقين الأول.

كذلك وجود الله عز وجل، وما يتبعه من يقينيّات متفرعة عن الإيمان به، لا مناص للعقل الحرّ من اليقين بهما، ولكن لا سبيل للخيال البشري إلى التقاط صورة صادقة عنهما. بل مما لا ريب فيه أن كل ما خطر ببالك فالله سبحانه وتعالى (بذاته المقدسة وحقيقته الموضوعية) بخلاف ذلك وهو سبحانه كما وصف نفسه في كتابه الكريم (ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير).

اقتضت حكمته العليا، أن تكون ذاته المقدسة محجوبة عن العقل البشري في هذه الحياة الدنيا حتى يبقى الإنسان المؤمن متطلعاً بكل كيانه (بأفكاره وعواطفه وإرادته وسلوكه) إلى تعظيم أمر الله واتباع رضوانه، متجرِّداً عن أهوائه، مستقيماً على طاعته وإخلاص العبودية له سبحانه وتعالى[1].

---

(١) -

علم العليم وعقل العاقل اختلفا — من ذا الذي منهما قد أحرز الشرفا
العلم قال أنا أحرزت غايته — والعقل- قال أنا الرحمن بي عرفا
فأفصح العلم إفصاحاً وقال له — بأيّنا الله في فرقانه اتصفا
فبان للعقل أن العلم سيده — فقبّل العقل رأس العلم وانصرفا
هذا حوار لطيف قاده أدب — لولا المربّي لكان الكلّ منحرفا

فإلى العلم الصحيح، نكتسبه، مترافقاً بالإيمان الصادق، داعين بدعاء الرسول الكريم: «اللهم ارزقنا علماً ينفعنا وعملاً يرفعنا» - (إلى الكرامة عند الله - بتعظيم أمره سبحانه وتعالى) وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

المبحث الخامس

حاجتنا إلى تجديد الإيمان[1]

تمهيد:

يعتقد الكثير من الغيورين من أهل العلم والفكر، أن الذي ينقصنا لكي نسعد ونرقى أفراداً وجماعات، إنما هو التقدم العلمي والصناعي، الذي يساعد مجتمعاتنا على أن تنمو وتتطور، وتلحق بركب العالم المتحضر الذي حطّم الذرة، وغزا الفضاء، وصنع العقل الالكتروني (الكمبيوتر).

ومن حسن حظنا نحن المسلمين أن ديننا لا يضيق بالدعوة إلى العلم والتقدم، كما قد يتوهَّم الذين لا يعرفون الإسلام ـ على الحقيقة ـ ويريدون أن يجروا عليه ما جرى على الأديان الأخرى.

---

(١) قال رسول الله ﷺ:

● «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدِّد لها دينها».

أخرجه أبو داود في السنن، وقال السيوطي (في مرقاة الصعود)، اتفق الحفاظ على تصحيحه (اعتباره صحيحاً) منهم الحاكم (في كتابه ـ المستدرك) ومنهم البيهقي (في كتابه المدخل)، ومن نصّ على صحته من المتأخرين (الحافظ ابن حجر) ومعنى التجديد في الدين ـ تصحيح فهمه، والعودة به إلى أصالته ـ (في كتاب الله ـ وسنّة رسوله ﷺ) وتصفيته مما علق به من الشوائب، التي تواضعت على أصالته، من آراء أصحاب الأهواء (من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين)، حتى يرى مراد الله واتباع رضوانه صحيحاً في الأفهام، راسخاً في الأذهان، مشرقاً في القلوب والضمائر، بفضل الله، وإخلاص هؤلاء المجدِّدين، الذين يعودون بالدين إلى أصالته علماً وعملاً وأخلاقاً وتربية وسلوكاً.

فلنشكر الله تعالى على كمال عنايته بهذه الأمة المحمَّدية، وهو الذي قال في محكم تنزيله وقرآنه:

● ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ الحجر: /٨.

ولنستمع بهذه المناسبة - إلى قول الشاعر العربي المؤمن (معروف الرصافي) في قصيدته الميميّة:

يقولون في الإسلام ظلماً بأنه	يصدُّ ذويه عن طريق التقدم
فإن كان ذا حقاً فكيف تقدَّمت	أوائله في عهدها المتقدم
وإن كان ذنب المسلم اليوم جهله	فماذا على الإسلام من جهل مسلم
هل العلم في الإسلام إلّا فريضة	وهل أمَّة سادت بغير التعلّم
لقد أيقظ الإسلام للمجد والعلا	بصائر أقوام عن المجد نوّم
وحلَّت له الأيام عند قيامه	حباها وأبدت منظر المتبسِّم
فأشرق نور العلم في حجراته	على وجه عصر بالجهالة مظلم
وأنشط للعلم العزائم وابتنى	لأهليه مجداً ليس بالمتهدِّم
وأطلق أذهان الورى من قيودها	فطارت بأفكارٍ على المجد حوّم
وما ترك الإسلام للمرء ميزة	على مثله ممّن لآدم ينتمي
فليس لِمُثْر نقصه حق معدم	ولا لعربيّ بخسه فضل أعجمي
ولا فخر للإنسان إلّا بسعيه	ولا فضل إلّا بالتُّقى والتكرُّم
فهل مثل هذا الأمر يا لأولي النهى	يكون عثاراً في طريق التقدم

والإسلام يعتبر التقدم العلمي، وما يثمره في الحياة من استخدامات نافعة (عبادة) بالنسبة للفرد المسلم إذا صحت منه النيّة وتوفَّر الإخلاص واتباع رضوان الله. يتقرب المؤمن بمعرفته وإتقانه لعمله إلى الله تعالى، كما يتقرب بالصلاة والصيام.

وهي بالنسبة للمجتمع (ونعني طلب العلم الضروري) فريضة كفائية، يأثم المجتمع كله إذا لم يخطط للمستقبل ما يحتاجه من الكفاءات والكفايات العلمية الضرورية لسدِّ الثغرات وتلبية الحاجات التي يتطلبها المجتمع في مرافق حياته.

ولكن الذي نؤكده هنا هو حاجة مجتمعاتنا - وكل المجتمعات البشرية - إلى العلم والإيمان جميعاً، فالإنسان جسم وروح وعقل وقلب، ولا بد من رعايته كله، وإمداده بما يغذِّي كل جوانبه وطاقاته، مما ينبت من الأرض ومما

ينزل من السماء. وهذا هو التوازن أو التكامل الذي تميز به الإسلام.

فمن مظاهر التكامل في نظام الإسلام أن التَقى به العلم والإيمان ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾. وذكر القرآن من قصص النبيّين والصالحين ما يلفت الأنظار بقوة إلى قيمة العلم ومنزلته في إعانة الإنسان على وظيفته في خلافة الله في الأرض، واستخدامه في كثير من الأمور النافعة، كما في قصة آدم وتفوُّقه على الملائكة بالعلم، وقصة يوسف وتدبيره أمر مصر في المجاعة بالعلم، وقصة سليمان وإحضاره عرش بلقيس بالعلم، وغيرها من قصص النبيين والمؤمنين.

العلم لا يغني بغير الإيمان:

ومع هذا فليس العقل كل شيء في الإنسان، ولا العلم كل شيء في الحياة. إن العقل له ميدانه الذي لا يتجاوزه والعلم له مجاله الذي لا يتعدَّاه، وبعد ذلك يقف العقل والعلم حائرين، فسرّ الوجود وغاية الحياة ومبدأ الكون ومصيره، وقضية الموت والحياة، وما يتصل بذلك من قضايا الوجود الكبرى، لا يستطيع العقل أن يدركها وحده، ولا يستطيع العلم أن يمدّ إليها سلطانه، لأن سلطانه فيما يخضع للملاحظة والتجربة، أي في الماديات والمحسوسات. فكان لا بد من معرفة أخرى تنبع من مصدر آخر، لتحديد مركز الإنسان وغايته، ومهمته في هذه الأرض، وعلاقته بالكون والحياة (وخالق الكون والحياة)، وليس هذا المصدر إلاَّ الوحي الإلّهي، ولا سبيل إلى التلقِّي عنه إلاَّ بالإيمان.

إنَّ الإيمان هو الذي يفسِّر قضايا الوجود الكبرى، ويصل الإنسان بالوجود الكبير، وبالأزل والأبد، ويجعل لحياته طعماً وهدفاً ورسالة. وكما قال تعالى:

● ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ العنكبوت: /٦٤. الحيوان: الحياة الحقيقة، والإيمان - مع ذلك - هو الذي يعصم العلم من الانحراف، ويحول دون استخدامه في الشرّ والعدوان.

إن حقيقة الدين ومهمة الإيمان تتجلّى:

أولاً - في توطيد هذه الصلة وتدعيم هذا الارتباط (المعنوي) بين الإنسان

وخالقه، بقربه وحبّه، وملء ما بين جنبيه ثقة بوعده واعتماداً عليه، واطمئناناً إليه، وأنساً به، ويقيناً بكل ما جاء من عنده.

وتتمثل ثانياً - في الارتفاع بقيمة الإنسان إلى كائن مكرَّم (مكلف - مسؤول)، مخلوق في أحسن تقويم مستخلف في الأرض، مغبوط من الملأ الأعلى، فلا غرو أن يعمل الدين على إعلاء نفحة الروح الإلّهي على قبضة الطين والحمأ المسنون، وبذلك لا يعيش الإنسان مشدوداً إلى أسفل... إلى المتاع الأدنى، بل يحيا دائماً إلى الأفق الأعلى.

وتتمثّل ثالثاً - في توسيع صلته بالكون العريض من حوله، الذي جعله الله مسخراً لمنفعته، وهو كذلك آية تدلّه على ربّه. كما أن الناس فيه إخوة له، يشاركونه في العبوديّة لله، والنبوّة لآدم.

وتتمثل رابعاً - (أي حقيقة الدين - ومهمّة الإيمان): في مدّ عمر هذا الوجود، إلى ما بعد هذه الحياة القصيرة الأمد، إلى حياة الخلود والأبد.

خفوت صوت الإيمان في عصرنا:

ولا يخفى أن جمرة الإيمان - في هذا العصر - قد فقدت كثيراً من توهّجها واشتعالها في القلوب، وأن صوت الإيمان قد خفت في حنايا الضمائر، ويرجع ذلك إلى جملة أسباب:

● عدم وجود المربّين الأكفاء (العلماء الأمناء - ورثة الأنبياء) بالعدد الكافي، بما يضمن التربية الإسلامية في العالم الإسلامي (خاصة) وفي الأسرة الإنسانية (على العموم).

● غلبة التفكير المادي والحياة المادية على جمهور الناس في أنحاء العالم، نتيجة لسيطرة الحضارة الغربية، وانتقل ذلك بالعدوى والاختلاط، وأجهزة التأثير المختلفة (من الغرب - إلى الشرق). وألهى الناس التكاثر، حتى كادوا ينسون أن بعد الحياة موتاً، وبعد الموت بعثاً، وبعد البعث حساباً، وبعد الحساب ثواباً وعقاباً، وجنة وناراً.

● اهتمام الدعاة إلى الإسلام - في العقود الأخيرة - بالتركيز على عرض النظام الإسلامي، وبيان محاسنه والدعوة إلى تطبيقه، **ولم تعط أهمية مماثلة لعرض العقيدة (علمياً - وتربوياً)، والدعوة إليها، وتعميق أثرها في العقول والقلوب**، نظراً لظهور (الفكر العلماني)، الذي يعتبر الدين - كل دين - مجرّد صلة خاصة بين المرء وربه، ولا علاقة له بنظام الحياة، فاقتضى الردّ عليه، التأكيد والتركيز على النظام الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، والتشريعي في الإسلام، **دون أن تأخذ العقيدة حظّاً مماثلاً من هذا التأكيد. والواجب هو الموازنة بين تعاليم الإسلام كلها، وإن كانت العقيدة - ولا ريب - هي أساس البناء.**

وبعد هذا التمهيد (الذي لا بدّ منه)، نستهل البحث عن (حاجة عصرنا إلى تجديد الإيمان): إن العالم كله أحوج ما يكون إلى الإيمان[1]، ولكن الإيمان بالنسبة لنا نحن العرب والمسلمين، يعتبر جوهر وجودنا، وسرّ نهضتنا وحضارتنا، وهو لنا روح الحياة وحياة الروح.

إن الإيمان هو سبيلنا إلى اتباع رضوان الله، وعدتنا في طريق الحياة الحرة الكريمة، فقد حفّت الجنة بالمكاره، وحفّت النار بالشهوات، ولن نقدر على احتمال المكاره في طريق الجنة، ولا أن نقاوم الشهوات المفضية إلى النار، **إلا بقوة روحية داخلية (إنها قوة العلم والتربية - ويقظة الإيمان)** تستحب المكاره وتستعذب العذاب، كما تركل الشهوات (الرخيصة - غير المشروعة) ولذائذ الدنيا كلها إن كان من ورائها سخط الله.

وهذه القوة الروحية إنما تصنعها تربية الإيمان، الإيمان الذي يحفزنا على أداء المهمة التي خلقنا لها وهي عبادة الله تعالى، ويحـبّب إلينا هذه العبادة،

---

(١) (بسبب خفوت صوت الإيمان في عصرنا - وما يخلف ذلك من ضعف في التربية الإنسانية العامة) وسيطرة الأنانية، وضعف الانقياد للقاعدة التربوية العامة في السلوك، أصبح العالم مهدداً بالفناء (الجسدي) بالحرب النووية، أو (الفراغ - والفناء - الروحي) بسبب سيطرة الإلحاد والنزعة الشيوعية المادية. ولا ينقذنا من هذين الفناءين (الجسدي - والروحي) إلاّ العودة إلى تربية الإيمان والثقة بالله على الحقيقة.

حتى تغدو لنا قرة عين. . . وهو الذي يأخذ بيد الإنسان، ليتقرب إلى الله تعالى بأداء فرائضه الواجبة عليه، ويزداد تقرّباً إليه حتى يربح حبّه له، فإذا أحبه سبحانه كان سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها وإذا دعاه أجابه وإذا سأله أعطاه[1].

إن الإيمان وحده هو الذي يمنح الإنسان الطمأنينة وسكينة النفس، التي

(١) من عطاء الدعاء:

الدعاء عبادة مهمة في الإسلام، حيث أنه من المستحبّات المؤكدة، وقد قال عنه الرسول الكريم ﷺ.

● «الدعاء مخ العبادة ـ ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة».

وسنحاول أن نستعرض بعضاً من عطاءات الدعاء للإنسان المسلم.

نفهم أهمية الدعاء، من خلال فهمنا لعناصر الشخصية الإسلامية (وهي الجانب الفكري، والروحي، والسلوكي)، والدعاء يمتد لكل جانب من هذه الجوانب:

فمن الناحية الفكرية:

يقدم الدعاء المعرفة الدقيقة للعقائد الإسلامية، كمسألة التوحيد، والمعاد، وبقية أصول الدين، من ذلك دعاء سيد الاستغفار (الذي ورد عن رسول الله ﷺ):

● «اللهم أنت ربّي، لا إلّه إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شرّ ما صنعت، أبوء لك (أي أقرّ وأعترف لك) بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

وقد أثر عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قوله:

● «أمرني رسول الله ﷺ أن أقول إذا أصبحت أو أمسيت، أو أخذت مضجعي من الليل:

«اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت ربّ كل شيء ومليكه (أي مالكه)، أشهد أن لا إلّه إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، أعوذ بك من شرّ نفسي، ومن شرّ الشيطان وشركه (أي مشاركته ـ بسبب الغفلة عن الله)، وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجرّه إلى مسلم، يا أرحم الراحمين.

ومن دعاء سيدنا عمر بن عبد العزيز (الخليفة الراشد ـ رضي الله عنه):

«اللهم رضّني بقضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل ما أخّرت، ولا تأخير ما عجلت، يا أرحم الراحمين.

وهكذا يساهم الدعاء، في تنمية الجانب الفكري في شخصية الإنسان المسلم، ويفتح آفاق الفكر في تنمية العقيدة الإسلامية.

ومن الناحية الروحية:

فإن طبيعة الموقف الذي يقفه الإنسان (وهو بين يدي جلال الله سبحانه وتعالى)، بالإضافة إلى كلمات الدعاء المتميزة، يضفي على الوقت جوّاً روحياً خاصّاً، يملك على الإنسان أحاسيسه ومشاعره، ويربطها بالله تبارك وتعالى. ومن دعائه ﷺ في هذا المقام:

=

هي روح السعادة، وسعادة الروح وكما قال تعالى:

● ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ الرعد: /٢٨.

والإيمان الذي نعنيه، هو الذي ينمّي في الإنسان حوافز الخير، وكراهية الشرّ، ويملأ ما بين جنبيه شوقاً إلى الكمال ورغبة في الترقّي، من جاذبية الطين الأدنى إلى أفق الروح الأعلى، وهو الذي يعطي الإنسان الطاقة والقدرة للتحليق بأشواقه الصاعدة فوق مستوى الغرائز الهابطة، وهو الذي يهب الشباب في عنفوانه (أمام الشهوات العارمة) إرادة كإرادة يوسف الصديق (تقبل ذل السجن

= ● «اللهم أقبل بقلوبنا على طاعتك، وحُطْ من ورائنا برحمتك يا أرحم الراحمين».

● «اللهم افتح أقفال قلوبنا بذكرك، وأتمم علينا نعمتك من فضلك، واجعلنا من عبادك الصالحين».

● «اللهم رحمتك نرجو، فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأصلح لنا شأننا كله، لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك، يا أرحم الراحمين».

ومن الناحية السلوكية:

إن الإسلام وضع لأبنائه (صورة مثلى) في التربية والأخلاق والاجتماع، وطلب إليهم أن يرتقوا إليها، وأن يطوّعوا واقعهم وحياتهم (جهاداً للنفس والهوى)، وفق قيمها وأحكامها. وإن المفاهيم العملية التي يطرحها الدعاء، بالإضافة إلى (القضايا الفكرية ـ والوقفة الروحية بين يدي الله سبحانه)، تساهم في إيجاد السلوك السويّ عند الإنسان وتنميته، حتى يصل الإنسان (المهذّب) إلى أفضل صور التعامل، مع النفس والمجتمع.

والدعاء كذلك وسيلة لتوثيق العلاقة مع الله عزّ وجلّ، بكل ما يحمله هذا التوثيق من معطيات، تعمل على تهذيب النفس وصقل مشاعرها، وضبط نوازعها، وحسن تربيتها، اتباعاً لرضوان الله، وهذا ما يريده الإسلام، حيث يحدث عمليتين مزدوجتين في هذا المجال: عملية انتزاع الصفات السلبية، التي قد يحملها الإنسان من بخل، وجبن، أو ضعف أخلاقي، وعملية اكتساب للصفات الحميدة، كالكرم والشجاعة، والعدالة وذلك عن طريق مقارنة صفات الإنسان بصفات الله تبارك وتعالى، ومن هنا يكون الدعاء سبيلاً للتخلّق بأخلاق الله عزّ وجلّ.

والدعاء حاجة طبيعية وقطعية للإنسان إزاء مشاكل الحياة، حيث يتجه إلى الله القادر على حل مشاكله وإعطائه حاجاته، وبذلك يكون الدعاء وسيلة وضعها الله تبارك وتعالى بأيدي الناس لحل مشاكلهم وتلبية حاجاتهم، وكما قال تعالى:

● ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب، أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ، فليستجيبوا لي، وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾ البقرة: /١٨٥.

ـ وترفض إغراء المعصية) وشعاره: (ربِّ السجن أحبُّ إليّ مما يدعونني إليه).

إن الإيمان الذي تنشده ـ هو وحده ـ الذي تنبت في تربته شجرة الأخلاق، وتنمو في ربوعه أزهار الفضائل المثلى، والقيم العليا، وقد أثبت التاريخ والواقع أن الأمم بدون أخلاق، لا تنهض بعبء جسيم ولا تقوم بعمل مبدع. ورحم الله شوقي إذ قال:

الصدق أرفع ما اهتز الملوك له وخير ما عوّد ابناً في الحياة أب
وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولطالما حاول كثير من الحكّام والزعماء والمسؤولين أن يضبطوا سلوك مجتمعاتهم بالقوانين والقرارات وحدها، ناسين أن الإنسان إنما يقاد من داخله لا من خارجه، فلم تغن عنهم قوانينهم ولوائحهم شيئاً، وغلب الهوى على الحق، والأنانية على الخير، وعلا صوت الشهوة على صوت الواجب، ولا غرو أن شاعت جرائم كبرى وظهرت مآس وفضائح، وكان مما كتبه أحد القضاة في بريطانيا تعليقاً على الحكم، في إحدى هذه القضايا: دون قانون لا يستقرّ مجتمع، ودون أخلاق لا يسود قانون، ودون إيمان لا تسود أخلاق.

والإيمان هو الذي يفجّر الطاقات الكامنة في إنسان شعوبنا المسلمة، فتندفع بقوة العقيدة ـ في الله، وفي الدار الآخرة، لصنع البطولات، وإنشاء الروائع، كما رأينا في التاريخ الماضي، وفي الواقع الحاضر.

إن الإيمان هو الذي يحلّ مشكلة النزعة الفردية (الذاتية) عند الإنسان، حين يخرجه من حدود أنانيته الضيقة إلى رحاب القاعدة العلمية التربوية العامة في السلوك (إيماناً بعدالة الله سبحانه) حين يعلمه أن ما يقدمه من خير، وما يضحي به من جهد، وما يبذل من مال ونفس، لن يضيع عند الله مثقال ذرة، كما قال تعالى:

● ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ الزلزلة: /٧.

● ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ النساء: /٤٠.

والإيمان كذلك هو الذي يوثّق الروابط بين أهله، فيجمعهم في ظل الآخرة، ويصل بينهم بأوثق عرى المحبة، فالإيمان رَحِمٌ بين أهله كما قال تعالى:

● ﴿ إنما المؤمنون إخوة، فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾ الحجرات: / ١٠.

وفي رحاب هذه الأخوة تختفي الأحقاد، وتنكمش مشاعر الحسد والبغضاء، ولا يقف الأمر عند سلامة الصدر من الحسد والبغضاء، بل يعمر القلوب حب كبير، منبثق من حب الله تعالى، إنه حب لكل من والاه وآمن به، حيث يرتفع بالإنسان من الأنانية الدنيا إلى الغيرية العليا، وفي هذا جاء الحديث الصحيح:

● «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

● «والذي نفسي بيده، لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابّوا».

وهنا تتحول المشاعر الرقيقة من الأخوة والمحبة والإيثار إلى تلاحم في الخير، وتراحم في السرّاء والضرّاء وتعاون على البر والتقوى.

وكما يوضح (كتاب الله مع السنة النبوية الشريفة) العقيدة الصحيحة، ويبسطها، لتكون واضحة في الذهن مشرقة في القلب والضمير، فهو يرسم للمؤمنين طريق العبادة الصحيحة (والانقياد لمراد الله واتباع رضوانه)، من صلاة وصيام وحج وذكر ودعاء، ليربطهم بالله (بمفهوم الحب والثقة والإيمان) فتتهذب نفوسهم وتقوى إرادتهم (على فعل الخير)، وتسمو أرواحهم إلى سماء العزة والكرامة، ولتتجرّد من ماديات هذه الحياة وتتّجه إلى خالقها وبارئها، لتستمدّ منه النور والهدى، وتستعين به ﴿ إياك نعبد ـ وإياك نستعين ﴾ على مواجهة مسؤوليات الحياة (بقوة العلم ـ ويقظة الإيمان).

فالمؤمن ـ الموفق ـ ينطلق إلى ما يحب الله ويرضى، من حسن المعرفة بالله، وحسن الطاعة لله، وحسن الصبر على أمر الله ويحافظ على الاستقامة

على هذه المعاني (مستعيناً بالله)، وبممارسة النقد الذاتي ومحاسبة النفس على مدى طاعتها لله، يقوده إلى التحقق بهذه المعاني (العلمية ـ التربوية) أسوته الحسنة برسول الله ﷺ.

هذه هي العقيدة الإسلامية (بمعانيها العلمية التربوية)، وهي بحاجة إلى صدق وإخلاص وتواضع لله ـ في المنطلق، كما هي بحاجة إلى الصيانة المستمرة (بلزوم الجماعة) لتغذية هذه المعاني ولنقطف ثمرة الإيمان الصادق والوعي الاجتماعي الصحيح. وكما قال تعالى:

● ﴿ واتل ما أوحي إليك من كتاب ربّك لا مبدّل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً. واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ الكهف: /٢٧ ـ ٢٨.

حريّ بنا، وقد أنهينا خاتمة البحث (لعلم العقيدة الإسلامية)، أن نوشّح هذه الخاتمة بصورة شعريّة جذّابة لشاعر مؤمن، ننطلق فيها من التوحيد (محور العقيدة الإسلامية)، لنشير إلى عالميّة العقيدة الإسلامية (في الأصل)، وإلى عالمية الإسلام (في الواقع).

الإسلام الذي ربّى الإنسان الفاضل، وبنى الأسرة المتآلفة، وأقام الدولة الراشدة، لحراسة العقيدة، وتنمية الوعي الاجتماعي، ورفع شعار الإيمان والإخلاص (إخلاص العبودية لله) لتحقيق الإلفة والمحبّة والإخاء الإنساني.

توحيد الله لنا نورٌ ... أعددنا الروح له سكناً
الكون يزول ولا تمحى ... في الدهر صحائف سؤددنا
الصين لنا والعرب لنا ... والهند لنا والكلّ لنا
أضحى الإسلام لنا ديناً ... وجميع الكون لنا وطناً
بنيت في الأرض معابدها ... والبيت الأول كعبتنا
هو أول بيت نحفظه ... بحياة الروح ويحفظنا
في ظل السيف تربّينا ... وبنينا العزّ لأمّتنا
علم الإسلام على الأيام ... شعار المجد لملّتنا

وأذان الـمـسـلـم كـان لـه في الغرب صدى من همّتنا
قـولـوا لسمـاء المجـد لقـد طـاولـنـا النـجـم بـرفـعـتـنـا
يـا ظـلّ حـدائـق أنـدلس أنـسيـت مغـاني عشـرتـنـا
وعـلى أغـصـانـك أوكـار عمـرت بـطلائـع نهضتـنـا
يـا دجلة هـل سجّلت على شـطّيـك مـآثـر عـزّتـنـا
أمـواجـك تـروي للـدنيـا وتعيـد جـواهـر سيـرتنـا
يـا أرض النور من الحـرمين ويـا مـيـلاد شـريـعـتـنـا
روض الإسـلام ودوحـتـه في أرضـك روّاهـا دمـنـا
ومحمـد كـان أميـر الـركب يـقـود الـفـوز لـنـصـرتـنـا
إن اسـم محـمـد الـهـادي روح الآمـال لـنـهـضـتـنـا
دوّت أنـشـودة شـاعـرنـا جـرسـاً يَحْـدو فيـه الـزمنا
لـيـعـيـد قـوافـلنـا الأولـى في المـجـد ويبـعث أمّتنـا

نَظْم الدكتور محمد إقبال (الباكستان)، ترجمة الأستاذ الصاوي شعلان.



المبحث السادس

عقيدة التوحيد في أبعادها الموضوعية

جاء الإسلام بعقيدة التوحيد صريحة ساطعة، مبرّأة من كل شائبة، فالله جلّ جلاله هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، المنزّه عن التشبيه والتجسيد والحلول في مخلوقاته، وهو الأول فليس قبله شيء، والآخر فليس بعده شيء، وهو الظاهر والباطن، وهو القادر والسميع والبصير وهو العزيز واللطيف والخبير، موصوف بالكمال المطلق، المريد الفعّال، بغير حركة ولا انفعال.

الله ـ في تعاليم الإسلام ـ هو الخالق البارىء المصوّر، وهو ربّ الكون وسرّه ومنظّمه ومدبّره، دون أن يستطيع العقل البشري أن يدرك كنهه، أو أن يتصوّره على أي صورة من الصوّر، لأنه سبحانه (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) . . .

ودعوة الإسلام إلى التوحيد على هذا النحو، هي دعوة الأديان السابقة، لأن الدين (بحقيقته ـ الموضوعية) واحد، والديّان واحد.

ولم يكن غريباً أن يمضي خاتم الأنبياء محمد ﷺ من حياته النبوية ثلاثة عشر عاماً في مكة يدعو إلى التوحيد ويقتلع جذور الوثنية، التي خالطت فطرة الله فأفسدتها.

فالتوحيد ـ كما جاء به الإسلام ـ هو محور للنظام العام الإلّهي (في الخلق والتدبير) الذي خطّطت له (الإرادة المطلقة ـ للمدبّر المنظم) الواحد الأحد، سبحانه وتعالى.

التوحيد منطلق للمنهج الكامل، لحياة كريمة تتدفّق بالخصب والإخاء،

والأخذ والعطاء، والعدل والحرية، وأول خطوة في هذا المنهج هي تقرير كرامة الإنسان وحريته، عن طريق توحيد الخالق جلّ وعلا.

وكيفية ذلك أن في كيان الإنسان وتكوينه، أنه لا يستطيع أن يعيش بغير ولاء... فأين تذهب مشاعر الولاء في الإنسان حين تغيب عقيدة التوحيد (لا إلّه إلا الله - لا معبود إلا الله - لا مقصود إلا الله).

إنها تذهب إلى المعبودات الكاذبة، من إنسان وحيوان ونبات وجماد، وقد فرض هذا الولاء الكاذب على الناس تبعات أشد فداحة من الخضوع لإلّه واحد، إذ أن هذه المعبودات الزائفة، سرقت من الناس حرياتهم، وقتلت فيهم إنسانيتهم، وأحالتهم إلى مخلوقات عجيبة لها من الإنسان شكله، وليس لها منه شيءُ من حقيقته. أما عقيدة التوحيد، فإنها تستجمع مشاعر الولاء الصادق في الإنسان وتردّها إلى الله وحده، وبذلك تنقذه من الشكوك والأهواء (المضلّلة) وتبعات الولاء المشتّت[1].

إنها تشفق على الإنسان أن تستعبده الطبيعة، أو ما يسخّره بين يديه من قواها، كما تشفق عليه أن يستبدّ به ملك أو كاهن، أو حزب أو طبقة أو طائفة.

وتوحيد الله لا يقتضي الإنسان ذلًّا ولا قهراً (ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين)... فالله لا يريد من العباد رزقاً ولا طعاماً، ما يريد منهم إلا الانقياد لله وحده، لتعود ثمرة عباداتهم عليهم هم.. والناس كلهم في ذات الله سواء لا يستعلي عليهم إلاّ الإلّه المعبود وحده، فمن تجبّر على مخلوق، فقد أساء إلى عقيدته[2] بوحدانية الله، ومن خضع لطغيان مخلوق (غير مكره) فقد أساء إلى عقيدته أيضاً، وهذه لعمري هي الحرية في أبعد أعماقها، والمساواة في أعلى

---

(١) ينظر مقال (تعلم التحرير) في مجلة (رسالة الجهاد) العدد الرابع لعام ١٩٨٢ (طرابلس - ليبيا) ص ٧٤.

(٢) تطلق كلمة (العقيدة) على التصديق الناشىء عن إدراك شعوري أو لا شعوري، يقهر صاحبه على الإذعان لقضية ما. وللعقيدة أثر بارز في حياة الكائن البشري، وفي تكوين شخصيته، لأنها تدفع ذلك الكائن البشري إلى أنواع من السلوك بقوة وعزم وتصميم، نظراً لسلطان العقيدة على الفكر والإرادة.

قيمتها، ومن هنا تنطلق طاقات الإنسان من مكانها تبني الحياة الفاضلة، دون أن يتبذّل الإنسان في مراسم خضوع تمسخ بشريّته وتطمس حريته وتبدّد قواه. . .

وليس من شك أن القوة التي يدين لها المؤمن، فيعتزّ ويسلم لها فيتحرّر، هي أكرم قوة وقدرة يخضع لها الإنسان، فضلاً عن أن تكون أجدر قوّة وقدرة بوجوب الخضوع لها. . .

وتفيض آيات القرآن الكريم في تقرير عقيدة التوحيد (كمحور للنظام العام الإلّهي ـ منسجماً مع حكمة الله ورحمته وعدالته) ودعوة الناس إلى الإيمان بهذه العقيدة، إيماناً يربط بين قناعة الفكر واطمئنان النفس على صعيد التناغم والانسجام المتبادل.

وقد تحدّى القرآن الكريم القائلين بتعدّد الآلهة، وطالبهم بالبرهان على صحة ما يدّعون، وإلا كانوا كاذبين ملفّقين، فقال سبحانه وقوله الحق:

● ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، ولا حرّمنا من شيء، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، إن تتّبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ الأنعام: /١٤٨.

وفي ذات الوقت قدّم القرآن الدليل على وحدانية الله، وتنزّهه عن الشريك فقال:

● ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون. لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله ربّ العرش عما يصفون ﴾ الأنبياء: /٢١ ـ ٢٢.

فإذا سأل سائل: لماذا تفسد السموات والأرض إذا تعدّدت فيهما الآلهة؟ أجاب القرآن الكريم:

● ﴿ ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إلّه، إذاً لذَهبَ كل إلّه بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض، سبحان الله عما يصفون ﴾ المؤمنون: /٩١.

هكذا يرفد القرآن قناعة الفكر واطمئنان النفس بدلائل وجود الله سبحانه وتعالى وآيات (عظمته ـ وتوحيده) في النفس والحياة، والكون والطبيعة، ويتابع

القرآن إلى إرساء هذه المعاني بإيضاح دلائل صفات كماله عزّ وجلّ (علماً، وحكمة، وقدرة، وإرادة، ورحمة) بما يدفع المعتقد (المؤمن) إلى تكييف سلوكه (وتعديل اتجاهه دائماً)، وفقاً لما توحيه هذه العقيدة من الانضباط الواعي، الذي يترجمه (عملياً) الاستقامة على طاعة الله، واتباع رضوانه سبحانه وكما قال تعالى:

● ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ المائدة: /١٥ ـ ١٦.

كما يؤكد القرآن الكريم (معنى هذه الاستقامة ـ وهذا الاتباع لرضوان الله) في مثل قوله تعالى:

● ﴿فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت، ويسلموا تسليماً﴾ النساء: /٦٥.

إيذاناً ـ واضحاً ـ من القرآن الكريم، أن كمال العقيدة والإيمان، إنما يعني (بعد التحكيم ـ لشرع الله) الخضوع التام لحكم الله (على مستوى الانسجام بين قناعة الفكر واطمئنان النفس).

فالمؤمن ـ بعدالة الله ـ على الحقيقة، يحتكم إلى شرع الله ومنهاجه في الحياة، في مواجهة أزماته وحلّ مشكلاته، ولا يستشعر الحرج ـ من حيث النتيجة، رضى بحكم الله سبحانه وتعالى[1].

والعقيدة الإسلامية (أولاً وآخراً) تصديق ويقين بما جاء من عند الله، (من الوحي والخبر الصادق) عن طريق رسوله الأمين، تصديقاً يدفع صاحبه إلى الاستقامة على طاعة الله، وبذل الجهد لإعلاء كلمة الله.

● ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا، وجاهدوا

---

(١) قال رسول الله ﷺ:

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» أخرجه الطبراني، وقال النووي حديث حسن صحيح.

بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾ الحجرات: ١٥/.

وواجبنا الأول والأخير لتغذية عقيدتنا الإسلامية والحفاظ على حيويّتها وفاعليّتها هو ذكر الله تعالى (بسلوكية القرآن ـ ونهج السنة النبوية الشريفة).

نذكر حكمته ورحمته وعدالته، نذكره لنؤكد في نفوسنا معنى التوحيد، لنطلّ على صفات كماله، تسبيحاً بحمده، وتواضعاً لعظمته، وكفّاً لشهواتنا عن محارمه، واستقامة على طاعته، وإخلاصاً في عبوديته. نذكره مستحضرين هذه المعاني كما أمرنا بكتابه الكريم وسنّة نبيّه العظيم.

نذكره الذكر الكثير لنكون معه بكمال طاعته واتباع رضوانه سبحانه وتعالى مقتفين آثار الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين[1]. وكما يحرص كل مؤمن على مناجاة الله سبحانه:

وقيّدت نفسي في رضاك محبّة ومن وجد الإحسان قيداً تقيّداً

وصل حبلي بحبل رضاك وانظر إليّ وتب عليّ عسى أتوب
وألهمني لذكرك طول عمري فإن بذكرك الدنيا تطيب

اللهم يا ربّ ـ إن اختياري ما كان فيه رضاك ـ فأعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ـ إياك نعبد وإياك نستعين.

● ربّنا آتنا من لدنك رحمة وهيّء لنا من أمرنا رشداً.

● ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) لقد نزل القرآن الكريم منجماً (مفرقاً) حسب الحوادث، عبر ثلاث وعشرين سنة، ليمتزج الدين بالواقع، ولينسجم واقع الحياة مع مثلها الأعلى، في قيادة مسيرة الحياة (قيادة علميّة تربوية واعية) نحو التطور والازدهار والتكامل.



المبحث السابع

مختارات من القرآن الكريم والسنّة الشريفة تمثل الخطوط العريضة لعلم العقيدة الإسلامية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ

وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَا إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ
إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ
فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ
ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ
وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ
إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ
رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾

القرآن الكريم
أساس العقيدة الإسلامية

فيما يلي بعض الآيات الكريمة التي تشير بوضوح إلى الخطوط العريضة لعلم العقيدة الإسلامية:

● ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم﴾ البقرة: /١١٥.

● ﴿فاعلم أنه لا إلّه إلاَّ الله...﴾ محمد: /١٩.

● ﴿وما من إلّه إلاَّ إلّه واحد...﴾ المائدة: /٧٣.

● ﴿شهد الله أنه لا إلّه إلاَّ هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إلّه إلاَّ هو العزيز الحكيم﴾ آل عمران: /١٨.

● ﴿إنما إلّهكم الله الذي لا إلّه إلاَّ هو وسع كل شيء علماً﴾ طّه: /٩٨.

● ﴿هو الحيّ لا إلّه إلاَّ هو فاعبدوه مخلصين له الدين﴾ غافر: /٦٥.

● ﴿قل إنما يوحى إليَّ أنما إلّهكم إلّه واحد فهل أنتم مسلمون﴾ الأنبياء: /١٠٨.

● ﴿فإلّهكم إلّه واحد فله أسلموا، وبشِّر المخبتين. الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم...﴾ الحج: /٣٤ ـ ٣٥.

● ﴿واذكر اسم ربك وتبتّل إليه تبتيلاً. رب المشرق والمغرب لا إلّهَ إلاَّ هو فاتخذه وكيلاً﴾ المزمِّل: /٧ ـ ٩.

● ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون. واذكر ربك في نفسك تضرُّعـاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدوّ والآصال ولا تكن من الغافلين﴾ الأعراف: /٢٠٤ ـ ٢٠٥.

● ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً. وسبّحوه بكرة وأصيلاً. هو الذي يصلِّي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ الأحزاب: /٤١ ـ ٤٣.

● ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ الجمعة: /٢.

● ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً. وداعياً إلى الله بإذنه وسـراجـاً منيـراً. وبشـر المؤمنين بـأن لهم من الله فضـلاً كبيـراً. . .﴾ الأحزاب: /٤٥ ـ ٤٧.

● ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون. ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون﴾ الحشر: /١٨ ـ ١٩.

● ﴿. . ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتّقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتّبعون الرسول النبي الأمي، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحلُّ لهم الطيبات ويحرِّم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ الأعراف: /١٥٦ ـ ١٥٧.

● ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم﴾ الحجرات: /١.

● ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم. . .﴾ الأنفال: /٢٤.

● ﴿الـرحمن. عـلّم القـرآن. خـلق الإنسـان. عـلّمـه البيـان﴾ الرحمن: /١ ـ ٤.

● ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ الفرقان: /٦٣.

● ﴿طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلّا تذكرة لمن يخشى. تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى. الرحمن على العرش استوى. له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثّرى. وإن تجهر بالقول فإنّه يعلم السرَّ وأخفى. الله لا إله إلّا هو له الأسماء الحسنى﴾ طه: /١ ـ ٨.

● ﴿أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً، يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربّه، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب. قل يا عبادِ الذين آمنوا اتّقوا ربكم، للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، وأرض الله واسعة، إنّما يُوَفّى الصابرون أجرهم بغير حساب. قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين. وأمرت لأن أكون أول المسلمين. قل إني أخاف إن عصيت ربّي عذاب يوم عظيم. قل الله أعبد مخلصاً له ديني. فاعبدوا ما شئتم من دونه، قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين. لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظُلَل، ذلك يخوّف الله به عباده يا عبادِ فاتقون. والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عبادِ. الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾ الزمر: /٩ ـ ١٨.

● ﴿الأخلّاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلّا المتقين. يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون. الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين. ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون. يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين وأنتم فيها خالدون. وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون. لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون. إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون. لا يُفَتَّرُ عنهم وهم فيه مبلسون. وما ظلمنـاهم ولكن كانـوا هم الظالميـن. ونادوا يا مالك ليقض علينا ربّك قال إنكم ماكثون. لقد جئناكم بالحق، ولكن أكثركم للحق كارهون﴾ الزخـرف: /٦٧ ـ ٧٨.

● ﴿يا أيُّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردُّوه إلى الله والرسولِ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ النساء: /٥٩.

● ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾ الفتح: /١٠.

● ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنيّ لا تشرك بالله إنَّ الشرك لظلم عظيم. ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير. وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما، وصاحبهما في الدنيا معروفاً، واتَّبع سبيل من أناب إليَّ، ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ لقمان: /١٢ ـ ١٥.

● ﴿ولقد وصَّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله...﴾ النساء: /١٣١.

● ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً. فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾ النساء: /١٧٤ ـ ١٧٥.

● ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين. وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. واصبر وما صبرك إلَّا بالله، ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون. إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ النحل: /١٢٥ ـ ١٢٨.

● ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾ فصّلت: /٣٣.

● ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ آل عمران: /١٦٠.

● ﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر. . .﴾ فصّلت: /٣٧.

● ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون. والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾ يّس: /٣٧ ـ ٣٩.

● ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة، من إلّه غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون. قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة، من إلّهٌ غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون. ومن رحمته جَعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ القصص: /٧٠ ـ ٧٣.

في هذه الآيات الكريمة يشير الله سبحانه وتعالى إلى طرف من نظامه العام للخلق والتدبير وهو دوران الأرض (حول نفسها ـ الدورة المحورية)، وأن هذه الدورة آية من آيات الله (المنظم لدوران الأفلاك) ولو أوقف الله هذه الدورة المنتظمة لكان الليل سرمداً ـ أو النهار سرمداً، فنظام الله العام من وجوه رحمته وآيات عظمته سبحانه وتعالى:

● ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها، وأخرجنا منها حبّاً فمنه يأكلون. وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجّرنا فيها من العيون. ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون﴾ يّس: /٣٣ ـ ٣٥.

● ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت، إن الذي أحياها لمحيي الموتى، إنه على كل شيء قدير﴾ فصلت: /٣٩.

● ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تَنتشرون. ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. ومن آياته خَلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين. ومن آياته منامكم بالليل والنهار، وابتغاؤكم من فضله، إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون. ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً، وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ الروم: /٢٠ ـ ٢٤.

في هذه الآيات الكريمة، يرينا الله سبحانه وتعالى، كيف يتلاقى الإيمان مع الحياة والأحياء، على صعيد النظام العام الإلّهي في الخلق والتـدبير. فالإنسان آية من آيات صنع الله، والزوجة (في حياة الأسرة) آية من آيات رحمة الله، واختلاف الألسنة والألوان (في خلق الإنسان) من آيات قدرة الله، فكل فرد له طابعه الخاص (في الطول، واللون، والمزاج ـ ولا يشبه الواحد الآخر، إلاَّ أن يشاء الله)، فكل فرد يتبع نظام الله العام في الخلق والتدبير منذ أن ينفخ فيه الروح في بطن أمه (بإذن الله سبحانه وتعالى). وكذلك أمر (النوم ـ واليقظة) في حياة الكائنات الحيّة؛ آية من آيات الله. فالنظام العـام الإلّهي في الخلق والتدبير، آية من آيات الخالق المدبِّر المنظِّم سبحانه وتعالى:

● ﴿قل إنني هداني ربّي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً، ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ الأنعام: /١٦١ ـ ١٦٣.

● ﴿يٓس. والقرآن الحكيم. إنك لمن المرسلين. على صراط مستقيم. تنزيل العزيز الرحيم﴾ يٓس: /١ ـ ٥.

● ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ المائدة: /١٥ ـ ١٦.

● ﴿وما تكون في شأن، وما تتلوا منه من قرآن، ولا تعملون من عمل، إلاَّ كنّا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه، وما يعزب (أي يغيب) عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاَّ في كتاب مبين. ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا تبديل لكلمات الله، ذلك هو الفوز العظيم﴾ يونس: /٦١ ـ ٦٤.

● ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ النحل: /١١٢.

● ﴿إنه من يأت ربّه مجرماً، فإن له نار جهنم لا يموت فيها ولا يحيى. ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات، فأولئك لهم الدرجات العلى. جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك جزاء من تزكى﴾ طّه: /٧٤ ـ ٧٦.

● ﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيّاً﴾ مريم: /٦٣.

● ﴿وأيوب إذ نادى ربه، أني مسّني الضرّ وأنت أرحم الراحمين. فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضرّ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم، رحمة من عندنا وذكرى للعابدين. وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين. وأدخلناهم في رحمتنا، إنهم من الصالحين. وذا النون إذ ذهب مغاضباً، فظن أن لن نقدر عليه، فنادى في الظلمات أن لا إلّه إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجّيناه من الغمّ وكذلك نُنجي المؤمنين. وزكريا إذ نادى ربه، ربّ لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين. فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه، إنهم كانوا يسارعون في الخيرات، ويدعوننا رغباً ورهباً، وكانوا لنا خاشعين﴾ الأنبياء: /٨٣ ـ ٩٠.

● ﴿قل أفغير الله تأمرونّي أعبد أيها الجاهلون. ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكوننّ من الخاسرين. بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾ الزمر: /٦٤ ـ ٦٦.

● ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها. وأخرجت الأرض أثقالها. وقال الإنسان مالها، يومئذ تحدث أخبارها. بأن ربك أوحى لها. يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم. فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره﴾ الزلزلة (كاملة).

● ﴿آلم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك، وبالآخرة هم يوقنون. أولئكِ على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ البقرة: /١ ـ ٥.

صدق الله العظيم

اللهم ارحمنا بالقرآن، واجعله لنا إماماً ونوراً وهدى ورحمة، اللهم ذكِّرنا منه ما نسينا، وعلمنا منه ما جهلنا وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار. اللهم اجمع قلوبنا على محبتك وألهمنا دوام ذكرك، وخذ بأيدينا إلى كمال رضائك. اللهم حبّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من عبادك الراشدين الذين رضيت عنهم، ورضوا عنك يا أرحم الراحمين ـ آمين.

من معاني العقيدة الإسلامية
في منظار السنّة النبوية الشريفة

● عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال:

«يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلاَّ بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء، لم يضرّوك إلاَّ بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفّت الصحف» رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

وفي رواية غير الترمذي:

● «احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، وأعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً».

هذا الحديث الشريف يجمع لنا معاني الإيمان بعدالة الله، في نظامه العام للخلق والتدبير، مع الثِّقة بوعد الله سبحانه وتعالى والتوكل عليه، وهو يدفع المؤمن إلى مزيد من الثقة بالنفس، إيماناً بعدالة الله المطلقة وحرصاً على التوكل عليه واتباع رضوانه سبحانه وتعالى، وهو من أمهات الأحاديث الشريفة التي تغذي في نفس المؤمن العقيدة والإيمان بعدالة الله، تمهيداً لصياغة سلوكه على أساس العدل ذروة الوعي الأخلاقي.

● عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا تحاسدوا ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يكذبه، ولا يحقره. التقوى ها هنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» رواه الإمام مسلم.

هذا الحديث الشريف يشير إلى الخطوط العريضة لمعاني الأخوة في الله المؤسسة على التقوى وتعظيم أمر الله وفيه إشارة لطيفة إلى الالتزامات (الأخلاقية) المتبادلة بين المتحابين في الله.

● عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد، ما دام العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهّل الله به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلّا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه» رواه الإمام مسلم.

● عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلكم الرّان الذي ذكر الله تعالى: كلّا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون». رواه أحمد والترمذي وابن ماجه.

● عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال:

«إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثمَّ بيّن ذلك، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همّ بها فعملها، كتبها الله عنده عشر حسنات

إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن همّ بسيِّئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همّ بها فعملها، كتبها الله سيئة واحدة» أخرجه البخاري ومسلم.

● عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

«إن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدّثور (أي المال الكثير) بالدرجات العلى والنعيم المقيم. فقال: وما ذاك؟ قالوا: يصلُّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، فقال رسول الله ﷺ: أفلا أعلمكم شيئاً تدركون من سبقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: تسبّحون، وتحمدون، وتكبّرون، دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين) رواه البخاري ومسلم.

في هذا الحديث الشريف تأكيد لطيف من رسول الله ﷺ على أن كثرة الذكر لله سبحانه عنصر سبق وتنافس في طاعة الله تعالى، يؤكد ذلك الحديث الشريف (الذي رواه الإمام مسلم ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه):

● «سبق المفرّدون... قالوا: وما المفرّدون يا رسول الله، قال الذاكرون الله كثيراً والذاكرات».

وفي حديث آخر لرسول الله ﷺ:

● «جدّدوا إيمانكم بـ (لا إلّه إلاّ الله) ـ أي بمزيد من ذكر الله».

وقد سبقت الإشارة إلى أن ذكر الله أفضل الأعمال (في بحث الذكر والذاكرون لله تعالى)، فليرجع الباحث إن أحب إلى الباب التمهيدي من هذا الكتاب، ليرى الحديث بكامله في هذا المعنى (برواية أبي الدرداء رضي الله عنه).

ذلك لأن ذكر الله على الحقيقة (صلة بين الإنسان وخالقه)، وهو أساس التوجيه الإلّهي ومحور العبادات وجوهرها وغايتها (وأقم الصلاة لذكري)، وهو منطلق اليقظة التربوية في الإسلام، بل هو سلاح المعركة في ميدان الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى.

● «عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مثل الجليس الصالح والسوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، أو تبتاع منه، وإما أن تجد معه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة» متفق عليه.

(يحذيك: يمسح بك عطراً).

● عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» رواه الإمام مسلم.

● عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلَّا ظله:

- الإمام العادل.
- وشابّ نشأ في عبادة الله.
- ورجل قلبه معلَّق بالمساجد.
- ورجلان تحابّا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه.
- ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله.
- ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفقه يمينه.
- ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» رواه البخاري ومسلم.

مراجع البحث

- **القرآن الكريم**.
- **المصحف المفسّر**: الأستاذ عبد الجليل عيسى.
- **الحديث الشريف**: صحيح البخاري.
- **أدب الحديث النبوي**: بكري الشيخ أمين.
- **مبادىء الثقافة الإسلامية**: الدكتور محمد فاروق النبهان.
- **من روائع الأدب النبوي**: الدكتور كامل سلامة الدقس.
- **المدخل إلى الثقافة الإسلامية**: الدكتور محمد رشاد سالم (الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية ـ فرع الدراسات الإسلامية).
- **فضل الحضارة الإسلامية على العالم**: الأستاذ زكريا هاشم زكريا.
- **الأصول العامة لوحدة الدين الحق**: الدكتور وهبة الزحيلي.
- **كبرى اليقينيات الكونية**: الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.
- **التفسير الإسلامي للتاريخ**: الدكتور عماد الدين خليل.
- **الإيمان والحياة**: الدكتور يوسف القرضاوي.
- **التربية الروحية بين الصوفيين والسلفيين**: الأستاذ محمد شيخاني.
- **العقائد الإسلامية**: السيد سابق.
- **العقائد الإسلامية والفكر المعاصر**: الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.
- **المذاهب الإسلامية**: الشيخ محمد أبو زهرة.
- **إحياء علوم الدين**: الإمام الغزالي.
- **الملل والنحل**: الشهرستاني.
- **مبادىء العقيدة الإسلامية**: الدكتور مصطفى سعيد الخن.

- **الجامع لأحكام القرآن**: القرطبي.
- **الله والعالم والإنسان**: الدكتور محمد جلال أبو الفتوح شرف.
- **منهاج السنة**: ابن تيمية (الجزء الأول).

الفهـرس

الباب التمهيدي

الباب الأول

الباب الثاني

الباب الثالث

الخاتمة



آثار المؤلف

- أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية
  طبع دار الفكر بدمشق
- عالمية الاسلام وإعداد المواطن الصالح
  طبع دار قتيبة بدمشق
- العقيدة الاسلامية (دراسة وتطبيق)
  طبع باشراف المؤلف مباشرة . ويطلب من دار قتيبة بدمشق
- دراسة في علم العقيدة الاسلامية في ضوء الكتاب والسنة
  طبع باشراف المؤلف مباشرة
  ويطلب من : دار اليمامة بدمشق

عنوان المؤلف : دمشق ـ ص . ب : (٥١٣١)
هاتف : ٧٧٣٧١٩

